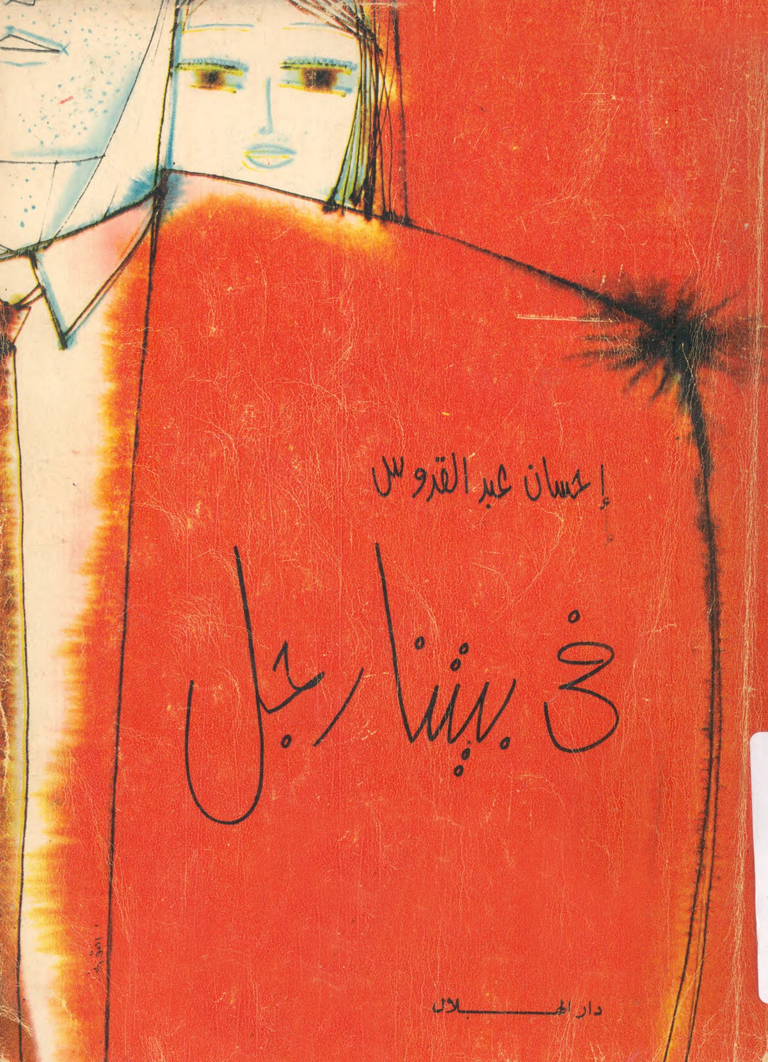
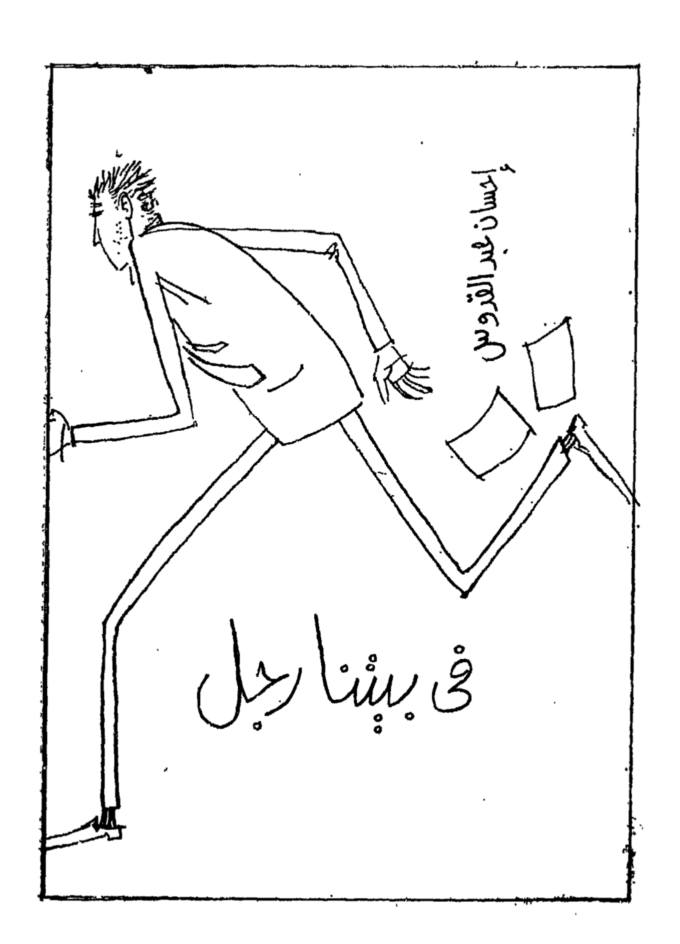
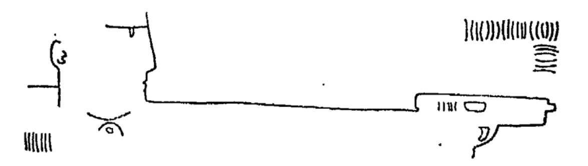


إحسان عبد القدوس
في بيتنا رجل
دار الهلال


إحسان عبد القدوس
في بيتنا رجل



١

أحد أيام شهر رمضـــان .. والساعة الخامسة مساء ، قبــل الافطار بساعة ونصف .. وكان راقدا فى فراشـــه باحدى غرف مستشفى القصر العينى .. غرفة خاصـــة يقف على بابها جنديان من جنود البوليس يحمل كل منهما بندقية ..

واعتدل فوق الفراش ، وبدأ يجمع الصحف اليومية المتناثرة حوله ، ويرتبها الواحدة فوق الاخرى .. وسقطت عيناه للمرة الالف فوق السطور العريضة الحمراء المنشورة فى صدر الصفحة الاولى : « قرار الاتهام فى قضية .... »

ولم يتم قراءة السطر العريض ، انما طوى الجريدة بسرعة كما طوى غيرها .. وقام واقفــا واتجه الى الحنفية المثبتة فى جانب من الغرفة .. وبدأ يغسل وجهه .. وأحنى رأسه وترك الماء ينصب فوقها بقوة كأنما يحاول أن يطفىء نارا تندلع فيها .. ثم عاد وهو يدفن وجهه فى المنشفة كأنه لا يريد أن يرى هــذه النار .. لا يريد أن يرى شيئا ..

وبدأ يبــدل ثيــابه .. خلع « البيــجاما » وارتدى القميص والبنطلون .. ثم جلس فوق الفراش وأخذ يلبس حذاءه .. ثم دس يده تحت « مرتبة » السرير وتسلل بأصــابعه داخل شق صغير فيها وأخذ يتحسس قطع القطن المندوف حتى اصطدمت أصابعه بشىء صلب صغير ، جذبه اليه . ووضعه فى كفه وأخذ ينظر اليه برهة فى حنو تشــوبه ســخرية كأنه ينظر الى طفــل صغير .. انه مسدس « براوننج » .. وقد أصبح يسخر من المسدسات الصغيرة .. انه لا يحس بها فى يده .. يخيل اليه

انها أقرب الى لعب الاطفال .. أن أول مسدس حمله فى يده كان مثل هذا المسدس .. صغيرا ضعيفا .. وقد كان أيامها صبيا .. كان لا يتجاوز السابعة عشرة من عمره .. وقد كبر بعد ذلك .. اصبح رجلا .. وكبر معه المسدس .. أصبح مسدسا كبيرا .. « برتا » .. ولكنه مضطر اليوم أن يعود الى المسدس الصغير .. واحس انه يعود صبيا ! !

ودس المسدس فى جيب البنطلون كأنه يخفى ذكرى عزيزة .. وقام يسير فى غرفته جيئة وذهابا .. ثم ألقى بنفسه فوق المقعد الوحيد .. ونظر الى ساعته وتنهد .. وكأنه خشى أن يتنهد مرة ثانية . فجذب احدى المجلات من جانبه وأخذ يقرأ فيها أخبار نجوم السينما ..

أن مصر لا تزال تهتم بأخبار نجوم السينما .. كل هذا يحدث له ، وفاتن حمامة لا تزال تظهر على الشاشة ، وعماد حمدى يبدو فى صورته مبتسما سعيدا كأنه لا يدرى .. كأن مصر كلها لا تدرى ان أحد أبنائها سيموت فى سبيلها .. سيعدم .. سيشنق ..

والقى بالمجلة على الارض فى عصبية وتمتم بينه وبين نفسه :

— لن أموت .. لن أمكنهم منى ! !

ولم يبد شىء من ثورته على وجهه .. ان لم تنظر الى عينيه فلن تعرف شيئا مما فى نفسه ، بل ربما اعتقدت انه سعيد .. سعيد جدا لان فاتن تمثل فيلما جديدا ، وعماد حمدى يبتسم فى صورته ..

وكانت هذه طبيعته .. أن لايبدو شىء من أحاسيسه الا فى عينيه ، ويبقى باقى وجهه خاليا الا من تعبير واحد لا يتغير .. تعبير مريح هادىء يجذبك اليه ، ويسلب منك قلبك وعقلك .. فتحبه وتثق به ، دون أن يخطر ببالك ان صاحب هذا الوجه يمكن أن يكون بطلا ..

وربما هو نفسه لم يتعمد أبدا أن يكون بطلا .. ولم يتصور أبدا أن صورته ستحتل يوما الصفحات الاولى .. وأن الناس كلهم سيتحدثون عنه ، وأن الدولة كلها ستقصر اهتمامها عليه .. لم يحس أبدا بدوافع البطولة .. بل لم يعتقد فى نفسه انه أجرأ من غيره من الشباب ، ولا أكثر منهم تطرفا فى وطنيته .. كانت تصرفاته كلها تبدو طبيعية بالنسبة له .. لم يكن يحس فيها

بشيء من التفوق ، ولا بشيء من الشذوذ بل انه كان يحس بمواطن ضعفه أكثر مما يحس بمواطن قوته .. كان يحس مثلا انه لا يستطيع أن يواجه الجماهير ويخطب فيهم .. وكان هذا الاحساس يصاحبه منذ بدأ يشترك فى الثورات الوطنية التى يقوم بها زملاؤه طلبة المدارس الثانوية .. فكان لا يتقدم الصفوف .. ولا يهتف .. ولا يلقى خطبا حماسية .. بل كان يتولى الجانب العملى فى الثورة .. ويتولاه صامتا بلا ضجة ولا صراخ ..

كان اذا حاصر البوليس مدرسته تولى هو تركيب خراطيم الحريق ليسلط ماءها على رجال البوليس .. ثم يتولى جمع الزجاجات وملأها بالرمل ، ويفرقها على الطلبة كسلاح يقابلون به الرصاص الذى ينصب عليهم .. ثم كان يبتكر أسلحة صغيرة ينبهر لها زملاؤه الطلبة .. زجاجات مولوتوف .. وكرات من القماش مغموسة فى الجاز يشعلها ويلقى بها على سيارات البوليس .. والطاسات التى يقدم فيها طعام المدرسة يقلبها الى خوذات يضعها الطلبة فوق رؤوسهم ليحموها من عصى الجنود.. وشيئا فشيئا بدأ الطلبة يلتفون حوله ويثقون به وينتظرون منه دائما أن يفعل شيئا ، ولكنهم ظلوا يعتبرونه زعيما صامتا .. لا يتقدم الصفوف ، ولا يهتف ، ولا يخطب فيهم ..

وقد أشاع صمته من حوله جوا مثيرا .. وتناقل الطلبة عنه عدة اشاعات .. ان فى بيته عشرة صناديق مليئة بالديناميت .. وان والده يخفى فى بلده مدفعا رشاشا .. ان أخاه ضابط فى الجيش وهو الذى يضع له خطط الهجوم والدفاع .. انه يشترك فى الاجتماعات السرية التى يعقدها طلبة الجامعة .. و .. و .. ونسجت هذه الاشاعات من حوله صورة مثيرة لبطل مثير ، يبهر زملاءه ..

ولم تكن هذه الاشاعات صحيحة .. كان والده مجرد موظف فى الدرجة الخامسة بوزارة الاشغال .. موظف كبقية الموظفين يتحدث عن الدرجات ، ويحذر ابنه من الاشتغال بالسياسة .. ولم يكن له شقيق ضابط فى الجيش .. ليس له شقيق على الاطلاق .. وليس فى بيته صناديق مليئة بالديناميت ، ولم يشترك أبدا — حتى ذلك الحين — فى اجتماعات سرية يعقدها طلبة الجامعة ..

واكثر من ذلك انه لا يشتغل بالسياسة .. لم يحاول أن يتعب رأســه بمناقشة المسائل السياسية .. لم يختر لنفسه مبدأ سياسيا معينا .. ولم ينضم لحزب من الاحزاب .. كانت وطنيته مجرد احساس عاطفى قوى يدفعه مع المجموع ، وينعكس فى رأسه كخطط لمقاومة رجال البوليس والتفوق عليهم .. هــذه الخطط التى تبهر الطلبة ! ..

كان يكره الانجليز .. يمقتهم .. يحس بجرح فى كبريائه كلما رأى احدا منهم .. لــكنه لم يكن يعى حقيقة الاستعمار ، ولم يكن يعى مدى ما يستنزفه الانجليز من دم بلده ..

وكان يكره الملك ، ويكره الزعماء والوزراء .. وكان يطالب بالغاء معاهدة عام ١٩٣٦ ، وبرفع الاحكام العرفية .. كل ذلك دون فهم عميق للاسباب التى تحرك عواطفه .. مجرد احساس مرهفه بمطالب المجموع .. مطالب الشعب ..

وكان فى السابعة عشرة من عمره ، طالب فى مدرسة السعيدية الثانوية ، عندما حمل اليه أحد زملائه المؤمنين به أول مسدس يقع عليه نظره .. مسدس « براونتج » صغير ، وعلبة رصاص .. ولم ينظر زميله فى عينيه ليرى مدى الدهشة التى انتابته وهو يقلب المسدس فى يده .. بل ربما اعتقد الزميل انه حمل اليه شيئا عاديا لا يليق ببطولته !

واخذ المسدس وذهب به الى بيته .. وأحس أنه قوى .. قوى جدا .. انه يستطيع الآن ، بهــذا الشىء الصــغير ، أن يتخلص من كل أعدائه .. أعداء وطنه ..

ولــكن كيف ؟ !..

ان احساســه بهذه القوة الجديدة التى أصبحت بين يديه ، صحبه احساس آخر .. جديد أيضا .. احساس بالمسئولية .. مسئولية استعمال هــذه القوة .. انه لايستطيع أن يقتل من يشاء لأنه ليس قاتلا ، ولا يريد أن يكون قاتلا .. ورغم ذلك فهو يحس انه يستطيع أن يستعمل هذا الشىء الصغير ليقوم به بدور كبير ..

وحمل المسدس وعلبة الرصاص .. وخرج من بيته فى خطى محترسة كأنه يخشى ان ينطلق المســدس من تلقاء نفسه فى اي وجه عابر يمر به .. وركب الترام الى نهاية شارع الهرم ، ثم سار على قدميه حتى وصل الى مكان قصى من الصحراء المتدة

خلف الاهرام .. وأخرج المسدس وعبأه بالرصاص .. ثم صوبه الى حجر منتصب أمامه .. وارتعشت يده .. وجمد اصبعه فوق الزناد .. سيسمع دويا هائلا يصم أذنيه ويجمع الناس من حوله .. شيء هائل سيحدث لو ضغط على الزناد .. وخاف .. واحتاج الى كل ارادته ليتغلب على الخوف .. ثم أغمض عينيه وضغط على جفنيه بشدة حتى يحكم اغماضهما ، وخيل اليه أنه يضغط أيضا على أذنيه ليسدهما كي لايسمع الصوت الرهيب ..

واستطاع أخيرا أن يحرك اصبعه ويضغط على الزناد .. ولم يحدث شيء .. انطلقت الرصاصة في طرقعة خافتة .. كأنه كسر بندقة بأسنانه ، ومرت في الهواء تئز أزيزا خافتا كأنه أزيز بعوضة .. لا دوي .. ولا شيء رهيب !..

وفتح عينيه وهو لا يصدق نفسه ..

وابتسم ابتسامة واسعة ، كأنه اكتشف عالما جديدا .. ثم أطلق الرصاصة الثانية .. والثالثة .. والرابعة .. والخامسة.. و .. و .. عبأ المسدس من جديد ، وأخذ يطلقه وهو يحاول في هذه المرة أن يصيب الهدف .. يحاول في صبر وحرص ، كأنه اشترى كلبا أصيلا يدربه على طاعته ..

وأحب المسدس ..

كان يضعه تحت رأسه قبل أن ينام ويفتح عليه عينيه أول ما يصحو ، وكان يخفيه في دولاب ملابسه قبل أن يذهب الى المدرسة ثم يفكر فيه طول يومه .. ويتلهف عليه .. ويهيم في خياله كأنه عاشق .. ثم يعود الى البيت آخر النهار مسرع الخطى ، ويدخل غرفته مباشرة ويغلق على نفسه الباب ، ويخرج المسدس من الدولاب ويضمه بأصابعه في شوق وفرحة .. ثم يعبث به كأنه يداعب حبيبته .. ويفك أجزاءه كأنه يخلع عن حبيبته ثيابها !..

وكما يقبل العاشق على قراءة القصص الغرامية ، بدأ يقبل على قراءة القصص البوليسية ، وعلى مشاهدة أفلام رعاة البقر . وكانت عيناه دائما على المسدس وما يستطيع المسدس أن يفعله .

وكان بينه وبين مسدسه موعد عصر كل يوم خميس ، وصباح كل يوم جمعة فيصحبه الى الصحراء الواقعة خلف الاهرام ويطلقه .. وتصل أصوات الطلقات الى أذنيه كأنها طرقعة القبلات. وأجاد اصابة الهدف .. كان يصيبه بمجرد أن يشير

اليه بمسدسه ، وأجاد جميع الحيل التى رآها فى افلام رعاة البقر وقرأ عنها فى القصص البوليسية .. كان يصيب الهدف وهو مغمض العينين ، ويصيبه وهو مدير ظهره اليه ناظرا فى مرآة .. وصغر حجم الهدف .. بعد أن كان حجرا كبيرا ، أصبح قرشا ، ثم أصبح قطعا فضية صغيرة من ذات القرشين .. وفى المرات القليلة التى كان يخطىء فيها اصابة الهدف ، كان ينظر الى المسدس فى لوم وعتاب ويقول له :

ــ كده برضه يا عزيزة !

ثم يبتسم ، وكأن المسدس يرد عليه :

ــ معلهش الدور ده يا ابراهيم !

الى هذا الحد أحب المسدس ... عزيزة !

ولكنه كان يخاف هذا الحب ..

كانت فى صباه رجولة مبكرة تحذره من هذا الحب .. تحذره من هذه القوة الضخمة التى تنطلق فى قلبه كلما ضم المسدس بين أصابعه .. فأخفى هذا الحب ، وكبت هذه القوة .. وحمل مسئولية المسدس بأمانة فلم يبـد به أبدا أمام أحد ، ولم يخرج به فى المظاهرات التى يشترك فيها مع زملائه الطلبة .. كان يخشى أن يفقد أعصابه يوما ، فيطلقه .. بل انه لم يتحدث أبدا عن مسدسه أمام الناس .. كان يحمل حبه فى صمت ، كالعاشق الشريف ..

وظل هكذا .. ليس فى قلبه الا عواطفه الوطنية ، وليس له هواية الا « مسدسه » الى ان انتهى من دراسته الثانوية ، والتحق بكلية الحقوق ، واحتل بين زملائه الجدد نفس المكانة التى كانت له دائما . مكانة الزعيم الصامت الذى لا يفرض زعامته ولكنه يجذبك اليه .. حتى الذين حاولوا الاستهانة به ، ومعظمهم من الطلبة المنضمين الى اللجان الحزبية ، لم يستطيعوا أن يكرهوه فهو لايدع لهم سبيلا الى كراهيته .. انه لا يعارضهم فى آرائهم بل يستمع اليهم كأنه يتلقى منهم درسا ، ولا يشترك فى جدالهم الحزبى لأنه لا ينتمى الى حزب من الاحزاب ، ولا ينافسهم فى مواقفهم ، لأنه لا يتقدم الصفوف ، ولا يقود الهتافات ، ولا يلقى خطبا ، انما يقوم بدوره خلف الصفوف وان امتد أثره الى الصف الاول ..

كل ما كانوا يأخذونه عليه .. انه جاد أكثر من عمره .. انه

لا يتكلم الا اذا كانت هناك حاجة ماسة الى كلامه .. وهو لا يلعب الطاولة فى النادى ، ولا البوكر ، ولا الكونكان .. بل انه لايتقرب الى الطالبات .. ولا يلاحقهن كبقية زملائه ، ويبدو انه يحتقرهن ويتجاهل وجودهن ..

ولم يكن هذا تزمتا منه.. كانت هذه هى طبيعته .. لا يستطيع الكلام الكثير ، ولا يحب أن يلعب الطاولة ، ويكره أن يشاهد زملاءه يلعبونها لأن صوت نقل أحجارها يذكره بصوت طلقات مسدسه الحبيب .. ولا يحب أيضا أن يجلس الى مائدة ليلعب البوكر والكونكان .. أما البنات ، فهو لايكرههن ، ولكن ليس لهن أثر فى حياته .. كانت دنياه خالية دائما منهن .. لم يكن له أخت ، ولم يكن يعتبر أمه امرأة كبقية النساء .. كانت فى نظره انسانا كاملا ليس له مثيل فى الوجود .. انسانا لم يكن أبدا بنتا

لم يكن متزمتا .. ولم يكن يغضبه أن يلعب زملاؤه الطاولة أو الكتشينة أو يلاحقون البنات .. وكثيرا ما كان أصدقاؤه يروون له مغامراتهم الغرامية فيستمع اليها بانتباه شديد .. ولكن هذا الانتباه كان ينصب على تتبع أحوال أصدقائه أكثر مما ينصب على المغامرة نفسها أو على بطلة هذه المغامرة ..

وقد كان يحب أصدقاءه كثيرا .. كما يحب مسدسه .. وكان فى حبه لهم رجولة عارمة وشهامة وافتداء ... لم يكن يبخل بشىء فى سبيل أصدقائه .. لم يكن يبخل حتى بحياته .. ومرة أو مرتين كاد يقتل أثناء المظاهرات ، وهو يحاول أن ينقذ أحد أصدقائه من القتل .. بل كاد يقتل مرة فى سبيل كل الطلبة ، عندما ألقى بنفسه فى النيل أثناء سير المظاهرات ، وتعلق بقارب صغير وجذف حتى وصل الى قاعدة كوبرى عباس ، وصعد اليها ليغلق الكوبرى الذى كان البوليس قد فتحه ليحول دون وصول الطلبة المتظاهرين الى القاهرة .. ولم يستطع أن يغلق الكوبرى ، فقد تصدى له البوليس وانهالوا عليه بالعصى ، فاضطر أن يلقى بنفسه ثانيا فى النيل ويسبح حتى الشاطىء ..

الى هذا الحد كان يحب أصدقاءه وزملاءه .. حبا ليس فيه تكلف ولا ادعاء انما ينبعث من طبيعته .. وربما كان هذا الحب هو سر انجذابهم اليه .. وسر الشعاع المريح الهادىء الذى يحيط بوجهه الاسمر .. سمرة القمح فى موسم الحصاد ! !

ولم يكن ينتظر له أن يكون أكثر من ذلك .. طالب يهب عواطفه

لوطنه وزملائه .. ويحب مسدسه حبا خفيا مكتوما .. هو نفسه لم يكن يعتقد أن دوره فى الحياة ، فى هذه الفترة من شبابه ، سيتعدى هذا الدور الشريف الذى يقوم به ..

الى أن كان يوم ..

وكان خارجا من السينما ، مارا بشارع عدلى .. ولمح أمام احدى الحانات زحاما شديدا .. جنودا انجليز وباعة متجولين مصريين .. وصراخا .. ومعركة ..

واقترب ووقف يتتبع المعركة ، ضمن جمهور المتفرجين .. وبدأ مقته للانجليز يتحرك فى صدره .. واشتد احساسه بالمقت حتى أصبح ثورة .. ثار دمه الحار .. وبدأت أعصابه ترتعش .. وتمنى أن ينتصر الباعة المتجولون على الانجليز .. يجب أن ينتصروا .. ولكن الجنود الانجليز تكاثروا .. ثم لمح واحدا منهم يخرج مطواة ويشهرها فى الهواء ثم يغمدها فى جبهة أحد الباعة .. وسال الدم .. دم مصرى ..

ولم يعد يحتمل .. لم يعد يرى شيئا .. وفى لحظة واحدة قفز وألقى بنفسه فى وجه الانجليز .. قبضاته .. ورأسه .. وكتفاه وساقاه .. كل قطعة منه كانت تنقذف فى وجوه أعدائه من تلقاء نفسها .. ولم يكن يدرى كيف يسدد ضرباته .. كانت تصرفاته أسرع من تفكيره ..

وبدأ يحس بضربات مقابلة تنهال عليه .. كل الضربات تنهال عليه .. انهم يلكمونه .. يصفعونه .. يركلونه ..

ووقع على ركبتيه ..

وفجأة تذكر شيئا .. المسدس .. لو كانت « عزيزة » معه لقتلهم جميعا .. الكلاب .. كانت عزيزة تستطيع أن تصونه من هذه الاهانة .. تحفظ له كرامته .. سأقتلهم .. سأقتلهم جميعا

ورفع رأسه وهو لايزال راكعا على ركبتيه فلمح المطواة فى يد الجندى الانجليزى مشهرة فى الهواء ، ثم لمحها تشق الفضاء كالقذيفة متجهة الى رأسه .. ومال برأسه بسرعة ، وهب على قدميه .. وأخذ يعدو .. بعيدا عن أرض المعركة .. ثم تعلق بسيارة أجرة وطلب الى السائق أن يتجه به الى بيته .. فى المنيرة .. وهو يتعجله .. أسرع .. أرجوك أن تسرع .. والسائق ينظر اليه مبتسما كأنه فيلسوف ، ويتفحص الكدمات التى تبرز

فى خديه ، وفوق عينيه ، ثم يقول وهو يضحك وكأنه يخفف عنه :

ــ تعيش وتأخذ غيرها !!

ولم يرد على السائق .. ظل يردد كالمجنون : أسرع .. أرجوك أن تسرع .. الى أن وصل الى البيت .. وقال للسائق انتظرنى .. وصعد السلم كأنه أسرع من ساقيه .. واقتحم غرفته دون أن يسمع صرخة أمه عندما فتحت له الباب .. وأخرج مسدسه .. وعاد ينزل السلم كأن ساقيه أسرع منه .. وألقى بنفسه فى السيارة التى تنتظره ، وهو يقول من بين أنفاسه المبهورة :

ــ رجعنى شارع عدلى .. قوام وحياة أبوك !!..

وانطلق السائق بسيارته ، ثم التفت الى الوراء ، ونظر الى الراكب .. نظرة الفيلسوف ، وعاد يقول فى ابتسامة حانية :

ــ بس لو كنت تهدى نفسك شويه ياسيدنا الافندى !!

ولم يرد عليه ..

كانت يده تقبض على المسدس وهو فى جيب سترته .. وكأنه وضع فى جيبه ــ مع المسدس ــ كل قلبه ، وكل عقله ، وكل شبابه ..

ووصل الى شارع عدلى .. ولم يجد شيئا .. كانت المعركة قد انفضت ولم يبق منها سوى بقع متناثرة من الدماء فوق الأرض السوداء

وتلفت حوله يبحث عن أى واحد منهم .. عن أى انجليزى .. وكان الطريق خاليا منهم ..

وهدأت رعشته ..

وانفرجت أصابعه عن المسدس المختفى فى جيب سترته .. ثم تذكر شيئا .. تذكر أنه لم يدفع أجر السيارة . والتفت الى السائق ، فاذا به ينظر اليه نفس النظرة .. نظرة الفيلسوف .. وبين شفتيه نفس الابتسامة .. ابتسامة حانية فيها طيبة وفيها يأس !..

وأخذ يدخل كفه فى جيب ، ويخرجها من جيب ، باحثا عن النقود .. فلم يجد .. لم يكن معه سوى خمسة قروش . وكان يعلم أن ليس معه سوى هذه الخمسة قروش ، ولكنه فى خلال ثورته نسى ..

وقال السائق وهو يرى ارتباكه :

ـ معلهش ياسيدنا الافندى .. خللى عنك .. ولا يكون عندك هم .. الجماعه يدفعوا بدالك !

وقال فى دهشة :

ـ الجماعه مين ؟..

قال السائق وهو يضحك :

ـ جونى .. هوه فيه جماعه عندنا غيرهم .. سلامو عليكو !

وانطلقت السيارة .. كأنها تشارك سائقها فى قهقهته ..

وسار على قدميه ، والهواء البارد يضمد جرح وجهه .. سار حتى بيته فى المنيرة .. وكان يفكر .. واكتشف أثناء تفكيره أشياء جديدة .. خطيرة .. اكتشف أن دوره لا يمكن أن يكون مقصورا على تدبير المظاهرات الوطنية والاشتراك فيها ..

لماذا يقذف البوليس بالطوب .. ولماذا يحطم الفوانيس ويحرق عربات الترام ؟ !..

لماذا ؟..

لأنه يؤمن بحق وطنه فى الحرية ..

والدستور ، والغاء المعاهدة ، ورفع الاحكام العرفية .. كل هذه مطالب تهدف الى تحقيق الحرية ..

ومن الذى اغتصب حريته .. حرية وطنه ؟!

ليس البوليس ، ولا شركة النور ، ولا شركة الترام ، ولا زعماء الأحزاب !..

انهم الانجليز !..

اذن لماذا لا يضرب الانجليز مباشرة .. لماذا لا يوجه المعركة ليهم ، بدل أن يوجهها الى البوليس ؟

وكان هذا هو بدء تفتق وعيه السياسى ..

وكان هذا اليوم ، هو اليوم الذى اتجه فيه تفكيره الى تكوين جمعية سرية لاغتيال الجنود الانجليز !

وقضى أياما كثيرة مترددا ..

انه ليس قاتلا .. لا يريد أن يقتل

ولكنه لن يقتل .. انه يحارب .. حربا شريفة .. هم يقابلونه بأساطيلهم ومدافعهم ، وألوف من جنودهم . وهو سيقابلهم وحده ، ومسدسه الصغير !

وقضى ليلة مفتح العينين .. لم يكن يشعر بجراحه ولا

بالكدمات التى تغطى وجهه ، كأنها آثار أقدام ثقيلة داست فوقه .
وانما كان ينظر فى العالم الجديد الذى تفتح أمامه .. عالم ملىء بالجثث والدماء .. الانجليز ودماء الانجليز .. وجثة الانجليزى الذى ضربه على وجهه وشهر المطواة فوق رأسه !

ولم يكن هذا العالم يخيفه أو يزعجه .. كان ينظر اليه فاحصا مدققا وفى عينيه عزم وتصميم ..

وخرج فى اليوم التالى ومسدسه معه .. لم تعد « عزيزة » تفارقه منذ ذلك الحين .. أصبحت دائما فى جيبه ..

وبدأ يدرس خططه .. عرف جميع الطرق المتطرفة التى تؤدى الى معسكرات الانجليز .. العباسية .. المعادى .. الماظة .. طريق الاسكندرية .. وعرف موعد عودة الجنود الى ثكناتهم .. وعرف ان التعليمات تحتم عليهم ألا يخرجوا الى القاهرة فرادى .. دائما فى جماعات .. وعرف الاسلحة التى يحملونها ، عرف كل شىء وتجمعت لديه كل المعلومات التى يحتاج اليها ..

واختار مكان المعركة الأولى .. فى مصر الجديدة ، عند نهاية خط الترام ..

وعندما بدأ يضع خطة التنفيذ ، اكتشف انه لا يستطيع أن يقوم بها وحده .. انه فى حاجة ـ على الأقل ـ الى شريك يملك سيارة ، ليهرب فيها بعد أن يطلق رصاصته ..

وبدأ يبحث عن الشريك الأول .. واختار نفس الصديق الذى أهداه المسدس .. كان أبوه يملك سيارة ، وكان شابا نظيفا صادقا فى عواطفه الوطنية ، وكان سهل الانقياد له .. ولكنه لم يعرض عليه ابتداء فكرة اغتيال الانجليز بل أخذ يتردد عليه كل يوم ويحدثه بأسلوبه الهادىء وكلماته القليلة عن الانجليز .. عن جرائمهم وفظائعهم .. الى أن أوحى اليه بالفكرة فعرضها هو .. عرضها صديقه كأنها من أفكاره وصاح فى حماسة :

ـ لماذا لا نقتلهم !؟

وتعلق ابراهيم بهذه الصيحة ، وبدأ يبحث مع صديقه خطة التنفيذ !..

ومرت أسابيع طويلة قبل أن يحدد اليوم والساعة .. كان يحسب حساب كل شىء بدقة وحرص .. كأنه يخدع الموت !

ووقفت سيارة فى الساعة الثانية عشرة قبل منتصف الليل ، عند نهاية خط ترام الماظة .. كل شىء حولها هادىء ، كأن الليل

أصيب بالهلع فكتم أنفاسه ..

ولم يتكلما .. مضت مدة طويلة دون أن يتكلما .. لقد اتفقا على الخطة .. واتفقا على انه اذا قبض على ابراهيم أو سقط صريعا ، سيفر الآخر بالسيارة وحده ..

وجاء جنديان انجليزيان .. سكارى .. ووضع ابراهيم يده على مقبض باب السيارة .. ونظر الى صديقه نظرة حائرة كأنها نظرة وداع .. وتردد قليلا ، ولكنه وجد صديقه أكثر منه ترددا .. كانت شفتاه ترتعشان ، وكان فى عينيه نظرة اختلط فيها الخوف بالرجاء ، كأنه يتوسل اليه أن يعدل عن التنفيذ ..

واستمد من ضعف صديقه قوة .. شد ظهره ، وزم شفتيه ، ثم ابتسم له ابتسامة صغيرة كأنه يشجعه ويطمئنه ، ثم فتح الباب بسرعة ووقف منتصبا فى الطريق فى وجه الجنديين الانجليزيين ، ويده قابضة على « عزيزة » داخل جيب سترته

ومرة ثانية أحس بالتردد ، وأحس أن تردده قد طال . انه لا يستطيع أن يخرج عزيزة من جيب سترته ، كأنها فتاة تتمنع .. انه لا يستطيع أن يضغط على الزناد .. لا يستطيع أن يقتل ..

وأحس أن قلبه يختنق ، وان ركبتيه لم تعودا تحملانه ، كأنه أصبح معلقا فى الهواء ..

وكاد يعود الى السيارة ويهرب .. يفر ، ويعترف لعزيزه ولصديقه بضعفه ..

ولكن ..

فجأة هجم عليه الجنديان وقبضاتهما موجهة الى صدره ..

وفى لمح البصر خطا خطوة الى الوراء ونزع عزيزة من جيبه .. وأطلقها ..

وصرخت عزيزة صرخة مكتومة .. وازت الرصاصة كأزيز ناموسة .. وسقط جندى انجليزى على الارض قتيلا ..

وكان آخر ما رآه نظرة هلع تملأ وجه الصديق الآخر ..

وقفز الى السيارة ، وقادها صاحبه بجنون كأنه يريد أن يشق الأرض ويختبىء فيها .. وعندما وصلا الى المدينة هدأ من سرعته .. وأصبح يقود السيارة كأنه يتنزه هو وصديقه ، أو كأنهما يبحثان عن فتاة يلاحقانها .. هكذا كانت تقضى الخطة !

ولم يتكلما .. لم يستطع أى منهما أن يتكلم .. حتى عندما

وصلت السيارة الى بيت ابراهيم ونزل منها لم يستطع أن يحيى زميله ، ولم يستطع زميله أن يحييه ..!

وبات مفتح العينين .. وجثة القتيل ماثلة أمامه .. ولكن هذه الجثة لم تكن مدار تفكيره .. لم تكن تثيره .. انما كان يناقش نفسه : هل هو على حق ؟

ودقات الساعة تطرق على رأسه ، كأنها تؤكد له : انه على حق!!

وعندما فتح عينيه فى الصباح .. وأمسك بالجريدة بيد تكاد ترتعش .. لم يجد خبرا عن قتيل الأمس .. لقد منعت الرقابة نشر الخبر حرصا على هدوء الناس .. وكانت هذه هى المرة الأولى

وتوالت بعدها المرات .. وكبرت الجمعية .. أصبح عددها سبعة شبان وكبرت المسدسات .. استطاعوا أن يشتروا مسدسات أكبر .. وأصبح له مسدس كبير .. أكبر من حجم كفه .. « برتا » .. وكان يحس وهو يقبض عليه أنه يخون « عزيزة » .. ولكن ما ذنبه ؟ ان عزيزة لا تريد أن تكبر معه .. تركته يكبر وحده .. انها كالحب الأول يظل دائما فى عمر الصبا

وكان السبعة يذهبون كل أسبوع الى الجبل ويتدربون على اطلاق مسدساتهم ثم يجتمعون لوضع خططهم .. كانوا كلهم يتكلمون كثيرا ، ثم يلتفتون اليه ليقول الكلمة الأخيرة .. لم يكن أكبرهم فلم يكن قد تعدى العشرين من عمره ، وبينهم من وصل الى الثانية والعشرين ، ولم يكن زعيمهم ، فقد اتفق السبعة على أن لا يكون لهم زعيم ، ولكن كانت هذه طبيعته .. أن يقول الكلمة الأخيرة .. ولم يتهوروا .. أو على الاقل لم يدعهم يتهورون .. كان يقول كلمته فى حرص شديد .. وكان يترك فترة طويلة من الزمن بين كل عملية وأخرى .. وفى خلال عامين لم تتم أكثر من ثمانى عمليات .. وتمت كلها بنجاح .. لم يستطع البوليس أن يعثر على أثر يتتبعه . ولم تستطع الاجراءات الكثيرة التى وضعت لحماية الانجليز أن تحول دون العملية التالية .. كان دائما يجد منفذا ، ودائما يجد خطة ..

واجتمعوا ، ووضعوا خطة العملية التاسعة ..

وقبل التنفيذ بيوم واحد الغى العملية ..

ودهش زملاؤه .. ووصلت دهشتهم الى حد الاحتجاج ، ولم يجد عذرا يقوله لهم الا انه غير مطمئن الى الخطة ..

ولم يكن هذا عذره ..

كانت قد مرت به أسابيع وهو يحاسب نفسه ويراجعها ..
ما جدوى هذه العمليات التى يقوم بها ؟

انه لا يستطيع أن يقضي على الجنود الانجليز كلهم .. انهم آلاف .. والاغتيال قد ينقصهم واحدا أو اثنين أو عشرة أو مائة .. ولكنهم لن يخرجوا من مصر ، سيظلون دائما على قلبها !

ثم ان هذه « العمليات » ليس لها صدى بين الناس بعد أن منعت الرقابة نشر أنبائها .. انهم لا يحسون بها .. لا تثيرهم ولا تحمسهم ولا تجمعهم فى عمل واحد .. انها تبدو كأنها هواية شخصية .. وهو لا يهوى القتل .. انه يريد أن يؤدى عملا وطنيا ايجابيا يثير الناس ، وينبههم ، ويكتلهم ، ويفتح أبواب معركة يخوضونها جميعا ..

كيف استطاع الانجليز أن يضغطوا على الناس كل هذا الضغط .. وأن يتمكنوا من قلب مصر الى حد لم يعد يجدى معه قتل أفراد من جنودهم !؟

ليس الجنود الانجليز هم الذين يفرضون الرقابة .. وليسوا هم الذين يتولون الاحكام العرفية .. وليسوا هم الذين يجمعون الوطنيين ويغلقون عليهم أبواب المعتقلات .. انها سياسة متفق عليها .. بل سياسة يفرضونها .. ومن الذين يقومون بتطبيق هذه السياسة .. سياسة حماية الاحتلال البريطانى ؟!

انهم العملاء .. الخونة !.. وبدأ يشعر برعشة !..

انه يعلم الى أين يقوده تفكيره .. ويعلم أنه عندما يتمكن منه هذا التفكير ، فلن يستطيع أن يقاومه ، وسيدفعه الى القتل .. وسيقتل هذه المرة مصريا .. أو مصريين .. وقد حرص منذ وقع فى يده أول مسدس ، الا يصوبه الى صدر مصرى .. لم يخرج به فى مظاهرة من المظاهرات .. تحمل الكثير من عصى رجال البوليس ومطاردتهم ، ولم يفكر مرة واحدة فى استعمال مسدسه .. لم يكن يستطيع أن يرفع مسدسه فى وجه مصرى !

ولكنه لا يفكر الآن فى رجال البوليس

انه يفكر فى فئة أخرى .. فى العملاء .. الخونة .. ان رجال البوليس شرفاء ، انهم أداة لتنفيذ سياسة لا ذنب لهم فيها .. ولكن هؤلاء العملاء .. الخونة .. ان عليهم الذنب كله .. ولو استطاع أن يقضى عليهم ، لما وجد الانجليز من ينفذ سياستهم

ولن يستطيعوا هذه المرة اخفاء الخبر .. ان مقتل عميل كبير

لا يمكن أن يخفى .. وسيثور الشعب فرحا لمصرعه .. وسيخاف بقية العملاء .. و ..

وقضى أسابيع اخرى يتعذب بفكرته ، ومنطقه الجديد يوقظه من نومه ، ويلح على رأسه .. ولكن كيف يتأكد من ان هذا أو ذاك عميل للانجليز ، خائن لمصر ! ..

هناك واحد أجمع الناس كلهم على خيانته .. هو نفسه يتباهى بأنه عميل .. وعقاب الخيانة القتل .. لقد حكم الناس بخيانته ، وبقى أن ينفذ الحكم .. وهو الذى سيتولى التنفيذ .. !

وكعادته بدأ يسوق أفكاره الى زملائه ، ويوجههم اليهـا ، ويدعهم يسبقونه الى ما يريده .. حتى قرروا أن يحولوا نشاطهم الى العملاء .. واقتنعوا أنهم لن يتخلصوا من الانجليز الا اذا تخلصوا من عملائهم أولا ..

ووضعت الخطة .. خطة اغتيال عبد الرحيم باشا شكرى .. رجل الانجليز فى مصر ! ..

وتم كل شيء كما رسمه على الورق ، وكأنه اله صغير يسيطر على القدر ..

وأطلق رصاصته ، التى لا تخيب .. وأطلق بعدها رصاصتين كأنه يطارد بهما الروح الصاعدة فى طريقها الى الجحيم .. وجرى نحو السيارة التى تنتظره .. وكان المفروض أن تتحرك قبل أن يصل اليها ، وأن يتعلق بها ثم تنطلق به .. ولكن السيارة لم تتحرك . شيء أصابها .. وهو يسمع من ورائه صياحا وصراخا وأقداما تهرول .. وصاحبه يضغط على مفتاح السيارة فتزفر أنينا كشهقات الموت دون أن تتحرك ..

واجتاز السيارة وأخذ يعدو بكل ما فى ساقيه من قوة ، وبكل ما فى صدره من انفاس .. كان يعدو بلا تفكير .. لا يدرى الى أين .. ولكنه يعدو .. والصياح والصراخ يعدوان وراءه .. وسمع صفارات رجال البوليس .. وسمع من يهتف : « حرامى .. حرامى » .. والناس تتكاثر وراءه .. كلهم يعدون خلفه .. ولا يدرون لماذا يعدون .. بعضهم يعتقد انه فعلا « حرامى » !

لماذا لا يطلق مسدسه عليهم ..

ان رصاصة واحدة كافية لتشتيتهم . لو سقط منهم قتيل واحد لفر الباقون !!

وقبض على مسدسه .. وأدار رأسه الى الخلف ، وهو لايزال

يعدو .. ولـكنه لا يستطيع .. انه ليس قاتلا ..
ان هؤلاء الناس أبرياء .. انهم ليسوا خونة .. وليسوا عملاء للانجليز .. ولن يقتل منهم أحدا حتى لو قتلوه !
ولكنهم يقتربون .. وأفواج جديدة تنضم اليهم ، وتعـدو معهم ، وقد بدأت أنفاسه تتخلى عنه .. وبدأت ساقاه تتصلبان .. وبدأ يشعر بجفاف حاد فى حلقه كأن فيه سكينا .. ويبست شفتاه كأنهما استحالتا الى قطعتين من خشب
وفجأة توقف عن العدو ..
ولحق به الناس .. وتكاثرت الأيدي فوق كتفيه !!
وملأ صدره بكل ما بقى من أنفاسه ثم استدار لهم .. ورأوا وجهه .. وجها خاليا الا من تعبير واحد لا يتغير .. تعبير مريح هادىء يجذبك اليه ويسلب منك قلبك وعقلك .. والذين لم ينظروا الى عينيه لم يروا مدى ما كان يعانيــه من حيرة وجزع وخوف ..
وتساقطت الأيدى من فوق كتفيه كأن النـاس ندموا لأنهم أمسكوا به .. ولم تبق سوى كف رجل البوليس ممسكة به ..
وساروا به الى حيث سقطت جثة الخائن والناس من حوله .. واوقفوه امامها الى أن يأتى الرؤساء ورجال النيابة
ولم ينظر الى الجثة .. لم يستطع .. انه يستطيع أن يواجه الخونة وهم أحياء ولكنه لا يستطيع أن ينظر الى جثثهم
وسمع واحدا من الناس يهمس وهو ينظر فى وجه الخائن المقتول : يستاهل ! ! ..
وارتفعت الى شفتيه ابتسامة ضعيفة .. كأنه سمع حكمـا ببراءته .. حكما أصدره الناس ..
وبدأ التحقيق فى نفس الليلة .. واستمر شـهورا عديدة ، قبض خلالها على كل أعضاء جمعيته ، ولم يكن هو الذى أرشد اليهم ، ولكنها نمرة السيارة التى ضبطت هى التى دلت عليهم ..
وضجت مصر كلها من حوله .. وأصبح اسمه على كل لسان ، وصورته على الصفحة الأولى من كل جريدة .. وتطوع كثير من المحامين للدفاع عنه . بعضهم جاء عن ايمان بوطنيته ، وبعضهم جاء ليستغل القضية فى نشر اسمه والدعاية لنفسه . وجاءته الخطابات كثيرة فى سجنه .. بنات وشبان يكتبون له ويباركون اليد التى أطلقت الرصاص .. وناس لا يعرفهم يرسلون له فى

السجن هدايا من علب السجائر والفاكهة .. وأمه تبكى ثم تجفف دموعها وترفع رأسها .. وأبوه صامت كأن ابنه قد استشهد ودخل الجنة !.. وعرف من خلال هذه الضجة انه قد أصبح بطلا

لم يحس بالبطولة فى نفسه .. انه لم يتغير ، لا يزال يعتقد أن تصرفاته كانت طبيعية ليس فيها شذوذ .. الناس هم الذين يعتبرونه بطلا ..

ولكن ماذا يجديه أن يعتبره الناس بطلا ؟.. انه سيموت !..

سيعلق فى حبل المشنقة ، ووسام البطولة معلق على صدره ..

وهو لا يريد أن يموت .. لا يريد أن يشنق .. يريد أن يعيش .. انه يحس ان الحياة لا تريد أن تفارقه .. ان دماءه أحر من أن تجف ، وقلبه أقوى من أن يتوقف ..

وبدأ يفكر فى الهرب ..

لم يعد ينام .. ولا يأكل .. ولم يعد يهتم بسير التحقيق معه .. لم يعد فى رأسه ولا فى نهاره وليله سوى فكرة واحدة .. الهرب ..

وتعمد أن يطيل التحقيق .. كان يخرج للمحقق كل يوم باعتراف جديد ، غالبا ما يكون اعترافا كاذبا ، ليتجه بالتحقيق اتجاها جديداً ويكسب وقتا يستزيد فيه من التفكير فى الهرب ..

وقرر انه لن يستطيع الهرب من داخل السجن ..

خير طريق للهرب أن ينقل الى مستشفى القصر العينى ، كما انتقل غيره من المسجونين السياسيين ..

وبدأ يتمارض .. وبحث فى نفسه عن علة قديمة .. وادعى انه يصاب بأزمات فى الكلى ..

ونشرت الصحف أنباء مرضه .. وتتبعها الرأى العام ، وبدأ يتهم الحكومة باساءة معاملته .. وأرسلت له الحكومة طبيب السجن ، وأرسل له أهله طبيبا خاصا .. وقرر الاثنان ضرورة نقله الى مستشفى القصر العينى .. وربما اتخذ الاثنان هذا القرار قبل أن يفحصاه ..

ونقل الى القصر العينى بعد أن انتهى التحقيق وبدأت النيابة تعد تقريرها .. ووضع فى غرفة خاصة .. وعينت له حراسة .. جنديان يقفان على بابه ، وضابط اتخذ له مكتبا فى الغرفة المواجهة لغرفته .. كان ذلك فى أول شهر رمضان ..

ومنذ اليوم الاول بدأ فى تنفيذ خطته ..

بدأ يعود حراسه على أن يروه كل مساء فى الساعة الخامسة مساء وهو يرتدى ثيابه .. القميص والبنطلون والحذاء .. ولا يخلعهما الا قبل أن ينام فى الساعة الحادية عشرة ..

وبدأ يكسب صداقة الضابط ..

كان الضابط شابا لا يقل وطنية عن سجينه وان اختلف فى واجبه .. وكان بحكم مهمته سجينا مع السجين وفى حاجة الى من يتحدث اليه ويقتل معه الوقت .. ووجد فى سجينه انسانا مثقفا ، دمثا ، حلو الحديث ، رزين الفكر ، رغم قلة كلامه ..

ووقع الضابط تحت سيطرة الوجه المريح الهادىء الذى يجذبك اليه ويسلب قلبك وعقلك ..

ثم بدأ يكسب ثقة الجنديين أيضا .. كان يعاملهما فى احترام .. احتراما لهما واحتراما لنفسه .. وكان يغدق عليهما بكل ما يصله .. نقود وطعام وسجاير

وبدأ يخرج من غرفته ويجلس فى غرفة الضابط ..

وبدأ بعد أيام يخرج من غرفته ـ وهو مرتد ثيابه ـ ويذهب ليجلس فى غرفة الأطباء .. ثم يعود من تلقاء نفسه الى سجنه ..

ثم بدأ يغيب عن حجرته طويلا .. ويدع الشك يتسرب الى نفس حارسه ، وقبل أن ينقلب الشك الى يقين يعود الى غرفته ، ويلمح علامات الراحة والاطمئنان على وجه الضابط والجنديين

وكان يطيل مدة غيابه يوما بعد يوم .. ربع ساعة ، ثم نصف ساعة ، ثم ساعة ، ثم ساعتين .. ثم يعود بعدهما الى غرفته ..

وفى خلال هذه الأيام كان أحد محاميه الشبان قد هرب اليه هذا المسدس الصغير الذى أخفاه فى مرتبة سريره ..

الى أن تأكد أن الضابط والجنديين قد اطمأنوا اليه ، وانهم اقتنعوا بأنه لا يفكر فى الهرب .. وزاد فى اطمئنانهم انهم احبوه ..

وحدد يوم التنفيذ .. سيخرج ولن يعود .. ولن يعلن الضابط عن هربه لرؤسائه الا بعد مضى ثلاث ساعات على الأقل ، يكون خلالها قد وصل الى .. الى أين ؟ ! ..

لقد أجهد ذهنه فى تحديد المكان الذى يلجأ اليه عقب هربه مباشرة .. إنه فى حاجة الى قضاء بضعة أيام فى القاهرة الى حين يستطيع أن يتصل بأصدقائه ليدبروا له خطة خروجه من مصر .. أيام قد تمتد الى اسبوع أو أسبوعين ، فأين يقضى هذه

المدة ؟. انه لن يستطيع أن يلجأ الى بيته ، أو الى أحد أصدقائه .. فالبوليس سيبحث عنه هناك ، ولن يستطيع أن يذهب الى أحد الفنادق .. مستحيل ..

ومن خلال تفكيره ، تذكر محيى .. محيى الدين مصطفى احمد زاهر .. كما يصمم على أن يذكر اسمه دائما ..

وابتسم وهو يتذكر محيى .. انه طالب معه فى كلية الحقوق فى السنة الرابعة .. ليس له قيمة بين الطلبة الا انه كان دائما أول دفعته فى ترتيب النجاح .. وفيه كل ما فى أوائل الطلبة .. الانطواء .. والبعد عن الاشتغال بالسياسة .. والايمان بأن المظاهرات مضيعة للوقت .. والخوف الذى يبدو أحيانا عجزا ..

وكان محيى يبدو أكثر عجزا من غيره من أوائل الطلبة ، وخصوصا كلما وقعت عيناه على ابراهيم .. كان ينظر اليه كأنه يقف بين يدى الله .. يرتعش وتقف الكلمات فى حلقه .. كان ينظر اليه كأنه شىء كبير ضخم لا يستطيع أبدا أن يكون مثله

ان محيى خير من يستطيع أن يختبىء عنده .. لن يخطر على بال البوليس أبدا ان مثل هذا الطالب يمكن أن يلجأ اليه قاتل هارب ..!

وابتسم ابراهيم مرة ثانية ، وهو يتخيل محيى عندما يلتقى به .. تخيل وجهه المستدير .. وانفه المستدير .. وفمه المستدير .. وعينيه المستديرتين .. وفوقهما نظارة أمريكانى حلقتاها مستديرتان .. ان كل شىء فيه مستدير حتى جسده القصير لو امتلأ قليلا لأصبح مستديرا ..

ولكن .. هل من العدل أن يفرض نفسه على زميله محيى ؟

انه مضطر .. ولو رفض محيى ايواءه فلن يفرض نفسه عليه .. ولكن محيى لن يرفض .. انه يعرف هذا النوع من الطلبة .. انه نوع عاجز عن تجسيم عواطفه فى عمل ايجابى . قد يحب ولكنه لا يستطيع أن يعبر عن حبه ، أو يقنع به الفتاة التى يحبها .. وقد يكون وطنيا ولكنه لايستطيع أن يطلق وطنيته أو يندفع وراءها .. ان هذا النوع لا يستطيع أن يكون بطلا ، ولكنه لا يرفض أن يساهم فى بطولة ، اذا ما اضطر للمساهمة فيها .. ومحيى انسان يزخر قلبه بالوطنية ، وانكانت وطنية جافة ليس لها صدى فى تصرفاته ..

ولكن ماذا يحدث لو رفض محيى ايواءه .. لو انه كان مخدوعا

فى تقدير وطنيته ، أو لو تدخل أبوه وحال دون دخوله البيت ..
لا شيء .. وهو لن يموت مرتين ! ..

* * *

وسمع نقرا على باب غرفته ، ثم أطل أحد الجنديين برأسه ، وهو يقول .. وابتسامته الواسعة تختفى وراء شاربه كأنها تطل من وراء كومة من القش :

ـ مش لازمك حاجه يا أستاذ ابراهيم ؟

واعتدل ابراهيم فى جلسته قائلا :

ـ كتر خيرك يا باشاويش .. بس خد البطيخة دى تحلو بيها بعد الفطار ..

وأشار ابراهيم الى بطيخة موضوعة فوق الدولاب ..

ودخل الباشاويش الى الغرفة متجها الى البطيخة وهو يقول :

ـ لا والله .. لا يمكن !

وقام ابراهيم من على مقعده ، كأنه يؤدى عملا روتينيا ، واتجه الى الدولاب وحمل البطيخة ، وقال وهو يناولها للباشاويش :

ـ والله انتم أحق بيها منى .. على الأقل انتم صايمين خد ياشيخ ، مافيش تكليف !

وتلقف الجندى البطيخة قائلا :

ـ يا سلام عليك يا سى ابراهيم .. كلك كرم !

وخرج بالبطيخة ، وأغلق الباب وراءه .. وأخذ ابراهيم يروح ويجيء فى الغرفة وهو يشعر بهواء بارد يملأ صدره ..

ان هذا الهواء البارد لم يهب عليه من قبل عندما كان يقدم على مغامراته الوطنية .. انه أيامها لم يكن يهرب ، كان يهجم .. وكان الهجوم يحصر كل عقله وكل احساسه فى الخطة التى يضعها .. لم يكن يشعر بالتردد ولا باحتمال الفشل .. لم يكن يحس بشيء اطلاقا ، كان ينقلب الى آلة دقيقة تدور حسب خطة وضعت لها . ولكنه الآن .. وهو يهرب .. يحس بالهواء البارد ، ويخاف احتمال الفشل ..

ان الهروب أقسى وأشق من الهجوم .. شيء لم يكن يعلمه ..

وتنبه على طلقة مدفع الافطار ..

وانتظر حتى انتهى المؤذن من آذان المغرب .. ثم فتح باب غرفته ، والتقى بالجنديين وقد جلس كل منهما على مقعد وركن بندقيته على الحائط ، وتوسطهما مقعد ثالث وضعا عليه طعام

افطارهما ، وصاح أحد الجنديين بمجرد أن رآه :
ــ اتفضل ياسى ابراهيم بيه !
وقال ابراهيم ، وهو يضغط على كلماته كأنه يخشى أن تفر منه وتكشف عن نياته : عشت .. أما أروح أدور على واحد من الدكاترة يكون فاطر زيى ! ! ..
ثم اتجه الى الغرفة التى يجلس فيها الضابط وكان هو الآخر يتناول افطاره ، وصاح فى لهجة حلوة بريئة ، فيها من الحلاوة والبراءة أكثر من اللازم .. صاح وهو واقف على بابها :
ــ بالهنا والشفا !
وصاح الضابط : تعال يا ابراهيم .. تعال اقعد معايا !
ووضع ابراهيم ضحكة بين شفتيه وقال :
ــ لا .. أنا ما اقعدش مع صايمين زى حضرتك !!
وانحرف عن باب الغرفة ، وسار فى الممر الطويل . كان يسير فى بطء .. ولكنه كان لا يريد أن يكون بطيئا أكثر مما تعود فى مشيته ولا أن يكون سريعا أكثر مما تعود . فجاءت خطواته بعضها بطىء وبعضها سريع ..
وانتهى من الممر الطويل .. وقبل أن يصل الى السلم .. فتح باب غرفة لم يكن فيها أحد ، ونزع من فوق المشجب معطفا أبيض مما يرتديه الأطباء .. وخرج وأغلق الباب وراءه ثم نزل السلم ، وقبل أن يصل الى نهايته ارتدى المعطف .. وسار فى ممر طويل آخر . لم يكن هناك أحد ، كلهم مشغولون فى تناول طعام الافطار
وقبل أن يصل الى الباب المؤدى الى الفناء .. لمح طبيبا واقفا .. طبيبا لا يعرفه .. وتردد .. فكر فى أن يخلع المعطف .. ويعود الى غرفته .. واستدار اليه الطبيب قبل أن يخلع المعطف .. ونظر فى وجهه .. وخيل اليه انه عرفه .. ولكن الطبيب عاد واستدار الى الناحية الأخرى ، وهو يبتسم ابتسامة تبدو فى عينيه ولا تبدو على شفتيه ..
وعدل ابراهيم عن خلع معطفه .. وتقدم ، وحاذى الطبيب .. ثم جاوره .. واعتقد انه سيسمع صيحة .. صيحة الطبيب وهو ينبه الى هربه .. ولكنه لم يسمع شيئا .. واستمر فى طريقه ..
سار فى الفناء الخارجى .. وجاوره دون أن يحدث شىء .. وعندما وصل الى الشارع خلع المعطف .. وسار فى نفس خطواته التى تسرع حينا وتبطىء حينا .. الى أن وصل الى موقف

سيارات الاجرة ، وألقى نفسه فى احـداها ، وقال للسائق فى صوت تعمد أن يكون هادئا :

ـ ميدان سليمان باشا يا اوسطى ! !

ونظر اليه السائق ، ولم يعرفه ..

لم يكن متنكرا .. ولم يكن يخفى وجهه .. كان يعتمد على ان أحدا لا يعلم بهربه ولا ينتظر أن يلتقى به هاربا ، وكان يؤمن بالنظرية التى تقول « ان خير طريقة للتنكر ، هى ألا تتنكر » .. لو أنه وضع على عينيه نظارة سوداء وأطلق شـاربه ، مثلا .. لأصبح منظره مريبا ، ودقق فيه الناس ، وربما عرفوه ..

ونزل من السيارة فى ميدان سليمان باشا .. ثم انتظر قليلا حتى ابتعدت عنه السيارة التى نزل منها ، وسـار على قدميه حتى شارع معروف ، وهناك ركب سيارة أخرى ، وقال للسائق :

ـ الجيزة يا أسطى ..

ونظر اليه السائق .. ولم يعرفه أيضا ..

وقبل أن يصل الى ميدان الجيزة ، أوقف السائق عند باب احدى العمارات .. ونقده أجره ، وسار أمام السائق ودخل من باب العمارة .. عمارة لم يجد لها بوابا .. ثم انتظر قليلا وخرج من العمارة ، وسار على قدميه ، حتى وصل الى شارع همذان ووقف أمام بيت من ثلاثة أدوار .. انه يعرف البيت .. لقـد جاء الى محيى مرة فى العام الماضى ليقترض منه مذكراته .. وصعد السلم فى خطى تكاد تكون ثابتة ، وضغط على جرس الباب وجذب من صدره نفسا طويلا واستعاد فى رأسه الكلمات التى أعدها ليقولها لمحيى عندما يفتح له الباب ..

وفتح الباب .. وبرزت منه فتاة ..

ووقفت الكلمات فوق شفتيه قبل أن ينطق بها .. واتسعت عيناه كأنه مشدوه .. وظل يبحلق فيها صامتا كأنه أخرس ..

ولم يكن يرى فيها شيئا .. لم ير الا انها فتاة ..

لم ير شعرها الاسـود الناعم الذى يتـدلى خلف ظهرها فى ضفيرة كأنها جدلتها من أطياف الليل ..

ولم ير شفتيها البريئتين .. لم تدنسهما أصباغ ولا قبل ، بل خافت عليهما ابتسامتها فتعلقت بينهما دون أن تمسهما ..

ولم ير عينيها .. سود ، فيهما وحشة ، وفيهما سر ، وفيهما رهبة وفيهما ذكاء ونشاط وفرحة .. وهناك فى أعماقهما تزد

يدلك الى الطريق ..

ولم ير وجنتيها .. مكتنزتان ، مشدودتان ، مصهورتان ، كأنها ورثتهما عن جدود من الهنود الحمر ، تتراقص فوقهما غمازتان كأنما تزغردان فى فرح لا ينتهى .. ولم ير قوامها .. قوام السادسة عشرة وكأن ستة عشر فنانا اشتركوا فى رسمه ..

لم ير شيئا منها .. كل ما رآه انها فتاة .. بنت .. وقد حسب حساب كل شىء فى خطته الا البنات .. لقد عاش طول حياته وهو لا يحسب حساب البنات !

وسمع صوتها رقيقا ناعما كأنها توقظه برفق من ذهوله :

ـ مين يا افندم ! !

ونظر اليها ، ثم عاد وخفض عينيه سريعا ، وقال فى صوت أجش : محيى موجود من فضلك ؟

وعادت تسأله .. برفق .. وهى تدقق فى وجهه هذه المرة :

ـ نقول له مين ؟

وكان ينوى أن يقول لها اسما غير اسمه .. اسما مستعارا .. فهكذا كانت تقتضى خطته فى حالة التقائه بغريب ، ولكنه وجد نفسه يرفع رأسه اليها وفى عينيه نظرة يائسة ، ويقول كأنه يزفر اسمه من أعماقه : ابراهيم .. ابراهيم حمدى !

واهتزت رموش الفتاة فوق عينيها ، واطبقت شفتيها وكأنها تبتلع صرختها وابتعدت عن الباب قليلا .. ثم قالت كأنها تكاد تبكى فزعا : دقيقة واحدة .. أما أشوفه !

وقبل أن تغلق الباب .. تنبه الى نفسه .. ووضع قدمه بين ضلفتى الباب ، وقال وهو ينظر اليها فى قوة كأنه يطالب بحق له : أقدر أستنى جوه .. لو سمحتى ؟

وتراجعت أمامه ..

ودخل وأغلق الباب وراءه .. ووقف فى « الصالة الصغيرة » ينظر اليها نفس النظرة القوية .. لم تكن نظرة قوية فحسب .. كان فيها تحد .. وتعلقت بنظراته كأنها فراشة لا تستطيع أن تبتعد عن النار .. ثم نزعت نفسها من بين عينيه ، واختفت داخل الشقة .. وأراح عينيه من نظرته القوية المتحدية .. وبدا كأنه مهموم يائس .. كأنه يشعر بالفشل ..

وهز رأسه كأنه يقول لنفسه : لماذا يلد الناس بنات !



٢

كانت العائلة مجتمعة كعادتها عقب الافطار ، فى حجرة «القعاد» والراديو يلقى اليهم أغانيه ..

كان الاب فى جلبابه الابيض الفضفاض ، وفوق رأسه الطاقية الخفيفة التى لا يخلعها الا ليضع مكانها الطربوش .. وقد جلس على الاريكة « الاستامبوللى » ووضع ساقه تحته واتكأ على احد مرفقيه ، وبين يديه جريدة « الاهرام » يطل فيها من وراء نظارته الذهبية ، ويعيد قراءة مقال سبق أن قرأه عقب عودته من الديوان ، وأمامه مائدة صغيرة عليها كوب شاى فارغ ، بقى فى قعره بعض التفل الاسود ..

وكانت الام الطيبة مكتنزة ، وبين شفتيها ابتسامة هادئة كأنها قطعة من فمها .. جالسة على الطرف الآخر من الاريكة وبجانبها « علبة الخياطة » وبين يديها مجموعة من الجوارب ترتق فيها ..

وكانت سامية جالسة على مقعد خيزران ، وأصابعها تتحرك بسرعة بين خيوط التريكو .. ليست جميلة كأختها الصغرى .. أو على الاقل ، لا تستطيع أن تلمح جمالها من النظرة الاولى .. انه نوع من الجمال يكشف لك عن نفسه كلما نظرت له أكثر ..

وكان محيى جالسا على مقعد « اسيوطى » كبير ، حتى ليتسع لشخص آخر بجانبه .. وكان يقرأ فى كتاب ، ويرفع اصبعه بين الحين والحين ويضغط على قنطرة نظارته الامريكانى ، دون أن يكون فى حاجة الى الضغط عليها .. مجرد حركة تعودها ..

وكانوا كلهم صامتين .. صمتا هادئا مريحا ، كل منهم متفان فى هضم طعام افطاره بعد صيام يوم طويل .. وكأن معداتهم

تبتسم وهى تقوم بعملية الهضم وترسل ابتسامتها الى شفاههم ليحمدوا بها الله ..

وعندما سمعوا صوت جرس الباب ، لم يتحرك واحد منهم ولم يخرج عن صمته .. لم يرفع الاب عينيه عن الجريدة ، ولم ترفع الام رأسها عن الجوارب التى ترتقها ، ولم تتوقف أصابع الابنة الكبرى بين خيوط التريكو ، ولم يقطع الابن قراءته فى الكتاب . فقط تحركت نوال وألقت المجلة التى كانت فى يدها وقامت .. فهى تعلم انها المكلفة بفتح الباب اذا دق الجرس ، باعتبارها صغرى البنتين ، ولأن الخادمة لا تزال مشغولة فى المطبخ بغسل الصحون ..

ولم يكن واحد من أفراد العائلة السعيدة ، ينتظر شيئا من وراء جرس الباب . غاية ما كانوا ينتظرونه أن يكون الطارق هو الكواء ، أو يكون البواب يعيد الاطباق التى أرسلوا له فيها طعام افطاره كعادتهم فى أيام رمضان ..

وعادت اليهم نوال بعد أن فتحت الباب وأجابت الطارق ..

ولم يتحرك أحد أيضا .. لم يرفع واحد منهم عينيه اليها .. انما مالوا اليها بآذانهم منتظرين أن يسمعوا صوتها وهى تحادث أمها وتبلغها عمن طرق الباب .. ولكنهم لم يسمعوا شيئا !

أحسوا بها واقفة بينهم ، لا تتكلم . ورفعوا رؤوسهم اليها فى حركة واحدة كأن خيطا واحدا قد شدها .. ونظروا بعيون متسائلة ، تساؤلا طبيعيا هادئا ، كأن كل ما حدث هو أنها نسيت أن تتكلم .. ولكنهم رأوا وجهها ممتقعا وشفتيها ترتعشان .. وانقلب التساؤل فى عيونهم الى جزع ولهفة ..

وقال الاب فى صوت غليظ كأنه يؤنبها : مين ؟ ! ..

وأدارت عينيها بينهم ، ثم ركزتهما فوق شقيقها محيى ، وقد ازدادت شفتاها ارتعاشا كأنها فقدت لسانها ..

وعادت الأم تقول فى صوت حنون كأنها تتوسل :

ـ مين يا نوال اللى ضرب الجرس !

وقالت وهى ترفع عينيها عن أخيها وتهيم بهما فى الفضاء :

ـ ابراهيم ...

وارتفع صوت الاب .. وقال فى حدة :

ـ ما تتكلمى كويس .. جرالك ايه .. ابراهيم مين ؟ !

وأدارت عينيها الى أبيها وقالت فى صوت ضعيف كأنها تشفق

عليه : ابراهيم حمدى ..!
وقفز محيى الى مقدمة المقعـد الكبير الذى يجلس عليـه ، وصاح : بتقولى ايه ؟ !.. ابراهيم حمدى ؟ !..
وعاد الأب يصرخ : ابراهيم حمدى مين .. ؟ !
وقالت وهى تتنهد كأنها تلقى اليهم بكل ما فى صدرها :
ـ ابراهيم حمدى اللى قتل عبد الرحيم باشا شكرى ! !
وتوقفت أصابع سامية بين خيوط التريكو .. والقت يديها فى حجرها ، واتسعت عيناها وقد ملأتهما نظرات فزعة ..
وارتفع صوت محيى رفيعا حادا : مش معقول.. ده فى السجن!
وقال الاب وهو ينزل ساقه التى كان يضعها تحته ويعتدل فى جلسته ويثبت نظارته فوق عينيه :
ـ ما يمكن ابراهيم حمدى تانى .. ايه عرفك !؟
وقالت فى صوتها المتنهد : أنا عارفاه من صورته ..
ونظرت الام الى زوجها كأنها تستغيث به ، وقالت وهى تضع يدها على صدرها كأنها تمنع قلبها من أن يشقه :
ـ وده عايز مننا ايه الجدع ده ؟ !
وأجابتها نوال : بيسأل على محيى ! ! ..
ووقف محيى ، وقال مرتبكا حائرا وهو يتلفت حوله يبحث عن مكان يهرب منه :
ـ عايز منى ايه.. مش معقول.. ده عمره ما عاز منى حاجة !
ونظر اليه والده بعينين واسعتين كأنه يتهمه ، ثم عاد وأرخى عينيه عنه .. واطرق مفكرا ..
وساد الصمت .. كلهم ينظرون الى الاب منتظرين كلمته ..
وتكلم بعد فترة .. تكلم فى صوت هادىء كأنه يعرف ما يقول :
ـ أظن تروح تشوفه عايز ايه يا محيى ! !
وعاد محيى يتلفت حوله وينظر فى وجوه أفراد عائلته واحدا بعد واحد ، كأنه يسألهم رأيهم .. ثم تحرك من وقفته ، وقبل أن يخرج من الغرفة ، قالت نوال وهى تلمس كتفه بأطراف أصابعها : آجى معاك يا محيى ؟ ..
وقال الأب فى حزم : لا .. خليكى انت هنا ..
وخرج محيى وكلهم يتبعونه بعيون مشفقة كأنهم يودعونه الى ميدان القتال ، أو كأن أباه القى عليه عبئا لا يحتمله ، وسار وهو يشد قامته القصيرة ، ويحاول أن يتزن فى خطواته ، ويضغط

على أعصابه ليبدو هادئا ، ويبذل فى ذلك مجهودا نفسيا كبيرا حتى يخنق دماءه فى عروقه فيزدرد وجهه ويبدو كقطعة النحاس المحمى ..

* * *

ووجد ابراهيم واقفا فى الصالة .. انه كما تعود أن يراه فى الكلية .. الوجه الهادىء المريح الذى يجذبك اليه ويسلب منك قلبك وعقلك .. وكان يبتسم .. وكان فى ابتسامته اضطراب ..

ومد ابراهيم يده فى لهفة كأنه يمدها الى منقذه ..

ومد محيى يدا قصيرة مترددة وهو لا يتكلم .. فالتقط ابراهيم يده كأنه يجذبها منه ، وقال فى صوت خافت لايخلو من حشرجة ، وكأنه يهمس : أنا آسف يا محيى .. أنا عارف انى أزعجتكم .. كل اللى أرجوه انك تسمح لى .. وبعدين تقرر اللى تشوفه ..

وابتلع محيى ريقه كأنه يسترد روحه ، وأخذ ينظر الى ابراهيم كأنه ينظر الى وهم أو الى مارد انشقت عنه الارض .. ثم قال وقد بدأت صدمة المفاجأة تخف عنه : اتفضل ...

وأشار الى مقعد من القش موضوع فى الصالة ..

وجلس ابراهيم ، وهو يقول :

ـ أنا أكرر أسفى .. تأكد انى مش حاضايقك ..

وجلس محيى على مقعد آخر .. وقال كأنه يبحث عن أى شىء بقوله : انت فطرت يا أستاذ ابراهيم ؟ !

وابتسم ابراهيم ، ابتسامة مجاملة .. وقال وكان السؤال قد قطع عليه حبل أفكاره : أنا فاطر ..

ثم اعتدل فى جلسته ومال بوجهه ناحية محيى وقال فى لهجة خطيرة :

ـ اسمع يا محيى .. أنا هربت من مدة ثلاث أرباع ساعة بس .. والبوليس حيبتدى يدور على بعد ساعة على الاقل .. مش ممكن قبل كده .. أنا عامل حسابى كويس .. وجيتلك علشان استخبى عندك .. واخترتك انت بالذات لأنى عارف ان مالكش دعوة بالمسائل السياسية ، وما حدش يخطر على باله انه يدور على عندك .. وانا مش محتاج أقعد هنا كتير .. غايته أربع أو خمس أيام لغاية ما اعرف اتصل بناس معينين وانفذ بقية خطتى .. واللى عايز أعرفه حالا دلوقت .. تقبل تخبينى عندك ولا لأ ؟ ..

وكان محيى يستمع اليه بأنفاس مبهورة كأنه يستمع الى قصة خرافية مثيرة ، وهو يرفع اصبعه بين الحين والحين ويضغط على قنطرة نظارته .. وعنـــدما سكت ابراهيم .. لم يرد عليه محيى .. انما أبعد عينيه عنه وظل صامتا فترة ..

وعاد ابراهيم يسأل فى الحاح : ايه رايك ؟ !

ورفع محيى اصبعه وضغط على قنطرة نظارته مرة أخرى ، وقال فى صوت عميق كأنه كبر عشرة اعوام :

ــ والله ما اقدرش أقول لك يا أستاذ ابراهيم .. انت عارف انى مؤمن بيك .. كل الناس مؤمنة بيك وبوطنيتك .. كل واحد كان يتمنى انه يقوم بالعمل اللى قمت بيه ، لو يقدر عليه .. لكن أنا مش لوحدى فى البيت .. أنا قاعد مع عيلتى زى ما انت عارف .. ولازم أسأل والدى قبل ما أقولك رأيى ..

وقال ابراهيم كأنه يتعجله :

ــ اسأله .. ولو مارضيش ، تأكد انى حاسيب البيت حالا !

وقام محيى واقفا ، وهو يقول : تسمح .. دقيقة واحدة !..

وقال ابراهيم كأنه يستوقفه :

ــ انتم عندكم تليفون هنا ؟ !

وأجاب محيى فى دهشة : لا ....

وعاد ابراهيم يقول فى لهجة حازمة لا تخلو من قوة :

ــ أنا واثق منك يا محيى .. انما انت عارف انى فى ظروف حرجة .. ممكن أطلب منك ان ماحدش ينزل من البيت طول ما أنا هنا !! ..

وقال محيى كأنه يلومه : حاضر ..

وعاد ابراهيم يقول قبل ان يستدير له محيى :

ــ وعلشان ابقى صريح معاك .. احب اقول لك انى معايا مسدس ! ..

ونظر اليه محيى برهة كأنه لا يفهم ما يعنيه ، ثم قال وكأنه يتكلم بلا وعى : تحب اعملك قهوة ؟ ! ..

وقال ابراهيم كأنه يعتذر له : لو سمحت .. متشكر ..

واستدار محيى واتجه الى داخل الشقة ، وهو يسير دون ان يرى شيئا .. لايرى الجدران ولا المقـاعد .. كل ما يراه هو صورة ابراهيم مجسمة فى راسه ..

وكانت العائلة لا تزال مجتمعة فى غرفة « القعاد » على الصمت كأنها أصيبت بنكبة أذهلتها .. لم يتكلم أحد منها ، ولم ينظر أحد منها الى الآخر ، ولم يرتفع بينها الا همهمات الام وهى تقرأ لنفسها آية الكرسى ..

واستقبلوا محيى بعيون ملهوفة جاحظة تكاد تشد لسانه من فمه ، وبدا على الام بعض الارتياح لمجرد أن ابنها قد عاد اليها .. وتنحنح الاب فى عصبية كأنه يعد نفسه لأمر .. وجذبت نوال ضفيرتها الى صدرها وأخذت تعبث بها كأنها تربت على قلبها حتى لايبكي ولا يصرخ .. وظلت سامية معلقة العينين فى الفضاء .. واجمة .. كأن يدا سحرية مستها وأحالتها الى تمثال من الشمع

واتجه محيى بعينيه الى والده دون أن يلتفت الى أحد غيره ، وأطرق برأسه برهة ، ثم رفعها وقال ، وهو يحاول أن يسيطر على لسانه حتى لا يخونه عن الكلام :

ــ هوه .. ابراهيم حمدى ..

وصمت قليلا .. فاستعجله الأب : وعايز ايه ؟

وقال فى بطء كأنه يعد كلماته :

ــ هرب من السجن ، وجاى يستخبى عندنا ..

وزاد اتساع عيون أفراد العائلة ، وصاحت نوال تقاطعه كأنها تتلهف الى سماع قصة من قصص البطولة :

ــ هرب ؟ هرب ازاى ! !

ونظر اليها والدها نظرة أسكتتها .. فمالت فى مقعدها كأنها تختبىء من هذه النظرة .. وقال الاب فى هدوء مفتعل :

ــ واشمعنى اختارنا احنا ؟

وقال محيى وهو يتنهد كأنه يتحسر :

ــ لأنى بعيد عن السياسة ، والبوليس مش ممكن يخطر على باله انه يدور عليه عندنا ..

وسكت الاب برهة كأنه يفكر ، ثم قال :

ــ ما يمكن البوليس تتبعه ، وزمانه محاصر البيت ! ..

وخبطت الام على صدرها وهى تسمع كلام زوجها ، وقفزت نوال وأطلت من الشباك ثم صاحت ورأسها لايزال خارج الشباك :

ــ ما فيش حد ..

وقال محيى فى هدوء :

ــ هوه بيقول ان البوليس مش حيبتدى يدور عليه الا بعد

ساعة .. وعايز يعرف رأينا بسرعة .. اذا ما رضيناش نخبيه حايسيب البيت حالا ..

وتقلص وجه الاب كأنه يشعر بألم لا يدرى مصدره ، وظل صامتا .. وتعجل محيى والده : ايه رأيك يا بابا ؟ !

وظل الاب صامتا ، وقد زاد تقلص وجهه حتى سقطت نظارته الذهبية فوق أرنبة أنفه ..

وقالت الام كأنها تساعد زوجها فى تفكيره :

ــ كبدى عليه .. يا ترى أمه عاملة ايه دلوقت ؟ !

وقالت سامية ، وهى تحاول أن تحرك أصابعها من جديد بين خيوط التريكو : الحقيقة .. يصعب على الكافر !

والاب لا يزال صامتا ..

وقالت نوال وكأنها تتبع فى خيالها فيلما سينمائيا من افلام رعاة البقر : انما هرب ازاى ؟ ! ..

وتنحنح الاب كأنه يطلب من عائلته السكوت .. وقال كأنه على أهبة أن يصدر حكما : الواقع أن .. أن ..

وكأنما غير فكره ، فصرخ بغتة :

ــ العيال دول ما فيش حد قادر يلمهم .. انا مش فاهم ، بأى حق يفرضوا أنفسهم على الناس بالشكل ده .. ده مش ..

ولم يتم كلامه ، والتفت فجأة الى زوجته وقال فى صوت مبهور : ايه رأيك يا تحيه ؟ ! ..

ووضعت الام اصبعها فوق خدها ، وقالت وهى تدارى عينيها كأنها لا تريد أن تؤثر عليه بهما :

ــ أنا عارفه ياخويا .. الرأى رأيك .. انما هوه لا حرامى ولا مجرم ، غيرشى انهم ضحكوا عليه بالسخامة اللى اسمها السياسة وخلوه عمل اللى عمله .. انما .. اصل احنا كمان مالناش دعوه ! !

وانطلقت نوال بلا سبب :

ــ ما ضحكوش عليه يا ماما .. و ..

وصرخت فيها أمها كأنها تريد أن تصرخ فى اى انسان :

ــ اسكتى أنتى يا مسحوبة اللسان ..

وقام الاب واقفا ، وهو يعدل الطاقية فوق رأسه ويتلمس بأصابع قدمه مكان الشبشب ونظر الى ولده قائلا فى لهجة جدية :

ــ أظن الأحسن أقابله بنفسى .. تعال ..

واتجه الى الباب ، وقبل أن يصل اليه قال محيى وهو لم يتحرك بعد من وقفته .. قال وكأنه يهمه أن يسمع كلامه كل أفراد العائلة :

ـ ابراهيم بيقول مش عايز حد يخرج من البيت طول ما هو موجود فيه .. وبيقول ان معاه مسدس ! !

وتوقف الأب عند الباب وكأن كرامته أهينت ..

وخبطت الام على صدرها وقالت مذعورة :

ـ مسدس .. ما بقاش ناقص الا المسدسات تدخل بيتنا ..

وقالت نوال وعيناها تلمعان : مسدس بصحيح ! !

وقالت سامية وهي لا ترفع رأسها عن خيوط التريكو :

ـ دى حكاية كبيرة .. دى مصيبة ووقعت علينا !

وتحرك الاب من جديد دون أن يعلق بشىء ، وخرج وابنه يتبعه .. وتنحنح ـ كعادته ـ قبل أن يصل الى « الصالة » .. وقام ابراهيم واقفا بمجرد أن رآه ، وظل لا يمد يده اليه كأنه يخشى ان مدها اليه أن يرفضها .. ولكن الاب مد يده اليه وهو يحاول أن يضع على شفتيه ابتسامة باهتة ، وصافحه ابراهيم فى احترام كبير ، وقال محيى يقدم والده :

ـ والدى ...

وكان ابراهيم يبدو مضطربا .. كان الانتظار قد أتعبه وكان يعلم ان الوقت يمر ، وان كل دقيقة محسوبة عليه .. انه لم يكن يضطرب هذا الاضطراب وهو فى انتظار أعدائه الذين يقتلهم .. ولكنه الآن يضطرب .. يخاف .. يحس انه فى حاجة الى حماية .. انه ليس قويا يحتمى أعداؤه منه .. انه ضعيف يطلب حماية الاصدقاء .. وهو يريد أن يهدأ .. يريد أن يرى والدته فيهدأ بين احضانها .. أو يرى أباه ويهدأ الى جواره ..

ورفع عينيه الى الرجل الذى يصافحه .. وتمنى أن يكون هذا الرجل أباه ..

ثم قاوم اضطراب نفسه الذى لا يبدو على وجهه ، وقال فى كلمات يحاول أن يرتبها حتى لا تتعثر :

ـ أنا آسف يا افندم .. آسف جدا .. انما أنا مضطر ..

وقال الاب وهو يدعى الهدوء :

ـ اتفضل يا ابنى .. اتفضل هنا ! !

وسار أمامه ، وفتح بابا جانبيا يؤدى الى غرفة «الضيوف»..

أثاث على الطراز العربى .. وآيات قرآنية فوق مساند المقاعد المكسوة بقماش عتيق مضى عليه سنين ..

وجلس الوالد .. وعاد يكرر :

ــ اتفضل يا ابنى .. اتفضل !

وقبل أن يجلس ابراهيم ، عاد الأب يسأل : انت فطرت ؟

وقال ابراهيم :

ــ متشكر .. ما كنتش باقدر أصوم فى السجن ..

ثم إستطرد كأنه يعتذر عن عدم صيامه :

ــ اصلى انتقلت للمستشفى ..

وسادت فترة صمت قصيرة ، قال الاب بعدها :

ــ أقدر أسألك كام سؤال ؟

وقال ابراهيم وهو يضغط بيد على يد ، كأنه يريد أن يوقف الدماء فى عروقه حتى لا يشعر بمرور الوقت : اتفضل ..

ونكس الاب رأسه وقال وهو ينظر الى شبشبه :

ــ حد عارف انك هربت ؟

وقال ابراهيم بسرعة :

ــ البوليس حيعرف بعد ساعة على الأقل ..

وصحح الأب السؤال : قصدى حد من أصدقائك ؟ !

وأجاب ابراهيم :

ــ فيه تلاته عارفين انى حاهرب ، انما ما يعرفوش حاهرب امتى .. كان تحديد ميعاد الهرب متروك لى.. حسب الظروف !

وعاد الأب يسأل :

ــ وحد منهم عارف ان يوم ما تهرب حاتيجى هنا ؟ !

وقال ابراهيم وهو يختصر فى الجواب :

ــ لا .. لأنى مش متأكد انكم حتقبلونى عندكم .. مارضتش أصرح باسم محيى من غير لازمه .. انما اتفقت معاهم انى حاتصل بيهم بمجرد أن أستقر فى مكان ..

وابتسم الوالد كأنه يحيى شهامة ابراهيم ، وعاد يسأل وقد بدأ أكثر هدوءا : ولو خرجت من هنا دلوقت حاتروح فين ؟

وقال ابراهيم وهو لا يزال يتكلم بلهجة سريعة ليشعر محدثه بأهمية الوقت :

ــ ما اعرفش .. اظن حاضطر أروح لواحد من الثلاثة دول ، ومن هناك ندور على خته تانيه ..

وقال الأب فى حماسة كأنه أشرك نفسه فى مؤامرة وطنية :
ــ لكن لازم البوليس عارف ان التلاتة دول أصدقاءك ، وحايدور عليك عندهم !
وقال ابراهيم وهو يتنهد : فعلا .. انما مضطر ! ..
وعاد الأب ينكس رأسه كأن حملا ثقيلا قد أسقطه من فوق رقبته .. وسكت .. كأنه لن يتكلم أبدا ..
واتسعت عينا ابراهيم كأنه نزع جفنيه عنهما ، وبدا فيهما قلق عنيف .. واضطراب .. وتحفز .. كأنه ينتظر حكم القدر
ولم يتكلم محيى .. أخذ ينقل عينيه بين أبيه وابراهيم دون أن تستقر عيناه على أحد منهما .. وهو يرفع يده أحيانا ويمسح بها على شعره .. ثم ينزلها ويعبث بأزرار « بيجامته » ثم يرفعها مرة أخرى ويضغط بأصبعه على قنطرة نظارته .. ويبتلع ريقه بين كل لحظة وأخرى .. كأنه عطشان .. تائه ..
ورفع الأب رأسه .. وركز عينيه على وجه ابراهيم .. وقال فى لهجة أب غاضب على ولده :
ــ تعرف انى لغاية دلوقت مش موافق على اللى عملته .. ده نوع من الوطنية لا أقره ..
واكفهر وجه ابراهيم وقفز الى مقدمة مقعده كأنه يهم بالقيام.. لم يعد وجهه الهادىء المريح يستطيع أن يخفى اضطرابه ..
وامتقع وجه محيى كأنه يرى فرخة تذبح ..
وعاد الأب يتكلم وقد بدا أكثر حزما :
ــ أنا مش موافق كمان على انك كنت تيجى هنا .. احنا ناس مالناش دعوة بالسياسة .. لما كنت فى سنك عمرى ما اشتغلت فى السياسة.. عمرى ما مشيت فى مظاهرة.. وما أظنش انى حا غير حياتى علشان خاطرك بعد ما كبرت وأصبحت مسئول عن عيلة ..
وانتفض ابراهيم واقفا ..
ورفع الأب رأسه وسكت عن كلامه ..
وتحرك ابراهيم فى بطء كأنه لم يفقد الأمل بعد .. وظل صامتا ثم خطا خطوتين نحو الباب وهو يقول :
ــ انا آسف يا افندم .. آسف جدا ..
ولم يرد الأب ولم ينظر اليه انما عاد وجهه يتقلص مرة أخرى وكأنه فى هذه المرة يعانى ألما عنيفا ..

وخطا ابراهيم خطوة ثالثة ..

وقبل أن يصل الى الباب .. رفع الأب رأسه بغتة ، وقال فى صوت عميق كأنه يستسلم الى شىء أقوى منه .. الى قوة تنطلق من صدره ولا يستطيع مقاومتها بعقله :

ــ تعال يا ابنى .. تعال .. اقعد ، أقدر أسألك سؤال كمان ؟

وأجاب ابراهيم فى استسلام كأنه يكاد يبكى : اتفضل ...

ــ انت قتلت عبد الرحيم باشا ليه ؟ ..

وقال ابراهيم كأنه لايزال مصرا على جريمته مقتنعا بها :

ــ لأنه انجليزى .. خدم الانجليز .. كل الناس عارفه انه خاين وعميل للانجليز ...

وقال الأب : مش كنت تسيب الحكومه تعرف شغلها معاه ..

وقال ابراهيم وهو يحاول الا يحتد :

ــ ما كانش فيــه حكومه تقــدر تكلمــه .. كان أقوى من الحكومات كلها .. كان هوه اللى بيشيل حكومه ويحط حكومه .. فيه أحكام كتير الحكومه ما تقدرش تصدرها ولا تنفذها .. لازم الناس هى اللى تصدرها وتنفذها .. والناس كلها حكمت ان الراجل ده خاين ، وأنا نفذت الحكم ..

وسكت الأب قليلا ثم عاد يسأل :

ــ انت منضم لحزب من الأحزاب ؟

ــ لأ ..

ــ ولا للحزب الوطنى ؟

ــ لأ ..

وسكت الأب .. سكت طويلا ..

ثم التفت الى ابنه وقال كأنه كان قد نسى شيئا : اظن تقوم تنده لوالدتك واخواتك ، علشان يتعرفوا بالأستاذ ابراهيم ..

والتفت ابراهيم ومحيى اليه فى دهشة وحيرة ، كأنهما لايفهمان .. ثم لمحا بين شفتيه ظل ابتسامة خافتة مسكينة ، كأنه يحاول بها أن يساعدهما على الفهم ..

وفهم ابراهيم .. وحرك شفتيه كأنه يريد أن يتكلم ، ولكنه لم يقل شيئا ، انما عاد وجهــه مريحا هادئا ، وزادت عليــه ابتسامته أكثر راحة وهدوءا كأنها تنهيــدة زفرها بعد شــقاء طويل ..

وقام محيى واتجه الى خارج الغرفة فى خطى سريعــة جادة

وكأنه يقوم بأخطر عمل فى حياته ..
وساد الصمت فى الغرفة .. وتنحنح الأب ..
وعاد وتنحنح مرة أخرى ..
ثم قال دون أن ينظر الى ابراهيم : وازاى الوالد ؟ !
وقال ابراهيم وهو يعتدل فى جلسته ويتخذ وضعا أكثر أدبا :
ــ الحمد لله .. كويس يا افندم
وقال الأب كأنه يحاول أن يتكلم فى أى موضوع يلهى به نفسه : أظن هو فى الدرجه الرابعة دلوقت ..
ــ أظن كده ..
قال فى لهجة روتينية :
ــ أنا لى ابن عم موظف فى وزارة الأشغال . ودايما يمتدح والدك جدا ..
وسكت برهة ثم عاد يقول :
ــ ياترى انتم تقربوا لعبد العزيز بك حامد مدير القلم بتاعنا ؟ سمعت ان فيه صلة قرابة !
ــ أظن انه صديق والدى ..
ــ ده كمان راجل كويس ..
ــ أيوه يا افندم ..
وعاد الصمت ، كأن الأب اكتشف ان كلامه ليس مناسبا ، وكأنه لم يجد كلاما آخر يقوله ..
وقال ابراهيم بعد فترة :
ــ أنا مش قادر أشكر حضرتك ازاى .. أنا كنت ..
وقاطعه الوالد بسرعة كأنه لا يريد أن يذكر نفسه بما فعله :
ــ مافيش لازمه .. انت زى ابنى محيى .. كل ما هنالك ان دورك فى الحياة مختلف عن دوره ..
وعاد محيى وجلس فى مقعده .. وخيم الصمت الثقيل .. كان كل من الثلاثة يبدو محرجا مرتبكا لا يدرى ما يجب أن يقوله .. كان الأب يسدل جفنيه فوق عينيه فيبدو وجهه من خلف نظارته الذهبية كأن ليس له عينان .. كان يغيب فى تفكير عميق كأنه يحاول أن يقيس المستقبل .. ثم فجأة يرفع جفنيه وتبدو عيناه وهما تلمعان خلف نظارته كأنه يهم بأن يلقى خطابا سياسيا يبين به رأيه فى وطنية الجيل الجديد .. ثم يكتشف ان الوقت ليس مناسبا لالقاء الخطب السياسية .. فيطفىء

لمعة عينيه ويعود الى التفكير العميق ..
وكان محيى يبدو كأن فى رأسه ألف سؤال .. ولا يدرى بأى سؤال يبدأ .. فاذا وجد سؤالا يبدأ به رفع عينيه الى ابراهيم . ثم التفت بهما الى والده .. ثم كأنه لا يجد الجرأة ليلقى سؤاله . فيسكت ..
وكان ابراهيم فى جلسته المهذبة ، يفكر احيانا فى خطته ثم يجد نفسه يفكر فى العائلة التى أقحم عليها نفسه ، فيرفع عينيه وينظر الى الوالد كأنه يعتذر له ، ثم ينظر الى الابن كأنه يشجعه
وأخيرا تزاحمت الاسئلة فى راس محيى ، فانطلق واحد منها من بين شفتيه ، وكأنه انطلق رغم ارادته ، فخرج فى صوت رفيع مرتعش : انما قدرت تهرب ازاى يا أستاذ ابراهيم ؟ !
وأجاب ابراهيم فى اختصـار وهو يبتسم ابتسامة صغيرة متواضعة كأنه يجيب على سؤال بديهى :
ــ ولا حاجه .. كانوا سمحوا لى فى المستشفى انى اتمشى شويه .. النهارده اتمشيت لغاية عندكم ! !
وظهرت خيبة الأمل على وجه محيى .. كان ينتظر ان يسمع قصة مثيرة .. قصة شاب يتسلق الجدار العالى ، وينزلق فوق مواسير المياه بينما رصاص الجنود يطارده .. لم يكن ينتظر أن يكون الهرب من السجن بهذه البساطة التى يتحدث بها ابراهيم !!

***

ودخلت الأم ووراءها البنتان .. لم يزد عليهما شىء ، الا أن الأم بدلت ثوبها . وسامية ونوال كل منهما لبست حذاءها .. حذاء بكعب متوسط الطول
وقام ابراهيم واقفا .. والتقط يد الأم وانحنى يقبلها ويرفعها الى جبينه كما تعود أن يقبل يد أمه .. وعندما التقت عيناه بوجهها الطيب الساذج المكتنز ، وابتسامتها التى تبدو كقطعة من فمها ، تمنى أن يلقى نفسه فوق صدرها .. ويستريح .. كما كان يفعل وهو طفل عندما يعود الى أمه عقب يوم متعب قضاه فى شوارع المنيرة ..
وضغط على أعصابه حتى يقاوم هذه العاطفة الضعيفة التى مرت به .. ثم مد يده يصافح كبرى البنتين ، وسمع صوت الوالد يقول : بنتى ساميه ..
ثم مد يده الى الصغرى ، وسمع صوت الوالد يقول : نوال ..

ولم يرفع عينيه الى سامية أو الى نوال .. لم يرهما وهما تنظران اليه فى لمحات خاطفة ، كأنهما تنظران الى مخلوق عجيب ليس من حقهما أن تنظرا اليه ..

وأحس بحرج شديد ، بلغ حد الضيق .. ليست بنتا واحدة ؛ انهما بنتان .. وهو لم يدخل فى حسابه البنات .. كيف يعيش فى بيت فيه بنات .. انه لم يعش أبدا فى بيت فيه بنات .. وأحس كأنه ينتهك عرضا .. كأنه يجرح شعور صديقه ووالد صديقه..

وعاد يضغط على أعصابه حتى لا يبدو شىء مما فى نفسه ..

وظل واقفا الى أن سمع صوت الأم تقول :

ــ اقعد يابنى .. اقعد ياحبيبى ..

وجلس ، والام الطيبة لا تزال تتكلم فى أسلوبها الساذج :

ــ ازيك ياضناى .. ازى صحتك ؟

وقال وهو منكمش العينين : الحمد لله .. الله يسلمك !

وعادت تقول :

ــ وازاى الست والدتك .. يا ترى كنت بتشوفها ؟

قال وهو لايزال ينظر الى قدميه :

ــ سمحوا بالزيارة من مدة عشرة أيام .. صحتها كويسة .. الحمد لله ..

قالت وهى تمصمص شفتيها :

ــ يا كبدى عليها .. ده زمان قلبها متشحطط عليك .. ماهو ما حدش بيشيل الهم الا الام .. يا ترى هيه عارفه انت فين دلوقت ؟! ..

قال فى صوت خافت وقد بدأ الحديث عن أمه يعصر قلبه :

ــ لا ..

وتنحنح الاب كأنه يطلب من زوجته أن تسكت ، ثم قال فى صوت رزين :

ــ الاستاذ ابراهيم حيقعد معانا كام يوم .. طبعا من غير ما حد يعرف ..

وسكت ..

وسكت معه الجميع كأن أحدا منهم لم يفاجأ بهذا القرار ..

ثم قالت الام وهى تضع أصبعيها تحت ذقنها :

ــ طيب افرض ياخويا حد جالنا ؟ !

وقالت سامية كأنها تحادث أمها وحدها :

ـ أحسن حاجه نقفل الباب علينا ، ونعمل نفسنا مسافرين !!
ورفع ابراهيم عينيه اليهـا بغتة كأنه صعق لهـذه الفكرة .. ورآها .. رأى هذا النوع من الجمال الذى يكشف لك عن نفسه كلما نظرت اليه أكثر .. وكأنه أراد أن ينتظر الفرصة ويتعرف الى باقى وجوه العائلة .. فتسلل بعينيه الى نوال ، وما كاد يرفعهما اليها حتى التقى بعينيها تمتصانه كله فخفض عينيه سريعا كأنه يخشى أن يغرق فى عينيها ، وخفضت عينيها كأنها تفر منه .. ولم ير منها شيئا .. لم ير الا هاتين العينين .. سود .. فيهما وحشة ، وسر ، وفيهما ذكاء ونشاط وفرحة ، وهناك فى أعماقهما نور يدلك الى الطريق ..

وسمع صوت محيى يرد على أخته :

ـ بأه ده اسـمه كلام .. طيب وناكل ونشرب ازاى ..؟ وبابا يروح الديوان ازاى ! !

وقال الاب :

ـ على كل حال أنا حاتعمد انى أخرج كل ليلة بعد الفطار ، ولما ييجى حد تقولوا له انى مش هنا ! !

وقالت الام وهى تشوح بيدها ، وتدير عينيها عن ابراهيم كأنها تخشى أن تجرحه بكلامها :

ـ وانت ذنبك ايه يا أخويا تدور فى السكك كل ليله ؟ !

وتكلم ابراهيم ، والتبه الجميع اليه كأنه اله يتكلم :

ـ أظن يا افندم أحسن طريقة ان كل حاجة تمشى طبيعى .. كل واحد يعمل اللى كان بيعمله ، علشان ما نلفتش نظر حد ..

وقالت نوال كأنها تتم حديثه :

ـ ولو حد جه يبقى الاستاذ ابراهيم يستخبى فى أى حته ! !

وابتسم ابراهيم دون أن يلتفت اليها كأن المفروض أن تعبر عن أفكاره ..

وقال الاب كأنه لا يستطيع أن يتخذ قرارا :

ـ أهو نبقى ساعتها نتصرف .. وربنا يستر ..

وصاحت نوال كأنها اكتشفت أمرا هاما : والبت سنيه ؟ !

وقالت الأم : مالها سنيه كمان ؟ !

وقال محيى كأنه التقط بذكائه ما تقصده أخته :

ـ فعلا سنيه ما يصحش تعرف .. دى بنت صغيره ولسانها فالت ! ! ..

وقالت سامية : طيب وحانعمل فيها ايه ؟ !
وتجهم وجه ابراهيم كأنه اكتشف شيئا آخر لم يحسب حسابه عندما وضع خطته .. وسكت الاب كأنه ينتظر أن يقول آخر كلمة .. ولمعت عينا نوال كأنهما تكشفان عن سر من أسرارهما ، وصاحت فى صوت خافت :
ـ أقول لكم نعمل ايه .. أقوم أنا دلوقت أدب معاها خناقة.. وبعدين ننده على البواب يروحها لأمها ..
وقالت الأم : والنبى ده انتىجباره .. ياشيخه حرام عليكى !
والتفت اليها ابراهيم كأنه يهنئها ، والتقى بعينيها مرة أخرى تنظران اليه كأنهما تشهدانه على ذكائها ..
وقال الأب : يظهر ما فيش قدامنا الا الطريقة دى ..
وقامت نوال وخرجت من الغرفة ، وبعد قليل ارتفع صوتها وهى تنهر الخادمة .. ثم ارتفع الصوت أكثر حتى أصبح صراخا حادا ، يصحبه صوت صفعات وبكاء .. ثم عادت نوال وهى منفعلة كأنها كانت فى خناقة حقيقية ، وكأن الخادمة كانت تستحق فعلا هذه الصفعات .. وقالت وهى فى انفعالها تكاد تبكى :
ـ قومى انتى بأه يا ماما اطرديها ..
وقالت الام وهى لا تقوم :
ـ والله ما تهنش على .. ده حرام عليكم .. ده احنـا فى رمضان ! ! ..
وقال الاب متأثرا :
ـ معلهش يا تحيه ، ما احنا حنرجعها بعد تلات اربع أيام ..
وقالت الأم : قوم انت يا محيى اطردها ..
وقال محيى وهو يتمسك بمقعده : وأنا مالى ومال طرد الخدامين كمان .. دى عمرها ما كانت شغلتى ! ! ..
وقالت نوال :
ـ قومى انتى يا ماما ، واديها نص ريال من فلوسى ..
وقامت الام وهى تنظر الى ابراهيم نظرة عتاب كأنها تحمله ذنب الخادمة الصغيرة ، وقالت وهى تخطو خطواتها الثقيلة :
ـ أقل من خمسين قرش فوق ماهيتها ، ربنا ما يسامحناش .. دى غلبانه ويتيمه ! !
وخرجت ، وقالت سامية وهى تقلب شفتيها :
ـ دلوقت شغل البيت كله حيقع على دماغنا .. ومين يا ترى

اللى حا يجيب حاجة السوق .. أنا والا نوال ؟

وقالت نوال :

ـ ياستى ما تحمليش هم .. عم على يجيب حاجة السوق ، وأنا أدخل المطبخ مع ماما يوم وانتى يوم ..

وارتفع صوت الام من الداخل .. ثم سمع الباب يفتح وصوت البواب يتحدث .. ثم أغلق الباب ، وعادت الأم اليهم وهى تقول :

ـ ربنا يسامحنا ..

وتحرك أبراهيم فى جلسته دون أن يقول شيئا ، كأنه يتألم لهذا الارتباك الذى أحدثه فى العائلة ..

وقال الاب :

ـ أظن الاستاذ ابراهيم تعبان .. اتفضل فى اودة محيى .. وبكره الصبح باذن الله نكمل كلامنا ..

وقام ابراهيم ووقف مرتبكا بين أفراد العائلة ، ثم قال دون أن ينظر الى أحد منهم : تصبحوا على خير ..

وهمهم الجميع ولم يتضح الا صوت نوال وهى ترد عليه :

ـ وانت من أهل الخير ..

وقام معه محيى ، وقبل ان يصلا الى نهاية الفرفة ، قال الأب :

ـ يا أستاذ ابراهيم ..

وتوقف ابراهيم ، والتفت اليه مستسلما ، واستطرد الاب :

ـ أنا سمعت أن معاك مسدس .. من فضلك تشيله من جيبك وتحطه فى اى درج من أدراج محيى .. انما ما تمسكوش فى ايدك أبدا طول ما انت معانا .. أنا ماحبش المسدسات ..

وبحركة لا ارادية .. وببساطة .. أخرج ابراهيم المسدس من جيبه وهو يقول : تحب أشيله عند حضرتك ؟ ..

واتسعت عينا الاب فى فزع .. وخبطت الام على صدرها وهى تصيح : ابعد البتاع ده عن وشنا الله يخليك ..

وانكمشت سامية فى مقعدها ، وابتعد محيى خطوتين وقد فغر فاه كأنه يبحث عن أنفاسه .. وأطلت نوال بعينين مستطلعتين كأنها ترى شيئا سمعت عنه طويلا ولم تره ..

وازداد ارتباك ابراهيم ، وقال متلعثما وهو يعيد المسدس الى جيبه كأنه يخفى عارا : أنا آسف .. ما كنش قصدى ..

ثم وقف بينهم برهة ، واستدار ، وخرج وبجانبه محيى ..

وأغلق محيى وراءهما البـــاب .. وتلفت ابراهيم يدقق فى محتويات الغرفة .. دولاب ومكتب .. ومقعدين .. وشماعة معلقة فى الحائط .. كل شىء نظيف .. مرتب ..

وجلس على أحد المقعدين ، وجلس محيى على حافة السرير ينظر اليه كأنه يطالبه بالـكلام ..

وتكلم ابراهيم .. ولكنه لم يتكلم فى السياسة ولا فى القضية التى سجن من أجلها .. بل أخـذ يسأل محيى عن زملائهما فى الكلية وعن الاساتذة ويروى له نوادر عن كل منهما .. كان يعلم انه فى حاجة الى كسب اطمئنان صديقه وثقته ، وفى حاجة الى أن يخفف عنه الخوف والرهبة ، ويرفع من بينهما «الكلفة» .. واستطاع أن يحقق كل ذلك بسهولة.. وبدأ محيى يحس بابراهيم كصديق له .. وبدأ يحس بالزهو لصداقته ببطل .. هذا البطل الذى كان ينظر اليه من بعيـد كاله لا يستطيـع أن يرقى الى بطولته ، أصبح اليوم صديقه ، وفى بيته وسينام معه على سرير واحد .. وبعد قليل أصبح محيى هو الذى يتكلم أكثر من ابراهيم

وسمعا نقرا على الباب ..

وقام محيى ، وخطا خارج الغرفة ، ثم عاد يحمل صينيـة تحمل أطباق طعام .. وضعها على المكتب ، وهو يقول :

ــ اتفضل يا ابراهيم ! !

وابتسم ابراهيم وهو يسمع صديقه يناديه باسمه مجردا دون لقب « أستاذ » . تأكد انه كسب ثقته واطمئنانه .. وقام الى طعامه وأكل بشهية .. انه منذ أن سجن لم يجد فى نفسه مثل هذه الشهية .. وكان محيى لا يزال يتكلم ...

وسمعا نقراً آخر على الباب .. ولم يتحرك محيى ، بل صاح وهو فى جلسته على حافة السرير : خش ..

ودخلت نوال ، تحمل بين يديها جلبابا « مكويا » وقالت وهى تنظر الى ابراهيم فى تردد : ما اظنش بيجامات محيى تيجى على أدك .. جبتلك جلابيه من بتوع بابا ! !

ووقفت يد ابراهيم التى تحمل الشوكة بين الطبق وفمه .. واحس بشىء فى نفسه ينكمش كأنه يحاول الاختباء .. وازدرد وجهه كأن اللقمة قد وقفت فى زوره .. وسقطت عيناه فوق نوال ولم يستطع أن يرفعهما عنهـا .. ورأى هـذه المرة وجنتيها المكتنزتين المشدودتين.. كأنها ورثتهما عن جدود من الهنود الحمر

.. وغمازتيها اللتين تزغردان فوق الوجنتين .. ورأى شفتيها البريئتين من الاصباغ ، وابتسامتها المعلقة بين الشفتين .. وخيل اليه أن كل ذلك يراه من بعيد .. من بعيد جدا .. وكان يعانى دهشة وفزعا .. فلم يكن يدرى ان «البنات» سيصلن الى الغرفة التى ينام فيها ..

ونظرت نوال اليه بتعجب ، وقالت وهى تستدير لأخيها :

ــ مش عايزين حاجة كمان ؟

وقال لها أخوها : متشكرين ..

وقال ابراهيم وهو يتكلم من بعيد : متشكر ..

وخرجت نوال ..

وأتم ابراهيم طعامه ، وهو لا يزال يفكر فى « البنات » اللاتى لم يحسب حسابهن فى خطته .. ثم صحبه محيى الى الحمام ، ثم عاد وخلع القميص والبنطلون ، ووضع المسدس فى درج من أدراج المكتب ، وارتدى الجلابية ونام بجانب محيى على السرير ، وأحكم الغطاء من حوله كأنه يخشى أن يدخل عليه « البنات » وهو نائم ..

وكان محيى لايزال يتكلم .. ويروى ذكرياته فى الجامعة .. وفجأة .. تنبه ابراهيم الى ان الأغنية التى يذيعها الراديو من الغرفة قد توقفت ، وانطلق صوت المذيع قائلا :

« سيداتى وسادتى .. نذيع عليكم أخبارا هامة .. جاءنا البيان التالى من وزارة الداخلية .. استطاع ابراهيم حمدى المتهم الأول فى قضية مقتل المرحوم عبد الرحيم باشا شكرى ، الهرب هذا المساء . وكان قد نقل من سجنه الى مستشفى القصر العينى للعلاج منذ ثلاثة وعشرين يوما .. ويعلن وزير الداخلية عن مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه لمن يقبض عليه ، أو يدلى بمعلومات تساعد على القبض على المتهم المذكور ، كما أصدر الحاكم العسكرى أمرا بمعاقبة كل من يساعد المتهم فى هربه أو يمتنع عن الادلاء بما لديه من المعلومات ، بالسجن مدة لا تزيد عن ثلاث سنوات .. واليكم نص الأمر العسكرى .. »

وامتدت يد ، وأقفلت الراديو ..

ونظر محيى الى ابراهيم ثم عاد وابتعد بعينيه عنه ..

ولم ينظر ابراهيم الى محيى .. ظل معلقا عينيه فى سقف الغرفة ثم قال كأنه يخاطب نفسه :

ــ أنا ما كنتش فاكر انى غالى كده ! !
وسكت ابراهيم .. ولم يتكلم محيى ..
ظل كل منهما معلقا عينيه فى سقف الغرفة دون أن ينظر الى الآخر ..
لم يجد ابراهيم ما يقوله تعقيبا على البيان الذى أذاعته الحكومة .. انه لا يستطيع أن يهون وقعه على صديقه ، فان وقعه لا يمكن أن يهون .. ولا يستطيع أن يطلب من صديقه أن يعده بألا يشى به ، فليس من حقه أن يطالب بمثل هذا الوعد .. وان كان فى نية صديقه أن يشى به فلن يجديه وعده ..
سكت ابراهيم وهو يحس بالغيظ .. غيظ حاد يمزق أعصابه ويصهر أنفاسه .. لماذا لا يتركونه فى حاله .. لماذا لايثور الناس ويسقطون هذه الحكومة التى تطارده .. لماذا لا يحدث أى شىء .. اى شىء ينقذ حياته ويعيد اليه مستقبله واطمئنانه .. لقد قتل الخائن من أجل وطنه .. من أجل الناس .. فلماذا لايتحرك الناس من أجله ..
وشعر بموجة من اليأس الأسود تجتاح رأسه .. ان الناس لن يتحركوا .. سيتركونه يقع كما يقع الفأر فى المصيدة .. وربما كان منهم من يمني نفسه الآن بالخمسة آلاف جنيه مكافأة الارشاد عنه .. وشعر بأنه يتخبط فعلا داخل مصيدة .. وان رأسه يرتطم بقضبان من الحديد .. وانه فعلا فأر .. يختبىء ويتوارى .. ويفر .. والناس تجرى خلفه ..
ثم تذكر العائلة التى أقحم نفسه عليها .. هل ترشد عنه .. وأحس بالخجل من نفسه لهذا الخاطر .. أحس كأنه ناكر للجميل .. لا ، لن يرشد عنه أحد من أفراد هذه العائلة .. انه متأكد ..
ولكن هذا البيان الذى أذاعته الحكومة زاده احساسا بثقله على هذا البيت الهادىء الوديع الذى طرق بابه ودخله وهو يحمل جريمته فوق كتفيه .. يجب أن يرحل .. سيترك هذا البيت .. غداً .. فى أقرب وقت يستطيعه .. لن يبقى فيه .. حرام أن يحمل الناس وزرا لا ذنب لهم فيه ..
وكانت كل هذه الخواطر تزدحم أمام عينيه وترتسم صورها فى سقف الحجرة .. وصديقه راقد بجانبه .. صامت هو الآخر
كان قد زايله الزهو الذى أحس به لأنه يضم فى بيته بطلا .. لم يعد يفكر فى البطل .. أصبح يفكر فى نفسه .. فى مصيره ..

وأحس انه واقف على باب دنيــا لا يعرفها .. دنيا مخيفة .. تندلع فى جوانبها نيران ، وتضج فى أرجائها أصوات مزعجة .. صرخات .. وهتافات .. وطلقات رصاص .. وهناك ، على مدى البصر ، كان يلمح فى هذه الدنيا قضبانا غلاظا من الحديد .. وخلفها شبان من زملائه الطلبة .. كلهم فى رداء السجن .. وهو .. انه معهم .. فى رداء السجن أيضا .. وشعر بالخوف.. وامتقع وجهه دون أن يدرى .. وسحب جسده بعيدا عن صديقه الى الجانب الآخر من الفراش كأنه يتبرأ منه وكأن البوليس اذا دخل ليقبض على صديقه ورآه بعيداً عنه فلن يقبض عليه ..

وهو بعد أن سمع بيان الحكومة يذيعه الراديو لم يفكر فى المكافأة التى وضعت للقبض على السجين الهارب .. لم يفكر فى هــذه المكافأة اطلاقا .. لم تخطر له على بال .. انما كان يفكر فى الأمر العسكرى الذى ينص على سجن كل من يساعد الهارب فى هربه.. انه يخاف السجن .. لايريد أن يسجن .. واحس بقطرات من العرق البارد تتفصد من جبينه .. وأحس كأنه برتعش .. كل خلجة فى جسده ترتعش .. كأنه محموم !

ولا يدرى أحدهما كم مضى من الليل قبل أن يسمعا طرقا خافتا على بابهما .. وأدار ابراهيم رأسه ناحية الباب فى حدة .. ثم أدارها ناحية محيى وقد اتسعت عيناه وارتسمت فيهما نظرات متسائلة جزعة ..

وتكرر الطرق على الباب .. وصاح محيى : حاضر ..

ثم التفت الى ابراهيم وهو يقوم من رقدته ، وقال ، كأنه يوقظه : يا أستاذ ابراهيم .. يا أستاذ ابراهيم !

والتقى بعينيه المتسائلتين ، فاستطرد : اتفضل .. السحور !

وهدأت عينا ابراهيم ، وقال كأنه يتنهد :

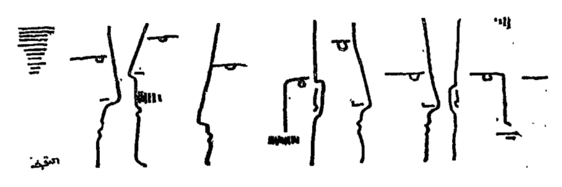
— متشكر .. ما اظنش حاقدر أصوم بكره !

— وقام محيى وأضاء النور ، ووضع نظارته فوق عينيه ، وخرج من الغرفة وهو يقول : تحب أسيبلك النور والع ؟ ..

وقال ابراهيم : اطفيه لو سمحت !

وأطفأ محيى النور .. وخرج !

واستطرد ابراهيم فى تفكيره .. ثم أحس ان عينيه تضعفان شيئا فشيئا ، حتى لم يعد يقوى على رؤية أفكاره .. وسقطت جفونه ... ونام ... كأنه أغمى عليه !





وتسلل شعاع حاد من النافذة ولسع جفنى ابراهيم ، ففتح عينيه وأدارهما حوله فى ذهول كأنه لا يدرى أين هو ! !

كانت الغرفة قد غمرها ضوء النهار .. والتفت بجانبه فلم يجد صديقه محيى .. ونظر فى « المنبه » الموضوع أمامه .. كانت الساعة التاسعة والثلث ..

وتعجب أين ذهب صديقه .. ولماذا لم يوقظه ..

وظل فى فراشه منتظرا أن يعود محيى ..

ولـكن محيى لم يعد ..

وقام من الفراش ، ووقف فى الغرفة ، وهو يتعمد أن يبتعد عن النوافذ حتى لا يلمحه أحد من الجيران ..

ثم جلس على المقعد .. وبدأ يفكر فى خطته .. وكان النوم العميق قد أعاد اليه كل قواه ، وأحس انه يفكر تفكيرا سليما .. وانه يرى المستقبل بوضوح .. وأحس بالتفاؤل ، ولم يقلل من تفاؤله ما أذاعته الحكومة من تهديد واغراء للقبض عليه .. ان النـاس ينقسمون الى أفاضـل وأشرار .. ولن يغير التهديد والاغراء من الناس .. سيبقى الفاضل فاضلا ، والشرير شريرا

وابتسم بينه وبين نفسه كأنه يهزأ من الحكومة ومن الحاكم العسكرى ومن الأحكام العرفية .. ومن المشنقة ! !

ولـكن محيى لم يعد ..

وفكر أن يقوم وينادى عليه من داخل البيت ، ولـكنه أحس بالحرج .. أن فى البيت بنات ولا يجب أن يشعرهن بوجوده ، ولا أن يثقل على البيت بأن يفرض عليه شيئا .. سيبقى صامتا

الى أن يعود محيى .. ولم يعد محيى ..
وبدأ يحس بالضيق .. انه يريد أن يغسل وجهه ، يريد أن يبلل شفتيه بالماء .. يريد أن يبدأ يومه .. !
وقام وبدأ يرتدى ملابسه .. القميص والبنطلون .. ثم توقف فجأة ، والتمعت فى عينيه نظرة شك وريبة .. كان خاطر مسموم قد انتفض فى عقله .. أين ذهب محيى .. ولماذا لم يعد .. ربما أغلقوا عليه الباب وحبسوه الى أن يأتى البوليس للقبض عليه !..
وجمع طرفى البنطلون بين يديه — ولم يكن قد ربطه بعد الى وسطه — وسار على أطراف أصابعه الى الباب ، وأمسك بالاكرة فى حذر ، وجذب الباب اليه جذبة خفيفة ، تأكد بعدها ان الباب ليس مغلقا .. واطمأن ..
وأعاد اغلاق الباب كما كان ، ثم ربط بنطلونه حول وسطه ، وجلس وبدأ يلبس حذاءه .. ثم رفع رأسه من جديد ، وعادت نظرات الشك تلمع فى عينيه .. ربما خرج كل أهل البيت وتركوه وحيدا ، وأغلقوا الباب الخارجى عليه .. أو ربما لم يغلقوه ، بل تعمدوا أن يتركوه مفتوحا حتى يحس بأنهم لا يريدون ايواءه بعد البيان الذى أذاعته الحكومة ، ويرجونه ، رجاء صامتا ، أن ينصرف عنهم .. المهم .. انه لم يعد يستطيع أن يبقى فى هذه الغرفة .. يجب أن يخرج منها حالا .. الآن .. وقفز من جلسته وتقدم ناحية المكتب ، وفتح الدرج وأخرج مسدسه ، وقبل أن يدسه فى جيبه سمع طرقا خافتا على الباب . وأعاد المسدس الى الدرج ولكنه تركه مفتوحا .. والتفت ناحية الباب ، وهو يقول :
— مين ؟ ..
قالها بلهجة جافة ، ثم تنبه الى جفافها فعاد يقول فى لهجة مهذبة قبل أن يسمع ردا : اتفضل ..
وسمع صوتا رقيقا من خلف الباب :
— حضرتك صحيت يا أستاذ ابراهيم ؟ ..
وخمن أنها نوال .. الأخت الصغرى .. انه صوتها .. عجيبة .. انه يعرف صوتها .. انه متأكد انها هى ..
وأجاب فى أدب : أيوه يا افندم .. اتفضلى ..
وانفتح الباب فى بطء ، واطلت نوال برأسها ، وأطلت معها ابتسامة حائرة لا تدرى على أى جانب من شفتيها تضعها .. واحتار مع ابتسامتها .. وجد نفسه موزع الخاطر بين لهفته على

لقاء صديقه محيى وبين ارتباكه وهو يواجه نوال .. وقال فى صوت تلقائى كأن انسانا آخر يتكلم فى صدره : فين محيى ؟

ثم استدرك قائلا ، وهو يحاول أن يكون رقيقا : صباح الخير !

وقالت نوال وهى تسلط كل عينيها عليه :

ــ يسعد صباحك .. محيى راح الجامعة من الصبح .. و..

وقاطعها وهو يبذل مجهودا كبيرا حتى لا يحتد ، ويخفض عينيه حتى لا ترى فيهما حدته :

ــ راح الجامعة ازاى.. مش كان لازم يكلمنى قبل ما يخرج ؟ !

وقالت نوال وقد أحست بغضبه الذى لا يبدو على وجهه :

ــ احنا عملنا مؤتمر الصبح وبابا قرر اننا نسيبك نايم لغاية ما تستريح .. اتهيأ لنا انك ما نمتش بقى لك سنة من يوم ما تسجنت ..

ورفع عينيه اليها كأنه يتعجب من طيبة العائلة وسذاجتها ، ثم عاد وخفضهما وهو يقول :

ــ وأنا أقدر أنام فى ليلة زى دى ..

وقالت كأنها تعاتبه وهى ترفع حاجبيها كأنها تتحداه :

ــ الحقيقة انك كنت نايم .. ولو انك ما كنتش بتشخر !

وابتسم ابراهيم كأنه يعتذر لها عن مغالاته ، وقال :

ــ فعلا .. أنا كنت تعبان .. انما كان لازم أشوف محيى قبل ما يخرج .. فيه حاجه كان لازم أقولها له .. بالشكل ده ضاع منا يوم بحاله .. !

وقالت كأنها تخفف عنه :

ــ الأيام كتير باذن الله .. تحب تفسل وشك ؟

وتنهد أسفا كأنه لا يؤمن بأن أيامه كثيرة ، واتجه نحو الباب وهو لا ينظر اليها .. بينما كانت تنظر الى كل شىء فيه .. الى وجهه الأسمر كأنه وجه فلاح عاش طول عمره فى الحقل ، ولم ينسحب عليه يوما ظل المدينة .. والى عينيه العسليتين الكبيرتين اللتين لايرفعهما خوفا من أن يفضحا أحاسيس نفسه .. والى أنفه الكبير كأنه رأس سهم يتجه الى صدور أعدائه .. والى شفتيه الرقيقتين الصامتتين اللتين تطلان من فوق ذقن عريض قوى كأنه يختزن فيه كل ارادته ..

وما كاد يتعدى باب الحجرة وهو منكس الرأس ، حتى سمع شهقةخافتة ورفععينيه فرأى سامية واقفة قبالته مبهورة الأنفاس

كانت لا تزال فى جلباب نومها .. جلباب أزرق من الباتستا ، مشمر الأكمام .. وكانت قد فوجئت برؤية ابراهيم فرفعت يديها تضم طرفى ثوبها فوق صدرها ، ثم كأنها تذكرت انها لم تسوى شعرها ، فمدت احدى كفيها الى رأسها تسوى بعض خصلات الشعر المنثور فوق جبينها ..

وارتبك كلاهما حتى لم يستطيعا تبادل تحية الصباح.. وظلت عيناها المبهورتان معلقتين بعينيه المرتبكتين ، ثم كأنها تغلبت على نفسها ، ففرت من أمامه واختبأت خلف أحد الأبواب ..

ونظر ابراهيم الى نوال كأنه يعتذر لها ويحتمى بها.. وابتسمت نوال وتقدمته الى الحمام ، وهى تقول :

ــ أصل أختى سامية مشهورة بالكسل .. تقوم من النوم وتفضــل تلف من اوده لأوده .. ما تغيرش هدومها الا يدوبك قبل بابا ما ييجى ..

وابتسم ابراهيم دون أن يرد .. ثم دخل الحمام وأغلق على نفسه الباب .. ثم عاد وتأكد من انه أغلقه جيدا .. ووقف برهة فى وسط الحمام دون أن يتحرك .. انه يحس بالضيق .. ويحس انه مقيد فى هذا البيت أكثر مما كان فى السجن .. لقد كان حرا فى السجن .. كان كل من فى السجن رجالا .. اما هنا فحوله قضبان من البنــات .. وقضبــان فى نفسه من الحيــاء ، ومن احساسه بأنه يعتدى ــ بمجرد وجوده ــ على عفاف بيت كريم..

ولوى شفتيه ، وبدأ يغسل وجهه .. وعندما انتهى ، وقف حائرا أمام الباب .. هل يفتحه .. أم ينقر عليه قبل أن يفتحه حتى ينبه البنات ؟

وفضــل أن ينقر على الباب قبل أن يفتحه .. ونقر نقرات خفيفة .. ثم اشتد فى النقر وسمع صوت نوال تقول : اتفضل دائما نوال .. كأن ليس فى البيت غيرها ..

ولم يحس بالضيق لسماع صوتها .. بل أحس بالراحة ، كأنها صديقته الوحيدة فى هذه الدنيا التى أقحم نفسه عليها .. أو كأنه قرر أن يضمها الى أصدقائه السبعة الذين كانوا يشتركون معه فىعمليات الاغتيال ، وتعجب من نفسه لهذه الراحة التى يحس بها

وفتح الباب ووجدها أمامه ، تبتسم ابتسامة كبيرة .. ووجد نفسه يبتسم ابتسامة أكبر منها .. ثم اتجه الى الغرفة وهى وراءه .. وقبل أن يدخل ــ الى الغرفة ــ عاد والتفت اليها قائلا

وهو يشير برأسه الى النوافذ : تسمحى تقفلى الشيش ..
وبرقت عيناها كأنها فهمت بذكائها ما يقصده ، وكأنها تذكرت انها فى حضرة بطل .. فتقدمته الى الغرفة وهى تسير فى خطوات خفيفة نشطة ، كأنها تؤدى عملا وطنيا خطيرا .. وبدأت تنحنى فوق حافة النافذة لتجذب « شيش » النوافذ وتغلقه ..
ودخل وراءها وهو يتعمد ألا ينظر اليها .. وأمسك بمشط محيى ووقف أمام المرآة ، وهم أن يمشط شعره .. ثم تذكر وجود نوال ، فأحس بالخجل من أن يقف أمام المرآة .. كأن مما يعيب الرجولة أن يقف الرجال أمام المرآة .. فاستدار وطأطأ برأسه ومشط شعره فى حركة سريعة ، بلا مبالاة .. بينما كانت نوال تقول له وقد انتهت من اغلاق النوافذ :
ــ اتفضل افطر فى أودة السفرة على بال أنا ما أساوى الأودة
وتمتم فى صوت خافت : متشكر ..
وخرج من الغرفة .. وما كاد يخطو خطوات حتى التقى بالأم بوجهها المكتنز الصبوح ، وابتسامتها الطيبة .. وقالت أول ما رأته : صباح الخير يا ابنى .. ياللا يا ضنايا افطر ..
وقبل أن تسمع رداً لتحيتها ، قالت وقد علا صوتها :
ــ سامية .. يا اختى ، راحت فين البت دى .. مافيش جنس حاجة اتعملت فى المطبخ ..
ثم استطردت وكأنها تخاطب ابراهيم ونوال معا :
ــ علشان تعرفوا قيمة البت سنية ، كانت شايله البيت كله على دماغها ، وما كانش حيلتكم غير الامارة ..
ثم وجهت كلامها الى ابراهيم : اتفضل افطر يا ابنى ..
ثم الى نوال : تعالى انت معايا المطبخ ..
وردت نوال معترضة : أنا النهارده على تنظيف الأود .. وساميه هبه اللى عليها المطبخ ..
وقالت أمها : تعالى بس واسمعى الكلام ..
وسارت نوال وراء أمها وهى تهز راسها فى حركة غيظ .. وسار ابراهيم متحسسا طريقه الى حجرة الطعام .. وجلس الى المائدة وأمامه طبق الفول ، وقطعة الجبن ، وحبات الزيتون .. وبدأ يأكل منكس الرأس ، مثبتا عينيه أمامه ، لا يرفعهما حوله ، وكأنه يخشى ان رفعهما أن يرى حوله بنات عرايا ..
وكان يحاول أن يركز تفكيره فى خططه

كان يريد أن يتصل بأصدقائه فى الخارج ، وكانت وسيلة الاتصال بهم هى محيى .. انه مضطر أن يزج بمحيى فى خططه .. ليس أمامه وسيلة أخرى ..

وكان يريد أن يقرأ صحف الصباح ، لقد تعود منذ قبض عليه أن يفهم من قراءة الصحف أكثر مما يفهمه القارىء العادى . كانت قراءة الصحف أمرا هاما بالنسبة له ، وقد أقام ثورة فى السجن عندما منعوا عنه قراءة الصحف . ولكن هنا ــ فى هذا البيت ــ هل يستطيع أن يطلب الصحف .. بأى حق وبأى وجه

وهو يريد أيضا أن يعرف تأثير البلاغ الذى أذاعته الحكومة .. ان نوال لم تشر اليه ولا أختها ولا أمها .. ويبدو انهن تعمدن عدم الاشارة اليه ــ الى البلاغ ــ حتى لا يجرحن شعوره ، أو يشعرنه بخطورة وجوده بينهن واختبائه فى البيت .. وهن لطيبتهن لا يدرين انهن بذلك يزدن فى احراجه ويعقدن الأمور أمامه .. انه يفضل أن يعاملوه على انه انسان هارب .. انسان تطارده الحكومة .. حتى يستطيع أن يناقش خططه معهن بصراحة .. ولكنهن بنات وهو مضطر أن ينتظر الى أن يعود الرجال

وظل يلقى الطعام فى جوفه دون أن يحس له طعما .. وهو تائه فى خيالاته وخططه ، ويحس بالدقائق التى تمر به كأنها ساعات .. ولم يكن يحسب الدقائق التى تمر به فحسب ، بل كان يحسب الدقائق التى ستمر به حتى صباح اليوم التالى .. حتى يستطيع أن يفعل شيئا لاتمام خطة هربه ..

وانتهى من طعامه .. ومر وقت طويل بعد أن انتهى منه ، وهو لا يزال جالسا فى مكانه لا يرفع رأسه ولا عينيه كأنه أعمى ينتظر من يقوده خلال الطريق ..

وسمع صوت نوال بجانبه تقول : تحب تتفضل فى الأوده ؟

ورفع عينيه اليها كأنه وجدها أخيرا .. وقام وهو يتمتم :

ــ متشكر ..

ودخل الغرفة ، والتفت اليها يريد أن يقول لها شيئا .. كان يريد أن يسألها عن صحف الصباح .. ولكنه عاد وسكت .. انه لايستطيع أن يسألها ، لايستطيع أن يزيد عبئه على أحد

وقالت نوال وهى تبتسم : لو عزت حاجه ، اندهلى ..

وهمت أن تخطو ، ثم توقفت لتقول :

ــ الجرنال بابا بيجيبه معاه .. تحب أنزل أشتريلك واحد دلوقت ؟ ..

وقال وهو ينظر اليها فى دهشة ، كأنه يعجب كيف قرأت أفكاره : متشكر .. ما فيش لازمه .. بس لو سمحتى تفتحى الراديو ! ..

وقالت فى تردد :

ــ الراديو اليومين دول دمه تقيل .. مافيهش حاجه تتسمع !

وقال وهو يبتسم : على الأقل نسمع الأخبار ..

وقالت فى يأس : حاضر ..

وانصرفت عنه ..

وجلس وهو يحاول ألا يفكر فيها .. ولكنه كان يجد نفسه مضطرا للتفكير فيها . انه مضطر أن يفكر فى كل من حوله ، ليستفيد من كل منهم فى خططه .. وهذه فتاة ذكية جريئة يمكنه أن يعتمد عليها ، ربما أكثر مما يعتمد على أخيها . ولكن .. لا انها بنت .. وهو لا يؤمن بالبنات .. أو يشفق عليهن من أن يتحملن مسئوليات الرجال .. ثم انه لا يستطيع أن يزج فى خططه بابنة الرجل الكريم الذى آواه فى بيته .. لا يمكن .. ان شهامته تمنعه .. ورغم ذلك فكلما قلب فى ذهنه عشرات الخطط التى يضعها لنفسه ، وجد فى كل منها مكانا لنوال ..

وارتفع صوت الراديو ..

وكان المذيع يعلن نهاية نشرة الاخبار .. وهز رأسه أسفا ..

ظل ابراهيم جالسا وحده فى الغرفة ساهما حينا ، ويقلب فى كتب محيى حينا آخر .. والزمن يمر به بطيئا ويزداد ثقله فوق صدره ، الى أن سمع جرس الباب الخارجى يدق .. وانتبهت كل أعصابه .. وسمع قلبه يدق فى صدره كأنه يرتعش الرعشة التى لم يتعودها الا منذ أمس .. منذ بدأ فى تنفيذ خطة الهرب .. رعشة التوتر والخوف ! !

واستراح قليلا وهو يسمع صوت محيى يحادث أخته .. وبدأ يستعد لملاقاة صديقه .. علق على شفتيه ابتسامة ، وكسا وجهه بالهدوء .. ولكن محيى تلكأ قبل أن يدخل اليه .. وخيل اليه انه تلكأ طويلا حتى كادت ابتسامته تسقط من بين شفتيه ، ثم سمع نقرا على الباب .. وقال فى صوت بدا هادئا ليس فيه اثر لاضطراب نفسه : اتفضل ..

ودخـــل محيى .. أصفر الوجه كالليمونة الناضجة ، وكأنه عائد من رحلة شاقة استنزفت كل قواه وكل أنفاسه ، وكل دمه .. وكانت عينـاه مضطربتين لا يريد أن ينظر بهمـا الى ابراهيم .. وخطواته عصبية ، يسير كأنه يترنح ..

وفحصه ابراهيم بعينيه ، واستنتج مدى الاضطراب الذى يعانيه ، ثم قال دون أن يقف ليحييه متعمدا أن يرفع الكلفـة بينهما ، وكأنهما أصدقاء قدماء : أهلا ..

ورد محيى وهو يلقى بكراسة محاضراته فوق المكتب ، ويضغط باصبعه على قنطرة نظارته : ازيك دلوقت يا أستاذ ابراهيم ؟

قالها كأنه يؤدى واجبا .. ورنت كلمة « أستاذ » فى أذنى ابراهيم رنينا شاذا ، اضطر بعده أن يصمت كأنه يتدبر أمرا . كان يعتقد أن الكلفة قد رفعت بينه وبين صديقه من أمس .. ماذا حدث .. لعل السبب مجرد اضطراب أعصاب ..

وقام من مقعده وقد اتسعت ابتسامته ، كأنه يتودد بها الى صديقه ، ثم اقترب منه وهو يقول : وازاى الحال ؟ ..

وقال محيى ، دون أن ينظر اليه أيضا :

ـ الجامعة كلها بتتكلم عنك ..

وسأله ابراهيم فى اهتمام كأنه بدا يعمل : بيقولوا ايه ؟ ..

ونظر اليه محيى ، ثم عاد وأدار عينيه ، وهو يقول :

ـ والله ماسمعتش حاجة .. الحقيقـة انى تعمـدت انى ما أسمعش حاجة .. كان متهيأ لى انى لو ابديت اى اهتمام كل الطلبـة حيعرفوا انك عندنا .. فضـلت عامل نفسى كأنى ماعنديش خبر .. كأن ماحصلش حاجه فى البلد .. واضطربت أحضر كل المحاضرات رغم انى ماكنتش سامع ولا كلمة منها ، انما لمجرد انى ماغيرش عادتى .. اتهيأ لى لو ما حضرتش محاضرة الطلبة كلهم حيخرجوا يدوروا على وييجوا ورايا على البيت

ونظر اليه ابراهيم نظرة عطف ، ثم قال كأنه يسأل عن شىء لايعنيه : وكانوا بيقولوا ايه عن البلاغ اللى طلعته الحكومة ؟ !

وسكت محيى قليلا ، كأنه ظن ان ابراهيم يسأله عن رأيه هو لا عما يقوله الطلبة .. ثم قال :

ـ سمعتهم بينكتوا .. واحد قاعد ورايا فى المحاضرة كان بيقول للى جنبه .. زمان أبوك داير فى السكك بيدور على ابراهيم حمدى علشان يسلمه وياخد الخمستلاف جنيه

وضحك ابراهيم كأنه يضحك من قلبه .. وبدت ضحكته بعض الاضطراب الذى يعانيه محيى ، فعاد يقول :
ـ وواحد صاحبى جه يسألنى .. ياترى لو ابراهيم حمدى سلم نفسه يستحق ، من الناحية القانونية ، الخمستلاف جنيه !
قالها وهو يقلد زميله فى التحدث بلهجة فقهاء القانون ..
وضحك ابراهيم وهو يقول :
ـ لو ضمنت لى الخمستلاف جنيه مستعد أسلم نفسى !
وضحك محيى ثم قال بحماسة : والله ولا ميت ألف جنيه
وأحس ابراهيم أن الاضطراب قد زايل صديقه ، وانه نجح فى رفع الكلفة بينهما مرة ثانية ..
وسادت بينهما فترة صمت .. ثم قال ابراهيم كأنه اختار موضوعا بلا تعمد : ماشفتش فهمى عبد العزيز .. ؟
وقال محيى وهو لا يحس للسؤال بأى أهمية :
ـ لأ .. يمكن كان قاعـد فى البوفيه زى عوايده .. وأنا ما بارحش ناحية البوفيه أبدا ..
وعاد ابراهيم يسأل بلا مبالاة : وايه رأيك فيه ؟ ..
وقال محيى وهو لايزال يتكلم باهمال :
ـ ما احبـوش .. شكله ما يريحنيش .. عامل كده زى الفتوات .. والخطب اللى بيقولها أيام الاضراب كلها كلام فاضى
وقطب ابراهيم ما بين حاجبيه ، ثم عاد وأراح وجهه سريعا قبل أن يلحظ محيى تقطيبه ، وقال وهو ينظر الى الارض كأنه يحادث نفسه : انما ده شاب كويس .. قام بأدوار مهمة كتير
وتنبه محيى فجأة الى ان ابراهيم يتعمد اطالة الحديث عن فهمى عبد العزيز فقال فى تعجب : أنت تعرفه ؟ ..
وقال ابراهيم : أعرفه كويس ! ..
قال محيى : قصدى .. كان .. كان بيشتغل معاك ؟ ! ..
وقال ابراهيم فى اختصار : تقريبا ..
وكأن ابراهيم أراد أن يدفع محيى دفعة قوية ليفهم قصـده فقال : ده واحد من اللى كانوا عارفين انى حاهرب ! ..
وفغر محيى فاه وارتفع حاجباه حتى جاوزا نظارته .. وقال وقد عاد يضغط بأصبعه على قنطرة النظارة : وعارف أنك هنا ؟
وأجاب ابراهيم فى هدوء : لأ .. انما لازم اتصل بيه ! ..
وقال محيى بسرعة : وحاتتصل بيه ازاى ؟ ..

ورفع ابراهيم عينيه الى محيى ، ثم عاد وخفضهما قبل أن يكشفا عن قصده ، وقال فى لهجة حاول أن تخلو من خبث :
ــ أهو ده اللى لسه بافكر فيه !
ولم يرد محيى .. ساد بينهما الصمت كأن الاثنين يشتركان فى تفكير واحد ، الى أن رفع محيى رأسه قائلا :
ــ انت متأكد من فهمى ؟
قال ابراهيم فى تأكيد : جدا ، وزى ما انا متأكد من نفسى !..
وساد الصمت فترة أخرى دون أن يحاول ابراهيم أن يتكلم ، وكأنه يترك لصاحبه فرصة التفكير واتخاذ قرار ، وهو يرفع اليه عينيه بين برهة وأخرى فى نظرات مختلسة ..
ثم قال محيى فجأة ، وكأنه تعب من التفكير دون أن يصل الا الى قرار واحد لا بد منه :
ــ يظهر ان مافيش طريقة الا انى أكلمه بنفسى
وابتسم ابراهيم بينه وبين نفسه كأنه يهنئها بالانتصار .. كان هذا ما يريده .. وكانت هذه هى عادته ، الا يملى قراراته على زملائه ولا يطلب منهم شيئا ، ولكنه يقودهم بسياسته الى القرار الذى يريده والى ما يطلبه منهم . ويتركهم مقتنعين بأنهم أصحاب القرار ، وأصحاب الطلب ..
وسكت ابراهيم قليلا كأنه يفكر جديا فيما يقوله زميله ، ثم قال كأنه خضع للأمر الواقع : أظن هيه دى الطريقه الوحيده !..
وتردد محيى كأنه كان يرجو أن يرفض زميله فكرته ، ثم قال فى حيرة واضطراب : انما حاقول له ايه ؟ ..
وعاد ابراهيم يتظاهر بالتفكير وهو فى قرارة نفسه يشفق من سذاجة صديقه : قول له « الامانة عندنا » أو أى كلمة يفهم منها انك عارف أنا فين .. بس بلاش تنطق اسمى ..
وقال محيى فى عصبية :
ــ انما انا ما اعرفوش .. وماحدش من الطلبة شافنى بكلمه أبدا .. ويمكن لما يشوفونى يشكوا فى الموضوع ..
وقال ابراهيم وهو لا يزال هادئا :
ــ اعمل نفسك بتديله كراســة محاضرات .. ولا كلمه وانت ماشى جنبه .. انما أنا متأكد ان ماحدش حيشك فيك حتى لو كلمته من غير أى احتياط
وأحس محيى انه اهين عندما قال ابراهيم ان أحدا لن يشك

فيه .. أحس انه انسان ليس جديرا بالبطولة . ولكنه قال كأنه استسلم لقدره : وبعدين .. ! !

وقال ابراهيم : ولا حاجه .. سيبه هوه يتصرف بعد كده .. هوه حيعمل كل حاجه .. وحياخد الاحتياطات كلها ..

وسكت محيى كأنه جرى بخياله الى الغد .. الى فنــاء الجامعة .. الى زملائه الطلبة .. والى فهمي عبد العزيز بالذات

وقال ابراهيم وهو يبتسم ابتسامة صغيرة :

ـ انا آسف يا محيى اللى باتعبك ، مش عارف أشكرك ازاى !

وقال محيى فى اختصار باتر : العفو ..

ثم قام وجلس الى مكتبه ، وفتح كتابا من كتب القانون ، وامسك بيده قلم رصاص ، وبدأ يستذكر ..

وقال ابراهيم كأنه يحاول أن يغير الموضوع قبل أن يبــدأ صديقه فى المذاكرة : هوه الامتحان امتى ؟ ..

ورد محيى دون أن يرفع عينيه عن الكتاب : بعد شهر ونصف !

وسكت ابراهيم قليلا ثم قال : كان حقك جبت لنا الجرنال معاك

وقال محيى ورأسه لا يزال فى الكتاب :

ـ زمان بابا جاى وجايبه معاه !

وسكت الاثنان .. وأمسك ابراهيم بكتاب آخر وأخذ يحاول أن يقرأ فيه .. وفجأة رفع محيى رأسه ، وقال فى صوت أجش كأنه يتعثر بأفكاره المزدحمة فى رأسه : لكن دول بيقولوا على فهمى عبد العزيز انه جاسوس السراى ! ..

ورفع ابراهيم رأسه عن الكتاب فى هدوء ، وقال فى صوت اكثر هدوءا : ياشيخ .. ما تصدقش ؟ ..

وعاد محيى يتكلم وكأنه يلح أن يصــدقه زميله : وبيقولوا ان الحكومه بتعتقله علشان يتجسس على بقية المعتقلين ! ..

وقال ابراهيم وهو لم يفقد هدوءه :

ـ ياشيخ حرام عليك .. ده من أشرف الطلبة !

وظل محيى قاذفا بعنقه نحو زميله ، وكأنه يبحث عن حجة أخرى يقولها .. وقبل أن يثنى رأسه ويعود به الى كتابه ، قال له ابراهيم وهو يبتسم كأنه يشجعه : لو ما كنتش متأكد من فهمى ما كنتش أمنت له على نفسي .. وعليك ! ..

وكأنما اطمأن محيي لسماعه كلام زميله واكتشف فيه شيئا كان قد نسيه .. فعاد الى كتابه مطمئنا ..

وسمع الاثنان جرس الباب ..

وانتبهت أعصاب ابراهيم .. وسمع مع جرس الباب دقات قلبه .. هذه الدقات المرتعشة التى تتبعه ، وتهز من ثقته بنفسه .. وقال محيى : ده لازم بابا ..

وسمعا فعلا صوت الأب .. وقال محيى :

ــ عن اذنك .. دقيقة واحدة !

وخرج ، وجلس ابراهيم ينتظر ، وكان ينتظر بلهفة أن يدعوه الأب اليه ، أو أن يدخل عليه.. وكان تلهفه لا على سماع الأخبار فحسب ، بل كان يريد أن يطمئن على الأب نفسه . على حالته العصبية .. وعلى شعوره نحوه .. وعلى قدرته على تحمله فى بيته بعد البيان الذى أذاعته الحكومة ..

وعاد محيى وحده وفى يده جريدة الاهرام ، وقال وهو يناولها لابراهيم : بابا بيطمن عليك ..

وقال ابراهيم فى عجلة : متشكر .. وأخباره ايه ؟ ..

وقال محيى دون اهتمام : والله ماتكلمش .. أصل من عادته فى رمضان انه يرجع تعبان وينام على طول ..

وأحس ابراهيم كأن لهفته سقطت فى ثلاجة ، ولكنه أقنع نفسه انها « بشرة خير » ما دام الأب لم يغير عادته ..

وأخذ الجريدة بين يديه وأخذ يقرأ اسمه فى العناوين الضخمة وبين شفتيه بسمة ساخرة ، كأنه يسخر من الناس كلهم الذين يقيمون له كل هذه الضجة

ولم يبدأ بقراءة البيان الرسمى ، بل أخذ يقرأ فى نهم التفاصيل التى جمعتها الصحيفة .. وأخذت ابتسامته تزداد اتساعا ..

ليس فى المنشور أثر بأن هناك من يتبعه .. ولم يتقدم واحد من سائقى سيارتى الأجرة اللتين استقلهما فى هربه ، لأداء الشهادة ، حتى الطبيب الذى لمحه وهو يهرب ، لم يرد اسمه

واكفهر وجهه فجأة وهو يقرأ خبرا على جانب الصفحة بعنوان : « التحقيق مع حارس ابراهيم حمدى » .. ان وزير الداخلية أمر بتكوين مجلس تحقيق للضابط الذى كان يقوم على حراسته .. هذا الشاب الطيب المهذب .. ما ذنبه ؟ .. ذنبه انه وثق به .. وقد خان ثقته .. غرر به .. ضيع مستقبله .. مستقبل شاب مصرى لا ذنب له ..

وارتفعت صرخات فى نفس ابراهيم ، كأنه يصفع نفسه ..

انه أنانى .. انه مجرم .. انه يؤذى كل من يقترب منه .. كل من يثق به .. ان هذا الشاب ليس خائنا .. وليس عميلا للانجليز .. فلماذا يؤذيه ؟ ورغم ذلك فقد كاد أن ينساه !!

واشتد به الكرب .. أحس أن أنفاسه قد احتبست فى صدره وتكاد تخنقه .. وحاول أن يخفف عن نفسه .. أخذ يقول لنفسه « انى أهرب من حكم الاعدام .. أما هو فلن يصيبه الا قرار بالنقل .. أو تأخير ترقيته »

ولكنه لم يقتنع .. أخذ احساسه بأنه خان ثقة شاب لا ذنب له ، يتجسم فى مخيلته ..

وهب واقفا ، وهو يقول لمحيى فى لهجة آمرة ، لم يتفوه بها من قبل : ادينى ورقه وقلم ! ..

وناوله محيى ورقة قطعها من كراسة ثم أعطاه القلم وهو ينظر اليه فى دهشة كأنه مبهوت ..

وجلس ابراهيم يكتب : «عزيزى الملازم أول جميل عزت ..»

وتوقف عن الكتابة قليلا .. انه يريد أن يكتب له خطاب اعتذار .. يريد أن يفسر له لماذا هرب منه ، ولماذا خان ثقته .. يريد أن يدافع عن نفسه .. وبدأ يكتب مرة ثانية : « بعد التحية .. كان يجب على أن أكتب لك لأبرر ما فعلته .. و .. و .. »

وتوقف عن الكتابة ..

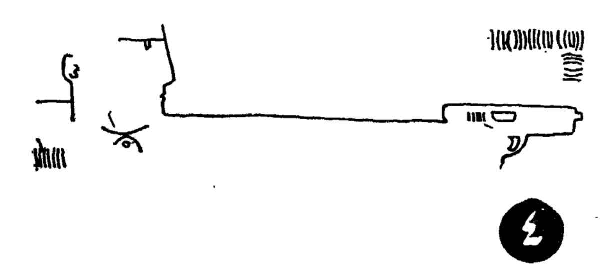
انه لا يستطيع أن يكتب له .. ان ارسال خطاب قد يفسد خطته .. بل قد يسىء الى موقف الضابط اثناء التحقيق الذى تجريه له وزارة الداخلية .. وألقى القلم من يده

وألقى راسه بين يديه ، وقد أحس انه يقسو على نفسه ، أكثر مما يقسو على الضابط الذى لن يعتذر له ..

وسمع محيى يسأله فى لهفة : مالك يا ابراهيم ..

ورفع ابراهيم رأسه وقد استعاد قناعه ، وقال فى هدوئه المفتعل : ولا حاجه ..

ونسى ـ بين عواطفه المضطربة ـ أن يمزق الورقة التى كتب عليها اسم الضابط !!



٤

واطلت نوال من الباب .. لم يعد باقيا على موعد الافطار سوى نصف ساعة .. وقالت وهى تتحرك فى الغرفة كأن ليس فيها شخص غريب : بابا بيقول لكم اتفضلوا فى أودة القعاد ..

وطوى محيى كتابه فى حركة سريعة كأن الملل من القراءة كان يأكل صدره منذ ساعات ..

واعتدل ابراهيم فى جلسته وأسقط جريدة الاهرام من يده ، وبدأ يتابع نوال فى نظرات مختلسة ..

عجيبة .. انه لا يكره البنات .. ليس الى الحد الذى كان يعتقده .. انه على الاقل لا يكره نوال ، ولا يتجاهلها .. بل يشعر براحة كلما سمع صوتها ، وكلما أحس بها بجانبه .. راحة كالتى يحس بها انسان حر .. انسان لم يقتل ، ولم يسجن ، ولم يفر ، ولا تطارده الحكومة .. راحة كالتى كان يحس بها فى بيته ، عندما كان يغلق على نفسه باب حجرته ، ويهدأ كل شيء حوله ، ويبقى وحده ساعات طويلة ، بينما يحس فى قرارة نفسه انه ليس وحده ، انما هناك شخص آخر .. أمه فى الغرفة المجاورة وأنفاسها فى البيت كله .. ان نوال تذكره بأمه .. لا ، انها تذكره بالهدوء والراحة .. لا ، انها تذكره بالحرية .. الحرية ..

انه يحس الآن فى هذا البيت بحاجته الى الحرية أكثر مما كان يحس بها فى السجن .. انه يحس كأنه ازداد تشبثا بالحياة .. أسباب جديدة لا يتبينها جعلت الحياة اثمن لديه مما كانت ، وأثمن مما كان يعتقد .. ربما كان هذا البيت الذى لجأ اليه ،

والطيبة التى تحوطه ، والحياة البسيطة الساذجة التى تجرى فيه .. ربما كان هذا هو السبب الذى يزيده تشبثا بالحياة .. انه لا يحس هنا أن فى مصر انجليز ، أو خونة ، أو ثورة ، أو حكومة ظـــالمة .. انه يحس ان مصر كلها كهذا البيت .. طيبة بسيطة ، يحوطها الهدوء والسلام ..

طافت بذهنه كل هذه الخواطر فى لحظة واحدة ، وهو يقوم من على مقعده ويساوى قميصه وسرواله ..

وقال محيى وهو يتقدمه نحو الباب :

ـ اتفضل .. يا أستاذ ابراهيم !

وابتسم عندما سمع كلمة « أستاذ » .. انه كلما سكت عن صديقه فترة ، عاد ووضع التكليف بينهما !!

وقالت نوال وهما متجهان الى الباب :

ـ أنت يا محيى ما تقعدش على المكتب الا لما تلخبط كيانه

وقال محيى دون أن يلتفت اليها : علشان تلاقى حاجه تعمليها ، يعنى حتعملى ايه اذا ما لقتيش حاجه تساويها !

وانحنت نوال تجمع جريدة الاهرام من فوق المقعد حيث تركها ابراهيم ، ثم بدأت تجمـع الكتب والكراسات والأوراق المتناثرة من فوق المكتب وترتبها فى نظام جميل .. ولم تعرف انها دست بين أوراق وكتب أخيها ، الورقة التى نسى ابراهيم أن يمزقها .. الورقة التى كتب عليها ابراهيم بخط يده ، اسم الضابط الذى كان يقوم على حراسته ..

ودخلا الى حجرة « القعاد » ..

وانحنى محيى يقبل يد أبيه . ثم قام الأب من جلسته فوق الأريكة « الاستامبللى » نصف قومة وهو يصافح ابراهيم ..

وجلس كل منهما على مقعد فى مواجهة الأب .. محيى فى المقعد « الاسيوطى » العريض الذى يبدو فيه صغيرا الى حد أن يتسع لشخص آخر بجانبه .. وابراهيم على مقعد خيزران .. وقد جلس فى أدب وصمت ، وهو يعانى بينه وبين نفسه نوعا من القلق ، فلم يكن حتى هذه الساعة قد حدد بالضبط الدور الذى يجب أن يقوم به أمام الأب .. هل يقوم بدور الابن المهذب المطيع المسكين ، أم يقوم بدور الرجل الكامل الذى يناقش ويضـع الخطط ويجر اليها الأب نفسه ؟؟ هل يبدو بكل شخصيته أمام الأب ، أم يخفى جزءا منها احتراما له ؟!

ورفع عينيه الى الأب فى لمحة خاطفة .. ورآه مهموما ، عابسا كأن حملا ثقيلا يضغط على كتفيه .. ورآه كأن لون وجهه قد تغير عن الأمس ، وكأنه قد ازداد نحولا وهزالا عن الأمس ..
ومرت فترة صمت ..
ثم تنحنح الاب كأنه ينفض بعض همه وقال فى صوت مجامل :
ــ ازيك دلوقت يا ابنى .. على الله تكون نمت كويس امبارح !
وقال ابراهيم : الحمد لله ياعمى ..
ثم كأنه أراد أن يخفف من حدة التكلف الذى يحيط بهم ، فاستطرد قائلا : الحقيقه أنا قمت امبارح أكتر من اللازم ! ..
ولم يعلق الأب .. لم يتكلم ولم يبتسم ..
ومرت فترة صمت أخرى تبادل خلالها محيى وابراهيم النظرات ثم قال الأب كأنه يحادث نفسه :
ــ أنا النهارده شفت والدك خارج من باب وزارة الاشغال .. كنت حانسى نفسى وأروح أسلم عليه .. انما كان باين عليه انه مهموم خالص ..
وتنهد الأب كأنه يعنى نفسه بذكر الهموم ..
وقال ابراهيم كأنه لا يزال يحاول أن يخفف التوتر الذى يحيط بهم : أظن والدى خد خلاص على الحاجات دى ..
ونظر اليه الأب نظرة غاضبة كأنه ينهره ، وقال بصوت غاضب : الأب أب مهما كان .. عمره ما يرضى لابنه بالضيم ولا بضياع مستقبله ! ..
وسكت ابراهيم .. وأرخى عينيه وهو يبتلع ريقه ..
وكأن غضبة الأب قد زودته بجرأة كان يبحث عنها ، فعاد يقول وهو يحاول أن يبدو صوته هادئا :
ــ يا ترى عرفت تتصل بأصدقائك النهارده ..
وقال ابراهيم بعد أن نظر الى محيى نظرة خاطفة كأنه يوصيه الا يتكلم : بكره باذن الله .. كان لازم أفوت يوم علشان البوليس ما يخدش باله ..
وسكت الأب كأنه اقتنع ، ثم قال بعد فترة :
ــ وياترى حتتصل بيهم ازاى !
واحتار ابراهيم بماذا يجيب .. وعاد ينظر الى محيى كأنه يسأله : « هل والده يقر الخطه التى اتفقا عليها » .. ولكن محيى كان قد غاص فى مقعده أكثر ، وغاص وجهه فى سحابة صفراء ..

واستبدت الحيرة بابراهيم .. انه لم يكن يحتار أبدا أمام أى سؤال يسأله زملاؤه الشبان .. الثائرون مثله .. ولكنه لم يتعود على أسئلة الكبار .. الجيل السابق .. وكان فى حيرته يحادث نفسه : « انه لم يتعود فى حياته أن يطلع أباه على خططه الوطنية .. فهل يطلع عليها هذا الأب .. هل يقول له انه قرر أن يتولى ابنه مهمة الاتصال بأصدقائه .. وانه سيزج بابنه فى خططه ويعرضه لكل ما تصبه الحكومة على الوطنيين من عذاب .. وهل يرضى الأب بذلك .. هل يسكت وهو يرى ابنه يسير بقدميه نحو الحقل الملغم . انه رجل وطنى ، مخلص فى وطنيته ، والا لما قبله فى بيته .. ولكن أى نوع من الوطنية .. وما قدرتها وطاقتها على الاحتمال .. انها على الأرجح وطنية سلبية .. وهى تدافع عن سلبيتها بعنف وقسوة .. والسيد مصطفى أحمد زاهر سيدافع عن سلبيته .. سيثور عندما يعلم أن ابنه سيقوم بدور ايجابى .. وقد تنتهى ثورته بأن يطرده من البيت .. أن يضحى بشهامته فى سبيل سلامته ويطرد ضيفه الخطير الذى فر اليه والحكومة كلها وراءه . لا ، لن يقول له شيئا ، يجب أن يبقيه بعيدا عن خططه ، كما أبقى والده بعيدا عنها .. وكما يقف كل الآباء بعيدا عن خطط أبنائهم » ..

والتفت الى محيى لفتة سريعة ونظر اليه بكل عينيه كأنه يسلط ارادته عليه حتى يشل لسانه ، لئلا يتكلم ويقول شيئا لأبيه .. ولكنه كان فى الوقت نفسه ، لايزال يحادث نفسه : ولماذا لا أقول له الحقيقة .. انه رب البيت الذى يؤوينى ، ويجب أن أثق به .. لماذا لا أثق فى عقلية الشيوخ .. ربما كان عنده رأى ينفعنى ، وينقذنى .. رأى يستمده من تجاربه وحرصه وحماسه الهادىء .. ثم الأمانة .. يجب أن أكون أمينا معه .. أقل ما يجب على .. الأمانة .. وكفاه ما عرضته له » ..

وطال تردده الى أن سمع الأب يقول : مش ضرورى .. انا مش عايزك تقول الا الحاجات اللى تمسنى وتمس بيتى ! ..

وقال ابراهيم ، والكلمات تكاد تتعثر فوق لسانه كأنها ترتطم بتردده : الحقيقة لسه ما قررتش اتصل بيهم ازاى .. انما بكره حيتم كل شىء باذن الله ! ..

وقال الاب كأنه ينصحه :

ــ انا شايف ان ظروفك بقت صعبة جدا بعد البلاغ اللى

اذاعته الحكومة .. الناس البطاله كتير ، خمستلاف جنيه مش شويه .. لازم تعمل حسابك على كده ..
وقال ابراهيم فى استسلام : ربنا يستر .. اطمئن ياعمى .. بكره كل حاجه حتنتهى على خير ! ..
ونظر اليه الأب وفى عينيه دهشة وفيهما تأنيب ، كأنه يتهمه بالوقاحة اذ يتكلم عن الاطمئنان ..
يطمئن ! ! كيف ؟ ..
وهل يعلم مثل هذا الشاب مدى حاجته اليوم الى الاطمئنان ؟ وكيف يعلم وليس له زوجة ولا أولاد وليس وراءه هذا الماضى الطويل الذى قطعه خطوة خطوة ، وكل خطوة بحساب .. وليس أمامه مثل هذا المستقبل القصير الذى يحتاج الى كل دقيقة فيه ليصنع لزوجته وأبنـائه ما يطمئنه عليهم من بعده .. وليدفع الحياة فيهم بعد أن يتركهم وحدهم ..
واعتدل فى جلسته وألقى بأذنيه الى الراديو كأنه يتابع تلاوة القرآن ، وعاد الصمت لا يقطعه الا صوت المقرىء ، والا نظرات قليلة مختلسة يتبادلها ابراهيم ومحيى ، والا نحنحة الاب بين الحين والحين ..
وفجأة ، واجه الاب ابراهيم مرة ثانية ، وقال فى حدة كأنه ينفس عن بخار اختزنه طويلا فى صدره :
ـ أنا اللى عايز أعرفه ، انتم عايزين ايه .. ما فيش حد فى البلد عاجبكم .. ما فيش راجل ماشيين وراه .. النحاس مش عاجبكم ، النقراشى مش عاجبكم ، الملك مش عاجبكم .. تبقوا عايزين مين ؟ .. مين اللى حضرتك عايزه يحكم البلد .. حتقوللى كلهم ما ينفعوش .. كويس .. موافقين .. انما مين ؟ هايجين ومهيجين البلد علشان ايه ؟ .. ما تسكتوا وتوفروا تعبكم لغـاية ما تلاقوا الراجل الكويس اللى انتم عايزينه ..
وبوغت ابراهيم بهذه الثورة ، والتفت الى محيى كأنه يسأله عن اللغة التى يمكن أن يحادث بها أباه .. وقبل أن يتكلم ، كان الأب قد استطرد قائلا كأنه يدافع عن نفسه ، عن نظريته فى الحياة :
ـ زمان فى ثورة تسعتاشر كان فيه زعيم .. البلد كلها ماشيه وراه .. كان فيه سعد زغلول .. وكانوا الناس عارفين هم بيعملوا ايه .. عارفين عايزين ايه .. سـعد زغلول يتفاوض ويحقق الاستقلال .. انما دلوقت مين يحل محل سـعد زغلول ؟ ومين

يفاوض الانجليز والا يحاربهم ؟ !
والتفت الاب الى ابنه كأنه يعنيه بكل هـذا الكلام ، ويتعمد أن يقنعه به ليحميه من مبادىء صديقه ..
وكان فى لهجة الأب لون من التحدى ، وكان وكأنه يتعمد هذا التحدى .. ويتعمده أمام ابنه بالذات ، حتى يقنعه بأنه هو أيضا ــ الابن ــ يستطيع أن يتحدى ابراهيم فى آرائه ..
ولم يقبل ابراهيم أن يناقش الاب .. لم يقبل التحدى .. وكان يعرف كيف يرد عليه .. كان يستطيع أن يقول انه لا يسير وراء زعيم ، ولكنه يسير وراء مبدأ .. وانه لا يبحث عن شخص يحكم مصر ، ولكن يبحث عن الحرية ، والمساواه ، والرخاء لمصر .. ولكنه لم يرد .. لم يناقش ، ربما لطبيعته التى كانت تتسع لسماع كل الآراء دون أن يثار ، وربما لأن الاحترام المفروض عليه تجاه الأب يمنعه من مناقشته ، وربما لأن ذكاءه دله على انه ليس فى موقف يستطيع فيه أن يدخل فى أية مناقشة سياسية..
وقال فى صوته الهادىء وهو يتعمد أن يغير مجرى الحديث :
ــ حضرتك اشتركت فى ثورة تسعتاشر ؟ ..
وتنازل الاب عن تحديه بسرعة .. كأن هذا التحدى لم يكن سوى زفرة دخان .. وسرح بعينيـه وعلت شفتيه ابتسـامة خفيفة كأنه يترحم بها على ذكرى سعيدة .. وقال فى هدوء :
ــ كل البلد اشتركت فيها..كان عمرى أيامها خمستاشر سنة ما كنتش اقدر أروح أسمع سعد زغلول لما يخطب وما كنتش باشترك فى المظاهرات .. انما كنت حافظ خطب سـعد صم ، وكان والدى ــ الله يرحمه ــ يوقفنى أمامه ويسمع لى الخطب ، واحدة واحدة ..
وابتسم ابراهيم ابتسـامة حانيـة كأنه يرى أمامه صبيا فى الخامسة عشرة من عمره ، يعيش بقلبه ، وخياله ، وكل ما يتسع له ذهنه ، مع سعد .. واستطرد الأب قائلا :
ــ كانت ثورة بصحيح .. وكانت البلد كلها يد واحدة !..
ودخلت الام ..
كانت خارجة من المطبخ ، وصـهد « وابور الغـاز » يصهر وجهها المكتنز فيبدو كأنه وجه عروسة كبيرة من عرائس الأطفال
وبددت ابتسامتها الطيبة الجـو القلق الذى يحيط بالرجال الثلاثة ، وكأنها جاءت تحمل اليهم رسـالة الحياة والسـلام ..

فتحرك فى الثلاثة أجمل ما فيهم ٠٠ ابتسم الاب ابتسامة حـاول عبثا أن يخفيها تحت قنــاع الحــزم والصرامة الذى يصر على أن يبدو به ٠٠ ورفع محيى رأسه الى أمه كأنه يرفع اليها قلبه ، ونظر اليها من خلال نظارته بعينين والهتين كأنه يلجأ اليها لتحميه تحت جناحيها ٠٠ وقام ابراهيم واقفا كأنه التنى بايمانه ٠٠ الايمــان الذي لا يداخله شك فيه ٠٠ ايمان يزوده بالحياة كلها ٠٠ الايمان بالأم ٠٠

وقالت الام فى لهجتها المتعجلة ، وكأنها دائما مشغولة ٠٠ودائما لا تستطيع أن تقف حتى لا تقف الحياة نفسها :

ـ فاضل اد ايه على المدفع يا جماعة ؟ ..

ثم التفتت الى ابراهيم وهى تضع يدها على كتفه قائلة :

ـ اتفضل يابنى .. اقعد ياضناي ربنا يحميك ويحرسك !

وقال محيى بعد أن نظر الى الساعة .. قال بسرعة وكأنه يعلم أن أمه لا تنتظر أبدا جوابا على أسئلتها :

ـ فاضل خمس دقائق ..

وقالت الأم ، كأنها تلومه لأنه أجابها :

ـ طيب اتفضل حضرتك افرش سجادة الصلا لبابا .. ما هو كل واحد لازم يعمل حاجه ، البنتين هلكوا النهارده ياحبة عينى..

ثم التفتت الى زوجها قائلة دون أن تغير نغمة صوتها :

ـ اسمع يا زاهر .. أول البت سنية ما ترجع ، باذن الله من غير مقاطعة ، أنا حزود ماهيتهــا ريال ٠٠ دى أتاريها كانت شايله البيت شيل !

وقال الأب ، وهو يتنهد ، كأن عودة سنية بمثابة ازاحة الهم من البيت : باذن الله ! ..

وقام محيى واعتلى حافة المقعد « الاسيوطى » وجذب من فوق الدولاب سجادة الصلاة ..

واعتدل ابراهيم على حافة مقعده كأنه يهم بالقيام ، وقال وهو يبتسم ابتسامة كبيرة : أقدر أساعد فى حاجه يا افندم ؟ ..

والتفتت اليه الام وقالت بلهجتها السريعة :

ـ يا ابنى كفايه الهم اللى انت فيه ده احنا كلنا نخدمك بعنينا !

وانكمشت ابتسامة ابراهيم فوق فمه ، كأنها تفرق فى ذكرى همه .. أو كأنه تذكر شيئا كان قد نسيه .. تذكر انه ليس عضوا فى هذه العائلة .. وليست هذه الام أمه .. وانه ليس

كمحيى .. لم يكن مثله أبدا .. حتى فى بيته .. لم يتمتع بهذا الهدوء ، وهذه الطيبة ، ولم تكلفه أمه يوما بشيء من أعمال البيت
وخرجت الام ، وهى تقول كأنها تحادث نفسها :
ـ أما اروح أغرف الأكل ، زمان البنات محتاسين !
وخرجت ، وهى تسير فى خطوات نشطة كأن اكتناز جسدها حشو من ريش النعام ..
وانطلق صوت مدفع الافطار ، بينما كان مقرىء الاذاعة لم يختم التلاوة بعد .. وقال محيى وهو يقوم من على مقعده :
ـ اظن المدفع ضرب ..
وقال والده دون أن يتحرك : استنى لما نسمع الادان ..
وارتفع صوت المؤذن .. وظل الوالد لا يتحرك الى أن انتهى الأذان .. ثم قام وهو يعدل الطاقية فوق رأسه .. ووقف للصلاة بينما قفز محيى من على مقعده ، وقال وهو يدفع ابراهيم أمامه تأدبا : اتفضل يا ابراهيم ..
ثم همس فى أذنه بصوت لا يكاد يتجاوز شفتيه :
ـ اوعى تكون زعلت من كلام بابا ..
وقال ابراهيم بلا مبالاه : أبدا ..
وخرج الاثنان ، والتقيا فى الممر المؤدى الى حجرة المائدة ، بسامية ونوال خارجتين من المطبخ وكل منهما تحمل طبقا من أطباق الطعام ..
وابتسمت سامية لابراهيم ابتسامة خجلة كأنها تؤدى بها واجبا مفروضا عليها .. ومالت نوال برأسها اليه ، وقالت فى صوت خفيض كأنها تحاول أن تخفف عنه :
ـ ابقى قوللى رأيك فى المسقعة .. انا اللى عملاها ! !
وابتسم ابراهيم ابتسامة كبيرة .. كأنه بدأ يحس من جديد انه فى بيته ..
والتفوا وقوفا حول المائدة .. ثم جاءت الام تحمل طبقا كبيرا من الارز ، ناولته لسامية لتضعه على المائدة ، وهى تقول :
ـ اقعدوا يا اولاد على بال بابا ما يصلى ..
ثم لمحت محيى وهو يمد يده الى سلطانية المخلل ، فنهرته قائلة :
ـ ما تفطرش على مخلل .. خاف على معدتك يا ابنى .. ده حتى حرام عليك .. السنة بتقول اننا نفطر على بلح ! !
وقال محيى ضاحكا : أصل أيامها ما كنش فيه مخلل ! !

وتجاهلته الام الطيبة ، وقالت لابراهيم وهو حائر أين يجلس :
ــ اقعد يا ابنى هنا جنب محيى .. نورتنا .. !
وجلس ابراهيم وهو يقول فى صوت خفيض : متشكر ..
وعادت تقول له وهى تملأ له كوبا من شراب القمر الدين :
ــ والنبى يا ابنى أنا مش صعبان على الا الست والدتك .. دى عمرها ما تقدر تتهنى على لقمه وانت بعيد عنها ..
وأحس ابراهيم بأن قلبه ينقبض حتى تكاد الدماء تختنق فيه .. انه يعلم ان السيدة الطيبة لا تتعمد تذكيره بأمه .. لا تتعمد أن تثير شجونه ، أو تثير عواطفه التى يخفيها فى أعماق نفسه حتى يكاد ينساها .. انها سيدة طيبة ، ورغم ذلك فهى تؤلمه .. تعذبه .. بلا تعمد !.. ومد يده يتناول كوب الشراب ، ونكس عينيه فى طبقه لا يرفعهما ..
وجاء الاب وجلس دون أن يلتفت الى أحد ، ثم رفع الملعقة وأسقطها فى طبق الشوربة ، وهو يتمتم « اللهم انى لك صمت ، وعلى رزقك أفطرت » !
وانهمكت العائلة فى تناول طعام الافطار .. الاب صامت دائما .. والام تنقل عينيها بين الوجوه ، ولا تكف عن اصدار التعليمات ، كأنها قائد ماهر يدير معركة حياة أو موت .. « ما تكلش عيش كتير يا محيى .. اعمل حسابك على الكنافة » .. « سامية .. قربى طبق الرز من الاستاذ ابراهيم » .. « ما تاكل ياخويا .. انت عايز عزومه والا ايه ؟ » ..
ورفعت نوال رأسها وقالت : ايه رأيكم فى المسقعة ؟..
وتذكر ابراهيم انه يجب أن يقول رأيه .. ولكنه أحس بحرج شديد كأنه يهم بأن يقول كلمة غزل لا يصح أن تقال .. وانتظر أن يبدأ أحد من أفراد العائلة بابداء رأيه فى المسقعة .. ولكن واحداً منهم لم يتكلم ، وكأنه هو وحده الذى سمع سؤال نوال .. وأحس أنه يجب أن لا يتخلى عنها .. يجب ان يشعرها باهتمامه .. وان يشعرها بأن « المسقعة » عمل رائع تهنأ عليه.. فقال بصوت خفيض دون أن يرفع عينيه اليها ، وقد ازدرد وجهه حياء : مدهشة ! ! ..
والتقطت نوال كلمته فرحة ، وقالت كأنها تخاطب افراد العائلة كلها : أنا اللى عاملاها ! ..
وردت سامية وهى تنظر اليها بتحد : بذمتك انتى اللى عملاها..

هو اللى يقشر بدنجان يبقى اسمه عمل مسقعة ! !
وصاحت نوال كأنها تدافع عن نفسها :
ـ لا ياشيخه .. بأه كل اللى عملته تقشير بدنجان ..
ثم التفتت الى أمها قائلة :
ـ والنبى يا ماما ، مش أنا اللى قليت البدنجان وعملت كل حاجه ..
وقالت أمها دون أن تنظر اليها :
ـ أيوه .. اسكتى بأه .. بس يا سامية !
ونظرت نوال الى ابراهيم كأنها تشهده على انتصارها ..
وقال محيى ساخرا :
ـ وانا قاعد أقول يا ترى ايه الفلط اللى فى المسقعة دى !
وردت نوال بسرعة :
ـ طب حاسب على صوابعك ..
ورفع الاب عينيه وفيهما نظرة متبرمة ، ودار بهما دورة سريعة بين وجوه المجتمعين ، كأنه يأمرهم بالسكوت ..
وسكتوا جميعا .. حتى الام سكتت ، ولم تتكلم من جديد الا بعد أن جاء دور الكنافة .. وانتهى الافطار ..
وانتقل الرجال الى حجرة « القعاد » .. وبقيت الام وابنتاها يجمعن الاطباق من فوق المائدة وينقلنها الى المطبخ ..
وساد الصمت فى حجرة « القعاد » .. الاب صامت فى تبرم ، كأنه يعانى عسر الهضم ، وكأن تزاحم الافكار على رأسه قد اجتذب كل دمائه ولم يبق شىء منها يحرك به معدته .. وابراهيم صامت فى قلق ، كأنه يتربص فرصة ينتقل فيها الى الغرفة الاخرى ليخلو الى نفسه بعيدا عن الاب ، وبعيدا عن فروض المجاملة والتأدب التى يفرضها عليه وجود الاب أمامه .. ومحيى صامت ، يحاول أن يسلى نفسه بشىء .. فينقر بأصابعه على المقعد ، ويضغط على قنطرة نظارته ، ويتلفت الى الباب كأنه يتعجل عودة امه واختيه ..
وبعد قليل دخلت سامية تحمل صينية عليها براد وأكواب الشاى ، وضعتها على مائدة أمام الاب .. ثم التفتت الى محيى وقالت كأنها تعنى بقولها كل الحاضرين :
ـ اللى حيقوللى اعملى حاجه بعد كده حارمى نفسى من الشباك !
ثم ألقت نفسها على مقعد ، وهى تغالى فى ابداء اعيائها ..

وقال محيى وكأنه انتهز الفرصة ليخفف عن نفسه :
ــ الخوف انك تقعى على حد ..
ورد عليه الاب كأنه يؤيد ابنته ، وهو يملأ أكواب الشاى :
ــ قوم يا محيى هات الجرنال ..
وقام محيى ، وعاد بالجرنال .. ودخلت الام وخلفها نوال ..
وقالت نوال وهى تجلس : احنا حقنا نعمل زي أمريكا .. كل واحد بعد ما ياكل يغسل طبقه !
ورفع ابراهيم عينيه اليها كأنه يقول : ياريت ! !
وقال محيى : فى أمريكا مابيكلوش مسقعه والا ماكنوش غسلوا الاطباق .. ده غسيل اطباق المسقعة عايز واحد اختصاصى .. زى حضرتك كده !
وردت نوال بسرعة :
ــ خلاص .. من هنـا ورايح حضرتك تبقى تاكل خضـار مسلوق ، علشان تقدر تغسل طبقك !
ووزعت أكواب الشاى .. وبدأ كل منهم يحاول أن يرشف كوبه ويتمتع به فى هدوء .. وفجأة .. رن جرس الباب !
والتفتوا جميعا فى حركة واحدة .. لا الى الباب ولـكن الى بعضهم البعض .. ووضع الاب كوب الشاى على المائدة واسقط الجريدة من يده الاخرى ، ونظر صامتا كأنه ينتظر ان يتكلم أحد
وقالت الام وهى تحاول أن تخفى أنفاسها المبهورة :
ــ يا ترى ده مين ده .. سترك يارب !
وقالت سامية : بلاش نفتح ! ! ..
وقال محيى : مش ممكن .. احنا مولعين النور واللى بره عارف اننا موجودين !
وقالت نوال : يمكن عم على البواب.. ولا أم البنت سنية جيه ترجى نرجعها ..
وعادت الام تقول وكأنها لم تعد تحتمل :
ــ دى مش عيشه ياخواتى .. احنا عمرنا لا كنا حراميه ، ولا كان يدخل لنا شر .. افتحوا الباب ، وزى ما تكون ياه ..
وظل الاب وابراهيم صامتين .. الاب ينظر الى ابراهيم كأنه يسأله فى غيظ : « ماذا تفعلون فى مثل هذه الاحوال ياحضرات الشبان الثوار » ؟.. وابراهيم يحس بقلبه يدق هـذه الدقات المرتعشة التى تعودها منذ بدأ يهرب ، والتى لا يبدو أثر لها على

وجهه ما لم تنظر الى عينيه ، ويحس أكثر بالحرج أمام العائلة .. يحس بنفسه كأنه يزن ستين طنا من الحديد ، ويجلس على صدور كل هؤلاء الأبرياء الطيبين .. وبذل مجهودا كبيرا للاحتفاظ باتزانه .. اتزان أعصابه واتزان تفكيره .. قبل ان يقول موجها كلامه الى الاب :

ـ أظن يا افندم .. حد يفتح شراعة الباب ، ويشوف مين اللى جه .. اذا كان حد غريب يعمل ان الباب مقفول بالمفتاح ، ويرجع لنا بحجة انه حيجيب المفتاح ونبتدى نتصرف ..

وتلقت نوال الفكرة كأنها بهرت بها .. ونظر يحيى الى ابراهيم كأنه يشك فى نجاح فكرته .. وتململت سامية فى مقعدها كأن هذا الحال لا يعجبها ..

وهزت الام رأسها ورفعت كفها الى صدرها كأنها تطرد من حولها شر العفاريت ..

وقال الاب ، وهو يلوى شفتيه ، كأنه يحتقر هذا النوع من التفكير ولكنه لا يجد مفرا منه :

ـ قومى يا نوال اعملى اللى بيقوله ابراهيم ..

وخرجت نوال وهى تتلفت اليهم كأنها تستمد منهم شجاعتها ، وودعوها بنظرات منكسرة كأنهم يبتهلون الا تعود اليهم بشر ..

وعادت نوال بسرعة ، وقالت وهى ترتجف :

ـ عبد الحميد ، ابن عمى ! !

وقال الاب ، كأن الالفاظ انطلقت رغما عنه :

ـ أعوذ بالله .. يا حفيظ يارب ..

وقال ابراهيم كأنه يخاف ضياع الوقت :

ـ أظن أروح أنا اقعد فى أودة يحيى ..

وقال يحيى بسرعة :

ـ ده عبد الحميد لما بييجى ما بيخليش أوده ما يخشهاش .. عامل نفسه واحد من العيلة !

والأم تهز جسمها الضخم يمنة ويسرة ، وتدق على صدرها بيدها دقات منتظمة ، وهى تقول : يارب .. يارب .. يارب !

وقالت سامية : اقول لكم يدخل البلكونة ونقفل عليه ..

وقال الأب : والجيران ! ؟ ..

وقالت نوال :

ـ احسن طريقة اننا نخش أنا وسامية فى أودة الضيوف ونعمل

انه فيه بنات بيزورونا ، والاستاذ ابراهيم يخش يقعد معانا .. و ..
وقاطعتها سامية بسرعة :
ـ والله يا اختى ، حيقعد يلف ويدور لغاية ما يخش علينا !
واشتد القلق فى العيون ، وبدأ كأن فى رأس كل منهم ألف اقتراح ، ليس بينها اقتراح نافع .. واضطرب كل شيء .. كان كل واحد منهم يهم أن يتحرك ثم لا يتحرك .. والام لا تزال تهز جسدها المكتنز وتخبط على صدرها وتردد « يارب .. يارب »
والاب تقلصت عضـلات وجهه حتى أصبح كقطعة الاسفنج لايبدو منه أنف ولا فم ولا عينان .. وابراهيم انقلب اضطرابه الى ثورة .. ثورة على هذه العائلة المرتبكة التى لا تستطيع أن تدبر أمره .. ولاحت له من خلال ثورته المكبوتة صورة مسدسه .. لماذا لا يأخذ مسدسه ويشهره فى وجه القادم ، ثم يفر الى الخارج .. الى أى مكان .. وليكن ما يكون ..
وقال فى عصبية وصورة المسدس لا تزال تهتز أمام عينيه :
ـ يعنى ما فيش ولا حته فى البيت أقدر أستخبى فيها ؟
وانطلق محيى وهو يرفع رأسه كأنه مستغرق فى تفكير عميق :
ـ أحسن مكان هو السندرة .. يطلع ابراهيم يستخبى فيها ، وأظن مش ممكن عبد الحميد حيطلع وراه ..
ومرت لحظة صمت ، نظر خلالها كل من فى الحجرة الى الآخر ثم التفتوا جميعا الى الاب ..
وقال الأب فى صوت أجش : أظن ما فيش غير كده ..
ونظر الى ابراهيم نظرة حادة كأنه يطعنه بعينيه .. ثم التفت الى نوال قائلا : روحى انتى يا نوال طلعى ابراهيم فى السندره ، وانت يا محيى روح افتح الباب ..
وقال محيى :
ـ طيب فين المفتاح علشان أعمل نفسى انى بافتح الباب بيه !
ومدت الام يدها تحت وسادة « الكنبة » لتخرج مجموعة المفاتيح التى تحتفظ بها دائما بجانبها ..
وقالت نوال وهى تشير الى ابراهيم : تعال ..
ثم تقدمته بخطى سريعة نحو المطبخ ..
كانت « السندرة » عبارة عن سقف معلق فى احد الاركان تحت سقف المطبخ .. ورفعت نوال سـلما خشبيا واسنـدته الى

الجدار ، وهى تقول لابراهيم : اطلع ..

ووضع ابراهيم قدمه على السلم وهو يسأل نوال :

ــ هوه بيشتغل ايه ابن عمك ؟

وكان يسألها بأنفاس مبهورة وكأنه يريد أن يطمئن الى ان ابن عمها ليس ضابط بوليس .. ليس عدوا يتعقبه ..

وقالت نوال هامسة :

ــ ده واد صايع ما كملش تعليمه .. وبيشتغل فى شركة ، وبقى له سنه رايح جاي عايز يتجوز سامية أختى .. ده بعده !

وصعد ابراهيم درجات السلم ، وكأنه اطمأن .. واضطر أن يقوس ظهره حتي يصبح رأسه بين ركبتيه ليستطيع أن يجلس داخل « السندرة » ..

ورفعت نوال السلم وأعادته الى مكانه ، وأطفأت النور ، وخرجت لتشترك فى استقبال الضيف ..

مد ابراهيم يده بصعوبة ، وأزاح من تحته حبات البصل والثوم التى جلس عليها .. وسمع محيى من الخارج يقول للقادم :

ــ أصل من يوم سنية ما خرجت ، وماما بتقفل الباب بالمفتاح بعد الفطار على طول ! !

وابتسم ابراهيم ، كأنه يهنىء صديقه على ذكائه .. وحاول ان يظل محتفظا بابتسامته ليؤنس بها نفسه فى الظلام الذى يحيط به .. ولكنه لم يستطع .. ان رائحة الثوم والبصل المختلطة برائحة السمن والعسل الأسود بدأت تتسلل الى أنفه .. وشىء لزج يلامس صفحة وجهه وجانب عنقه .. لعلها صفيحة زيت .. وأشياء تتحرك عند قدميه .. لعلها فئران .. ولعلها ستقرضه بعد قليل .. وظهره المقوس بدأ يؤلمه .. وأنفاسه بدأت تتململ فى صدره .. وعيناه تؤلمانه .. تكادان تدمعان ، ليس من تأثير رائحة البصل ولكنه يريد أن يبكى .. نعم ، انه يحس كأنه على وشك البكاء .. بل انه يتمنى أن يبكى ليفرج عن هذا الضيق الذى يخنق قلبه .. يبكى حاله .. يبكى احساسه بالاضطهاد .. انه لم يكن يبكى فى السجن لأنه كان يعرف من يضطهده ، ويصب حقده عليه .. ولكنه هنا ليس فى السجن .. ان الدنيا كلها تضطهده هنا .. ظروفه نفسها هى التى تضطهده .. الظروف التى اختارها بنفسه ..

ومضت ساعة .. قاوم كل دقيقة منها بكل ارادته .. قاوم

ثورته على نفسه ، وقاوم احساسه بالاضطهاد .. وقاوم رغبته فى البكاء .. وقاوم رائحة البصل والثوم المختلطة برائحة السمن والعسل الأسود ..

وأفاق على صوت أقدام تتجه نحو الباب الخارجى .. ثم سمع صوت الباب الخارجى يفتح .. وفى نفس اللحظة دخلت نوال ، وأضاءت نور المطبخ ، ووضعت له السلم وهى تهمس :

ـ انزل .. خلاص ! !

وقبل أن ينزل سمع صوت الباب الخارجى يغلق .. انه يذكر تماما انه سمعه يغلق .. ونزل وكل عضلة فى جسده تئن .. وتقدم نوال نحو باب المطبخ كى ينطلق الى الحرية ..

وقبل أن يخطو فى الممر الذى يفصل المطبخ عن باقى الحجرات سمع الباب الخارجى يفتح مرة ثانية ، ربما خيل اليه انه وهم .. ولكنه يذكر انه سمع شيئا كأن الباب الخارجى يفتح ..

وفجأة رآه أمامه .. شخص غريب .. يبحلق بعينين دهشتين .. ومن خلفه يحيى واقف كالصنم .. !

وتحرك ابراهيم حركة تلقائية وخطا خطوة سريعة داخل المطبخ كأنه يختبىء من طلقة مسدس ..

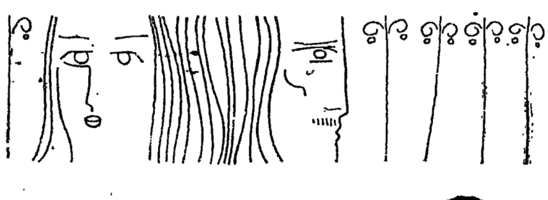
وتسمرت كل العائلة ، لا تتحرك .. صامتة .. ذاهلة ..

ثم تحرك الشخص الغريب وقال وعلى شفتيه ابتسامة خبيثة :

ـ آسف .. أصلى نسيت المجلة اللى كانت معايا ! !

ثم دخل من تلقاء نفسه الى حجرة « القعاد » .. وعاد يحمل فى يده مجلة .. ثم دار بعينيـه على وجوه العـائلة الذاهلة ، والابتسامة الخبيثة لا تزال بين شفتيه ، وقال : السلام عليكم ..

ولم يرد أحد تحيته ولم ينتظر ردا .. خرج وأغلق الباب وراءه !



٥

وخطا ابراهيم خارج المطبخ وقد امتقع وجهه وارتعشت جفونه فوق عينيه كأنها حملت دقات قلبه الواجف .. وأخذ ينظر الى أفراد العائلة فى تساؤل وجزع ..

كان ينتظر أن يناقشوه فيما يجب عمله .. كان يريد أن يعرف من هو عبد الحميد .. أخلاقه ، طباعه .. وهل يبلغ عنه البوليس ؟.. يريد أن يسمع أى شىء ، حتى لو شتموه .. فقط يريد أن يسمع شيئا يبدد هذا الجزع الذى يملأ صدره .. شيئا يعينه على التفكير ، وعلى تحريك ذهنه ، حتى يستعين بنشاط ذهنه على اخماد رعشة قلبه ..

ولكن .. لم يتكلم أحد من أفراد العائلة الذاهلة .. وعندما بدأ ذهولهم يتبدد ، حولوا عيونهم الى الاب .. كأنهم يخافون عليه .. كأنه هو الضحية ..

ولم يتكلم الأب .. ولم يلتفت الى أحد ولا الى ابراهيم .. واتجه الى غرفته فى خطوات ثقيلة متعبة كأنه يجرجر عمره وراءه . وسارت خلفه الأم ، وعلى وجهها جزع ولهفة وخوف ، وجسدها المكتنز يهتز فوق ساقيها المرتعشتين كأنه يكاد يسقط من فوقهما ..

والتفتت سامية الى ابراهيم وحدجته بنظرة حادة فيها غيظ مكتوم ، كأنها أطلقت من عينيها يدا ملتهبة تصفعه بها ، وتمسكه بها من قفاه وتلقى به خارج البيت ، ليستريح البيت منه .. ثم سارت فى خطوات عصبية تدق بها الأرض واختفت فى غرفتها ، وصفقت الباب وراءها فى عنف ..

ورفعت نوال رأسها الى ابراهيم وبين عينيها نظرة رحيمة تعتذر بها .. تعتذر عن أختها ، وعن ابن عمها ، وعن أبيها ، وعن الحكومة التى تطارده ، وعن مصر كلها التى أتعبته بمشاكلها .. وحاولت أن تتكلم .. حركت شفتيها لتقول شيئا .. ولكنها لم تجد شيئا تقوله .. فرت كل الكلمات من رأسها ، وهى تلتقى بوجه ابراهيم المتقع ، وجفنيه المرتعشتين فوق عينيه .. حاولت أن تستعيض عن الكلمات بابتسامة تشجعه .. تخفف بها عن همه .. ولكن الابتسامة اصطدمت بقلبها المبهور الملتاع فلم تستطع أن تصل الى شفتيها .. ونكست رأسها ، وسارت على مهل كأنها لا تريد أن تبتعد عنه .. كأنها تنتظر أن يستفيث بها لتقف بجانبه .. ودخلت وراء أختها والدموع فى عينيها ..

ولم يبق فى الممر الذى يفصل بين المطبخ وباقى الحجرات سوى ابراهيم ومحيى .. وهم ابراهيم أن يتكلم ، ولكن محيى أدار عينيه عنه ، وضغط على قنطرة نظارته فى هذه الحركة العصبية التى لا تفارقه .. واتجه الى غرفته ووجهه جامد محتقن ، اختلط فيه دمه الاحمر ببشرته السمراء فأصبح فى لون الغروب .. وكاد ابراهيم يصرخ وراءه . أحس انه يريد أن يصرخ فى البيت كه .. انه لا يحتمل هذا الصمت .. لا يحتمل هذا الضعف .. انهم ليسوا فى جنازة .. البوليس لم يأت بعد .. ويجب أن يجتمعوا ليتشاوروا فيما يجب عمله بعد أن رآه عبد الحميد .. أن يجتمعوا لوضع خطة ، كما كان يجتمع بزملائه أعضاء الجمعية لوضع خطط الاغتيال .. ان الموقف لايتسع للعواطف .. لا يتسع للخوف ، ولا للندم ، ولا للكمد.. يتسع فقط للتفكير.. لاجهاد الذهن .. لاعادة حساب الظروف المحيطة بهم .. لوضع الخطط ..

ورغم ذلك فقد أحس ان هذا الصمت الذى أحاطته به العائلة ، يحمل خطة يعرضونها عليه .. انه ليس مجرد صمت.. انه طلب مقدم اليه ملفوف فى الصمت .. طلب صامت . انهم يطلبون منه أن يغادر البيت حالا ، ويريحهم من مشاكله .. هذا ما يريده الاب والعائلة كلها .. حتى نوال !

وسيغادر البيت .. سيغادره حالا ..

سيحمل مسدسه ويرحل ..

وخطا خلف محيى نحو الغرفة ، وعقله يتحرك فى رأسه بسرعة

حتى طغى تفكيره على هذه الرعشة التى بدات تنتاب قلبه منذ فر من السجن .. وبدأ يسأل نفسه :

ـ هل خروجه من البيت سينقذ العائلة ويريحها ؟

وازدحمت سحب الشك فى رأسه وهو يبحث عن الجواب ، ويحاول أن يرى مصير العائلة بعد أن يغادرها ..

وأجهد ذهنه كثيرا ليزيح هذه السحب ويصل من ورائها الى الرأى الصواب ، وبدأ يحادث نفسه كأنه يحل مسألة حسابية : « لنفرض ان عبد الحميد قرر أن يبلغ عنى البوليس .. فهل يذهب الآن ليبلغ عنى ؟! لا .. فعبد الحميد لا يريد أن يأتى البوليس الى بيت عمه ليقبض علي فيه .. مهما بلغت سفالته ونذالته فهو لن يسلم عمه وأولاد عمه الى البوليس .. ثم هو يحب سامية ويريد أن يتزوجها فلن يبدو أمامها سافلا الى هذا الحد .. ولكنه سينتظر الى أن أخرج من البيت بعد أن رآنى فيه .. ويتتبعنى بعد خروجى ثم يبلغ البوليس عن مكانى ، ليقبض المكافأة . وسيحقق معه البوليس .. سيستجوبونه ، ولن يستطيع أن يقاوم أسئلتهم . ان هذا الصنف السافل من الشبان يكون عادة ضعيف الارادة ويسهل التأثير عليه باستغلال جشعه .. وسيعرف رجال البوليس منه الحقيقة كاملة .. سيعرفون انى كنت أختبىء فى هذا البيت ، ثم يقبضون على الأب والابن .. اذن فالضمان الوحيد حتى افوت على عبد الحميد غرضه هو الا أخرج من البيت حتى لا أعطيه فرصة التبليغ عنى .. الضمان الوحيد للعائلة هو أن أبقى معهم ، لا أن اغادرهم ! »

واستراح الى هذا التفكير ..

وربما استراح اليه أكثر ، لأنه لا يريد أن يغادر البيت الآن .. فليس له بيت آخر يستطيع أن يلجأ اليه ..

وبدأ يستعد لاقناع العائلة بهذا المنطق حتى يستريحوا لبقائه معهم ، أو على الأقل ، حتى لا يضطروه الى مغادرة البيت

ولكن .. هل يقتنعون ؟ ! ..

والتفت الى محيى وقال ، وهو يحرص على أن يبدو هادئا :

ـ تفتكر ابن عمك شافنى ؟!

وقال محيى وهو يجلس الى مكتبه ويفتح أحد كتبه : أظن كده !

وعاد ابراهيم يسأل ، وهو يضع على شفتيه ابتسامة يحاول

أن يرفه بها عن صديقه : وتفتكر انه حايبلغ عنى ؟ ..
وأجاب محيى متبرما : والله ماعرفش ! ..
وسأل ابراهيم وهو يضغط على الكلمات كأنه يلح على صديقه أن يرفع رأسه عن الكتاب :
ـ انما تفتكر أخلاقه تسمح له أن يبلغ البوليس ؟
ورفع محيى رأسه عن الكتاب ، وقال فى حدة غير مقصودة :
ـ أخلاقه زفت.. شاب بايظ حشاش .. سقط فى التوجيهية تلات سنين .. وبعدين راح اشتغل فى شركة .. وماحدش عارف عايش ازاى ولا بيجيب فلوس منين
وقال ابراهيم وهو محتفظ بهدوئه :
ـ سمعت انه عايز يتجوز سامية !
ونظر اليه محيى نظرة فيها غضب وفيها تعجب ، كأنه أهين .. واستدرك ابراهيم قائلا كأنه يعتذر :
ـ نوال هيه اللى قالت لى !
ونكس محيى رأسه الى الكتاب وقال بصوت خافت :
ـ كان طلبها السنه اللى فاتت .. وطبعا ماحدش رضى به ..
ثم رفع رأسه واستطرد فى صوت غاضب كأنه يريد أن ينتهى من هذا الموضوع :
ـ اسمع يا ابراهيم .. عبد الحميد يبقى ابن عمى صحيح ، انما مافيش حد منا يطمئن له .. كلنا عارفين انه مستهتر وماعندوش أخلاق.. وقال ابراهيم كأنه لا يريد أن يرحم صديقه :
ـ وتفتكر نعمل ايه دلوقت ؟ ..
وقال محيى وهو يدير عينيه ، كأنه واثق ان ليس هناك الا طريق واحد يعرفه ابراهيم جيدا : والله زى ما انت عايز ! ..
وقال ابراهيم كأنه يفكر : تفتكر أقوم أخرج من البيت دلوقت ؟
وقال محيى بصوت خافت كأن هذا هو القرار الوحيد :
ـ وحاتروح فين ؟
ـ أروح أى حتة .. المهم ان ما يحصلكمش حاجة بسببى !!
وصمت محيى .. وعاد ابراهيم يقول :
ـ تفتكر ان عبد الحميد يبيع عمه وابن عمه ومرات عمه وبنات عمه ، بخمستلاف جنيه ؟
وقال محيى وهو يحاول أن يبدو ساخرا :
ـ ده يبيعنا بنص ريال !

وقال ابراهيم فى تأكيد وفى لهجة جادة : ما أظنش !!
ورفع محيى رأسه وفى عينيه نظرات دهشة ، كأنه يتعجب من ان يدافع ابراهيم عن ابن عمه ، وقال : ماتظنش ليه ؟ ..
وقال ابراهيم كأنه يرى الغيب بوضوح :
ــ الصنف اللى زى عبد الحميد دايما يفتكر فى نفسه انه ذكى .. وحايحاول يبعنى لوحدى ، علشان يستر وشه قدام العيلة ، حايحاول يسلمنى للبوليس من غير ما يسلم حد منكم !
وقال محيى وهو لم يفهم بعد ما يرمى اليه ابراهيم : ازاى ؟
وقال ابراهيم كأنه يعرض خطته : عبد الحميد منتظر دلوقتانى أنزل من البيت .. وأول ما أنزل حيمشى ورايا ويشوفنى رايحفين ، وبعدين يبلغ عنى .. ويقول للبوليس انه شافنى فى الشارع وتتبعنى .. ومايجبش سيرتكم خالص !!
واطرق محيى مفكرا كأنه اكتشف دنيا جديدة لم تخطر بباله .. واستطرد ابراهيم : لو ماكنتش مصدقنى .. قوم انزل واراهنك انك حتلاقيه واقف على راس الشارع !
وقال محيى كأنه يحاول أن يقتنع :
ــ واذا ماسبتش البيت ، حايعمل ايه عبد الحميد ؟
وقال ابراهيم بسرعة ، كأنه يخشى أن يفقد السيطرة على تفكير زميله : حيستنى .. هوه متأكد انى حاسيب البيت .. اذا ماكنتش النهارده حيبقى بكره ! ..
وقال محيى ساهما : كلام معقول .. يعنى طول ما انت معانا ، عبد الحميد مش حايبلغ عننا ! ..
وقال ابراهيم : أنا مابفكرش فى نفسى بس .. أنا بفكر فيكم .. لو عبد الحميد بلغ عنى البوليس حيفضل وراه لغاية ما يعرف انى كنت هنا .. فى بيتكم !
وتقلص وجه محيى جزعا وقال وهو يلتقط أنفاسه : والعمل ؟
وأجاب ابراهيم فى ثبات :
ــ زى ما باهرب من البوليس ، لازم أهرب من عبد الحميد .. لازم أخرج من البيت من غير مايشوفنى ولا يمشى ورايا ..
وسكت ابراهيم .. وسكت محيى فترة ، وقد قطب ما بين حاجبيه مستغرقا فى تفكير عميق ثم قال كأنه يتوسل الى زميله :
ــ اظن بلاش تسيب البيت الليلة .. نستنى كام يوم لغاية عبد الحميد ما يتعب من الانتظار ..

وابتسم ابراهيم ، ابتسامة لم تخرج الى شفتيه . أحس انه قد وصل الى غرضه .. ثم قال وهو محتفظ بلهجته الجادة :

ـ أنا متأكد انى بكره حاسيب البيت .. المهم انك تقابل فهمى عبد العزيز فى الجامعة وتقول له الكلمتين اللى اتفقنا عليهم .. وبعد ما حاترجع بنص ساعة حاكون أنا بره !

وابتسم محيى كأنه يقول فى سره : « ان شــاء الله » . واستطرد ابراهيم قائلا :

ـ ياترى والدك موافق انى أبات فى البيت الليلة ؟

وقال محيى ، كأنه امتلأ ثقة بالمستقبل :

ـ أحسن حاجه اننا نسيبه دلوقت .. هو مش حايقــولك اخرج .. وأنا حاطمنه ساعة السحور

وعاد محيى الى كتابه ، واستطرد قائلا : أما أذاكرلى كلمتين .. الامتحان قرب ومن امبارح ماقرتش ولا كلمة ..

وساد الصمت بين الصــديقين ، ليكمل الصمت فى البيت كله .. وكان صمتا ضاجا .. كانت الضجة فى رؤوس كل من فى البيت .. ضجة تنفس عن نفسها فى همسات متقطعة .. !

كانت الأم تهمس للأب وهى جالسة فوق الفراش وساقاها تحتها ، لا تريد أن تستلقى .. والأب مستلق على جنبه مديرا لها ظهره وهو مفتح العينين : والعمل يا زاهر ؟! ..

وأجاب الأب : والله ما أنا عارف يا تحية ! ..

وقالت الأم وهى تلقى برأسها فوق كفها :

ـ أنا مش مطمنة للواد عبد الحميد ده !

وقال الأب ، وهو يتنهد كأن أنفاسه تخرج من بين قضبان ضيقة : ربنا يستر ..

وقالت الأم ، وهى تردد كأنها تقاوم شيئا فى نفسها :

ـ والنبى حق الأستاذ ابراهيم يدور على حتة تانية .. اذا كان مش خايف علينا يخاف على نفسه !

وقال الأب : يعمل اللى هوه عايزه .. يقعد ، يخرج .. أنا خلاص .. سلمت أمرى لله ..

وقالت الأم وهى تمصمص شفتيها : حسبنا الله ونعم الوكيل

ومدت ساقيها من تحتها ، وأزاحت جسدها المكتنز ورقدت على جنبها ووجهها مواجه للحائط وظلت مفتحة العينين ، وفى رأسها أشباح تنعكس على الحائط وتكاد تراها بعينيها فى الظلام

كأنها اشباح عفاريت .. واغلقت عينيها حتى لاترى العفاريت ..
ولكن العفاريت تكاثروا عليها بمجرد أن اغلقت عينيها ، فعادت
وفتحتهما واستدارت بجسدها ناحية زوجها فى حركة سريعة
ثم ألقت ذراعها حوله ، قائلة : زاهر .. أنا خايفه يا خويا !

ومد الزوج يده وضغط على الذراع التى القيت حوله ، فى
رفق وحنان ، وقال : ماتخافيش يا تحية .. ربنا معانا ..

وقالت الزوجة وهى ترتجف: أنا عارفه ربنا بعت لنا سى ابراهيم
ده ليه .. احنا عمرنا ماكنا وش الحاجات دى !

واستدار لها الزوج وهو يرفع ذراعها عنه برفق ، وقال :

ـ تعرفى أنا بفكر لو كان ابراهيم ده ابنى كنت عملت ايه ؟

وقالت الأم بسرعة : ياخويا بعيد الشر .. تف من بقك ! ..

واســتطرد الأب قائلا : ولا لو كان محيى هو اللى هرب من
السجن ، وراح استخبى فى بيت ابراهيم .. كان أبوه عمل ايه !

وقالت الأم كأنها تلوم زوجها :

ـ ومافكرتش فى عبد الحميد حيعمل ايه .. ده يقدر دلوقت
يودينا كلنا فى داهية .. أنا كل حته فى بتفرفر .. متهيأ لى ان
البوليس حيخش علينا دلوقت حالا ..

وقال الأب فى صوت حزين :

ـ مش عايز أفكر لا فى عبد الحميد ولا فى غيره .. التفكير
مالوش نتيجة .. كنت بافكر انى أقول لابراهيم يسيب البيت .
ماجاليش قلب .. أنا اللى قلت له يقعد عندنا .. كان لازم من
الأول ما اقبلوش فى بيتنا .. دلوقت خلاص .. لازم اتحمــل
النتيجة .. واذا كان عبد الحميد يقدر يودينا فى داهية ابراهيم
كمان يقدر يودينا فى داهية .. يبقى احسن حاجة اننا نخليها
على الله .. وماتخافيش يا تحية .. عبد الحميد برضــه ابن
أخويا ، ومهما كان بايظ انما من أصل طيب .. وابراهيم كمان
ابن ناس وراجل ، ماتخافيش أمال انتى طول عمرك جامدة وقوية

وكان يتكلم كأنه يحاول أن يقنع نفسه بكلامه .. كان هو الآخر
خائفا ساخطا ، حائرا أمام الغد ، وأمام واجبه كرب عائلة ،
وأمام واجبه كرجل شهم

ودفنت الزوجة راسها فى صدر زوجها ، ثم انطلقت تبكى ،
ودموعها تهز جسدها المكتنز كأنها تقطع دموعها من لحمها ..
ثم تكتم نشيجها ، فيخرج ، نهنهة خافتة كأنها أنات ..

ولم تكن تبكى وحدها .. كانت نوال تبكى معها فى الغـــرفة المجاورة .. تبكى بدموع صامتة وضفيرتها ملقاة بجانب رأسها فوق الوسادة ، كأنها شارة الحداد ..

والتفتت اليها سامية بعد أن صبرت طويلا على دموعهـا ، وقالت فى لهجة لاذعة ، تحاول أن تخفى بها شفقتها ولهفتها على أختها : تسمحى تقوليلى انت بتعيطى ليه دلوقت !؟

وقالت نوال وهى تشد ضفيرتها بيديها كأنها تحاول أن تنزعها من رأسها : ده حرام .. حرام يا اخواتى ! ..

وقالت سامية بضيق : ايه هو اللى حرام ؟! ..

وردت نوال دون أن تلتفت الى أختها :

ـ حرام يحصل له ده كله .. ذنبه ايه بس ؟!

وقالت سامية وهى تتجاهل ما تقصده أختها : مين هوه ؟!

وردت فى صوت حالم : ابراهيم ..

وقالت ساميه كأنها تنهر أختها عن ذكره :

ـ أيوه هو له ذنب .. انما احنا ذنبنا ايه ؟!

والتفتت اليها نوال فى عصبية وقالت وهى تضرب الوسادة بقبضة يدها : هوه مالوش ذنب ، ده كان لازم الحكومه تعمل له تمثال ده بطل .. قتل واحد انجليزى .. ماقتلش علشان يسرق ، ولا علشان مجرم .. قتل علشان وطنه .. زى العسكرى ما يقتل عدوه فى الحرب ..

وسكتت سامية برهة وهى تبحلق فى وجه أختها كأنها تحاول أن تصل الى قلبها من خلال عينيها ثم قالت ساخرة : طيب بلاش سيرة القتل وحياة أبوكى ، أحسن العفاريت تطلع لنا

وأدارت نوال جسدها ، ورقدت على صدرها ، ومدت ذراعيها فوق رأسها ، وقبضت على أطراف الوسادة بأصابع مرتخية ، وقالت فى صوت ضعيف :

ـ اللى يشوفو ما يصدقش انه يقدر يقتل فرخة .. ده هادى ومؤدب وخجول .. ده بينكسف منى !

وقالت سامية كأنها توقظ أختها من أحلامها :

ـ ده عنيه تخوف .. ماخدتيش بالك من عنيه .. يا امه ؟!!

وأدارت نوال جسدها مرة ثانيـــة ، ورقدت على ظهرها ، وقالت وهى تنظر من خلال الظلام الباهت الى سقف الحجرة :

ـ عنيه .. عنيه .. ايوه شفت عنيه !؟

واغتاظت سامية ، وضغطت على شـــفتيها كأنها تكتم غيظها ، ثم أمسكت بذراع أختها وهزتها بعنف قائلة :
ـ نوال ، بصى لى هنا .. ورينى خلقتك ؟!
وادارت لها نوال وجهها فى برود وهى لا تزال ســادرة فى احلامها ، وركزت سامية كل عينيها على الوجه المتطلع اليها ، وقالت فى حدة : انتى حالك مش عاجبنى من ليلة امبارح شايفاكى مطيورة ، ومش على بعضك .. قوليلى بالظبط ، ايه الحكاية ؟!
واشاحت نوال بوجهها عنها وقالت فى برود : مالكيش دعوة !
وصرخت سامية وصراخها همس مبحوح : ليه دعـــوه ونص .. ما تنسيش انه مالوش مستقبل ده محكوم عليه بالاعدام !!
وانتفضت نوال كأنها لدغت ، وقالت وعيناها تبرقان وسط الضوء الخافت المتسلل من النافذة :
ـ ماتقوليش كده .. اوعى تقولى كده تانى مرة .. سامعة !!
ثم انكفأت على وجهها ، وبدأت دموعها تنهمر من جديد .. ولم تكن هذه المرة دموعا صامتة ، كانت دموعا تحمل أنفاسا مبهورة ممزقة ..
ومدت سامية ذراعها واحاطت كتف أختها ، ثم مالت ووضعت رأسها على الوسادة بجانب الرأس المعذب والصقت خدها بالخد المبلل بالدموع ، وقالت فى لوعة :
ـ أنا خايفه عليكى يا نوال .. خايفــه على البيت كله .. خايفه على بابا وعلى محيى.. انتى مش مقدره اللى بنعمله ايه ؟!!
وادارت نوال رأسها واحتضنت أختها ، وارتفع نشيجها ..
وعادت سامية تقول وهى تربت على ظهر نوال كأنها طفلة فى أحضانها : يعنى لو قالوا لك بابا ولا ابراهيم تختارى مين ؟!
ولم تجب نوال .. انكمشت فى صدر أختها ، وارتفع نشيجها أكثر .. وظلت سامية تربت على ظهرها وهى تردد فى حنان :
ـ بس يانوال .. بس ياحبيبتى .. بس أحسن بابا يسمعك !!
ومضى الليل وكل من فى البيت لم ينم .. وبعضهم ظل مفتح العينين وبعضهم سقطت جفونه تحت ثقل الدموع .. وجاء الصباح
وخرج الأب الى عمله دون أن يرى ابراهيم .. خرج مهموما بائسا كأنه كبر عشرة أعوام .. كأنه أحيل على المعاش ، ولم يعد يدرى أين يذهب عندما يخرج من البيت ..
وقال ابراهيم لمحيى وهو خارج الى الجامعة :

ـ وحياتك يا محيى ، أول ما تقابل فهمى ، ترجع على طول علشان تطمنى ، وبلاش تكمل المحاضرات ..

وهز محيى رأسه واجمـا ، وقال وعينـاه جامدتان خلف نظارته : حاضر ..

وخرج وكل قطعة منه ترتعش .. أطرافه ترتعش ، ووجنتاه ترتعشان ، وفتحتا أنفه ترتعشان .. خرج وكأنه ذاهب الى السجن بقدميه • وجرت الحياة فى البيت كما كانت تجرى بالامس

دخلت نوال تدعو ابراهيم الى الحمام ليغسل وجهه ، وهى تنظر اليه فى لهفة كأنها تريد أن تطمئن عليه أو تطمئن على نفسها به . ونظر اليها ثم حول عينيه سريعا عنها كأنه مذنب لا يستطيع أن يلتقى بوجه ضحيته . ثم دخل الحمام وخرج دون أن يلتقى بالأم أو بسامية .. واعتقد أنهما تعمدتا أن تتجنباه ، والا تحيياه تحية الصباح .. ربما لم يكن هذا صحيحا .. ولكن احساسه بمدى الخطورة التى يعرض لها العائلة ، جعله يعتقد ان العائلة بدأت تنفر منه ..

ودخلت نوال بعد قليل تحمل له صينية عليها طعام افطاره .. انها لم تدعه الى حجرة الطعام كما فعلت بالأمس .. لا بد ان العائلة قد قررت عزله هنا حيث يأكل وينام .. ولا يخرج الا الى الشارع وابتسم بينه وبين نفسه كأنه يعذر العائلة فى تصرفاتها

وتلكأت نوال بجانبه ، وهى تضمه بعينيها كأنها تحاول أن تحميه .. تحميه من الدنيا كلها ومن نفسه ومن أفكاره التى تجهلها

وظل صامتا لا يرفع اليها عينيه .. وخرجت بطيئة الخطى ، كأنها تبحث فى كل خطوة عن حجة تعود بها اليه

وأكل لقمة .. ولقمتين .. ثم لم يستطع أن يأكل شيئا .. وجد نفسه تائها فى سحب من أفكاره .. وحاول أن يركز تفكيره فى خط مستقيم يصل به الى شىء .. حاول أن يفكر فى خططه التى يكمل بها هربه . حاول أن يفكر فى العائلة التى ألقى نفسه عليها بكل ثقله .. حاول أن يفكر فى عبد الحميد وما يمكن أن يفعله .. ولكنه لم يستطع .. لم يستطع أن يركز تفكيره فى شىء .. وانتهت محـاولاته الى ان وجد تفكيره محصـورا فى نفسه .. كان يفكر فى ماضيه ، فى حاضره ، وفى مستقبله .. وكان تفكيره يصل الى أعماق نفسه ليكتشفها .. انه لم يعرف نفسـه أبدا قبل أن يدخل السـجن .. لم يكن يدرى أن له

أعماقا .. وأن له احساسا .. وأن له عواطف ..

ترى .. لو انه حسب حساب السجن والهرب ، والمشنقة ، وكل هذا العذاب .. هل كان يقتل عبد الرحيم باشا شكرى ؟!

انه لم يفكر أبدا فى السجن قبل أن يدخله ، ولم يتصور المشنقة الا عندما بدأت تلتف حول عنقه .. كان يجد أمامه رجال البوليس السياسى ، وكان يدرس عقلياتهم وأساليبهم ، ولكنه لم يكن يرى ما وراء هؤلاء الرجال من سجون ومشانق.. وربما كان هذا هو سر انتصاره عليهم ، فقد كان يحس انه ند لهم .. ند للحكومة ، بل أقوى من الحكومة .. وكان تحدى الحكومة لا يحتاج الى أكثر من الذكاء .. كأنه يلعب الشطرنج ، وليس لأحد اللاعبين سلاح لا يملكه الآخر .. ليس أحدهم يملك السجون والمعتقلات والمشانق ، والآخر لايملك الا ذكاءه والمسدس الصغير الذى يحمله فى جيبه

وربما كان هذا هو كل الفرق بينه وبين أى شاب آخر .. بينه وبين محيى مثلا .. ان محيى لا يقل عنه وطنية .. ولكن محيى يرى دائما السجن ، والمشنقة ، فيتجنبهما بأن يقف موقفا سلبيا من القضايا الوطنية .. أما هو فلم يكن يراهما فلم يتجنبهما ، واتخذ موقفا وطنيا ايجابيا .. ولعله لو رآهما لتجنبهما هو الآخر ، وأصبح سلبيا

لا .. ليس هذا صحيحا .. ان محيى عندما وضع أمام عينيه السجن والمشنقة خافهما ، فسجن نفسه فى الخوف ، وشنق نفسه به .. أما هو فقد تحرر من الخوف .. تحرر من صور السجون والمشانق ولم يخف على مستقبله منهما . بل انه تحرر أيضا من مستقبله . لم يفكر أبدا فى هذا المستقبل .. لم ير نفسه وزيرا ولا نائبا ولا غنيا ولا فقيرا ولا سجينا ولا مشنوقا..

هذا التحرر .. التحرر من الخوف .. والتحرر من المستقبل الشخصى .. هو الذى زوده بالقوة ، ودفعه الى العمل العنيف .. ورغم ذلك ، فهو اليوم .. الآن .. فى هذا البيت .. لا يحس بالقوة .. لا يحس انه بطل متحرر .. انه اليوم لا يريد الا نفسه .. يريد أن يحرر نفسه من الاحساس بأنه هارب .. يريد أن يرتاح .. يريد أن يضحك .. نعم يريد أن يضحك !

وابتسم ابتسامة مسكينة وهو يتذكر أنه لم يضحك منذ عام .. منذ قبض عليه .. لم يضحك أبدا من قلبه.. وقد كان

فى السجن يضحك ضحكات جوفاء يجامل بها زملاءه .. ولكنه هنا .. فى هذا البيت لا يجد حتى الضحك الأجوف ..

ودخلت نوال لتحمل صينية الافطار ، وهو لا يزال مستغرقا فى أفكاره . وأحس بوقع قدميها ، فلم يرفع رأسه .. ربما خيل اليه أنهما قدما سجانه ، وهو لم يتعود أن يرفع عينيه الى سجانه

ونظرت اليه نوال مترددة ، ثم حملت الصينية من أمامه ، وهمت أن تعود بها ، ولكنها عادت واستدارت له ، قائلة كأنها تناديه : فيه حاجة مضايقاك يا أستاذ ابراهيم ؟!

ورفع رأسه كأنه يفيق وقال كأنه يتكلم من بعيد : لا .. أبدا

وعادت تقول ، ونظراتها الحانية تمسح على وجهه كأنها تزيل عنه آثار العذاب : مش عايز حاجة ؟ ..

وقال فى تهكم : عايز أضحك !! ..

واهتزت الصينية فى يدها وأحدثت الأطباق من فوقها رنينا مرتعشا كأنه رنين أجراس صغيرة معلقة فى رقبة قظ هارب .. وقالت وقد أحست بمدى العذاب الذى يعانيه ، وانطلق هذا العذاب الى صدرها فشق قلبها :

ــ بكره حنضحك كتير يا ابراهيم .. باذن الله ..

وتنبهت الى انها نطقت اسمه بلا كلفة لأول مرة ..

وتنبه هو أيضا ..

واحمرت وجنتاها ، واهتزت الصينية فى يدها مرة ثانية

وارتبكت نظرات عينيه ، وارتبكت شفتاه فلم يعد يدرى هل يضمهما أو يبتسم بهما ، أو يستعملهما فى كلام .. ثم قال كأنه يعتذر عن الضعف الذى بدا به أمامها : أصلى افتكرت دلوقت ، انى بقالى سنه وشوية ماضحكتش واتهيأ لى انى جعان ضحك !

وابتسمت نوال ، وقالت فى حياء ، كأنها تحاول محاولة يائسة لاضحاكه : تحب أقولك نكته .. !

وابتسم ابتسامة كبيرة ، وقال وهو يهم بالضحك قبل أن تقول نكتتها : يا ريت !! ..

وسرحت بعينيها لحظة ثم قالت ضاحكة من خلال حيائها :

ــ يا خسارة .. مش فاكره ولا واحده !

ودارت والصينية فى يدها ، واتجهت الى الباب ، وقبل أن تصل اليه ، التفتت وقالت : أول ما حافتكر نكته حارجع أقولها لك

ولكنها وجدت وجهه وقد زايلته الابتسامة ، فسقطت

ابتسامتها عن شفتيها .. ونظرت اليه كأنها تتوسل له أن يرحم نفسه .. وخرجت مضطربة ..

وعاد وحيدا فى الغرفة .. لا يستطيع أن يقرأ ، ولا يستطيع أن يفكر ، ولا يستطيع أن يحتمل الفراغ .. ومرت به الثوانى كأنها وخزات ابر فى لحمه .. الى أن سمع صوت الباب الخارجى يفتح ، ثم سمع صوت قدمى محيى .. وكانت الساعة قد قاربت الواحدة والنصف ..

ودخل محيى اليه مكفهر الوجه ، وحياه دون أن يصافحه .. هزة من رأسه ، وتمتمة من شفتيه ، واستقبله ابراهيم بعينين مستطلعتين تكادان تقفزان من محجريهما .. وقال فى عجلة :

ــ خير .. عملت ايه ؟

وقال محيى وهو يلقى كتبه على المكتب فى عنف : ولا حاجه !..

وقفز ابراهيم واقفا وقال وهو يكاد يصرخ: ولا حاجه ازاى..و

وقاطعه محيى ، كأنه ثائر ثورة بكاء :

ــ ما لقتش فهمى عبد العزيز .. فضلت أدور عليه ، مافيش فايده وبعدين سألت عليه ، وعرفت انه اعتقل .. قبضوا عليه

وجحظت عينا ابراهيم ، وقال وهو يحاول عبثا أن يتمسك بهدوئه الذى اعتاد عليه : اعتقل ازاى ؟.. امتى ؟..

وقال محيى ، وهو يجلس على الفراش ويسقط رأسه بين كفيه :

ــ امبارح فى الفجر .. بيقولوا انه ساعدك على الهرب ! !

وسكت ابراهيم .. بدأ يجمع ارادته ليستعيد هدوءه ، حتى يبدأ التفكير من جديد .. وطال سكوته الى أن رفع محيى رأسه وقال فى لهجة لا تخلو من حدة : دلوقت حنعمل ايه ؟ ..

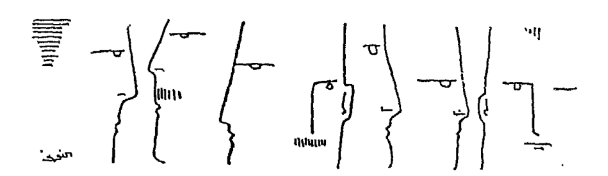
وقال ابراهيم وهو ينظر اليه فى ثبات : نبتدى نفكر من جديد !

وقال محيى كأنه يائس من التفكير :

ــ أظن لازم نفكر بسرعة .. ما فيش وقت .. البلد كلها قايمه على رجل .. البوليس مش مخلى ولا حته ما بيفتشهاش .. وبيقولوا انهم قبضوا على خمسين واحد !

وقال ابراهيم دون أن يتأثر : المهم اننا نفكر كويس ..

وتعمد أن يضغط على كلمة « اننا » حتى يشعر محيى بأنه شريكه فى التفكير .. ثم أخذ يروح ويجىء فى الغرفة ومحيى ينظر اليه بين الحين والحين نظرات حائرة .. فيها شفقة ، وفيها خوف ، وفيها كراهية ، وفيها توسل ..



٦

وسمع صوت الباب الخارجى يفتح من جديد .. وصوت قدمى الأب، ثم سمع الأب وهو يقول لسامية فى عجلة : فين مامتك ؟

وقفز محيى وخرج من الغرفة ليستقبل والده ، ولكن والده لم يلتفت اليه ، مد له يده دون أن ينظر الى وجهه ، وعاد يردد :

ــ فين مامتك ؟ !

وخرجت الام من المطبخ مهرولة ، ثم دخلت وراء زوجها الى غرفتهما ، وتعمد الاب أن يغلق الباب وراءهما ، ثم قال قبل أن يخلع طربوشه ، ودون أن يجلس .. قال وهو مبهور الانفاس :

ــ عبد الحميد فات على فى المكتب ..

وقالت الام كأنها تتأهب لسماع قصة طويلة :

ــ هيه .. وقال لك ايه ؟ ..

وقال الاب ساخرا وكأنه يسخر من نفسه :

ــ قال لى انى راجل وطنى عظيم ..

وقالت الام وهى لا تزال تتأهب لسماع قصة طويلة :

ــ كتر خيره .. وايه كمان ؟ ..

وقال الاب ووجهه يتقلص فى ألم : وعايز يتجوز سامية !!

وفتحت الام عينيها وكأنها لا تستطيع أن تفهم ، وقالت :

ــ ما طلبها السنة اللى فاتت وقلنا له لأ ! !

وقال الاب وهو ساهم كأنه يبحث عن دموعه :

ــ الدور ده ، مش حنقدر نقول له لأ ! !

وسقطت الام جالسة على الأريكة ، وهى مبحلقة العينين ، فاغرة فاها ، كأنها صفعت .. ثم تمتمت فى صوت خفيض :

ـ وذنب ساميه ايه كمان ؟

وسكت الاب .. كان قد قرر بينه وبين نفسه أن يعطى ابنته لعبد الحميد .. كان مرغما .. أو هكذا كان يظن ..

وكان يتصور نفسه كربان مركب على وشك الغرق ، فيضطر أن يلقى ببعض حمله فى البحر لينقذ البعض الآخر .. وقد قرر أن يلقى بسامية لينقذ باقى العائلة .. ورغم ذلك فهو لن يلقى بها قبل أن يعد لها قارب النجاة ..

وعادت الام تردد وهى لا تزال مبهوتة ، تنظر أمامها كأنها لا ترى شيئا : ذنب ساميه ايه يا ربى .. ذنبها ايه يا اخواتى !

وقال الاب وهو لا يحس بما يقوله :

ـ ربنا عايز كده .. هذه ارادة الله !

وعاد يتذكر كلام عبد الحميد له عندما زاره فى الصباح فى مكتبه .. كان يتكلم همسا .. كان يفح كالثعبان .. وقال انه واحد من العائلة ، لا يقل عن باقى أفرادها وطنية .. تحدث كثيرا عن وطنيته ، وعن المظاهرات التى اشترك فيها عندما كان طالبا .. ثم تحدث ـ بالمناسبة ـ عن رغبته فى الزواج من سامية .. وكان يتحدث بنغمة خاصة ، كأنه يقول ان شرط اعتباره فردا من العائلة هو أن يتزوج سامية ، وان وطنيته متعلقة بتحقيق هذا الزواج

يريد أن يتزوج بالتهديد .. السافل .. المجرم .. القذر .. لقد هم ساعتها أن يصفعه .. أن يطرده من مكتبه .. وأن يتبرأ منه ومن ابيه .. ولكنه لم يستطع .. كان فى موقف الضعيف .. كان لايملك الا أن يستسلم .. وقد فكر ساعتها فى كل الحلول التى تنقذ سامية .. وكان أول ما فكر فيه أن يعود الى البيت حالا ويطرد ابراهيم .. انه لا يستطيع أن يتمادى فى تحمل عبئه الى هذا الحد .. ولكن طرد ابراهيم لن يغير الموقف .. سيظل عبد الحميد يهدده ، حتى يتزوج سامية ..

وافاق على صوت زوجته وهى تقول كأنها تولول .. كأنها تنعى ابنتها .. مش ممكن مش ممكن أبدا دى أول فرحتى ده ماكانش عاجبنا الدكتور اللى طالبها ، نقوم نرميها للواد عبد الحميد ..

وأزاح الاب نظارته من فوق عينيه وقال وهو يضغط على أرنبة انفه كأنه يحبس دموعا تكاد تنهار :

ـ خليكى عاقلة امال يا تحية .. افهمينى .. بصراحة .. عبد الحميد بيهددنا .. اذا ما كنش حيتجوز سامية حيبلغ عننا

وصاحت الام كأنها أعلنت الثورة :

ــ يبلغ زى ما يبلغ .. انما أنا ما ارميش بنتى الرمية دى .. ما موتهاش بالحيا .. يروح ابراهيم وزفت الطين فى ستين داهية .. انما بنتى ما تتجوزش الجوازه دى أبدا ..

وقال الاب فى أسى : لو كان ابراهيم هو اللى حيروح فى داهيــة لوحده ، كانت هانت .. انما محيى .. وأنا .. !

وفغرت الام فاها .. ثم سقط رأسها فوق صدرها وأخذت تنتفض بكاء ، وهى تقول من خلال دموعها كأنها طفلة تائهة :

ــ يامصيبتى .. ياخرابى .. ما ليش دعوة .. ما يحصليش ده كله أبدا .. ده مايرضيش ربنا .. شوف لى حل يا زاهر .. ما ترميش بنتك بايدك ياخويا ..

ومد الأب ذراعه وأخذ يربت على ظهر زوجته ، وينظر اليها فى حنان قائلا : بس ياتحيه أنا لسه ماكملتش كلامى اسمعى أمال

وأخذ يربت على ظهرها حتى هدأت انتفاضتها ، ثم استطرد قائلا وفى عينيه نظرات خبث ساذج ، كأنه يجرب ذكاءه لأول مرة :

ــ شوفى ياستى .. دلوقت احنا حنوافق على الجوازه دى .. انما حنوافق كده وكده .. وطبعا مش حنقدر دلوقت نكتب كتاب ، ولا نعزم معازيم .. وحتى مش حنقدر نلبس الدبل ، ولا نعزم أخويا .. انما هو بس كلام بينى وبين عبد الحميد .. وحجتنا معانا .. مش ممكن عبد الحميد يطلب اننا نعمل حاجة وابراهيم قاعد فى البيت .. وبعد كام يوم .. ولا كام شهر ، يبقى يحلها ربنا ..

وكانت الام تستمع اليه وهى مبحلقة العينين ، ورموشــها ترتعش ، كأنها دهشة ، كأنها تشد ذكاءها من رأسها برموش عينيها

واستطرد الأب قائلا : فهمتى بقى ياستى ؟ ..

وقالت الام كأنها تحاول أن تقنعه أنها ليست أقل منه ذكاء :

ــ قصدك اننا حنعمل جوازه بالــكذب !

وقال الاب كأنه يلومها على غبائها :

ــ مش جوازة .. مجرد كلام .. مجرد موافقة مبدئية !

وقالت بسرعة : وبعدين نرجع فى كلامنا ..!

قال ، وهو يبتسم ابتسامة مرة : مظبوط ..

وسكتت الام قليلا ، ثم عادت تقول كأنها تهم بالبكاء ثانية :

ــ والنبى ده حرام .. يعنى حنخسر سمعة البنت ، ويقولوا

اتخطبت وانفسخت خطوبتها .. والبطال والكويس يبتدى يتكلم علينا ..

وقال فى ضيق ، كأنه عجز عن ارضائها :

ـ ياستى ما حدش حيتكلم .. ما حدش حيعرف بالحكاية دى الا احنا ، بينا وبين بعضنا .. وعبد الحميد حيخش ويخرج على انه ابن أخويا .. ويبتدى يشيل الهم معانا .. تبقى رجله جت .. اذا حب يبلغ عننا بعد كده .. حيسألوه وكنت ساكت ليه من الاول ؟ ..

وقالت الام كأنها لا ترضى عن كل هذا ، ولا تطيقه :

ـ ربنا يستر .. ما حدش عارف بكره فيه ايه .. هو حد كان يصدق ان ده كله حيحصل لنا ..

وقال الاب كأنه يحادث نفسه ، وكأنه لم يسمع تعليق زوجته :

ـ وحتى لو الناس اتكلموا عن سامية .. حيقولوا ايه يعنى ؟ مافيه ميت بنت اتخطبت وانفسخت خطوبتها .. مش أحسن ما يقولوا عليها أبوها وأخوها فى السجن ..

وصرخت الام كأن ابنتها هانت عليها فى سبيل زوجها وابنها :

ـ ما تجبش السيرة دى .. ما تقولش كده .. أنا خلاص ما بقاش فيه روح .. ولا أقوم والنبى وأحرق نفسى بالجاز ..

وقال الأب وهو يحاول أن يرفه عنها : أنا بقول يعنى أن ...

وقاطعته زوجته قائلة : ماتقولش .. كفاية كده ! ..

وساد الصمت بينهما فترة .. ثم قال الاب :

ـ مش ننده لسامية ونقول لها على الحكاية ! ؟

وقالت وهى تدير وجهها عنه وتشيح بيدها كأنها تحمله المسئولية كلها وحده : انده لها .. وقول لها انت ! ..

قال وهو يهم بالقيام : أنا حا انده للولاد كلهم ..

وفتح باب الغرفة وناذى بصوت خفيض مبحوح : سامية .. سامية

وخرجت اليه سامية من المطبخ ، ونظر اليها مليا فى حنان كأنه ينظر الى شهيدة : اندهى لأخوكى وأختك .. وتعالوا ..

وأطلت نوال من خلف أختها .. ثم أسرعت بمجرد أن سمعت كلام أبيها ، ونقرت على باب غرفة محيى ، ثم فتحت الباب وأدخلت رأسها وهى تقول بينما كانت تبحث بعينيها عن ابراهيم :

ـ محيى .. تعال .. بابا عايزك !

وقام محيى خارجا ، وابراهيم ينظر خلفه ، وفى عينيه تساؤل حاد .. لقد تذكر بسرعة ان الاب من عادته أن ينام بمجرد أوبته من عمله .. فلماذا لم ينم .. لابد ان هناك شيئا خطيرا قد حدث وحال بينه وبين النوم .. وقبل أن يبدأ فى التخمين كان محيى قد خرج وهو يزيح أخته من أمامه .. وأغلق الباب وراءه ..

واجتمعت العائلة كلها فى حجرة نوم الزوجين .. ووقفت سامية ونوال مستندتين الى حاجز السرير ، ووقف محيى مســـتندا الى الحائط بجوار الباب .. والأم والأب جالسان على الاريكة وكلاهما يتحاشى النظر الى أحد من الأبناء ..

وتنحنح الاب مرة ومرتين كأنه يطرد شيئا من صـدره ، ثم قال وهو ينظر الى كفيه :

ــ عبد الحميد حاييجى يزورنا النهار ده بعد الفطار ..

وقاطعه محيى قائلا فى قرف : تانى !! ..

ونظر الاب اليه كأنه يلومه على مقاطعته ، ثم استطرد :

ــ النهارده جالى فى المصلحة وفهمت منه انه شاف ابراهيم عندنا

وقالت نوال بسرعة : وعايز ايه يعنى ؟ ..

وحول اليها الاب عينيه وفيهما نظرة غاضبة ، ينهرها بها .. وعاد يتابع كلامه :

ــ طبعا انتم عارفين ان ظروفنا وحشة .. وفى الظروف دى الواحد بيستحمل كتير ، وكلنا لازم نستحمل بعض ..

ونظر الى أولاده كأنه يحاول أن يرى تأثير كلامه عليهم ، ويحاول أن يكشف عن أعماقهم ليرى مدى احتمالهم لما سيقوله .. ورآهم كلهم صامتين ، وقد بدأت نفوسهم تميل الى القلق .. فتنحنح مرة ثانية ، ثم قال :

ــ انتم عارفين ان عبد الحميد ولد وحش .. والصنف اللى زيه لازم ناخده بالسياسة .. علشان نتجنب أذيته ..

وقاطعته الام وهى تلتفت اليه مشفقة عليه :

ــ يا اخويا ما تقول لهم اللى عايز تقوله وتخلص .. ما احنا شايلين الهم مع بعض ..

وقال الأب : صبرك على يا تحيه ..

وجذب نفسا عميقا من صدره ، يستجمع به شجاعته واستطرد وهو لا ينظر الى أحد : عبد الحميد السنة اللى فاتت كان طلب ساميه .. طبعا عارفين اننا رفضناه .. النهارده جه يطلبها تانى ،

وطبعا حنرفضه برضه ..
وقالت سامية وهى تهز كتفيها :
ـ ايه التلقيحة دى .. ما البنات ماليه البلد !
وقال الأب دون أن ينظر اليها : انما حنرفضه بالسياسة .. يعنى حنفهمه اننا قبلنا ، وبعدين نرفضه .. !
وقال يحيى فى حدة وهو يرفع ظهره عن الحائط المستند عليه :
ـ يعنى عايز يتجوز بالتهديد .. المجرم .. أنا عمرى ما شفت سفالة بالشكل ده ! !
وقالت سامية ، وفى عينيها نظرات مذعورة ، وهى تدق الارض بقدمها : أنا ما أقبلوش ولا يوم واحد ولا ساعه واحده مش ممكن .. مستحيل .. يهدد ما يهددش ، أنا ما ليش دعوة ..
وخطت نوال خطوة الى جانب أختها ، وألصقت بها كتفها ، كأنها تحميها .. وعاد الأب يقول :
ـ اذا كنتى انتى ما تقبلهوش ساعة .. أنا ما اقبلوش دقيقة .. انما مضطرين .. وكل اللى أقدر أوعدك بيه انه مش حيتجوزك ، ولو ضربنى بالرصاص مش حايكتب عليكى كتاب ..
وقالت سامية ، وقد بدأت دموعها تنهمر :
ـ يعنى عايزنى اعمل ايه يا بابا ؟ ..
قال الاب :
ـ عايزك تسايريه .. تاخديه على عقله لغاية ما ربنا يحلها ..
وقالت سامية كأنها لا تصدق ان والدها يطلب منها مثل هذا الأمر : أسايره .. أسايره ازاى ؟! ..
ورد الاب وهو لا ينظر اليها كأنه يخجل أن يواجهها :
ـ قصدى انك تسيبيه يعتقد اننا قبلناه ..
قالت كأنها تتعمد احراج والدها : ازاى ؟! ..
وصرخ فيها والدها ، وكأنه يدافع عن نفسه بصراخه :
ـ ما اعرفش ازاى .. انما لازم تفهمى أن الكلام ده مش معناه ان عبد الحميد يبقى له حق عليكى .. تقطعى ايده لو مدها .. فاهمه !
ثم خفت صوته ، وقال كأنه يتوسل :
ـ أنا استحملت كتير .. استحملت كتير قوى .. ساعدونى ..
وقالت سامية وهى تمسح بكفها دموعا على خدها :
ـ كل ده علشان سى بتاع اللى قاعد جوه .. أنا خلاص ،

طهقت .. مش قادرة اسكت .. انا حا اخرج من البيت ده ..
حاروح أقعد عند خالتى .. مش عايزه اقعد هنا دقيقة واحدة..
ما تشوفوا لـكم حل .. احنا حانروح كلنا فى داهية ..

وقامت الام وأخذت ابنتها بين ذراعيها وهى تربت على ظهرها
وأحنت نوال رأسها ، كأنها تقصدها هى بكلامها ..

وقال محيى ووجهه مكفهر موجها الكلام لأبيه : وتفتكر حضرتك
ان عبد الحميد مش عامل حسابه اننا يمكن نلعب بيه ..

وقال الأب فى ضعف : والله يا ابنى ما انا عارف .. أدينى باعمل
اللى بيقدرنى عليه وبنا ..

وصمت محيى قليـلا يفكر فى طريقـة أخرى ، يبعد بها شر
عبد الحميد عنهم ، ثم كأنه لم يجد فى رأسه شيئا ، فتحرك ليخرج
من هذه الحجرة التى يملأها نشيج أخته سامية ..

واستوقفه والده قائلا : بلاش تقول لابراهيم على حكاية الجوازه
دى .. خلينا احنا بس اللى عارفين ..

وقال محيى فى اكتئاب وهو يضغط بأصبعه على قنطرة نظارته :
ــ حاضر ..

وهم أن يتحرك مرة ثانية فعاد الأب يقول : قول له بس أن
عبد الحميد حاييجى الليله ، وانه حيقابله علشان يعمل حسابه !!

وقال محيى فى استسلام : حاضر ! ..

وعاد الاب يستوقفه قائلا :
ــ هوه ابراهيم ماعرفش يتصل بأصحابه لسه ؟ !

وقال محيى وهو يزفر الكلمة فى ضيق : لسه !! ..

ونكس الاب رأسه كأنه يتمادى فى الاستسلام ..

وخرج محيى فى خطوات غاضبة كأنه ذاهب ليقتل ابراهيم ،
أو عبد الحميد ..

واستقبله ابراهيم رافعا اليه عينيه ، ولكن محيى تفادى العينين
حتى لا يلتقي بتساؤلهما ..

وجلس مكفهر الوجه ، ممطوط الشفتين ، وأصـابعه تعبث
بعضها ببعض .. وقال ابراهيم وهو يرسم بين شفتيه ابتسامة
يخفف بها عن صديقه : خير ان شاء الله .. حصل حاجه ؟!

وقال محيى وهو يزفر ساخطا :
ــ ما حصلش .. بس عبد الحميد حايشرف هنا الليلة ! !

واحس ابراهيم بالرعشة التى تنتاب قلبه ، ولـكنه كتمها ،

وقال فى بساطة وهو لا يزال يدعى الهدوء : ليه ؟ ..
وقال محيى بسرعة ، وهو يهب واقفا :
ــ علشان يشوفك كمان مرة .. علشـــان يتعرف بيك .. ووالدى بيشوف انك لازم تقابله .. كده أحسن .. بدل ما نخاف منه ، نخليه يخاف معانا ! !
وقال ابراهيم وهو يطأطىء رأسه : خلاص !! ..
واغتاظ محيى وقال فى حدة : خلاص ايه ؟ ..
وقال ابراهيم دون أن يتأثر بحدة صديقه :
ــ قصدى ما دام عمى موافق انى أقابله .. حاقابله ..
وقال محيى وهو يحاول أن يفتح كتابا يدفن فيه غيظه :
ــ وبابا سألنى اذا كنت قدرت تتصل بأصدقائك ولا لسه ؟
وقلق ابراهيم وقد رفع عينيه الى صديقه كأنه بدأ يعمل :
ــ فيه واحد نقدر نتصل بيه دلوقت حالا ! !
وقال محيى : مين ؟! ..
وقال ابراهيم : واحد اسمه فتحى المليجى ..
وقال محيى كأنه يحاول أن يسخر من كل أصدقاء ابراهيم :
ــ ما اعرفوش ..
وقال ابراهيم فى هدوء :
ــ ده مش معانا فى الـكلية .. طالب فى كلية الآداب ..
وقال محيى وهو لا ينظر الى صديقه : زمانهم اعتقلوه !!
وفقد ابراهيم هدوءه لأول مرة منذ دخل البيت ، وقال وهو يواجه محيى ، كأنه يحاول أن يسيطر عليه بالقوة :
ــ اسمع يا محيى .. احنا كل اللى نقدر نعمله انناا نجرب كل طريقة .. فى الظروف اللى زى دى ما حدش بيتأكد من حاجة .. يجوز فتحى المليجى اعتقل انما يجوز برضه انه ما اعتقلش .. المهم اننا نحاول نتصل بيه واذا ما قدرناش نحاول حاجة تانية
وقال محيى وهو يتحدى غضب صديقه :
ــ وحانفضل نحاول كده لغاية امتى باذن الله ؟ ! !
وقال ابراهيم وهو يخفف من حدته :
ــ انا عارف انكم تعبانين منى .. انا بقى لى هنا يوم واحد وده التانى ، انما حاسس انكم مش قادرين تستحملونى اكتر من كده .. ووالدك وعدنى انه يخبينى مدة اقصاها اربعة أيام .. اذا كان لسه عند وعده ، انا مستعد أخرج من هنا فى اليوم الرابع

حتى ولو سلمت نفسي للبوليس ! !
ولانت نظرات محيى ، ونظر الى صـــديقه فى عطف كأنه تذكر موقفه ، وقال وهو يعتذر :
ـ أنا آسف يا ابراهيم .. ما كنش قصـــدى .. انما انت عارف اننا مش واخدين على الظروف دى ! !
وسكت ابراهيم كأنه يتعمد أن يزيد محيى اسفا .. وعاد محيى يقول بعد فترة : وحانتصل بصاحبك ده ازاى ؟! ..
وقال ابراهيم وهو يدعى التفكير : مش عارف.. ايه رأيك ؟!..
وابتسم محيى ابتسامة خبيثة كأنه كشف أسلوب ابراهيم فى تنفيذ خططه .. ثم قال : طبعا مافيش الا أنا ؟! ..
ونظر اليه ابراهيم نظرته القوية ، وقال فى هدوء :
ـ لأ .. ما تنفعش !
قال محيى وهو لا يزال ساخرا : أمال مين .. بابا ؟!!
وتكلم ابراهيم فى جد ، كأنه ليس لديه وقت للمناقشة ، ولا وقت لاتباع أسلوبه القديم فى التلويح بخططه : لأ .. نوال ! ..
وبهت محيى ، وقال فى دهشة : نوال أختى !! اشمعنى !! ..
وقال ابراهيم فى حزم :
ـ لانى خايف ان يكون فتحى مراقب.. لو رحت انت البوليس حيراقبك انت كمان .. انما نوال تقدر تروح على انها واحـــدة صاحبة أخته ..
وســـكت محيى يفكر .. ثم قال وهو يضرب حافة مكتـــبه بقبضة يده : انما أنا ما أسمحش لأختى انها تتدخل فى المواضيع اللى زى دى .. كفاية أنا ..
وقال ابراهيم وهو ينظر الى محيى كأنه يمده بالقوة :
ـ كلنا دخلنا فى موضوع واحد ..
وقال محيى كأنه طفل عنيد : مش ممكن . اخواتى البنـــات ما لهمش دعوه بالحاجات دى .. دور على فكره تانيه !!
وقال ابراهيم كأنه يعلن يأسه :
ـ تفتكر لو كان عندى فكرة تانية ، كنت فكرت فى نوال .. أنا عمري ما اعتـــمدت على بنت .. ولا وثقت فى بنت .. انما الشغلانة دى مش ممكن تقوم بيها الا بنت ! !
وقال محيى فى حدة :
ـ ومش ممكن البنت دى تبقى أختى .. كفاية اللى حصل لنا

ونظر اليه ابراهيم كأنه يستهين به وقال :
ـ طيب قول لى فكرة تانية ؟ !
وسكت محيى .. وطالت فترة سكوته .. وسكت معه ابراهيم سكوتا عصبيا ، يثير ضجة فى رأس كل منهما ..
ثم انطلق محيى فجأة كأنه يتم حديثا كان يدور بينه وبين نفسه :
ـ وأنا ايه عرفنى بفتحى ده .. ازاى أسمح لأختى تروح له لغاية بيته .. ما يمكن يكون سافل ، ويدور بعد كده يتكلم عليها فى كل حته ! !
وقال ابراهيم وقد انفرجت أساريره وبدأ يشعر بأنه على وشك النجاح فى خطته :
ـ دى حاتروح له فى وسط عيلته .. وحاتقابل أخته .. ومش حاتقول اسمها ولا اسمك ، ولا حاتقول أنا فين .. والمواضيع اللى زى دى ماحدش بيتكلم فيها .. فتحى يمكن ما يخافش على أختك من الكلام ، انما حا يخاف على نفسه !
وقال محيى : انما بابا مش ممكن يرضى ده يدبحنا كلنا ولا ينشل !
وقال ابراهيم كأنه يصدر أمرا لا يناقش :
ـ باباك مش حا يعرف ! !
ولم يناقشه محيى فى هذا الأمر كأنه اقتنع به .. وسكت مرة ثانية .. وطال سكوته .. ثم عاد وانطلق فجأة قائلا :
ـ وحاتروح له امتى ؟.. اظن فى نصف الليل ! ؟
وقال ابراهيم فى لهجة جدية كأنه يدعو صديقه لأن ينتهى من وساوسه ، ويبدأ فى العمل :
ـ حاتروح دلوقت .. احنا الساعة تلاتة ونص لسه .. تقدر تروح وترجع قبل الفطار .. بيته قرب مننا .. فى الدقى !
وأغلق محيى الكتاب الذى كان قد فتحه .. طواه فى عصبية كأنه يصفع به القدر ، ثم اتجه الى الباب وفتحه ، وصاح بأعلى صوته : نوال .. نوال !!..
وخرجت نوال من حجرتها فى خطوات بطيئة كأنها تحمل فوق كتفيها دموع أختها .. وقالت فى كمد :
ـ عايز ايه ؟ .. مالك بتزعق كده ! !
وقال محيى بلا ابتسام : تعالى .. دقيقة واحدة ..
وانسحب الى داخل الغرفة ، ودخلت وراءه ، وسقطت عيناها على ابراهيم ، ونظرت اليه نظرة مسكينة ، كأنها تتوسل اليه أن

يأخذها فوق صدره لتبكى حظها وحظه ، وحظ البيت كله معهما
وأدار ابراهيم عينيه عنها ، وهو يخجل أن يواجهها بما يدور فى رأسه .. وقال محيى وهو يغلق الباب :
ـ ابراهيم عايز يقول لك حاجة ! !
ورفع اليه ابراهيم عينيه كأنه يلومه لأنه ألقى هــذه المهمة عليه ، ثم حول عينيــه الى نوال ونظر اليهـا نظرة سريعة ثم خفضهما ، وهو لا يزال أضعف من أن يواجهها ..
والتفتت نوال الى أخيهـا ثم الى ابراهيم ، وهى دهشة .. لا تستطيع أن تتصور شيئا يقوله لها ابراهيم .. الا شيئا واحدا لا يستطيع أن يقوله ! !
وتنهد ابراهيم .. جذب نفسا عميقا من صدره يستعين به لاطلاق لسانه ثم قال : الحقيقة ان فيه واحد صاحبى لازم اتصل بيه دلوقت حالا .. ومافيش حد يقدر يروح له الا انتى ..
قالها بسرعة ، كأنه يريد أن يزيح عن صدره شيئا ثقيلا ..
وقفزت من صدر نوال ابتسامة ضعيفة ، بلغ من ضعفها أن عجزت عن الوصول الى شـفتيها .. ثم التفتت الى أخيهـا صامتة ، كأنها تسأله بصمتها عن حقيقة ما يقوله ابراهيم ..
وأحس ابراهيم بالتفاتتها ، فاستطرد :
ـ محيى وأنا مالقيناش طريقة تانية .
وبدأ احساس نوال ينشط ويطرد من قلبها الهم الذى تركته فيه دموع أختها .. أحست انها مقبلة على عمل خطير .. ولم تحس أن هذا العمـل من أجل مصر .. ولا من أجل بطل .. ولكن من أجل ابراهيم .. الرجل الذى التقت به .. أحست انها تقترب منه أكثر .. تقترب منه جدا حتى لتشـعر بأنفاسه ، وقالت بسرعة : وحاروح له ازاى ! ..
وقال ابراهيم وهو لا يزال يرفض أن ينظر اليها ، كأنه يحاول أن يقنع نفسه انها ليست نوال التى يشركها فى خططه .. انما مجرد زميل من أعضاء جمعيته :
ـ بيته فى الدقى .. شارع اسماعيل نمرة ١٥ .. اذا فتح لك حد تانى قولى انك زميلة له فى كلية الآداب وجاية تاخدى منه كراسة المذكرات .. ولما يقابلك .. ماتقوليش له انتى مين .. ولا أنا فين .. قوليله بس انى عايز بدلة ظابط .. وعايز عربية تستنانى فى شارع النيل قبل نادى التجديف من ناحية الجيزة ..

تستنانى بعد مدفع الفطار بعشر دقايق .. ولازم كل ده يتم بكره ، يابعده بالكتير . فهميه انى مش حاقدر أقعد مطرح ما أنا ، أكتر من كده !

وكانت نوال تستمع اليه وقد تجمع ذكاؤها كله فى عينيها .. وشفتاها ترتعشان كأنها تشرب بهما كلامه .. والغمازتان فوق خديها تلوحان حينا وتختفيان حينا كأنهما نجمتــان من نجوم الفجر الجديد ..

وقالت فى صوت حنون ليس فيه أثر للانفعال ، انما فيــه استسلام وكأنها تسأله « عايز ايه كمان » .. كأن رجلها يأمرها فتسعد بأمره ، وتسعد بالخضوع له :

ـ وحاقول لماما ايه علشان تسيبنى أخرج ؟

قال محيى :

ـ قوليلها انك رايحه تزورى فوزيه ولا واحدة من صاحباتك !

قالت نوال وهى هادئة أيضا : مش حترضى !! ..

وقال ابراهيم بعد لحظة صمت : قوليلها انك لازم تزوريها قبل ما تيجى هيه تزورك وتطب علينا ! ..

ونظرت اليه باعجاب كثير وقالت : فكره ! ..

ثم استطردت : هوه اسمه ايه ؟ ..

قال ابراهيم وهو يرفع اليها عينيه فى دهشة : مين ؟! ..

قالت مبتسمة : اللى حاروح له ؟ ..

قال وهو يضحك من نفسه : فتحى المليجى ! ..

قالت : أروح له دلوقت ؟ ..

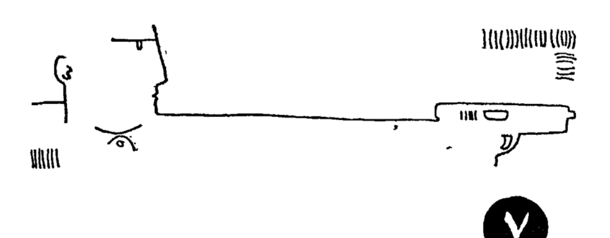
قال وهو ينظر اليها مبتســما كأنه يودع بين يديها حيــاته ومستقبله راضيا : حالا ..

قالت وهى تقبله بعينيها : حاضر ..

وهمت أن تنصرف ، فاستوقفها محيى ، واقترب منها ، وقال كأنه يواسيها : خدى بالك من نفسك يا نوال .. ماتتهوريش زى عوايدك .. لو حسيتى بأى حاجه .. حد بيتبعك .. أو حــد بضايقك .. ارجعى حالا ..

قالت وكأن فرحتها لم تترك لها طاقة للكلام : حاضر ..

وخرجت من الغرفة كأنها ذاهبة الى ابراهيم لا ذاهبة بعيدا عنه !



٧

لم تجد نوال صعوبة فى اقناع والدتها لتسمح لها بالخروج بحجة زيارة صديقتها .. وأخذت تبدل ثيابها فى هدوء مفتعل ..

ورغم الجهد الذى كانت تبذله فى افتعال الهدوء ، لم تستطع أن تحول دون رعشة أصابعها ، حتى انها مزقت جوربها وهى تسحبه على ساقها ، فرفعت اصبعها الى فمها وبللته بريقها ثم مسحت به على الجورب حتى تحول دون اتساع الرقعة الممزقة

فعلت ذلك وهى تبتسم ، كأنها تبتسم لنفسها لتتحايل عليها وتقنعها بالهدوء .. ولم تكن رعشتها رعشة خوف ..

كانت رعشة الاقدام على مغامرة جديدة .. رعشة الوقوف أمام عالم مجهول ، ترى نوره بعين ، وترى ظلامه بالعين الأخرى .. وتسمع فيه باحدى أذنيها تغريد الطيور وتسمع بالأذن الأخرى زئير الوحوش ..

ولم تكن ترى فى هذا العالم الا انسانا واحدا .. ابراهيم .. كأنها ذاهبة اليه .. كأنها ذاهبة الى أول لقاء لأول حب .. وكان النور والظلام اللذان تراهما ينبعثان من ابراهيم .. والتغريد والزئير تسمعهما حول ابراهيم .. وكانت تائهة وهى تحاول الذهاب اليه .. تائهة فيه .. وكان احساسها بأنها تائهة يزيدها لهفة عليه .. واصرارا على العثور عليه .. العثور على سلامته وأمنه .. كأنه مريض لا تدرى دواءه فتدور ملهوفة تبحث له عن طبيب ..

انها ذاهبة الآن الى الطبيب ..

وخرجت وضفيرتها السوداء حائرة معها خلف ظهرها ..

وسارت فى الطريق نحو موقف الاوتوبيس ، دون أن يخطر على بالها انها ذاهبة فى مهمة وطنية .. لم تفكر فى البوليس ، ولا فى السجن .. فقط كانت تفكر فى الطبيب الذى ينقذ ابراهيم .. وكان كل خوفها الا تجد الطبيب .. أو أن يهز رأسه أمامها علامة اليأس .. ورغم ذلك فلقد كانت أحيانا تذكر نصيحة أخيها لها : « خدى بالك من نفسك يانوال .. لو حسيتى بأى حاجة .. حد بيتبعك .. أو حد يضايقك .. ارجعى حالا » .. كانت تذكر هذا الصوت ، فتنتبه الى نفسها .. وتقفز الى عينيها نظرات شك وريبة تديرها بين ركاب الاتوبيس .. وكانت تمر بها لحظة تعتقد فيها ان كل هؤلاء الناس يعرفون سرها .. وسر ابراهيم .. ويخيل اليها انهم كلهم من رجال البوليس السرى ، وانهم سيقبضون عليها .. سيأخذونها الى السجن ، قبل أن تصل الى الطبيب .. وكان قلبها يرتجف .. ولكنها كانت تطرد هذه الشكوك سريعا ، فتهدأ عيناها ، ويهدأ قلبها .. وتعود تفكر فى ابراهيم .. وفى الطبيب ..

ونزلت من الاوتوبيس فى ميدان كوبرى الانجليز ..

وسارت فى شارع اسماعيل ، تتبع بعينيها أرقام البيوت .. وعندما وصل الى رقم ١٣ تلفتت وراءها بلا تعمد ، كأن شيئا فى أعماقها يدفعها الى الحذر .. ولم تجد أحدا وراءها فخطت عدة خطوات ، ووقفت أمام البيت رقم ١٥ .. واشتد وجيب قلبها كأن عمرها كله يتجمع فى الخطوة التالية .. وترددت .. ترددت طويلا .. وكان فى ترددها كثير من الحياء ، وكثير من الضعف .. كأنها افاقت من أحلامها لتصدم بالواقع .. كأنها عرفت لأول مرة ان ابراهيم هارب من الحكومة ، وانها هنا لتساعده على الهرب .. وكأنها اكتشفت لأول مرة انها ستدخل وحدها الى بيت غريب ، لتلتقى برجل غريب ..

وقاومت ترددها بكل ارادتها .. وبدأت تقيس البيت بعينيها .. انه بيت كبير .. فيلا .. وحديقة .. يبدو انهم أغنياء .. وخطت الى الداخل فى خطوات مرتبكة .. وضغطت على جرس الباب كأنها تضغط على قلبها .. وفتح لها خادم أسمر يرتدى قفطانا أبيض .. ووقف أمامها صامتا كأنه يبشر بليل طويل .. وقالت فى صوت ضعيف متهدج : فتحى بك موجود ؟! ..

وقال الخادم وشفتاه تتحركان بسرعة فوق أسنانه البيضاء ،

كأنه يحول دون انبثاق الفجر : نقول له مين حضرتك ؟! ..
قالت وصوتها لا يزال يرتعش : أنا زميلته فى الكلية ..
قال : اتفضلى .. دقيقه واحده .. نديله خبر ! ..
وقادها الى صالون فخم .. ولكنها لم تستطع أن تلمح فخامته .. لم تستطع ان ترى المقاعد الأبيسون ، ولا التحف المتناثرة فوق الموائد المذهبة .. ووقفت حائرة كأن الحجرة فراغ ، ليس فيها مقعد تجلس عليه
وسمعت وقع خطوات سريعة .. ثم بدت أمامها فتاة فى مثل سنها .. جميلة ، ولكن ثوبها أجمل منها ..
وتمهلت خطوات الفتاة وهى تقترب منها ، ثم مدت يدها تصافحها قائلة : بونسوار ..
وقالت نوال وهى مرتبكة فى حيائها : بونسوار ..
وأخذت الفتاة تنظر اليها فاحصة كأنها تتحسس قماش ثوبها لتعرف نوعه ثم قالت فى برود :
ـ حضرتك مع أبيه فتحى فى الجامعة ؟
وبلعت نوال ريقها وهى تقول : أيوه ..
قالت الفتاة وهى لا تزال تطلق نظراتها الفاحصة :
ـ هوه نايم .. تحبى نبلغه حاجة ؟!
واحتارت نظرات نوال فى عينيها برهة ، ثم قالت كأنها صممت أمرا : أرجوكى تصحيه أنا عايزاه فى حاجه ضرورى خالص
ونظرت اليها الفتاة فى تعجب ثم قالت :
ـ أصحى أبيه فتحى !! مش ممكن .. ده يدبحنى .. ياى .. كله الا صحيان أبيه فتحى ..
وقالت نوال بسرعة :
ـ تأكدى انه مش حيزعل لما تصحيه دى مسأله تهمه خالص
ونظرت اليها الفتاة فى سخرية وقالت : وتهمك انتى كمان طبعا !
وفهمت نوال ما تقصده الفتاة ، وازدحمت دماؤها فى وجنتيها ثم صعدت الى رأسها ، والتمعت فى عينيها نظرة كشرارة النار ، وقالت فى حدة تحاول أن تكتمها حتى لا تصفع الفتاة الواقفة أمامها :
ـ أرجوكى تروحى تصحيه واذا مارضيش يصحى تعالى قوليلى
ونظرت اليها الفتاة فى دهشة ، ثم قالت بلا مبالاة :
ـ دى يظهر مسألة مهمة خالص .. يابختك !!

وقبل أن تنفجر نوال صارخة فى وجهها ، استطردت قائلة :
ـ وأقول له مين حضرتك ؟

وهبطت حدة نوال ثم قالت وهى لا تزال تفكر : زينب ..
ثم استطردت بسرعة كأنها وجدت طريقا : زينب حمدى ! !

وهزت الفتاة كتفيها بلا مبالاة ، وخرجت .. وتركت نوال ساهمة .. كان اسم « حمدى » الذى نطقته بلسانها لا يزال يرن بأذنيها .. انه اسمه .. ابراهيم حمدى .. هل سطت على اسمه .. هل أصبح هذا الاسم حقا لها .. هل يكون اسمها يوما « نوال حمدى » .. وأحست أنها تمادت فى أحلامها أكثر مما يجب .. انها سارت بعيدا فى العالم المجهول .. وأحست بحيائها .. حياء لذيذ يدفىء قلبها لمجرد أن اسمها واسم ابراهيم اجتمعا فى اسم واحد ..

وتلفتت حولها .. ثم جلست على مقعد .. جلست مستريحة سادرة فى أحلامها .. ثم تنبهت الى مهمتها ، فاعتدلت ، وجلست على مقدمة المقعد ، واتخذت لنفسها وضعا جديا ..

وتركوها وحدها فترة طويلة ..

وبدأت تتنبه الى الفخامة التى تحيط بها .. الى المقاعد الأوبيسون ، والتحف المتناثرة على الموائد المذهبة .. هل يمكن أن يكون بين أصدقاء ابراهيم فتيان فى مثل هذا الثراء .. مرفهون الى هذا الحد .. لقد كانت تتصورهم جميعا مجاهدين مشردين .. لا يطيقون الثراء ولا الرفاهية .. ولا يملكون شيئا الا المسدسات .. وسمعت وقع أقدام ..

ودخل شاب نحيل .. بارز الوجنتين تنفر عروقه من فوق يديه .. وكانت عيناه منتفختين من أثر النوم ، وشعره مشعث .. يرتدى بيجاما ومن فوقها « روب » من الحرير .. هل هذا هو فتحى المليجى لقد كانت تتصوره انسانا ضخما قويا بارز العضلات .. ان الذى ينقذ ابراهيم يجب أن يكون انسانا ضخما. واستقبلته بعينين دهشتين كأنها لاتصدقه ومدت له يدها لمصافحته ، وهو يبادلها دهشتها ، وقبل أن تتكلم لمحت أخته آتية وراءه فقالت بلهجة حاسمة: من فضلك أقدر أكلمك لوحدك ؟!

ورفعت صوتها حتى تسمعه الفتاة ..

وهزت الفتاة كتفيها كأنها تقول « ياسم » ! ثم خرجت .. واقتربت منه نوال وقالت هامسة :

ــ حضرتك الاستاذ فتحى المليجى ؟
وقال فتحى والدهشة لا تزال تملأ وجهه : أيوه...
وقالت نوال وقد اشتد همسها خفوتا بعد أن نظرت اليه مليا كأنها تطلع على بطاقة تحقيق شخصية :
ــ أنا جاية من عند ابراهيم حمدى ..
واتسعت عينا فتحى ، وقاطعها قائلا فى لهفة : هو فين ؟ ..
وقالت نوال : ما اقدرش أقولك ..
قال كأنه يعتذر : قصدى أسألك صحته ازيها وعامل ايه ؟ !
وقالت وهى تحس احساسا كاملا بمهمتها الخطيرة :
ــ صحته كويسه .. وبيقولك انه عايز بدلة ظابط .. وعايز عربية تستناه فى شارع النيل ، قبل نادى التجديف من ناحية الجيزة بعد مدفع الفطار بعشر دقائق .. ولازم كل ده يتم يا بكره يا بعده ..
ونكس فتحى رأسه ، وأخذ يفكر ، بينما نوال تنظر اليه بكل عينيها كأنها تنتظر منه نتيجة امتحانها .. النتيجة التى ستقدمها لابراهيم ..
ورفع رأسه وقال وقد ارتسمت على وجهه أمارات الجد :
ــ بدلة الظابط اقدر اجيبها الليلة .. لو كنت انتى اللى حتستلميها تقدرى تاخديها منى بكره الصبح ..
وقالت بسرعة كأنها تتعجل بقية القرارات : الساعة كام ؟ ..
قال : زى ما يعجبك .. الساعة اتناشر مثلا ..
قالت : فين .. آجى هنا ؟
قال : لا بلاش البيت أحسن والدى يمكن ما يخرجش بكره استنينى فى ميدان الكوبرى .. عند دكان السجاير .. وانا حافوت عليكى ، وأسلمها لك .. اذا ماجتش الساعة اتناشر بالضبط تيجى هنا الساعه تلاته لأنه يمكن حد يكون مراقبنى
قالت كأن المهمة أصبحت صعبة :
ــ يعنى أخرج مرتين فى يوم واحد .. مش معقول ؟!
ونظر اليها فتحى فى تعجب كأنه لا يفهم ما تقول ، وقال :
ــ مش معقول ليه ؟
وكادت تهم بأن تقول له ان أمها لن تسمح لها بالخروج ، ولكنها تنبهت الى ان ليس من حقها أن تناقش فتحى فى مثل هذه المواضيع ، فقالت :

ـ قصدى .. المهم .. والعربية حتعمل فيها ايه ؟
قال : العربيه بعد بكره .. مش ممكن قبل كده ..
قالت وهى تهم بالانصراف : متشكرة ! !
وسألها وهو لا يزال ممسكا بيدها :
ـ حضرتك أخت ابراهيم .. قريبته ؟
قالت وهى تبتسم ابتسامة خفيفة : لأ .. معارف ..
وخطت نحو البهو الخارجى ، ووجدت أخت فتحى تنظر اليها .. نفس النظرة الساحرة ، وقالت وهى تودعها بعينيها حتى الباب :
ـ يابخت بنات الجامعه احنا عندنا فى الليسيه رجعيين خالص !
ولم ترد عليها ، انما أشاحت براسها فطارت ضفيرتها فى الهواء كأنها تصفعها بها .. وخرجت ..
عادت الى البيت ، تحمل الدواء .. وكانت فرحة ..
كان صدرها ممتلئا بالثقة فى نفسها .. لقدعرفت الطريق .. انه طريق سهل ، ليس فيه ما يخيف .. ليس فيه وحوش ، ولا ظلام .. الطريق الى ابراهيم !
وانطبعت فى ذهنها صورة فتحى المليجى .. الوجه النحيل ، والعروق البارزة ، والعينان المنتفختان من أثر النوم .. وصورة أخته بنظراتها الساخرة وثوبها الجميل .. أجمل منها .. وصورة البيت .. والمقاعد الاوبيسون ، والتحف فوق الموائد المذهبة .. انطبعت فى ذهنها كل هذه الصور كأنها ذكريات عزيزة .. غالية .. ذكريات أول لقاء لأول حب .. وسمعت بأذن خيالها صوت أخت فتحى وهى تقول « يابخت بنات الجامعة .. دى الليسيه بقت رجعية خالص » .. ماذا كانت تقصد .. وابتسمت بينها وبين نفسها وهى تواجه هذا السؤال .. انها بنت صغيرة هذه الفتاة .. أخت فتحى .. انها لا تدرى الحياة .. لا تدرى الحب .. لا تدرى أن فى بيتها رجلا .. بطلا .. لا تدرى شيئا .. ان تعليقها لا يعدو مجرد تنفيس عن غيرتها .. كهؤلاء الناس الذين يلقون التعبيرات الساخرة كلما رأوا فى الطريق فتى بجانب فتاة .. وقد رأتها بجانبه .. لا بجانب شقيقها فتحى .. بل بجانب ابراهيم .. كان ابراهيم دائما بجانبها ، وخياله يلوح فى عينيها ، وفوق شفتيها ، ويتأرجح مع ضفيرتها .. فغارت منها .. ولكنها

صغيرة .. صغيرة جدا هذه الفتاة .. أما هى فكبيرة .. ناضجة عرفت الحياة .. وعرفت الحب ..

ودخلت البيت تحمل فرحتها وثقتها بنفسها ..

وسمع محيى وقع خطواتها ، فخرج اليها ، وأشار اليها من بعيد ثم قال همسا وهو يجذبها من يدها الى داخل الغرفة :

ــ خير .. لاقتيه ؟!

قالت وهى تنظر الى ابراهيم وبين شفتيها ابتسامة ملأت الغرفة كلها ابتساما : أيوه لاقيته ! ..

واحتضنها ابراهيم بعينيه ، ووجهه ينطق بالفرح ، كان كل خلجة فيه تزغرد.. ولم يفرح بالخبر ولكنه كان فرحا بعودتها.. لقد قضى كل هذه الفترة منـذ ذهابهـا ملهوفا عليها .. يفكر فيها .. وقلبه ينقبض وينفرد كأنه يجرى وراءها .. وحاول أن يقنع نفسه انه لم يكن يفكر فيها الا ليطمئن على خطته .. وانه لم يكن ملهوفا عليهـا ، انما كان ملهوفا على نفسـه .. حاول كثيرا .. وحاول أن يفسر احساسه بأنه نفس الاحساس الذى كان يشعر به وهو يرسل زملاءه فى الجمعية السرية لتنفيـذ خططه .. حاول أن يوجه احساسه الى هذا الاتجاه .. ولكنه لم يستطع .. انه احساس جديد ذلك الذى يحس به .. وهو احساس مركز فى شخص واحد .. لا يشمل المجموع كله .. لا يشمل مصر كلها .. كأن الناس كلهم أصبحوا واحدا .. ومصر كلها لم يعد فيها الا واحد ..

وقد ثار على هذا الاحساس.. ثار على لهفته .. انه احساس أقوى منه .. ولهفة تكاد تنهار به .. تكاد تدفعه لأن يصرخ مناديا نوال ، ثم يحطم القضبان التى يسدلها أمامه حرصا على تنفيذ خطته ، ويجرى وراءها ليعود بها .. يعود بها اليه حتى لا تغيب عن عينيه .. وظل يقاوم احساسه .. قاوم كثيرا .. الى أن عادت ، فكف عن المقاومة .. وانطلقت خلجات وجهـه تزغرد فرحا ..

ولأول مرة احتواها بعينيه دون أن يحولهما عنها .. لم يستطع أن يحولهما .. وتعلقت ابتسامته بابتسامتها .. تعلقت طويلا .. كأنهما لن ينتهيا من الابتسام .. وكأن بينهما رسولا من الشوق يروى عمره كله وعمرها كله

وعاد محيى يقول فى لهجة سريعة وقد ضاق بتلكؤها فى الكلام :

وقالك ايه .. ماتتكلمي ! ..

قالت كأنها هائمة : قال لى انه حيعمل كل حاجه ! ..

وكان ابراهيم قد أفاق على صوت محيى ، فاستجمع ارادته حتى استطاع أن يرخى عينيه عن نوال ، وقال فى اختصار كأنه لم يعد يستطيع الكلام : ازاى ؟ ! ..

وقالت نوال كأنها تتباهى بنجاحها : بكره الساعه اتناشر حايجيب البدله .. وبعد بكره العربية حاتكون جاهزه ..

وقال محيى متعجلا : حايجيب البدله فين ؟ ..

قالت : حاستناه فى ميدان الكوبرى جنب بتاع السجاير ، وحايفوت يسلمها لى ..

وصاح محيى حتى كاد صوته يخرج من الغرفة :

ــ عال .. مش ناقص الا انك تقابليهم فى السكك ..

وضغط باصبعه على قنطرة نظارته ، وعاد يقول غاضبا :

ــ أنا مش ممكن أسمح لك بكده .. كفاية لغاية هنا .. أنا أروح آخد البدلة منه ..

والتفتت نوال الى ابراهيم كأنها تستنجد به من أخيها الذى يكاد يحرمها لذة انتصارها ، ويحرمها من نشوة حبها ..

وسكت ابراهيم برهة .. كان هو الآخر يحس بالضيق .. يحس ان شيئا فى صدره يعارض أن تذهب نوال وتقابل فتحى فى الطريق .. كأنه يغار عليها .. كأن التقاءها بشاب آخر يجرح كبرياءه ..

وقال فى صوت خافت وهو يحاول أن يقنع نفسه قبل أن يقنع محيي : ده حايسلمها البدله ويمشى على طول .. المسأله مش حتاخد أكتر من دقيقة واحدة ..

وقال محيى : دقيقه .. اتنين .. أنا اللى حاروح بنفسى .. انما اخواتى البنات مايقابلوش شبان فى السكك ..

وقالت نوال فى حدة كأنها تدافع عن نجاحها : انما هو مايعرفكشر .. حيسلمك البدله ازاى ، وهو ما يعرفكش ! ..

وسكت محيى ، ورفع اليه ابراهيم عينيه كأنه يتحداه أن يجيب على هذا السؤال ..

وخطا محيى عدة خطوات ، ثم استدار الى أخته قائلا كأنه وجد الجواب : أروح معاكى .. نروح احنا الاتنين ! ..

وقال ابراهيم بلهجة الاستاذ :

ــ لو فتحي شافك جنب نوال .. حيعمل نفسه مش عارفها ويمشي على طول .. حيفتكرك جاسوس ، ولا حيفتكر ان نوال كانت بتضحك عليه ..

وقال محيي وهو لا يزال في غضبه :

ــ ماهو مش ممكن تروح لوحدها .. فكر حضرتك في أي فكرة .. انما نوال ماتقابلش شبان في الشوارع ..

وقال ابراهيم وقد طرد من نفسه ترددها : يامحيي احنا قربنا خلاص مايصحش تيجي دلوقت وتقف في حاجه صغيره ..

وقال محيي وهو ينظر الى ابراهيم في حنق :

ــ دي مش حاجة صغيرة .. لو كان لك اخوات بنات ماكنتش تطلب منهم اللي بتطلبه من أختي ..

وسكت ابراهيم فجأة .. وفغر فاه كأنه يهم أن يقول شيئا .. ولكنه لم يقل شيئا .. سكت .. وتقلص وجهه ألما كأنه يكبت جرحا في قلبه .. وأحست نوال بالألم الذي يعانيه ابراهيم .. أحست بجرحه .. فالتفتت الى شقيقها وقالت في حدة :

ــ ايه الكلام اللي بتقوله ده يا محيي .. أنا رحت لفتحي في بيته .. شاب مؤدب .. مارفعش عينه في عيني .. وأختـه استقبلتني .. بنت متربيه .. في سني .. أصغر مني شويه .. وكانت حاتشلني شيل لما عرفت اني زميلة أخوها .. خايف من ايه .. حياكلني يعني ؟!

وقال محيي وهو لا يزال غاضبا دون أن يستطيع النظر الى ابراهيم : طيب ما اتفقش معاكي يسلمك البدله في البيت ليه ؟

وقالت نوال : خاف يكون باباه موجود ! ! ..

وعاد محيي يقول ، وكأن كل المنافذ قد سدت في وجهـه ، ويحاول أن يفتح منفذا جديدا :

ــ لأ .. مش علشان باباه .. علشان يفوت عليكي بالعربية ، ويقول لك اركبي جنبي لغاية ما نروح نجيب البدلة .. انتي ما تعرفيش الشبان دول ، أنا عارفهم كويس !!

وقالت نوال وهي تدق الأرض بقدميها :

ــ انت اتجننت يا محيي .. ازاي تقول لي كلام زي ده . انت فاكرني عبيطة ، ولا اتجننت ..

ورفع ابراهيم رأسه ، وقال ووجهه ينضح ألما :

ــ اسمع يا محيي .. مافيش لازمه للكلام ده .. أنا حاخرج

من البيت دلوقت حالا .. واللى يحصل يحصل ..
واتسعت عينا نوال كأنها تصرخ بهما جزعا ..
وقال محيى مرتبكا وكأنه يتقهقر بلا انتظام : ازاى الكلام ده ! ؟
وقال ابراهيم فى هدوء ، وهو يقوم واقفا :
ـ لو خرجت من البيت دلوقت ، فيه احتمال تسعين فى الميه انهم يقبضوا على .. ولو خرجت على حسب خطتى يبقى الاحتمال خمسين فى الميه .. يعنى الفرق أربعين فى الميه بس .. مش حاجه ! ! ..
وقالت نوال وهى تنظر اليه كأنها تتعلق به :
ـ لأ .. مش حاتخرج .. مش ممكن !!
ثم التفتت الى شقيقها وصاحت فى حدة صيحة خافتة : محيى
ونكس محيى رأسه فى الأرض ، وقال وهو يضغط على نظارته : دى مش طريقه يا ابراهيم ، مش قصدى أقولك تخرج انما لازم تقدر ظروفى .. ظروفنا كلنا ..
وقال ابراهيم فى صوت رقيق كأنه يضع قلبه بجانب قلب صديقه : أنا خارج لأنى مقدر ظروفكم .. مقدرها من ساعة ما دخلت البيت ! ..
وقال محيى وهو لا يزال منكس الرأس :
ـ أنا كل اللى يهمنى خوفى على نوال .. دى مش زى بنات الجامعه بتوعنا .. دى بابا قعدها فى البيت من قبل ما تاخد التوجيهية .. و ..
وقال ابراهيم كأنه يعاتب صديقه :
ـ أنا كمان خايف على نوال ..
ورفعت اليه نوال عينيها وفيهما نظرة مترددة كأنها بدأت تخاف فعلا .. واستطرد ابراهيم قائلا :
ـ لو كان فيه أى خطر عليها ماكنتش طلبت منها حاجة .. تأكد يا محيى .. أنا ماليش اخوات صحيح .. انما من ساعة ما دخلت بيتكم وأنا باتمنى انى أكون أخوكم ..
وارتفع صوت الأم من خارج الغرفة وهى تصيح :
ـ نوال .. يا نوال .. ياخويا هيه راحت فين البت دى !
وتحركت نوال قائلة : أما أروح أشوف ماما عايزه ايه
وخطت نحو الباب ثم استدارت قبل أن تخرج وقالت لشقيقها وبين شفتيها ابتسامة ترشوه بها :

ــ ما تخافش على يا محيى .. انت عارفنى كويس !

وخرجت واغلقت البـــاب وراءها .. واستقبلتها أمها وهى واقفة على باب المطبخ قائلة :

ــ انتى ملهيه فى ايه .. وسيبانى لوحدى فى المطبـــخ .. انا سمعاكى راجعه من نص ساعة وأكتر ..

وقالت نوال : كنت باكلم محيى ..

وقالت أمها : طب روحى اقلعى جزمتك وشرابك وحصلينى .. أحسن أختك لاويه بوزها ومش راضيه تتحرك ..

وهزت نوال رأسها ، وقالت : حاضر ..

ثم دخلت الى غرفتها ، وتلفتت عيناها تبحثان عن أختهـــا سامية .. كانت ســامية جالسه فوق الفراش ، مستنـــدة بظهرها الى الحائط وذراعاها تضمان ركبتيها الى صدرها .. وكانت مرتدية جلباب النوم .. جلبابا أزرق من الباتستا .. وشعرها قد جمعته فى « ايشارب » قديم .. أصفر باهت .. يبدو كمنديل الرأس .. وكان وجهها فى لون « الايشارب » .. أصفر باهت أيضا ، وكانت عيناها ذابلتين من أثر الدموع .. كل شيء فيها ذابل .. كأنها بكت كل دموعها ، ثم بكت كل دمائها ..

ونظرت اليها نوال فى حنان وقالت وهى تقترب منها : مالك ؟ !

وردت ساميه فى غضب : ماليش .. كنتى فين ؟ ..

وقالت نوال وهى تتظاهر بالبراءة : كنت عند فوزيه .. أصلى خفت تيجى تزورنا ، فرحت أزورها أنا ! ..

وقالت ســامية وبين عينيها نظرة حادة كالشوكة فى الوردة الدابله : لا ياشيخه .. على أنا الــكلام ده ! ! ..

وقالت نوال وقد بدأت تعجز عن الاســتمرار فى التظـــاهر بالبراءة : أمال يعنى كنت فين ؟ ! ..

وقالت سامية وهى تتحداها :

ــ ما اعرفش .. هو حد بقى عارف حاجة فى البيت ده ..

وقالت نوال وهى تتودد اليها :

ــ ايه بس اللى مزعلك يا سامية .. و ...

وقاطعتها سامية فى حدة :

ــ مالــكيش دعوة بيه .. كفاية عليكى سى ابراهيم بتاعك .. قال ايه اللى مزعلنى قال .. ما فيش حاجة .. مبسوطة خالص .. مبسوطة أكتر منك .. انتى بتفكرى فى واحـــد محكوم عليه

بالاعدام .. وأنا واقع فى قسمتى واحد « بايظ » ماكملش تعليمه .. على الأقل أنا أحسن منك ..
ومدت نوال يدها تحاول أن تلمس كتف شقيقتها ، قائلة :
— ما تقوليش كده يا سـامية .. ده بابا حلف انك مش حتتجوزيه .. مش ممكن يكون ده قسمتك ..
وضربت سامية اليد الممدودة اليها وصاحت : ابعدى عنى .. سيبينى .. مش عايزه أشوف حد منكم خالص .. !
ثم أسقطت رأسـها بين ركبتيها ، كأنها تحاول البكاء ، فلا تجد دموعا ..
وظلت نوال ترقبها فى حنان يشوبه اشفاق وأسى ، ثم أخذت تبدل ثيابها .. ثم خرجت لتلحق بأمها فى المطبخ ، وتركت سامية وحدها .. تركتها تستعيد للمرة الألف صور حياتها .. وصور عبد الحميد فى حياتها ..
لقد عاش عبد الحميد فى حياتها كلها .. كان ابن العم الذى التصقت به فى طفولتها وصباها .. وكانت فى الايام البعيدة تعجب به .. تعجب بذكائه ، وجرأته .. كانت تعجب به وهو يتحدى أوامر أبيه وأمه .. وتعجب به وهو يسرق قراطيس البسكوت من بائع الدندرمة ، ويعود اليها لتشاركه فى أكلها وهما يتضاحكان .. وتطور اعجابها مع عمرها الى عاطفة أقوى من الاعجاب .. الى نوع خاص من الحب .. هذا النوع من الحب المنظم الذى يقوم على عملية حسابية ، لا تستطيع الا أن تستسلم لنتائجها .. فقد كانت العائلة تعدها لعبد الحميد ، وتعد عبد الحميد لها .. كان معروفا انهما يتبادلان الاعجاب .. وانهما فى المستقبل ، سيتزوجان
وقد استسلمت لهذه النتيجة ، كأنها ولدت لها .. لم تحاول أن تناقشها .. ومنذ أن وعت هذه النتيجة .. منذ كانت فى الحادية عشرة من عمرها ، وهى تعتبر نفسها زوجة لعبد الحميد .. تخجل منه ، وتطيع أوامره ، وتدافع عنه فى غيبته ، وتلجأ اليه فى مشاكلها الصغيرة .. وقد خلق فيها هذا التكلف احساسا أكبر من سنها .. كانت تحس انها أكبر كثيرا من أختها نوال .. وأكبر كثيرا من أخيها محيى .. وقريبة جدا من عمر أمها .. وكان هذا الاحساس يدفعها الى نوع من التعالى على بقية صديقاتها .. ويدفعها الى الصمت لتبدو به أكثر تعقلا وأكثر اتزانا .. ويدفعها — رغم كسلها — الى التظاهر بالاقبال على أعمال البيت وأشغال

الابرة ، لتبدو كزوجة ناجحة ..

وكان عبد الحميد يكبرها بخمس سنوات .. وكانت ترقب بطرف عينيها تطور شبابه ، كأنها ترقب الانتهاء من خيـــوط « بلوفر » تصنعه بيديها لترتديه .. كانت ترقب خطوط وجهه وهى تتضح لترسم رجولته .. وقامته وهى تطول وتتسق .. وعندما لمحت الشعرات الاولى فى شـــاربه الذى بدأ يطلقه ، أحست انه اقترب منهـــا جدا حتى كادت تسمع دقات دفوف « العوالم » وهن يزففنها اليه ..

ولـكن عبد الحميد بدأ يغيب عنها طويلا .. ثم بدأت تسمع كلمات متناثرة من فم أبيها يصفه بأنه « ولد بايظ » .. ثم تكررت هذه الكلمات ، ورددتها العائلة كلها .. وأصبح معروفا ان عبد الحميد « ولد بايظ » .. حقيقة لا تقبل المناقشة !

ولم تصدق هذه الحقيقة فى مبدأ ظهورها .. لم تجد فى عبد الحميد شيئا يستحق أن يصفه بأنه « بايظ » .. انه جرىء .. وهو طويل اللسان .. وقد دخن يوما سيجارة أمامها وهو فى الرابعة عشرة من عمره .. وحاول مرتين أن يقبلهـــا فصدته بعنف .. صدته لأن العملية الحسابية التى وعتها فى ذهنها كانت لا تسمح له بتقبيلها الا بعد كتب الكتاب .. ولكن كل هذا لا يكفى لأن يكون « بايظ » .. انه صنف آخر من الشبان غير صنف شقيقها محيى .. وهى فى قرارة نفسها تميل الى هذا الصنف .. انه صنف يفيض بالرجولة .. والذكاء .. والجرأة على الحياة .. صنف يجعلها تقتنع أكثر بالزواج ..

حتى عندما بدأت تسمع همسات عن مرافقته للراقصات .. وعن تدخينه الحشيش .. حتى فى هذه الفترة كانت لا تزال تعد نفسها له .. وان كان تفكيرها فيه بدأ يشوبه كثير من الهم ، وكثير من الخوف .. الخوف من أن تفقده .. الى أن جاءها نبأ رسوبه فى امتحان التوجيهية ..

هنا فقط بدأت العملية الحسابية تختل أرقامها فى رأسها .. فقد كان علم الحساب يفترض فى عبد الحميد أن ينجح دائما فى الامتحان ، وأن يدخل الجامعة وينال شـــهادة الليسانس ، ثم يتزوجها .. وبدأ الشك يداخلها فى مستقبلها.. وبدأت تردد بينها وبين نفسها : « بس لو كانت أخلاقه كويسه » .. ! !

ثم رسب عبد الحميد فى الامتحان مرة ثانية .. فأصبح شكها

يقينا .. واعترفت مع بقية أفراد العائلة بأنه « ولد بايظ » ..
وأخذت ترقبه كأنه رجل يخرج من حياتها ويسير بعيدا عنها
ولم تفاجأ عندما رسب فى الامتحان مرة ثالثة .. وعندما ترك المدرسة والتحق موظفا صغيرا باحدى الشركات .. وعندما ترك البيت وأصبح يعيش وحيدا تحوطه الشبهات ..
لم تفاجأ ، فقد استطاعت أن تحول أحلامها ومستقبلها بعيدا عنه .. وظلت العملية الحسابية معلقة فى رأسها تقيس بها كل من يتقدم اليها خاطبا ..
ولكن عبد الحميد طوال هذه الفترة .. لم ينقطع عن البيت تماما .. كان يزورها .. وكانت تلمح فى عينيه نفس النظرة التى تعودتها .. وكان يعاملها نفس المعاملة .. كأنها لا تزال شريكة مستقبله .. يأمرها .. ويسألها عن مشاكلها الصغيرة .. ويعطى لنفسه حقوقا عليها .. فكانت تتجاهله صامتة .. ويتجاهله معها كل أفراد العائلة .. تستقبله وتودعه كابن عم لا كزوج المستقبل
كل هذا حدث لها دون أن يكون موضع نقاش بينها وبين أحد من العائلة .. فان أحدا لم يفاتحها فى خطبتها اليه عندما كانت هذه الخطبة مقررة ، وأحدا لم يفاتحها فى فسخ الخطبة عندما اصبح فسخها مقررا .. انما كانت الخطبة شيئا متعارفا عليه دون أن يتخذ أى مظهر رسمى صريح ، وكذلك فسخها ..
ومنذ عامين بدأ عبد الحميد يكثر من زيارته للبيت .. وبدأ الحديث عن رغبته فى الزواج بها يتضح ويعلو وتتناقله العائلة .. ثم تقدم بنفسه ليخطبها من أبيها .. فرفض .. رفض بشكل حاسم .. رفضته العائلة كلها .. حتى أبوه رفض أن يتوسط له للزواج من ابنة أخيه .. ورغم ذلك ظل عبد الحميد يتردد على البيت مستغلا صفته كابن عم .. ونظرته اليها لا تتغير .. النظرة التى عرفتها منه فى طفولتها وصباها ، والتى تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الأسود العفن ..
وكانت العائلة كلها تضيق بزياراته وتتهمه بالوقاحة .. أما هى فلم تكن تضيق بها .. كان الحاحه وجرأته يرضيـــان غرورها الخفى .. كان يرضيها أن يظل عبد الحميد متعلقا بأحلام صباه .. أن يظل على حبها .. حتى لو كان « ولد بايظ » .. وكان يرضيها أن تسمع من شقيقتها نوال قولها « اتفضلى ياستى .. سى عبد الحميد بتاعك شرف » فتهز كتفيها وتشيح برأســـها

قائلة : « ياسم .. هيه تلقيحه » !

ولكنه اليوم يعود اليها وفى يده سلاح يهددها به .. يهدد العائلة كلها .. هل تعذره .. لأنه انسان يحب .. يحبها ؟ !

هل تستسلم لغرورها ، وهى ترى رجلا يرتكب جريمة بشعة ليتزوجها ؟ ! .. أم تحقد عليه .. وتكرهه ؟ !

ان ما يشقيها هو حيرتها .. حيرتها بين غرورها ، والعملية الحسابية التى تعيش فى رأسها ..

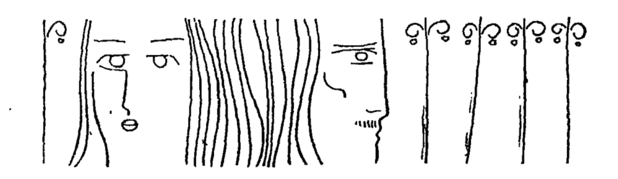
انها ليست خائفة من عبد الحميد .. ليست خائفة من أن تضطر للزواج به .. ولكنها حائرة فيه .. بل حائرة فى نفسها .. وهى تبكى حيرتها .. بكت كثيراً ..

ثم وجدت بقية من دموع ، فعادت تبكى من جديد ..

وانطلق مدفع الافطار .. وانتفض قلبها كأن الطلقة أصابته ..

وفتح الباب وأطلت أمهـــا وقالت وهى ممسكة بيدها طبق طعام ، فى طريقها لتضعه على المائدة :

ــ ياللا يا ساميه .. ياللا ياحبيبتى .. المدفع ضرب ! ..



٨

كان افطارا صامتا حزينا .. كان كل فرد منهم يشيع اللقمة الى جوفه كما يشيع فقيدا عزيزا ..

لم يتكلم الاب ولا الام ولا محيى ولا سامية ولا نوال .. ولا ابراهيم .. حتى الكلمات القصيرة التى تعودوا تبادلها سكتوا عنها .. وتحاشوا جميعا النظر الى ابراهيم .. فانهم يخشون لو نظروا اليه أن يقتلوه بعيونهم .. ما عدا نوال .. اختلست نظرة أو نظرتين ثم كفت ، حتى لا تفضحها عيناها ..

وكان افطارا سريعا .. كأنهم يهربون بعضهم من بعض .. كأن كلا منهم يريد أن ينتهى من تشييع الجنازة ليخلو لنفسه ..

وقامت سامية قبل أن تمد يدها الى طبق الكنافة ، وصاحت وراءها أمها : مش تستنى لما تحلى ..

وقالت سامية فى حدة قاسية كأنها تشتمهم جميعا :

ـ ما ليش نفس !

ثم سارت الى غرفتها فى خطوات سريعة حتى لتكاد تنكفىء على وجهها .. وتلفتت نوال بعينيها كأنها تستأذن المجتمعين ، وقامت لتلحق بأختها .. لتواسيها ..

ثم قام الاب ومحيى فى وقت واحد ، وهب ابراهيم واقفا كأنه يعتذر عن تأخره .. وتركوا الام وحدها على المائدة .. لا تزال تأكل ولكنها لا تنظر الى الطبق الذى تأكل فيه .. وربما أكلت اكثر مما تعودت أن تأكل ، ولكنها لم تحس انها اكلت شيئا ..

كانت ساهمة وعقلها يدور ، ويطحن وساوسها وخيالها .. كأنها كانت تأكل هذه الوساوس والخيالات ..

ودخل الاب الى غرفة « القعاد » ..

ووقف محيى مترددا.. ووقف ابراهيم بجانبه ينتظر من صديقه أن يدعوه الى الدخول ليلحقا بالاب ، ولما وجده مترددا .. تعداه وخطا نحو غرفته ــ غرفة محيى ــ فى خطوات حزينة ..

ولحق به محيى ، وقال وهو يغلق الباب وراءه :

ــ أظن ناخد الشاى هنا أحسن !

وقال ابراهيم فى استسلام خافت : زى ما تحب ! ..

وجلس محيى الى مكتبه وفتح كتابا ، ثم قال بعد فترة وهو ينظر الى السطور ولا يراها : أنا شايف ان ما فيش مانع ان نوال تروح تجيب البدله بكره .. بس .. انما ..

وتوقف محيى عن الكلام كأنه قرر أن يخفى فى نفسه شيئا ..

وقال ابراهيم : بس ايه ؟ ..

وقال محيى وهو لا ينظر اليه : ولا حاجة ..

وقال ابراهيم وهو يبتسم : أنا عايزك تطمئن يا محيى .. تأكد انه مش حيحصل لها حاجة ! ..

وتمتم محيى : ربنا يستر ! ..

قالها وسكت . .وبدا مقطب الجبين مكفهر الوجه متهدج الانفاس كأنه يلهث من الصمت .. كان يجرى فى صمته وراء مخاوفه .. وراء حيرته بين لهفته على أخته من أن يصيبها مكروه ورغبته فى أن يساعد ابراهيم فى هربه حتى يخرج من البيت ، فيرتاح ويريح البيت منه .. وقد قضى طول فترة ما قبل الافطار وهو يحاول أن يستقر على رأى .. وحاول ابراهيم عبثا أن يساعده فى تكوين رأيه .. ولكنه ظل حائرا .. وهو لايزال حائرا حتى بعد أن قرر أن تذهب أخته لتتسلم البدلة من فتحى المليجى

وانقضت فترة طويلة من الصمت .. محيى يتظاهر بالقراءة ، وابراهيم يتظاهر بالتفكير .. وهو الآخر لايستطيع أن يحصر تفكيره فى شىء .. يفكر فى نوال ، فيطغى عليه تفكيره فى نفسه وفى خطة هربه ، ثم يطغى عليه تفكيره فى عبد الحميد .. ثم يعود يحاول أن يحصر تفكيره فى نوال ، كأنه يحاول النجاة من نفسه ومن عبد الحميد ومن الدنيا كلها .. يحاول أن ينسى كل شىء ولا تبقى فى رأسه الا فكرة واحدة .. نوال .. مجرد فكرة ! !

وسمعا رنين جرس الباب الخارجى .. وقال محيى وهو يرفع رأسه عن الكتاب ويلوى شفتيه فى تقزز :

ـ ده لازم سى عبد الحميد شرف !

وسكت ابراهيم برهة وهو يستجمع أعصابه ليواجه بها المعركة القادمة ، ثم قال وهو يخفى عينيه حتى لايرى محيى فيهما اضطرابه : أنا عايزك تفهم عبد الحميد انى حاقعد هنا على الأقل أسبوعين كمان ..

وقال محيى وقد ارتفع حاجباه فوق حافة نظارته دهشة :

ـ ليه ؟ ..

وقال ابراهيم :

ـ علشان يطمئن انه حيفضل عارف أنا فين .. وما يحاولش يراقبنى .. ويراقب البيت ، ويبلغ عنى أول ما اخرج من هنا واروح حتة تانية ! ..

وقال محيى وقد أعاد حاجبيه الى مكانهما : معقول ..

وعاد يقرأ فى كتابه فقال له ابراهيم : مش حاتقوم تقابله ؟ ..

ورفع محيى رأسه وفكر قليلا ، ثم قال :

ـ بلاش .. أحسن نستنى لما بابا ينده لنا ..

كان رنين جرس الباب قد سقط على أعصاب كل من فى البيت ، وأحالها الى أسلاك تسرى فيها الكهرباء ..

وتحرك الاب فى جلسته على الأريكة « الاستانبوللى » حركة فيها الم ، كأنه أصيب بمغص مفاجىء ، وتقلصت أصابعه فوق جريدة الأهرام حتى كادت تمزقها ، ثم قرب الجريدة من وجهه كأنه يهرب فيها من رؤية وجه عبد الحميد ..

وانتبهت الام على صوت الجرس فى لفتة مفاجئة ، كأنها لم تكن تصدق أن الأجل يمكن أن يحل هكذا سريعا .. ثم أسقطت رأسها فوق كفها ، ومصمصت شفتيها فى حسرة .. ثم كأنها تذكرت شيئا ، فرفعت راسها وقالت لزوجها فى لهجة تعبر عن التصميم : أنا مش حتكلم مش حتكلم ولا كلمه الكلام كله عليك انت .. متهيأ لى لو فتحت بقى مش حاخليله .. حاجيب له القديم والجديد وأحطه فوق دماغه واللى يحصل بعد كده يحصل

وقال الأب وهو يزفر كلماته : طيب اسكتى .. ربنا يستر ..

وكانت سامية جالسة فى غرفتها ساهمة لا تلتفت الى محاولات أختها وهى تسرى عنها ، فانتفضت عندما سمعت جرس الباب ،

وجحظت عيناها والتفتت الى أختها وأمسكت بيدها وضغطت عليها فى قسوة ، وقالت وهى ترتعش وصوتها يرتعش معها :

ــ أنا مش حا قابله .. قولى لبابا انى مش حا قابله .. مش ممكن .. موتونى أحسن !

وقالت نوال وهى تحاول أن تحتفظ بهدوئها :

ــ ياشيخه خليكى عاقله .. ايه كمان حتة الواد اللى عامله له قيمة .. ده بكره ياما نضحك عليه .. حا نعمل فيه فصولات تطلع من نافوخه .. أنا حاروح أفتح ، وانتى ساوى شعرك .. والا أقول لك خليكى كده ، علشان أما يشوفك يغير رأيه ، ولا يتجوزش ! !

وجذبت يدها من يد أختها وهى تضحك ضحكة مفتعلة ، ثم خرجت ، وما كادت تخرج حتى ضاعت ضــــحكتها من فوق شفتيها .. وحملت الشفتان ألما مرا فاض به قلبها ..

وفتحت الباب ، واستقبلت عبد الحميد دون أن تنظر اليه ، وأدارت له ظهرها واتجهت نحو الداخل ، وتركته يدخل وراءها

وقال عبد الحميد بعد أن أغلق الباب :

ــ انتم مش قافلين الباب بالمفتاح ليه ؟ !

ولم ترد عليه نوال .. واستطرد قائلا وكان يجرى وراءها :

ــ هو عمى فين ؟ ..

وقالت دون أن تلتفت اليه : فى أودة « القعاد » ..

وتركته ودخلت غرفتها ..

ووقف عبد الحميد على باب حجرة « القعاد » كأنه يستأذن فى الدخول .. ورفع الاب اليه وجها صامتا .. وعينين صامتتين .. ثم أخذ يطوى الجريدة فى بطء .. ثم قال وهو يقوم نصف قومة :

ــ اتفضل يا ابنى .. اتفضل ..

ودخل عبد الحميد وانحنى يقبل يد عمه .. ثم مد يده الى زوجة عمه ، فمدت له يدها وهى تدير رأسها الناحية الاخرى ، ثم سحبت يدها قبل أن يقبلها كأنها تخاف من لسع شفتيه ..

وجلس صامتا يدعى الادب ، وهو يحاول أن يخفى ابتسامته التى تزغرد فى صدره ، ويحاول أن يهدىء من نظرات عينيه حتى لا تكشف عن ذكائه الحاد الذى يبرق فيهما .. ويحاول أن يضع رأسه فى وضع يدل على الحياء والتواضع ، فينكسه .. ثم لا يستريح الى هذا الوضع ، فيميل بعنقه ناحية اليمين .. ثم يتصور

انه من الافضل أن يميل به ناحية اليسار .. ثم تضايقه هـذه المحاولات فيرفع رأسه ويواجه به عمه ثم يعود وينكسه من جديد
وتنحنح الاب ثم قال وهو يلم ساقيه تحته ، ويفرد الجريدة من جديد : ازى والدك ؟ ..
وقال عبد الحميد فى أدب : كويس .. الحمد لله ..
وفتح الأب صفحة من الجريدة وهو يقول : قلت له حاجه ؟..
وقال عبد الحميد وهو يتمايل برأسه تعاجبا بذكائه :
ــ قصد حضرتك يعنى .....
وقاطعه الاب فى حدة وهو ينظر اليه فى تحد :
ــ أيوه .. قصدى قلت له حاجة عن وجود ابراهيم عندنا ؟ !
وتراجع عبد الحميد ، وعاد الى حالة الادب التى يدعيها ، وقال وكأنه يصد عن نفسه تهمة الذكاء :
ــ طبعا لأ .. مادام حضرتك ما قلتش له !
وقال الأب وهو يعود الى الجريدة : عملت طيب ..
وتمتمت الأم دون أن يسمعها أحد : وده يعمل طيب أبدا .. !
ثم مصمصت شفتيها ، وعادت تسند رأسها على كفها كأنها تخشى عليه أن يسقط من فوق عنقها ..
وقال عبد الحميد بعد فترة صمت : أمال فين محيى ؟ ..
وقال الأب وهو لا ينظر اليه : فى أودته ..
ثم استطرد كأنه يريد أن يقنع عبد الحميد بأنه لم يعد يخافه ، ولم يعد يخفى شيئا : ومعاه ابراهيم ..
وسكت عبد الحميد ، ونظر الى الاب من تحت جفنيه ، كأنه يتسلل بهما الى موضع يطعنه منه ، ثم قال وهو يهم بالقيام ، وكأنه هو الآخر يريد أن يقنع الاب بأنه مصر على أن يتدخل فى شئونه : أما أقوم أقعد معاهم ! ..
وقال الأب وهو يسقط الجريدة عن وجهه : لا .. خليك هنا
ثم استطرد ملتفتا الى زوجته :
ــ اندهى لمحيى يا تحية وخلى الاستاذ ابراهيم يتفضل معاه !
وأسرع عبد الحميد قائلا كأنه يستمهل زوجة عمه :
ــ بس فيه حاجة يا عمى أحب أقولها قبل ما ييجى محيى ..
وقال الأب فى قرف : قول ..
واستطرد عبد الحميد :
ــ قصدى الموضوع اللى كلمت فيه حضرتك النهاردة الصبح

.. موضوع سامية .. أنا عارف ان الظرف مش مناسب .. انما كل اللى عايزه كلمة من حضرتك ..

واكفهر وجه الاب وقال كأنه يصفعه بلسانه :

ـ وتفتكر ان الظرف مناسب علشان تطلب كلمة من حضرتى .. أنا ماعرفتش أكلمك النهار ده الصبح فى المكتب .. انما ..

وسكت الاب فجأة .. فقد تذكر الخطة التى رسمها لنفسه .. تذكر انه قرر أن يتظاهر بالموافقة على ما يطلبه عبد الحميد ، حتى يتجنب شره ..

وقال عبدالحميد فى صوت هادىء كأنه أعد درسا حفظه جيدا :

ـ ياعمى انت عارف انى عايز سامية من زمان .. من يوم ما وعيت .. وسبق طلبتها السنة اللى فاتت .. وجيت امبارح علشان أقول لحضرتك انى اشتغلت شغلة كمان بعد الضهر .. اشتغلت مندوب شركة تأمين .. باطلع منها بخمستاشر جنيه فى الشهر ، أقله .. فوق ماهيتى يبقوا سبعة وعشرين جنيه ولسه .. انما ما قدرتش أكلم حضرتك امبارح .. ماجتش فرصة .. رحت لك النهاردة فى المكتب .. الظروف اللى جدت مالهاش دعوة بالموضوع .. وأنا مش عايز أكتر من كلمة .. يا آه ، يا لأ .. حضرتك واخد عنى فكرة وحشه خالص .. أنا صحيح غلطت وأنا صغير ، انما دلوقت خلاص .. عقلت .. لو سألت مدير الشركة بتاعنا يقول لك انى أحسن موظف عنده ..

وكان الاب يستمع اليه ، كأنه يستمع الى قرار اتهام ، لا الى مرافعة دفاع .. واستجمع كل ارادته ليحتفظ بهدوئه ، ويريح وجهه من الألم ، ثم قال :

ـ على كل حال انت ابن أخويا ، وسامية بنت عمك .. ما خافش عليها معاك .. وربنا يسهل لك ، ويسهل لها ..

وتهلل وجه عبد الحميد ، وقال كأنه لم يعد يستطيع أن يحرم نفسه لذة انتصاره : هيه فين ؟ ..

ونظرت الأم اليه كأنها تخنقه بعينيها ثم تمتمت : مصايب ! ..

ولم يسمعها عبد الحميد ، وعاد يقول للأب :

ـ حضرتك قلت لها حاجة ؟ ..

ورفع الاب عينيه ، وقال فى تقزز لا يستطيع أن يخفيه :

ـ أيوه .. قلت لها ! ..

وقال عبد الحميد فى لهفة : وقالت ايه ؟! ..

وسكت الأب قليلا كأنه لا يستطيع أن يكذب على لسان ابنته ، ثم قال : والله البنات فى الحالة دى ما بيقولوش حاجة بيسكتوا !
وعاد عبد الحميد يسأل : انما ...
وقاطعه الاب صارخا وكأنه لم يعد يطيق :
ـ انت بتحقق معايا ولا ايه يا ولد .. اختشى .. عيب ..
وقال عبد الحميد وهو يتراجع ، وفوق شفتيه ابتسامة باهتة آسفة ، كأنه يلوم بها ذكاءه :
ـ أنا آسف .. الحقيقة فرحتى هيه اللى جرأتنى ..
وقال الاب فى لهجة حازمة وقد بدأ يستعيد هدوءه :
ـ المسألة دى مش عايزك تجيب سـيرتها لغاية ما الاستاذ ابراهيم يسيب البيت وهوه بالذات مش عايزه يعرف بيها ، فاهم
وقال عبد الحميد والابتسامة لم تنسحب بعد من فوق شفتيه الغليظتين : حاضر .. لك حق يا عمى ..
والتفت الاب الى زوجته وقال كأنه يستنجد بأحد ليساعده على عبد الحميد : قومى اندهى لمحيى يا تحيه ..
وقامت الام كأنها تشد معها أطنانا من الحديد ، وقالت :
ـ وأقوم بالمرة أنام .. مش عارفه الليلة مالى ! ..
وخرجت الام وهى تسير فى خطوات ثقيلة متعبة .. ونظر الاب الى عبد الحميد ثم عاد الى جريدته وهو يقارن بينه وبين ابراهيم .. لايدرى لماذا .. ولكنه تمنى ساعتها لو أن ابن أخيـه هو ابراهيم .. حتى لو سجن ، وشنق .. أخف عليه أن يعطى ابنته لرجل مشنوق من أن يعطيها لعبد الحميد ..
وتنحنح عبد الحميد ، ثم قال وهو يتعمد الا يضفى على سؤاله لهجة الاهتمام : والاستاذ ابراهيم حا يقعد هنا كتير يا ترى ؟
ورفع الاب عينيه عن سطور الجريدة كأنه يستعين بالله ، وقال وهو يغلق أبواب الحديث : ماعرفش .. ربنا يسهل له ! ..
ودخل محيى ، وخلفه ابراهيم ..
وقام عبد الحميد واقفـا .. ولم يتحرك الاب انما اهتزت الجريدة فى يده هزة خفيفة ، ثم عادت ثابتة أمام وجهه ..
ومد محيى يدا طرية باردة الى عبد الحميـد ، كأن دماءه وأعصابه ترفض أن تشاركه فى التحية ، وقال فى قرف :
ـ ازيك يا عبد الحميد ..
ولم يرد عبد الحميد ، وسحب يده من اليد الطرية وتوجه بها

الى ابراهيم ، وقال وهو يصافحه فى حرارة تبدو ولا تدفىء ، وبين شفتيه ابتسامة واسعة تفتح فمه ، كأنه يستقبل به طبيب أسنان : أهلا .. أهلا .. ده شرف كبير ..

وقال محيى وهو ينظر ساخرا :

ـ الاستاذ ابراهيم حمدى .. طبعا تعرفه ! ..

وقال عبـد الحميـد وهو لا يزال متطلعا الى ابراهيم : مين ما يعرفوش ، البطل اللى أنقذ البلد من الخونة .. أهلا وسهلا ..

وقال ابراهيم فى برود : تشرفنا ..

وكان ابراهيم ينظر اليه بكل عينيه الواسعتين كأنه يغوص بهما فى أعماقه .. وظل ينظر اليه .. لا يخفض عينيه عنه .. حتى اضطر عبد الحميد أن يحول نظره عنه ، ويتلفت حوله باحثا عن مقعده .. وقال عبد الحميد بعد أن جلس :

ـ أنا أرجوك انك تعتـــبرنى زى محيى تمام .. وتعتبرنى فى خدمتك دايما .. اى حاجة تفتكر انى أقدر أعملها قول لى عليها..

وقال ابراهيم فى اختصار : متشكر ..

ومضت فترة صمت ، عاد عبد الحميد بعدها يقول :

ـ انما تعرف ان ما حدش كان ممكن يظن انك هنا .. أنا نفسى ماكنش ممكن أصدق ! ..

وتململ الأب ثم قال فى حدة وهو يدير رأسه الى عبد الحميد :

ـ ايه الكلام البايخ اللى بتقوله ده ماتشوف لك سيرة تانيه !

وسكت عبد الحميد ، بعد أن نظر الى ابراهيم كأنه يشهده على عقلية عمه .. وقال ابراهيم بعد فترة ، وهو يحاول أن يدرس شخصية عبد الحميد أكثر : والاخبار ايه فى البلد !

وقال عبد الحميد فى حماسة وقد أشرق وجهه كأنه كسب اطمئنان ابراهيم : البلد حالتها زفت دول حيودوا البلد فى داهيه حايبيعوها بيع للانجليز .. الواحد مش عارف يعمل ايه .. نفسى أتلم على شوية شبان ، ونعمل حاجة ننقذ بيها البلد ..

وابتسم ابراهيم كأنه عرف حقيقة عبد الحميد ..

وقال محيى ساخرا : يا سلام .. من امتى بأه ياسى عبد الحميد الوطنية دى كلها ؟ ..

وقال عبـد الحميـد كأنه غضب : انت ماتعرفنيش يا محيى ماتعرفش أنا عملت ايه ولا باعمل ايه أرجوك تسكت !

وهز محيى كتفيه تماديا فى السخرية وسكت ..

وسكت كل من بالغرفة ..
وبدأ عبد الحميد يحس أن الثلاثة ينظرون اليه كأنهم يضربونه بعيونهم .. وانهم يحاصرونه بأنفاسهم كأنهم يبصقونها فى وجهه .. وأحس أنه أخطأ فى تقديم نفسه الى ابراهيم .. كان يجب أن يبدو أمامه أكثر رزانة ، وأكثر تعقلا وأن يبدو كأنه مقدر لخطورة الظروف التى تحيط بالعائلة .. وأخذ يحادث نفسه : « ويجب أن أغير الاتجاه .. سأبدو صامتا .. مقطبا . ولن أسأل عن شىء .. سأتركهم يقولون لى كل شىء بلا سؤال .. يجب أن استعمل ذكائى .. كل ذكائى » ..
وكانت قسمات وجهه وهو يحادث نفسه تتغير حسب ما يقرره فاختفت ابتسامته ، وهدأت عيناه ، وبدا رزينا وقورا ، مفكرا ، كأنه يفكر فى موضوع خطير ..
وفى نفس الوقت كان ابراهيم يحس بأن العائلة تخطىء فى معاملة عبد الحميد هذه المعاملة الجافة .. يجب أن يشعروه بثقتهم فيه .. يجب ان يدعوه يطمئن اليهم وأن يتجاهلوا نياته السيئة حتى لو بدت صريحة .. وأخذ يفكر فى كلمة يقولها تقربه من عبد الحميد ..
وقبل أن يقول شيئا ، وقف عبد الحميد وسار متجها الى خارج الغرفة ، ولحقه صوت الأب : رايح فين ؟ ..
والتفت اليه عبد الحميد دهشا ، كأنه يعاتبه على سوء ظنه ، وقال فى ادب وقور : رايح أشرب يا عمى ..
وخرج عبد الحميد ..
ومال ابراهيم برأسه الى محيى وهمس فى أذنه :
ــ حسن معاملتك له شويه ؟
ورفع الأب رأسه على صوت الهمس ، ثم عاد ووضعه ثانية فى الجريدة ..
لم يكن عبد الحميد يريد أن يشرب .. كان يريد أن يبتعد عن الغرفة ريثما يبدل شخصيته وأسلوبه ، ويعود اليها فى شخصية جديدة وأسلوب جديد .. وكان يريد أن يبحث عن سامية ليطمئن على أحلامه .. وليتزود من عينيها بالدعة والبراءة والهدوء .. كل ما لا يجده فى نفسه يجده فى عينيها ..
وسار نحو المطبخ وهو يدق الأرض بقدميه كأنه يوقظ النائمين .. وخرجت نوال من غرفتها على وقع قدميه ، ونظرت

اليه كأنها تقيس طوله وعرضه ، ووقف قبالتها وهو يهمس ، بينما يطل بعينيه داخل الغرفة : فين سامية ؟! ..

وقالت نوال وهى تبتعد عنه كأنها تزيح نفسها من أمام عينيه : أهى قدامك ! ..

ثم سارت الى داخل المطبخ ، وهى تتعمد أن تترك سامية تواجهه وحدها .. وخطا عبد الحميد خطوة ووقف يسد باب الغرفة ، وقال فى صوت خافت : ازيك يا بنت عمى ؟!

وكانت سامية واقفة فى وسط الغرفة مرتكزة على حافة السرير ورأسها مدلى فوق صدرها كأنها تبحث فى قلبها عن مزيد من الدموع .. ورفعت عينيها اليه بفتة وقد فوجئت به .. وهمت أن تغضب وتثور ، ولكنها التقت بنظرته اليها .. النظرة التى تعودتها منه فى طفولتها وصباها ، والتى تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الاسود العفن ..

وضعف غضبها ، وخفت ثورتها .. وأشاحت عنه بوجهها كأنها تفر منه .. تفر من طفولتها وصباها .. وتفر من غرورها وهى تواجه الرجل الذى يلهث وراءها

وعاد عبد الحميد يقول فى صوته الخافت ، كأنه يخفى أحلامه فى طياته : انت مش قاعده معانا ليه ؟! ..

ولم ترد عليه .. انما ارتفعت الدماء الى وجنتيها ، كأنها عادت اليها لتحميها .. من نفسها !

وخطا عبد الحميد خطوة داخل الغرفة وهو يقول :

ــ مابترديش ليه مالك مبوزة كده ؟!

والتفتت اليه سامية ، وقالت وهى تحاول محاولة يائسة أن تحتفظ بهدوئها : من فضلك سيبنى .. دلوقت ! ..

وقال وهو يخطو خطوة أخرى نحوها : ايه بس اللى مزعلك ؟!

وصرخت فى وجهه كأنها لم تعد تحتمل :

ــ ابعد عنى .. اوعى تقرب لى .. أنا باقولك أهو .. احسن والله .. والله .. أنده لبابا !

وقال فى جد كأنه يستعمل حقه عليها .. الذى تعوده فى طفولته وصباه : سامية .. جرى لك ايه .. هوه عمى قالك ايه ؟

وقالت وهى تنكس رأسها من جديد كأنها على وشك البكاء :

ــ ياريته ما قال لى حاجة !

وقال كأنه يربت بصوته على قلبها :

ـ مش ده اللى كنا عاوزينه طول عمرنا ؟
قالت وكأنها أهينت :
ـ أنا ماكنتش عايزاك .. مين قالك انى كنت عايزاك .. أعوز واحد ماكملش تعليمه وأخلاقه زفت وقطران !
قال وهو يبتسم وكأنه يهزأ من عقليتها :
ـ واللى كملوا تعليمهم عملوا ايه يعنى .. عمى ماهو كمل تعليمه ، وبعد تلاتين سنة لسه موظف درجة خامسة !
وقالت تقاطعه فى حدة : ضفر بابا برقبتك ..
واستطرد كأنه لا يأبه بكلامها :
ـ ومحيى عاش طول عمره يمسح عينيه فى الكتب ، وبكره يتوظف باتناشر ولا خمستاشر جنيه .. ماتبقيش عبيطة .. التعليم مش مهم ، المهم الشطارة .. والمهم أنا وانت .. احنا طول عمرنا مكتوبين لبعض .. طول عمرى حاسس انك ليه وانته حاسه انى لك .. فاكره لما كنت باجيب لك البسكويت ونقعد ناكله سوا .. النهارده حاجيب لك كل حاجة .. حاجيب لك بيت بحاله .. وكل لقمة حناكلها سوا ..
وقاطعته سامية وهى تهز رأسها فى عنف تحاول أن تسكته ، فيتأرجح شعرها خلف رأسها كأنه يقول « لا .. لا » قاطعته قائلة وهى تدق الأرض بقدمها :
ـ البسكويت اللي كنت بتجيبولى كنت بتسرقه من بتاع الدندرمة .. حتسرق لى البيت منين ياترى ؟!
وأرخي عبد الحميد عينيه كأنه يكبت جرحا انشق فى قلبه ، وقال : ماتطوليش لسانك يا بنت عمى ، أنا مطول بالى عليكى ، لأنى عارف ان الكلام ده مابتقوليهش بلسانك .. بتقوليه بلسان عمى .. لسان العيلة كلها .. العيلة اللى ظلمتنى وظلمتك معانا
وقالت سامية وهى لا تزال تتحداه :
ـ وكان مين ظلمك لما سبت المدرسة قبل ما تاخد الشهادة ؟!
وقال عبد الحميد وهو لا يزال صابرا :
ـ رجعنا للشهادة .. ياستى مستعد أبتدى أذاكر من جديد وآخد لك ميت شهاده ! ..
وسكتت سامية ، وأشاحت عنه بوجهها ..
واستطرد وهو يقترب منها أكثر :
ـ بس على شرط تذاكرى معايا ، وتسمعيلى درس بدرس ؟

ومد يده يحاول أن يمسك بيدها ، فابتعدت عنه قائلة فى حده : أوعى تلمسنى .. ابعد عنى .. مش عايزه أشوفك مش عايزه يا أخى .. هوه بالعافية !

وسكت عبد الحميد ، وأرخى عينيه فترة ، ثم عاد ورفعهما وقال كأنه يتنهد : سامية ..

قالت وهى لا تزال محتدة : عايز ايه عاوز منى ايه خلصنى

قال وهو يبتسم فى يأس :

ــ ولا حاجة .. عايزك تضحكى .. تبتسمى على الاقل !

وفتحت سامية شفتيها عن أسنانها فى حركة مفتعلة ، وقالت : أهو .. أدينى ابتسمت .. اتفضل بأه ! ..

وقال عبد الحميد وهو يهم بالتحرك ولا تزال النظرة فى عينيه لا تتغير .. النظرة التى تبدو كزهرة تستمد نقاءها من الطين الاسود العفن :

ــ أنا حتفضل دلوقت .. وبكره حاتشوفينى تانى !

وقالت سامية فى صوت ضعيف كأنها تأسف لذهابه :

ــ مش عايزه أشوفك لا بكره ولا بعده ..

قال وبين شفتيه ابتسامة الواثق :

ــ حاتشوفينى بكره وبعده وكل يوم فى عمرك ..

واستدار لها وخرج من الغرفة ، وعيناها تلهثان وراءه ..

وذهب الى غرفة « القعاد » ، وتمهل قليلا على بابها وهو يدير عينيه فى الجالسين ثم كأنه اكتشف انه تعب من النظر الى وجوههم وتعب من الجو المضطرب الذى يحيط بهم ، فتقدم وهو يقول : تسمح لى يا عمى ..

ومد يده ليلتقط يد الأب ، فأعطاها له دون تردد ، قائلا :

ــ سلم على والدك ..

وانحنى يقبل يد عمه ، ثم مد يده الى ابراهيم وقال فى وقار :

ــ شد حيلك !

ورد ابراهيم وهو يبتسم له ابتسامة حاول أن تكون كبيرة :

ــ الشدة على الله ..

وقال محيى كأنه يتودد الى عبد الحميد :

ــ ماتخليك شوية .. لسه بدرى !

وقال عبد الحميد وهو لا يزال محتفظا بوقاره :

ــ اصل ورايا ميعاد .. تصبحوا على خير ..

وخرج وراءه محيى زيادة فى التودد اليه ، وقال له عبد الحميد وهما عند الباب :

ــ اعتمد على يا محيى .. أنا دلوقت بقيت مسئول معاك .. لازم تقوللى كل حاجة أول بأول .. علشان أكون جنبك

وقال محيى وهو يفتح له الباب :

ــ طبعا .. ما انت حاتكون معانا كل يوم

وضغط عبد الحميد على الباب حتى لا يفتحه محيى ، ثم همس قائلا : هوه حايقعد هنا أد ايه .. ما تعرفش ؟!

وقال محيى فى لهجة طبيعية :

ــ أقله أسبوعين .. هوه عامل حسابه على كده !

وهز عبد الحميد رأسه ، ثم خرج وهو يقول :

ــ ماتنساش تقفل الباب بالمفتاح !

ونزل السلم وهو لا يزال متقمصا الشخصية الوقور التى قرر أن يبدو بها أمام العائلة .. ثم ما كاد يصل الى الشارع حتى عاد الى طبيعته .. والتمعت عيناه بالذكاء النشط .. وارتفعت الى شفتيه ابتسامته الساخرة التى تتسلل من تحت شاربه الرفيع كأنها تتسلل من الظلام .. وأسرعت خطواته كأنه يريد أن يصل الى نهاية الحياة قبل غيره

وسار الى محطة الاوتوبيس وهو يفكر فى سامية .. انها تريده أن يأخذ شهادة .. الغبية .. ماذا تجديه أو تجديها الشهادات ؟ لقد عاش طول حياته معتمدا على ذكائه .. وأخذ كل ما يريد من الحياة بالذكاء .. الذكاء وحده . ولو عاد الى صباه والى مدرسته مرة ثانية لما فكر فى أن ينال شهادة .. ولما أراد أن يكون مثل أخيها محيى .. ان هؤلاء الناس من أمثال محيى لايعيشون الحياة ، ولكنهم يوجدون فيها فقط .. انهم لايساوون أكثر من قصاصة الورق التى يحملونها ويسمونها شهادة .. أما هو .. فانه يساوى الحياة كلها .. كلّ ملذاتها ، وكل جمالها ، وكل نشاطها .. وهو يساوى سامية أيضا .. وسيأخذها بدون شهادة .. سيأخذها بذكائه ..

انه يحبها .. وحبها يختلط بكبريائه ، وباعتداده بنفسه .. فهى الشىء الوحيد الذى خسره بسبب ذكائه ، ولكنه سيستردها بالذكاء أيضا .. سيستردها وينتصر بها على عائلته كلها التى لا تؤمن بطريقته فى الحياة .. سيستردها ويأخذ معها خمسة

آلاف جنيه .. ان هناك خمسة آلاف جنيه بين يدى عمه .. ولكنه يترفع عنها ! الغبى .. لماذا يترفع عنها ؟ الوطنية !! ولكن ما دخل الوطنية هنا .. ان ابراهيم حمدى سيقبض عليه حتما ان لم يكن اليوم فغدا .. ولن تنقذه وطنية عمه .. فالموضوع ليس موضوع وطنية .. ولكنه موضوع خمسة آلاف جنيه .. من يأخذها .. اذا لم يأخذها هو ، فسيأخذها غيره .. وهو أولى بها .. انه يستطيع أن يبدأ بها مشروعا تجاريا ضخما .. وأن يصبح من كبار الاثرياء وأن يبنى لسامية فيلا .. ويشترى لها سيارة .. وخدم وحشم .. ومصاغ ومجوهرات .. ولن يكلفه كل ذلك أكثر من مكالمة تليفونية لضابط البوليس السياسى .. أو للنائب العام .. وبعدها يقبض المكافأة السخية .. الخمسة آلاف جنيه.. بعد أسبوعين فقط.. عندما يخرج ابراهيم حمدى من بيت عمه ، سيرفع سماعة التليفون ويطالب بالخمسة آلاف جنيـــه .. ولو كان عمه أكثر ذكاء .. لو رأى الدنيـــا على حقيقتها ، لما أحوجه الى الانتظار هذين الاسبوعين ولاشترك معه فى تسليم ابراهيم حمدى للبوليس ثم اقتسم معه المبلغ .. ولكنه غبى .. هذا العم .. وما أكثر الاغبياء فى هذا البلد ..

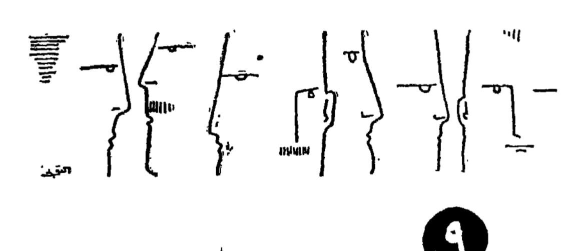
ونزل من الاوتوبيس ، وسار متجها الى شارع سليمان باشا ، وهو لا يزال سادرا فى أفكاره .. ثم جلس الى مائدة فى المقهى الذى تعود التردد عليه وصفق مناديا الجرسون ، وطلب منه أن يأتى اليه بدفتر التليفون .. ثم أخذ الدفتر بين يديه فى لهفة وبدأ يقلب صفحاته فى اهتمام .. ووقف عند اسم « الاميرالاى محمد بك همام ــ رئيس البوليس السياسى » .. ثم أخرج من جيبه مفكرة صغيرة وسجل فيها نمرة تليفون الاميرالاى محمد همام . ثم عاد يقلب الصفحات ، ووقف عند اسم « النائب العام » وسجل فى مفكرته رقم تليفونه ..

وطوى دفتر التليفون .. وجاء أحد أصدقائه وخبط على كتفه قائلا : الليلة فين باذن الله ؟ ! ..

وقال ضاحكا فى قهقهة عالية كأنه يعلن بها انتصار ذكائه :

ــ الليلة للصبح ، واللى خلقك !!

وقام يحتفل بالذكاء ..



٩

١

يوم آخر !!..

أنه اليوم الثالث منذ طرق ابراهيم باب البيت .. اليوم الثالث فقط .. ورغم ذلك فكل من فى البيت يحس انه عاش عمره كله وسط المشكلة .. يأكل المشكلة ، ويشرب المشكلة ، وينام ويصحو فى المشكلة .. ويتنفس المشكلة .. كأنهم لم يعيشوا أبدا الا وبينهم بطل هارب تطارده الحكومة ، وتضع للقبض عليه مكافأة قدرها خمسة آلاف جنيه ، وتهدد كل من يؤويه بالسجن ثلاث سنوات ..

وجاء الصباح الجديد ، وكل فرد فى العائلة يعرف دوره ، ويعرف احساسه وعواطفه ، ويعرف ما يدور برأسه .. لا شىء جديد .. وليسوا فى انتظار شىء جديد .. لا شىء يزيد من همهم ، فقد تشبعوا بالهم حتى لم يعد فيهم منفذ لهم جديد .. ولا شىء يريح .. فلن يريحهم الا أن يخرج البطل من البيت ..

وكل منهم يتحرك فى بطء كأنه يخشى أن أسرع فى حركته أن يوقظ البوليس .. وكل منهم قد أرخى جفونه فوق عينيه كأنه يتجاهل ما حوله وما فى نفسه .. وكل منهم قد تهدل كل ما فيه كأنه استسلم للقدر .. وكانت نوال أول من استيقظ ..

ربما لم ينم أحد فى البيت ، وربما لم تنم هى أيضا .. ولكنها كانت أول من فتحت عينيها ، وأبقتهما مفتوحتين وكفت عن محاولة النوم ..

وكانت الساعة الخامسة صباحا عندما فتحت عينيها .. وأخذت تستعرض العمل الذى تقرر أن تقوم به .. ستذهب

لاستلام بدلة الضابط من فتحى المليجى .. ستقابله فى ميدان الكوبرى .. بجانب دكان بائع السجائر .. و .. وأخذت تستعرض كل التفاصيل .. تفاصيل كثيرة يصورها لها خيالها .. وكانت تكاد ترى بعينيها ميدان الكوبرى .. كل شبر فيه .. وترى عربات الترام والناس الجالسين فى العربات .. وعسكرى البوليس الذى يروح ويغدو هناك .. وطفلا يجمع أعقاب السجائر .. وعربة كارو محملة بالخضار .. وسيارة كاديلاك تمرق وفيها شاب .. والشاب يلتفت اليها ويطلق صفيرا يعبر به عن اعجابه .. وشحاذ يقترب منها وتنهره بشدة .. وبعض طلبة الجامعة يتسكعون حولها ..

كل هذه الصور تمر أمام عينيها ، وهى تعبس حينا ، وتهدأ حينا ، وترتجف حينا ، وتبتسم حينا .. ولم تكن تعبس أو تهدأ أو ترتجف أو تبتسم للصور التى تمر بخيالها ، انما تبعا لاحساسها وكأن احساسها غير مرتبط بخيالها ، كان احساسها يتحرك وحده فى ناحية ، وخيالها يتحرك فى الناحية الاخرى .. وكان المجهود الذى تبذله ، وتتألم فى بذله ، هو محاولة الربط بين هذا الخيال وهذا الاحساس .. كانت تحس بالخوف بينما ترى فى خيالها صورة العربة الكارو المحملة بالخضار .. ثم يخف احساسها فجأة فتكاد تبتسم كأنها مقدمة على لعبة مسلية ، ثم ترى فى خيالها صورة عسكرى البوليس ينظر اليها شزرا . وكانت خلال هذه الحيرة تنجح فى محاولتها الجمع بين خيالها واحساسها لبرهة قصيرة تتساءل خلالها : « لماذا حدد لها فتحى المليجى موعدا فى هذا الميدان المزدحم بالحركة .. أما كان الأجدى أن يلتقيا فى مكان منزو أكثر هدوءا وأكثر أمنا ؟ »

ثم كانت تجيب نفسها : « لا بد أن هذا المكان أكثر درءا للشبهات ، وأبعد عن مراقبة البوليس ! »

وكانت عندما تجد هذا الجواب تبتسم كأنها تهنىء نفسها ، وكأنها أصبحت فعلا عضوة عاملة فى جمعية سرية وطنية !

ثم كان خيالها يعود ويفترق عن احساسها ، وتعود ثانية الى حيرتها وتخبطها الى أن تنجح مرة ثانية فى السيطرة على تفكيرها ، فيقفز أمامها سؤال آخر : « ماذا يحدث لو طلب منها فتحى المليجى أن تركب معه فى السيارة بدعوى الذهاب لاحضار البدلة ، كما حذرها أخوها ؟ هل تطيعه وتركب معه ؟! »

وكانت تزم شفتيها وتجيب نفسها فى اصرار : « لا .. لن أركب معه .. مستحيل ! »

ثم كانت شفتاها تنفرجان وخلجات وجهها تلين وهى تقول لنفسها : « ولكن ابراهيم هو الذى أرسلنى اليه .. وابراهيم رجل نبيل .. لا يمكن أن يرسلنى الى شاب لا يطمئن اليه .. لا يمكن أن يعرضنى لما يرضاه لى .. لا بد انه واثق من فتحى المليجى ، ويجب أن أثق به أنا أيضا ، سأركب سيارته لو طلب الى ، سأذهب معه الى آخر الدنيا لو أراد فى سبيل ابراهيم » !

وظل هـــذا هو حالها الى أن تركت الفراش .. وتركت فيه أختها لا تنام ولا تستيقظ .. وبدأت الحيـــاة تدب فى أرجاء البيت .. حياة بطيئة متوترة كأن البشرية كلها تجتاز الصراط المستقيم .. وخرج الأب الى عمله .. وأمسكت الأم بالمقشـــة وانحنت فى تثاقل وألم تكنس الارض .. وهم محيى بالذهاب الى الجامعة ، واقترب من نوال وهى تساوى الفراش ونظر اليها من وراء نظارته فى أسى ، وقال : خدى بالك من نفسك ! ..

ثم استدار لها قبل أن يسمعها ترد عليه ..

واستطاعت سامية أن تترك الفراش .. وسارت كسولة متعبة الى المطبخ لتبدأ فى اعداد الأوانى ، دون أن تغسل وجههـــا أو تصلح خصلات شعرها المدلاة فوق جبينها .. ولحقت بها الأم بعد قليل .. واتجهت نوال ونقرت على باب غرفة محيى لتفرج عن ابراهيم وتدعه يذهب الى الحمـــام ، وقالت وبين شفتيهه ابتسامة طيبة تحمل فى طيبتها تنازع خواطرها : صباح الخير ..

ورد ابراهيم وكأنه يرى فى وجهها نور الصباح : يسعد صباحك

وتركته ليدخل الحمام ، ويعـــود .. ثم عادت اليه تحمـــل صينية الافطار كعادتها منذ التقيا .. وقال لها وهو يبحث عن نفسه فى عينيها : أنا باتعبك يا نوال ..

قالت فى حياء : لا .. أبدا ..

قال كأنه يذكرها : أنا لولا انى متأكد ان مش حيحصـــــل لك حاجة ، ما كنتش ممكن أبعتك لفتحى !

قالت كأنها مطمئنة : أنا مش خايفه ..

قال وهو يجد فى نفسه جرأة عجيبة ليظل مركزا عينيه على وجهها : تنزلى من هنا الساعه اتناشر الا ربع .. علشان ما تقفيش فى الميدان كتير !

قالها فى صوت متنهد كأنه يحدثها عن حبه !
وقالت ولا يزال حياؤها يربكها أمام عينيه المسلطتين عليها :
ــ بس مش عارفة أقول لماما ايه علشان تخلينى أنزل ؟
وقال ابراهيم : آه صحيح .. حاتقوليلها ايه ؟
قالت بعد تفكير :
ــ مش حاقول لها حاجة .. حانزل من غير ما تعرف !
قال وهو دهش : ازاى .. مش معقول .. ما تقوليلها انك رايحه لواحده صاحبتك ، زى امبارح !
قالت فى هدوء كأنها تعرف جيدا ما تقول :
ــ لو قلت لها ، ومارضيتش .. حتفضل حاطانى جنبها طول النهار .. بلاش أقول لها أحسن !
قال وكأنه يتكلم بشفتيه بينما قلبه يتكلم حديثا آخر : وبعدين
قالت وهى تبتسم :
ــ ماتخافش .. أنا حانزل واجى من غير هيه ما تعرف !
وانسحبت من أمامه وقلبه ينسحب وراءها ، والتفتت اليه قبل أن تخرج ، وقالت كأنها تبحث عن حجة لتتزود منه بنظرة أخرى : مش عايز حاجه ! ..
وتعلقت نظرته بها كأنه يقيدها اليه برموش عينيه .. ولم يجب .. انما ابتسم ابتسامة صغيرة صامتة ، فى صمتها رجاء كبير .. وكأنها تلقت رجاءه ، فارتجفت عيناها ، وانصهرت وجنتاها .. واغلقت الباب وراءها !
وتسللت الى حجرتها ، وفتحت دولابها وأخرجت منه حذاءها وجوربها وحقيبتها و « بلوز » و « جيب » .. ثم حملت كل ذلك وذهبت الىحجرة «الضيوف» وهى تسير متسللة ، ووضعت ما حملته على أحد المقاعد .. ثم عادت ودخلت المطبخ
كانت سامية واقفة أمام الحوض تغسل الأوانى . .والأم واقفه مديرة لها ظهرها ترتب دولاب المطبخ ..
وأشارت نوال الى أختها اشارة خفيفة من وراء ظهر الأم ، لتلحق بها .. وتلقت سامية الاشارة بدهشة ، ثم جففت يديها ، وخرجت وراء أختها لتلحق بها فى غرفتها ، وقالت نوال فى همس :
ــ أنا لازم أنزل دلوقت ..

وقالت سامية فى حدة وبلا همس : ليه .. رايحه فين !
وقالت نوال وهى لا تزال تهمس : ماتزعقيش .. يحيى طلب

منى انى أروح مشوار علشان حاجه مهمه خالص ! ..
وقالت سامية وقد انتقلت اليها عدوى الهمس :
ـ ايه هيه الحاجة المهمة دى ..
قالت نوال : بعدين تعرفى .. المهم لازم انزل دلوقت ..
قالت سامية : ولما انتى مش عايزه تقوليلى .. عايزانى ليه ؟
قالت نوال : علشان مش عايزه ماما تعرف انى نازله !
وقالت سامية فى تحد : ليه ؟ ..
قالت نوال : لأنها مش حترضى .. انتى عارفه ماما !
وقالت سامية فى تهكم مر :
ـ وعايزه خدامة السيادة ، اللى هيه أنا .. تعمل ايه ؟
قالت نوال كأنها تشرح خطة :
ـ أنا حاقول لماما انى داخله الحمام اغسل الشرابات والمناديل المتكومة .. وانتى عليكى تخلى ماما فى المطبخ .. ماتخليهاش تخرج منه ، ولا تدور على بنفسها أبدا .. واذا تأخرت عن كده قوليلها انى بعد ما خلصت غسيل .. ابتديت أستحمى !!
وقالت سامية فى غيظ :
ـ لا ، ماليش دعوه .. أنا مش طرطوره ولا شخشيخه ، يا تقوليلى انت نازله رايحه فين يا تتفضلى تنزلى واللى يحصل يحصل
وقالت نوال فى توسل :
ـ والنبى يا سامية .. علشان خاطرى .. ده محيى هو اللى عايزنى أنزل .. وبعد ما ارجع حاتعرفى كل حاجة .. أصلى حلفت انى ما اقولش حاجة أبدا .. محيى حلفنى على المصحف ..
وقالت سامية وقد عادت الى تهكمها : محيى والا ابراهيم ؟ ! ..
وقالت نوال وقد بدأت تحتد :
ـ وحياة بابا وحياة ماما .. وحياة شرف النبى انه محيى ..
وقالت سامية : خلاص .. خلى محيى ينفعك ! ..
وتركتها وعادت الى المطبخ ..

وانتظرت نوال قليلا وهى تلهث من الغيظ .. ثم احتدت نظراتها كأنها صممت على شىء .. وسارت وراء أختها الى المطبخ وقالت وهى تحاول أن تتكلم فى لهجة طبيعية :
ـ ماما أنا داخله اغسل شوية الشرابات والمناديل المتكومين دول !
وردت الأم دون أن تنظر اليها : طيب بس شهلى قوام .. وتعالى علشان تنضفى الفاصوليا مع أختك ..

ونظرت نوال الى أختها كأنها تتحداها أن تفضحها ..

وردت سامية النظرة ، بنظرة ضعيفة كأنها لا تستطيع أن تفضح أختها .. وتسللت نوال الى «حجرة الضيوف» ، وبدأت ترتدى الثياب التى حملتها اليها ..

وكانت حجرة الضيوف منعزلة تقريبا عن بقية الحجرات ، وأقربها الى الباب .. وكانت مغلقة دائما .. لا تفتح ، ولا تفتح نوافذها الا اذا جاء الى البيت ضيف غريب .. فخرجت منها نوال متجهة الى الباب الخارجى وحذاؤها فى يدها ، دون أن يحس بها أحد ..

وفتحت الباب فى حذر شديد فلم يسمع لفتحه صوت .. ثم فكرت قليلا قبل أن تخرج .. ووضعت الحذاء من يدها على الارض وعادت تتسلل على أطراف أصابعها الى داخل البيت ..

ودخلت حجرة « القعاد » والتقطت جريدة كانت ملقاة هناك .. جريدة الأمس .. وعادت ووقفت أمام الباب الخارجى .. ونزعت قصاصة ورق من الجريدة وكورتها بعد أن بللتها بشفتيها ، ثم حشرتها فى قفل الباب ، فحالت دون خروج لسان القفل .. ثم حملت حذاءها وتعدت الباب وهى تتلفت حولها .. ثم أغلقته وراءها .. فانغلق دون أن يقفل بالقفل ..

ووضعت حذاءها فى قدميها .. ونزلت السلم ، وهى لا تزال دون وعى منها ـ تسير على أطراف أصابعها ..

وأصبحت فى الشارع .. وأسرعت خطاها نحو محطة الاوتوبيس ولم تكن تفكر فى المهمة الوطنية التى تقوم بها ، كانت تفكر فى أمها .. انها المرة الاولى فى حياتها التى تتسلل فيها من وراء أمها .. المرة الاولى التى تخرج فيها من البيت بدون اذن .. وكانت خائفة .. خائفة من أمها .. ومن أبيها .. وكان خوفها يحمل فى طياته تأنيب ضميرها .. تأنيبا قاسيا كأنه صفعات كف ظالمة .. وحاولت كثيرا أن تقنع ضميرها .. أن تهدئه .. كانت تقول لنفسها انها ذاهبة لتنقذ انسانا .. لتنقذ بطلا .. لتساهم فى عمل وطنى .. وان هذا العمل يبرر تسللها من البيت ، ويبرر خروجها بدون اذن .. ولكن ضميرها كان يرفض أن يصدقها ، وصوت فى أعماقها كان يقول لها : « يا كذابة .. انك ذاهبة من أجل ابراهيم .. ابراهيم بالذات .. لا لأنه بطل .. بل لأنه ابراهيم ! » .. وكانت تسمع هذا الصوت ، فتتثلج أطرافها ..

ويمتقع وجهها .. انها الحقيقة .. انها تفعل كل ذلك من أجل ابراهيم .. ماذا يمكن أن تفعله أيضا من أجله .. أشياء كثيرة .. ان الطريق طويل وهى منقادة فيه بلا ارادة .. شيء قوى يدفعها .. تيار جارف لا تستطيع أن تقاومه .. وهى خائفة .. خائفة من نفسها .. خائفه من ذكائها .. خائفه مما تستطيع أن تفعله بهذا الذكاء خلال اندفاعها فى هذا الطريق .. وخائفة على أمها ، وعلى أبيها .. خائفة عليهما من نفسها .. وأحست كأنها تعتذر لهما .. كأنها واقفة أمامهما منكسة الرأس تعترف بأنها تسللت من البيت بدون اذن وانها خانت ثقتهما فيها ، وأحست أنها تبكى .. أنها فعلا تريد أن تبكى ، لعل دموعها تعتذر لها لدى أمها ..

وظلت سادرة فى هذه الافكار والاحاسيس ، وهى راكبة فى الاوتوبيس وبعد أن نزلت منه ..

ثم وقفت فى ميدان الكوبرى ، بجانب بائع السجائر ، وهى تتعجل الوقت لتعود الى البيت قبل أن تتنبه أمها الى غيابها .. لم يعد يهمها أن يراها أحد .. لم تحاول أن تتلفت حولها لترى من يمر بهـــا .. لم تر عربات الترام ولا النـــاس الجالسين فى العربات .. ولم تر عسكرى البوليس الذى يروح ويغدو .. ولا الطفل الذى يجمع أعقاب السجاير .. ولا الشحاذ الذى يمد لها يده .. ولا الشاب الذى يركب السيارة ويصفر اعجابا بها .. ولا عربة الكارو المحملة بالخضار .. لم تر شيئا مما تخيلته قبل أن تصل الى الميدان .. ولم تر أن هناك فى جانب بعيد من الميدان عند ناصية شارع من الشوارع المتفرعة منه ، تقف عينان تنظران اليها من خلال نظارة .. عينان ملهوفتان ، فيهما جزع ، وفيهما تربص ، وفيهما خوف .. انه محيى .. شقيقها .. واقف هناك

وقد قضى محيى طول ليله ، وطول صباحه ، يحاول أن يطمئن نفسه على أخته وهى ذاهبة لملاقاة فتحى المليجى .. ويحاول أن يقنع نفسه بأن فتحى لن يدعوها الى ركوب سيارته ليغرر بها ..

ولكنه لم يطمئن ، ولم يقتنع.. ووجد نفسه يخرج من الجامعة ويذهب الى الميدان قبل الموعد الذى يعرفه بفترة طويلة.. ووقف هناك منزويا عند الناصية يبحث عن أخته ، ويرقب وصولها .. وهو لا يدرى بالضبط ما يمكن أن يفعله عندما يراها .. ولا يدرى ما يمكن أن يفعله اذا رآها تركب سيارة فتحى المليجى ، ولو رأى السيارة تختفى بها .. ماذا يفعل ؟.. هل يصرخ ويجرى وراء

السيارة ؟.. هل يبلغ البوليس ؟ ! ربما لم يستطع أن يفعل شيئا من ذلك .. ربما تجمد فى مكانه ، وبكى حتى تغيم الدموع على زجاج نظارته فلا يعود يرى شيئا ..

ولكنه يجب أن لا يتجمد .. ويجب أن لا يبكى .. يجب أن يستعد لانقاذ أختـــه .. انه يستطيع على الاقل أن يأخذ رقم السيارة ويبلغ عنها البوليس ، بتهمة خطف أختـــه .. ان معه قلما .. ومعه مفكرة .. وتحسس القلم والمفكرة فى جيبه .. ان كل شىء معه ليلتقط رقم الســـيارة .. ولكن ماذا يجديه رقم السيارة .. ستكون أخته قد تلوثت قبل أن يعثر عليها البوليس .. سيكون هو قد تلوث .. شرفه .. كرامته .. لا .. ليذهب ابراهيم الى الجحيم .. ليشنق ألف مرة .. انه يستحق الشنق .. أما هو ـ يحيى ـ فلا يستحق أن يتلوث شرفه .. سيذهب ويقف بجانب أخته ، سيحميها من الذئاب .. وسواء سلمها فتحى المليجى البدلة وهو بجانبها ، أو لم يسلمها ، فلا يهم .. المهم الا يترك أخته للذئاب .. الذئاب الذين يعرفهم جيدا ! !

ورغم ذلك فلم يتحرك عندما رأى أخته .. لقد رآها وهى تنزل من الاوتوبيس .. ورآها وهى تسير لتقف قريبا من بائع السجاير .. ورغم ذلك فلم يتحرك من مكانه .. ان قلبه يضطرب وعينيه جاحظتان خلف نظارته متجهتان اليها .. ومخاوفه تشتد .. ورغم ذلك فهو لا يتحرك من مكانه ..

وربما لو انتبهت نوال وتلفتت فى أنحاء الميدان ، لرأته ، هناك منزويا ، ملتصقا بجدار اول بيت عند قمة الناصية .. ولـــكن نوال لم تتلفت .. أو تلفتت غير منتبهة.. فلم يكن فى خيالها سوى صورة واحدة .. وجه فتحى المليجى .. وأى وجه كان يصادف عينيها غير هذا الوجه ، لم تكن تراه ..

وكان احساسها كله موجها الى مرور الوقت .. كانت متعجلة لا يهمهما شىء الا أن تعود سريعا قبل أن تكتشف أمها غيبتها .. والوقت يمر بطيئا .. بطيئا جدا .. والساعة قد تجاوزت الثانية عشرة .. انها الآن الثانية عشرة وخمس دقائق .. ربما لن يجىء .. وتذكرت انه اتفق معها اذا لم يحضر ، أن تذهب لملاقاته فى بيته فى الساعة الثالثة بعد الظهر .. هل تعود الى بيتها .. وهل تستطيع أن تتسلل من وراء أمها مرة أخرى .. و ..

وقبل أن تجيب على تساؤلها .. رأته .. فتحى المليجى ..!!

تنبهت على بوق سيارة تحاذيها وتتحرك أمامها ببطء .. ورأته فيها .. وكان يقود السيارة ، ورفع ذراعه عن عجلة القيادة وأشار اليها بأن تتبعه .. ثم انحرف بسيارته الى شـــارع النيـــل .. وتحركت من مكانها وقلبها يضطرب ، وخطواتها مرتبكة ، وهى تحاول أن توقف عقلها عن التفكير .. لا تريد أن تفكر فى شىء .. كأنها لو فكرت لعدلت عن خطتها .. ورأت السيارة قد وقفت عند أول الشارع ، فاقتربت منها ببطء .. خائفة .. كأنها تقترب من قفص الأســـد .. وما كادت تحاذيها حتى أطل عليها فتحى المليجى من نافذة السيارة .. ثم مد اليها ذراعيه بلفافة كبيرة ، أسقطها بين يديها وقال فى سرعة : العربيه حتكون جاهزه بكره ..

وفى لفتة من عينيها كان قد انطلق بسيارته

هكذا فى ثانية واحدة ، انتهى كل شىء ..

ولم يحدث شىء .. ما أبسط البطولة .. !

إنها كالقبلة ، تخافها البنت الى أن تكتشف بساطتها ومتعتها .

وحملت اللفافة الكبيرة وسارت منكسة الرأس ، دون أن تلتفت وراء الســـيارة المنطلقة ، وعلى جانب شفتيها ابتسامة ساخرة كأنها تأسف على هذه الأوهام التى كانت تتخيلها ..

وكان محيى فى الجانب الآخر من الميدان قد سقط قلبه عندما رأى أخته تتبع السيارة وتختفى وراءها فى شارع النيل .. أحس ان الذئب قد أنشب أنيابه فى لحم أخته ، فى شرفه.. فى كرامته.. وأحس ان كل قطعة من جسده قد حملت آثار الأنياب ، وتنزف دماء .. وأحس ان شيئا فى داخله يعوى كأنه أصيب بالسعار.. وتحرك من مكانه ، وكل شىء فيه يلهث ، الا قدميه .. وكان يسير ببطء .. لا يدرى لماذا ؟.. لا يدرى الا انه لايستطيع أن يجرى ، كأنه يخاف ان جرى أن يثير ثائرة الذئاب فتجرى وراءه

ولكنه لم يكد يعبر الشارع ، ويخطو خطوات حتى رأى أخته تعود حاملة اللفافة بين يديها ، متجهة الى محطة الاوتوبيس ..

وتوقف عن السير .. ولم يحس بالراحة .. انما أحس بخيبة أمل .. أحس باحساس كأنه النقمة .. النقمة على نفسه .. لماذا انقاد الى كل هذه الأوهام التى أحاطت به ، ولماذا عجز عن مواجهة الأوهام عندما خطرت له ! !

وهم أن يتجه الى أخته ليصحبها الى البيت .. ولكنه عدل .. واستدار .. وسار يائسا تعيسا ، متجها الى الجامعة دون أن

يحاول الوصول اليها .. ولم تره أخته أيضا ..

ركبت الاوتوبيس وهى تطمئن نفسها الى ان مهمتها قد نجحت .. وانها ستصـــل الى البيت قبل أن تكتشف أمها غيبتها .. واخذت تستعيد اللحظات التى مرت بها ، واستعادت قول فتحى : « العربية حتكون جاهزة بكره » .. وفجأة انفتحت عيناها كأنها انتبهت الى شيء .. ان معنى هذا ان ابراهيم سيغادر البيت غدا .. غدا لن يكون ابراهيم فى البيت .. لن تراه .. لن تنقر على بابه لتفسح له الطريق الى الحمام .. ولن تقدم له طعام افطاره .. ولن تحس بأنفاسه حولها .. ولن يمتلىء صـــدرها بهذا الاحساس المثير .. سيعود كل شيء فى البيت راكدا .. مملا .. وسيعود الحديث تافها ، وستعود الهمسات بينها وبين أختها حول خطابها .. الطويل ، والسمين ، والدكتور ، والمهندس .. وسيعود خيالها لا يمثل واقعا ، ولا يتجسد فى أحد .. وستعود تنتظر .. تنتظر دائما .. تنتظر موعد الافطار .. وموعد السحور وتنتظر خروج أبيها ، وعودة أبيها .. وتنتظر العيد .. وتنتظر أن تتزوج أختها .. ثم تنتظر من يتقدم ليتزوجها .. ستعود كل هذه الحياة الراكدة الضحلة .. ولن يكون فيها ابراهيم .. لن تراه .. لن تراه أبدا .. ان ابراهيم لا يعيش فى الحياة الراكدة الضحلة ..

وانقبض قلبها .. أحست كأن الاوتوبيس وهو يهتز ينفض عنها الحياة ، ليتركها انسانة هامدة .. تعيش بلا حياة ..

ونزلت من الاوتوبيس وسارت الى بيتها وهى تحمل اللفافة وصعدت السلم على أطراف أصابعها ..

ودفعت الباب برفق فانفتح .. ودخلت والبيت كله صامت .. وألقت اللفافة على الارض فى حرص .. ونزعت الورقة الصغيرة من قفل الباب ، ثم أغلقته فى هدوء .. وخلعت حذاءها ، وحملت اللفافة والحذاء ودخلت بهما حجرة « الضيوف » .. ثم بدلت ثيابها بسرعة .. وتركت كل شيء ملقى على مقـــاعد الحجرة ، وخرجت منها وأغلقت بابها .. ثم اتجهت على أطراف أصـــابعها الى المطبخ .. ووقفت تنظر الى أمها والى أختها ، كأنها لا تصدق عينيها .. انهما كما تركتهما ..

سامية واقفة أمام الحوض تغسل الأوانى والصحون ، وأمها لا تزال ترتب فى الدواليب .. كأن كل شيء يتجمد فى هذا البيت حتى الزمن .. ولكن .. انه لم يمر عليها منذ خروجها من البيت

أكثر من نصف ساعة .. كل هذا حدث فى نصف ساعة ..
ولمحت أمها خيالها ، فقالت لها : خلصتى الغسيل ؟
وقالت فى صوت متهدج : أيوه يا ماما ..
واستطردت الأم : طيب ياللا اقعدى نضفى الفاصوليا ..

ونظرت سامية الى نوال غاضبة كأنها تهددها بافشاء سرها ، ونظرت اليها نوال فى حنان كأنها تشكرها لأنها لن تفشى سرها .. ثم دخلت وحملت قرطاسا كبيرا فيه الفاصوليا ، وهمت خارجة ، فاستوقفتها أمها قائلة : على فين ! ؟

قالت نوال : رايحه أقعد فى أودة «القعاد».. جنب الراديو !

وقالت الأم وهى تعود بوجههـا الى الدولاب : والنبى دى مياصة .. يعنى ماتعرفيش تنضفى الفاصوليا الا على الراديو ..

وخرجت نوال قبل أن تتم الام كلامها .. ووضعت قرطاس الفاصوليا على المائدة الصغيرة فى حجرة « القعاد » ثم عادت الى حجرة « الضيوف » وحملت ملابسها واللفافة الكبيرة .. ومرت على حجرتها فألقت فيها بثيابها .. ثم تسللت الى الحجرة التى يجلس فيها ابراهيم ، ونقرت الباب نقرة خافتة ، ثم دخلت ، واللفافة بين يديها ، وبين عينيها نظرة حزينة كأنها دمعة معلقة بين جفنيها .. وقال ابراهيم وهو يتناول اللفافة من يدها ويبتسم لها ابتسامة كبيرة كان قلبه يهم بأن يقفز من بين شفتيه : أنا مش عارف أشكرك ازاى .. وقالت وهى تنظر اليه :

ـ فتحى بيقول لك العربية حتكون جاهزة بكره

قال وهو حائر أمام نظرتها الحزينة : مرسيه

وسكتت ، فقال وقد اشتدت لهفته على حزنها : حصل حاجة ؟

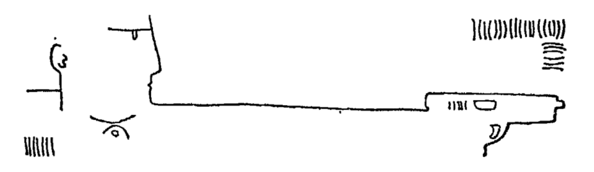
قالت واحدى يديها تشد فى أصابع اليد الاخرى كأنها تريد أن تنزعها : انت حاتروح فين بعد ما تسيب بيتنا ؟ ..

قال وكأنه عرف سبب حزنها : والله ما اعرفش ..

قالت وهى تنظر اليه كأنها تطالبه بحق لها : وحنطمن عليك ازاى ؟ قال كأنه يتهكم من يأسه : لو مسكونى حتعرفوا من الجرايد !

ونظرت اليه فى عتاب جاد .. ثم استدارت له وخرجت ..

وعادت الى حجرة « القعاد » وعقلها تائه لا تستطيع أن تجمعه فى رأسها .. وفردت قرطاس الفاصــوليا .. وأخذت تلتقط الواحدة بعد الاخرى وتنظفها .. ثم فجأة أحست بدموعها تنهمر فوق خديها .. كان فكرها قد عاد اليها دموعا !!



١٠

عاد محيى الى البيت فى موعد خروجه من الجامعة ..

ولم يقل شيئا لأخته ولا لابراهيم .. لم يقل لهما انه تتبع نوال وراقبهـا وهى فى انتظار فتحى المليجى لتتسلم منه بدلة الضـابط .. دخل صامتا ذليلا منكس الرأس ، وهو يشعر بالسخافة .. سخافته لأنه كان يشك فى أخلاق فتحى المليجى.. بل وفى أخلاق كل الشبان المشتغلين بالسياسة .. وقد حمل هذا الشك طول عمره .. كان طول عمره يعتبر اشـتغال الطلبـة بالسياسة مجرد « شقاوة » ، ولم يكن يعتقد أن هناك فارقا بينه وبين هؤلاء الطلبة الا أنهم يمتازون بالوقاحة ، والصفاقة .. كان يعتقد أن حماستهم لوطنهم لا تزيد عن حماستهم فى ملاحقة أية فتاة تمر بهم .. وان الهتافات الصاخبة التى يهتفون بها لا تصل الى واحد منهم الا بقدر ما تصل كلمات المغازلة التى يهمسون بها فى آذان الفتيات .. لم يكن يعتقد أنهم رجال ، وان فيهم خلق الرجولة .. وصحيح انه كان يثق فى ابراهيم .. كان يثق فيه من قبل أن يلجأ اليه .. ولـكن ابراهيم كان دائما صنفا آخر من الشبان.. كان صموتا متحفظا ، لايقحم نفسه ، ولا يدعى زعامة ، ولا يتظاهر بوطنيته .. ولكن .. يبدو أن هناك كثيرين غير ابراهيم كلهم رجال .. وكلهم على خلق.. و.. وهو يشعر بأنه ظلمهم .. ظلم زملاءه المشتغلين بالسياسة .. بل يشعر انه يراهم فى خياله كما لم يرهم من قبل .. شرفاء ، مخلصين .. ويسمع هتافاتهم كما لم يسمعها أبدا .. صادقة قوية كأنها طلقات مدافع تقذف القلوب من الافواه ..

ودخل الى حجرته وحيا ابراهيم دون أن يرفع اليه عينيه كأنه يخفى تحت جفونه خجله من نفسه ..
وقال له ابراهيم كأنه يبلغه خبرا سارا : البدله‌جت..جابتها!
وقال محيى وهو يتلفت حواليه حتى لاينظر اليه : هيه فين ؟..
وقال ابراهيم : فى الدولاب ..
وقال محيى كأنه يبحث عن أى شيء يقوله حتى يستعيد هدوء نفسه : قستها ؟ !
وقال ابراهيم : مظبوطه .. متفصله على .. بكره باذن الله حابقى ملازم أول ..
وسكت محيى .. لم يستطع حتى أن يبتسم ، واستطرد ابراهيم وهو يبتسم ابتسامة ضيقة يحاول أن يطمئن بها صديقه :
ـ بكره العربيه جاتكون جاهزه .. والعمليه حتم !
والتفت اليه محيى وقال وهو يتكلم فى حماسة واخلاص كأنه يحاول أن يعوض ابراهيم عن الشكوك التى كان يحملها فى صدره :
ـ اسمع يا ابراهيم .. تأكد انى مش عايزك تسيب البيت .. لا أنا ولا بابا .. اذا كنت مش متأكد من العملية بتاعة بكرة .. بلاش .. خليك قاعد معانا لغاية ما تطمئن ..
وسكت ابراهيم برهة وهو ينظر الى محيى كأنه يقيس اخلاصه
واستطرد محيى كأنه أحس بأنه تمادى فى حماسته :
ـ يوم ولا يومين زياده .. مش حا يفرقوا ! !
وقال ابراهيم :
ـ متشكر يا محيى .. انما أحسن لى انى أسيب البيت بكره .. وتأكد انى مش حانسي اليومين اللى قعدتهم معاك .. اليومين دول أنقذوا حياتى .. وأنا عارف المتاعب اللى سببتها لكم .. عارفها كويس .. ومش حانسى جميلكم على أبدا ..
وقال محيى فى صوت مبحوح : ده واجب .. المهم انك تكون مطمئن على نفسك ، ونكون مطمئنين عليك ..
وقال ابراهيم وهو يهز كتفيه كأنه يسخر من نفسه ، ومن نصيبه فى الدنيا : أنا عمرى ما حاطمئن على نفسى .. ولا حد حايطمئن على .. خليها على الله !
وقال محيى فى أسى : ما تقولش كده .. ربنا معاك ! ..
وسكت ابراهيم ..
وبدأ محيى يبدل ثيابه .. ثم مرت بهما الساعات وكل منهما

يحاول أن يرفه عن الآخر.. يتناقلان حديث الجامعة.. والحوادث السياسية ويحاولان الضحك .. ضحكا ثقيلا كأنهما يجذبانه من صدريهما بآلات رافعة ..

وجاء الاب فى موعـــده .. وهم محيى بأن يخرج من الغـــرفة ليستقبله فقال له ابراهيم : بلاش تقول لعمى على حكاية بكره !

وسأله محيى وهو دهش كعادته : ليه ؟ ..

قال ابراهيم :

ـ علشان كل حاجة تفضل ماشيه طبيعى وعلشان عمى يعرف ينام كويس.. أصل انتظار ساعة الافراج أسوأ حالات السجن.. وخروجى من البيت معناه الافراج عنكم ..

وقال محيى دون أن يقتنع : طيب .. مش حاقول له ! ..

وقال ابراهيم : ما تقولش لحد أبدا .. لا لطنط ولا ساميه .. وقول لنوال ما تقولش هيه كمان ..

وقال محيى وهو ينسحب : طيب .. !

وخرج .. ثم عاد بعد قليل وفى يده جريدة الاهرام دون أن يبدو على وجهه شيء جديد ..

واختطف ابراهيم الجريدة من يده ، وأخذ يبحث عن نفسه بين السطور .. كان يقرأ أخبـــار نشاط البوليس فى تتبعه .. وأخبار الاعتقالات .. وكان يحاول أن يقرأ فى كل سطر أكثر مما يحمله .. وكانت تعابير الاهتمام التى تبدو على وجهه تنطفىء رويدا رويدا ، وتحل محلها تعابير الارتياح .. ان البوليس لايزال بعيدا عنه .. بعيدا جدا !

وكانت الساعه قد بلغت الثالثه مساء والأب نائم ..

وفجأة .. دق جرس الباب ..

وارتعش قلب ابراهيم فى صـــدره ، هـــذه الرعشة التى بدأ يحس بها منذ انقلب الى بطل فار بعد أن كان بطلا مهاجما .. وخفقت جفون محيى كأنهما جناحا عصـــفور محبوس خلف زجاج نظارته .. ونظر كل منهما للآخر برهة .. ثم كأنهما اتفقا على الخطة .. فخرج محيى من الغرفة وأغلق بابها وراءه .. وما كاد يخرج حتى التقى بنوال خارجة من المطبخ ، ممتقعة الوجه وضفيرتها تكاد تلتف حول عنقها كأنها تحاول أن تخنقها ..

وقال لها محيى فى همس : ماتفتحيش الباب الا لما تعرفى مين..

قالت : حاضر ..

وسارت فى خطوات متعثرة نحو الباب .. بينما ظل يحيى فى مكانه منتظرا أن تعود اليه أخته بالنبأ ..

وسمع أخته تفتح « شراعة » الباب .. ثم سمعها تفتح الباب نفسه .. ثم عادت .. وخلفها عبد الحميد ..

وانقلبت شفتا يحيى امتعاضا ، كأن شيئا بدأ ينقلب فى معدته..

وقال عبد الحميد فى همس وهو يصافح ابن عمه : عمى نايم ؟

قال يحيى وهو لا يتحرك من مكانه : أيوه ..

وقال عبد الحميد وهو يضحك ضحكة مكتومة : احسن.. ! !

ولم يضحك يحيى مع ابن عمه ، انما ظل صامتا وهو يكتم غيظه .. واستطرد عبد الحميد : انتم قاعدين فين ؟ ..

وتحرك يحيى نحو غرفته ، وفتح بابها ، وهو يقول فى قرف :

ـ اتفضل ! !

واستقبله ابراهيم وقد استرد هدوء نفسه ، وسلط عليه كل عينيه ، وصافحه وهو يبتسم ابتسامة كبيرة ، يحاول أن يبدو من خلالها مرحبا به ..

وجلس الثلاثة يتحدثون .. وحاول عبد الحميد أن يبدو فى الشخصية الجديدة التى رسمها لنفسه .. الشخصية الوقورة المتحفظة التى تقدر خطورة الموقف .. حاول الا يتحدث كثيرا .. وأن يجيب اجابات قصيرة فيها بعض الغموض كأنه يخفى شيئا .. وحاول ألا يسرف فى الابتسام والضحك ..

ولكنه تعب من هذه الشخصية بعد فترة قصيرة .. ووجد نفسه يتحدث كثيرا ، ويجيب على كل سؤال بقصة ، ويبتسم ويضحك بلا حساب .. انه من هذا الصنف الذى لايستطيع أن يسكت عن استعمال مواهبه .. لسانه ، وذكائه وسرعة خاطره ، وخفة دمه .. واعتاد أن يتباهى بهذه المواهب ويجربها مع كل من يصادفه ..

وكان أحيانا يتنبه الى انه أسرف فى الحديث ، وانه خرج عن الشخصية التى يريد أن يبدو بها .. فيسكت فجأة ، ويعانى الكثير من محاولته التمسك بالسكوت ، ومن اخفاء القصص والآراء والملح التى يزدحم بها رأسه وتكاد تقفز على لسانه ..

وكان ابراهيم لا يريده أن يسكت .. فاذا رآه ساكتا لاحقه بالأسئلة .. ويتحايل على سكوته بأن يفتح أمامه أكثر من موضوع

يغرى بالنقاش .. حتى يضعف عبد الحميد ، فينفلت لسانه ، ويعود يتكلم .. ويتركه ابراهيم يتكلم كأنه يراه على حقيقته من خلال حديثه ..

وفجأة سأله ابراهيم : ما تعرفش حد فى البوليس ؟ ! ..

وبوغت عبد الحميد بالسؤال ، وتردد قليلا ، ثم قال باهتمام وكأنه بدأ يلعب دور شطرنج : ليه ؟ ..

وقال ابراهيم بلا اهتمام :

ــ عايز اسأل عن جماعه اصحابى أشوفهم اعتقلوهم ولا لأ ؟ !

وقال عبد الحميد وفى عينيه نظرة ذكاء :

ــ أنا اعرف ضابط من المحافظة بيقعد معانا فى القهوة ! ..

وقال ابراهيم وهو ينكس رأسه حتى لايرى عبد الحميد عينيه :

ــ ما تعرفش تجيب منه أسماء المعتقلين ؟ ..

وقال عبد الحميد وقد اشتد لمعان الذكاء فى عينيه : أظن الاسهل تقول لى عايز تسأل عن مين .. وانا أسأل لك عليهم ! ..

ورفع ابراهيم عينيه الى محيى كأنه يستشيره .. وقال محيى وعلامة استفهام كبيرة تبدو على وجهه :

ــ عبد الحميد مالوش دعوه بالحاجات دى ! ..

وقال عبد الحميد وهو يخفى لهفته : على كل حال أنا مستعد أقوم بأى حاجه يكلفنى بيها الاستاذ ابراهيم ..

وسكت ابراهيم كأنه يفكر .. وطال سكوته ..

وقال عبد الحميد وهو يبتسم :

ــ أرجوك تثق فى يا أستاذ ابراهيم .. أنا ما بطلبش انى اعرفه حاجة .. انما باطلب انى أكون محل ثقتك ! !

وقال ابراهيم فى صوت خافت وكلمات بطيئة ، كأنه يصرح بسر خطير :

ــ أصحابى اللى عايز أسأل عليهم ، واحد منهم اسمه محمد المرتضي ، والتانى اسمه سمير أيوب ..

وصرخ محيى منزعجا : ايه ده .. مين عرفك بالجدع ده علشان تقول له حاجات زى دى ؟ ! ..

ونظر ابراهيم الى محيى ثم نكس رأسه وقال فى صوت مؤثر :

ــ أنا النهارده محتاج لكل انسان .. وانا واثق فى عبد الحميد

وســـكت محيى .. وفهم .. وان كان لم يفهم تماما ما يرمى اليه ابراهيم .. وقال عبد الحميد فى خماسة :

ــ اطمئن .. بكره حارد عليك ! !

وقال ابراهيم فى صوته الخافت الهادىء :

ــ بس حا تسأل صاحبك الضابط ازاى ؟.. اوعى يحس انك مهتم أكتر من اللازم .. اسأله بالراحة ومن غير اهتمام .. وخد يومين تلاتة أربعة .. ما تستعجلش عليه ، أحسن يشك فيك !

وقال عبد الحميد وهو يبتسم كأنه يأسف لأن ابراهيم لا يقدر ذكاءه : سيب الحكايه دى على أنا .. دى حاجات بسيطه ! !

واستأذن عبد الحميد وخرج من الغرفة ، بعد أن شد على يد ابراهيم فى حرارة .. خرج وهو يعتقد أنه وضع ابراهيم فى جيبه .. وكاد يرفع يده الى رأسه ليصافح ذكاءه مهنئا ..

وقال محيى لابراهيم وهو يكاد يهمس : ايه اللى عملته ده ؟ !..

وقال ابراهيم وقد عاد يخفى عينيه عن صديقه حتى لا يرى فيهما سره : ما هو كان لازم اكسب ثقته علشان أضمن انه مش حيراقب البيت ويشوفنى وأنا خارج من هنا ..

وقال محيى :

ــ ما يمكن يروح يبلغ عن أصحابك اللى قلت له عليهم ؟ ..

قال ابراهيم : ما يهمش ..

قال محيى وكأنه يتهم صديقه بالقسوة : ما يهمش ازاى ؟ ..

وقال ابراهيم وهو يبتسم ابتسامة خفيفة :

ــ ما ليش أصحاب بالاسم ده .. ويمكن ما فيش حد بالاسم ده أبدا .. ولو بلغ عنهم البوليس يبقى من مصلحتنا لأنه فى الحالة دى حيساعدنى فى تضليل البوليس ..

وفغر محيى فاه كأنه يلتقط به شيئا من الهواء ، ثم ضم شفتيه وقال : أنا برضه استنتجت انك كنت بتضحك عليه ..

قالها محيى وهو يحس بمرارة .. فلم يكن يعتقد ان الأبطال يلجأون الى الكذب والخداع.. كانت البطولة فى نظره مجرد اندفاع وتضحية وثورة صريحة .. ولم يكن يحس بهذه المرارة وهو يرى ابراهيم يخدع البوليس .. كان يرى فى خداعه للبوليس بطولة.. ولكنه يحس بالمرارة الآن ، وابراهيم يخدع ابن عمه .. لماذا ؟.. هل أشفق على ابن عمه.. هل كان يفضل فى قرارة نفسه الا يرى ابن عمه مغفلا مخدوعا .. هل كان يفضل أن يراه ذكيا خطيرا ، لايستطيع احد أن ينتصر على ذكائه حتى لو كان المنتصر هو ابراهيم ؟ انه لا يدرى ..

وهو حائر فى تفسير احساسه .. لايدرى الا أنه يحس بمرارة ينضح بها قلبه ، وتسيل مع لعابه حتى تصل الى شفتيه ..

ولم يخرج عبد الحميد من البيت ، انما تلكأ فى أنحائه باحثا عن سامية .. ووجدها فى غرفتها ، جالسة فوق حافة السرير ، وقد بدلت ثيابها وعقصت شعرها ، وفى يدها مجلة ترفعها أمام وجهها

ولم تكن تقرأ .. كانت تنظر فقط الى السطور .. وكانت تعلم أن عبد الحميد فى البيت .. وكانت تنتظر خروجه من غرفة محيى ليبحث عنها .. وكانت تعد نفسها ليجدها .. وتعد كل شىء للقائه .. تعد « تبويزتها » .. وتعد نظرتها الساخرة .. وتعد الكلمات الجارحة .. وتعد غرورها الذى يتغذى على ملاحقة عبد الحميد لها واصراره على الزواج بها ..

ولو كان عبد الحميد قد خرج من البيت دون أن يبحث عنها ، لصعقت بحسرتها .. ولكنها كانت مطمئنة .. ان الشىء الوحيد الثابت فى حياتها مذ كانت صبية هو حب عبد الحميد لها ..

ووقف عبد الحميد يسد باب غرفتها بقامته ، وقال فى صوت خفيض وابتسامة حلوه ، ليس فى حلاوتها افتعال.. ولا ذكاء :

ــ لسه زعلانة منى ؟ ! ..

وأنزلت المجلة من أمام وجهها ، وبدت كأنها فوجئت به ..

ثم قالت وهى تهز كتفيها : حازعل منك ليه ؟ وأنا أقدر ؟!

وتقــــدم عبد الحميد وجلس بجانبها على حافة الفراش ..

وأزاحت نفسها من جانبــــه حتى التصقت بحاجز الفراش ..

وقال فى هدوء :

أنا عايز أكلمك فى صراحة يابنت عمى .. أنا عارف انتى زعلانة منى ليه .. فاكرة ان الظروف ماكنتش تسمح بأنى أطلبك من عمى اليومين دول .. انما الظروف دى مالهاش دخل فى الموضوع تأكدى من كده ، انما اللى خلانى أطلبك انى أقدر أسعدك ...

وقاطعته سامية :

ــ مافيش لازمه للكلام ده دلوقت مش بابا وافق ، خلاص !!

وقال عبد الحميد فى اصرار :

ــ لا .. مش خلاص .. أنا عايزك انتى تكونى مطمئنه ..

ثم استطرد فى صوت ناعم كأنه يحلم :

ــ أنا مش سافل زى ما انتى فاكرة .. لو كنت سافل كان زمان فى ايدى دلوقت خمسة آلاف جنيه .. كان زمانى غنى ..

بدل ما اعملك شقة ، ابنى لك فيلا .. وبدل ماخليكى تمشى على رجليكى أجيب لك عربية .. وكنت عملت لك فرح كبير . أم كلثوم .. وتحية كاريوكا .. وزيطة ..

وسكت وهو ينظر الى عينى سامية ، كأنه يحاول أن ينقل أحلامه الى رأسها بالايحاء ..

وقالت سامية وعيناها فى عينيه ، وكأنها بهرت بأحلامه :

ــ وكنت حاتجيب الفلوس دى منين ؟

قال وهو يهز كتفيه كأن الأمر بسيط :

ــ ولا حاجة .. تليفون للنائب العام ولا للبوليس .. تليفون واحد .. واقبض خمسة آلاف جنيه ، حتة واحدة

وقالت ساميه فى جزع ، وكأنها أفاقت على هاوية تحت قدميها :

ــ ياخبر .. انت مجنون .. تودينا كلنا فى داهية علشان خمسة آلاف جنيه !!

وقال عبد الحميد وهو يتراجع :

ــ الكلام ده لو كنت سافل زى ما انتى فاكرة .. أنا صحيح ما اعرفش ابراهيم ، ولا حد فيكم يعرفه .. وصحيح انه حينقبض عليه حتما ، اذا ماكنش النهارده حيبقى بكره .. انما مش ممكن طبعا انى أعمل حاجه زى دى ..

وقالت ساميه فى حده : ده يبقى اجرام ..

وقال عبد الحميد وهو لا يزال يحاول أن يؤثر عليها ، كما اعتاد أن يؤثر عليها وهى صبية : فعلا .. مع ان ممكن كل ده يحصل من غير ما حد من عيلتنا يجرى له حاجه ..

وقالت سامية وهى تحاول أن ترى الى أين يحاول أن يقودها :

ــ ازاى ؟!!

قال : بسيطه ، نستنى عليه لما يخرج من هنا ، ونشوفه حايروح فين .. نمشى وراه ..

وقالت سامية محتدة وقد احتدت معها عيناها وقسمات وجهها : عبد الحميد.. قصدك ايه .. فهمنى عايز تقول ايه .. ايه لزوم الكلام ده دلوقت ؟!!

وقال عبد الحميد دون أن ينظر اليها كأنه يخفى ذكاءه عنها :

ــ عايز أقول لك انى مش سافل زى ما أنتى فاكرة .. اذا كان فيه واحد فى العيلة دى عنده اخلاق يبقى انا .. وكل الفرق انى مشيت فى سكة لوحدى .. ماخدتش شهادة لأنى كنت

عارف انى مش محتاج للشـــهادة ، وانى أقدر أكسب من غير شهاده أكتر من اللى بيكسبه أى واحد فيهم ، وأحب أقول لك ان ابراهيم نفسه بيثق فى .. بيثق فى أكتر منكم كلكم .. أكتر من عمى .. وأكتر من حضرتك كمان .. ولسه دلوقت أهو كلفنى بشغلانة حاتنقذ حياته ..

وكان عبد الحميد يتكلم بحماسة ، كأنه يحاول أن يمسح من فوق سبورة كل ما كتبه عليها .. كان يحاول أن يمسح من رأس سامية كل ما قاله لها .. لقد أراد أن يضمها الى جانبه .. أراد أن يقنعها برأيه فى الحياة .. أراد أن يقدم لها الثراء والنعيم .. ولكنها غبية هذه الفتاة ، كأبيها وأخيها .. وهو يحب هذه الفتاة الغبية .. لماذا يحب الأذكيـاء أمثـاله هؤلاء الفتيـات الغبيـات .. لماذا لا يكف عن محـاولة الزواج بهـا .. لا .. سيتزوجها .. وسيقدم لها الثراء والنعيم رغم أنفها ، ودون أن تعـلم من أين أتى به .. وهو ليس فى حاجة اليها لتنفيـذ خطته .. سينفذها وحده .. وسيصـــل .. انه يرى طريقه واضحا ينيره الذكاء ..

ورفع عبد الحميد عينيه على صوت سامية قائلة :

ـ وكلفك بايه ابراهيم ؟

قال وهو ينظر اليها كأنه لا يزال يسائل نفسه لماذا يحبها .. وماذا يحب فيها : ما اقدرش أقول لك .. سر .. ! !

ثم قفز من فوق حافة السرير وهو يقول : أما أقوم بأه قبل ما عمى يصحى ، ويقول لى كلمتين مالهمش لازمه ! ..

واتجه الى الباب .. ثم استدار الى سامية وقال فى ضعف.. يستغربه من نفسه : خليكى معايا يا سامية .. واظمنى .. !

وودعته سامية بعينين تختلجان بالحيرة .. الحيرة بين العملية الحسابية التى اقتنع بها عقلها والتى ترفض قبول عبد الحميد زوجا ، وبين عواطفها التى تربطها بصباها منذ كانت تعد نفسها زوجة له .. وودعته صامتة بلا كلام .. وخرج عبد الحميد ..

وعاد اليوم يسير مع دقات الساعة كما تعود أن يسير منذ جاء ابراهيم .. بطيئا .. غاية فى البطء .. مرهقا ، غاية الارهاق .. والقلوب مثقلة .. لم يجد عليها عذاب جديد ، الا عذاب قلبين يقف كل منهما على حافة هاوية تفصله عن الآخر ..

كانت نوال لا تستطيع أن تنسى أن ابراهيم سيترك البيت

غدا .. ولا تطيق أن تتصور البيت وليس فيه ابراهيم .. بل لا تطيق أن تتصور نفسها بعيدة عن ابراهيم .. ليس بجانبها .. ولا تراه .. ولا تنشغل به .. ولا تلتقط أنفاسه .. وحاولت كثيرا أن تنسى الغد .. أن تنسى ابراهيم وتنسى نفسها .. كانت تتحرك كثيرا بين حجرات البيت .. وكانت تحاول أن تشغل نفسها بكل كبيرة وصغيرة تصادفها .. ولكن رأسها وقلبها كانا دائما مع الغد .. وكانت ترى الغد يوما أسود يفغر فاه مخيفا كأنه باب الجحيم .. وحاولت أن تقنع نفسها بأن عواطفها مجرد أوهام .. وحاولت أن تتصور نفسها أكبر من سنها ، عاقلة رزينة ، لا تتعلق بالاوهام .. ولكنها فشلت .. وعشرات الافكار تطرأ على رأسها .. أفكار مجنونة طائشة .. انها تفكر فى أن تهرب معه من البيت .. وتفكر فى أن تمزق البدلة التى حملتها له .. انها تكره هذه البدلة .. تكرهها كأنها كفن سيلف ابراهيم .. سيلف حبها ، قبل أن يدفن .. وتفكر فى أن تصرخ .. وتفكر فى أن تنتحر .. لا تريد أن تراه يبتعد عنها .. انه ليس حلما من أحلامها التى تصبر عليها .. انه حقيقة لمسته بيديها .. انه أول طارق يفض غلاف القلب البكر .. لا .. لن تتركه يذهب .. ولكن .. ان كل أفكارها تتحول الى دموع .. دموع تنسكب فى قلبها .. ثم يفيض بها القلب فتنسكب على وسادتها .. والليل من حولها صامت ثقيل ، كأنه صحراء سوداء ..

وفى الحجرة الاخرى كان يرقد ابراهيم ..

انه أيضا يتعذب .. ولا يستطيع أن يجد سر عذابه .. بل لا يريد أن يجده ويعترف به .. وهو يحاول يائسا أن يستجمع ارادته ليفكر فى خطة هربه .. فى الغد .. ويحاول أن يتحمس لهذا الغد .. وأن يفرح به .. لقد نجح فى أول مراحل الهرب ، ومن حقه أن يفرح ، وأن يتفاءل ، وأن يتحمس .. ولكنه لا يستطيع .. انه يحس بفتور وهو يستقبل غده .. ويحس بتكاسل كأنه لا يريد أن يرى الغد .. كأنه يريد أن يكون هذا اليوم هو الأبد .. لا يوم آخر بعده .. كأنه لا يريد أن يغادر هذا البيت ..

وكل ما فى البيت تتوالى صوره فى رأسه .. مكتب محيى .. وحنفية الحمام .. والسندرة التى اختبأ فيها مرة .. وحجرة القعاد .. وكوب الشاى .. و .. صور أهل البيت تتراءى

أمامه كالخيالات .. صورة الأب وقد اختلطت بصورة أبيه .. ولا يستطيع أن يفرق بينهما .. وصورة الأم وقد اختلطت بصورة أمه .. وسامية .. ومحيي .. و .. لا .. انه لا يريد أن يراها .. لا يريد أن يرى نوال حتى فى خياله .. انها ليست من حقه .. ليست من حق خياله ولا قلبه .. ولكن قلبه وخياله يلحان عليه .. ويتغلبان على ارادته ، فيطلقهما وراءها .. ويتجرع مزيدا من العذاب .. عذاب الحرمان حتى من الأمل .. ثم يعود مرة أخرى يحاول أن يتغلب على عذابه .. يحاول أن يقنع نفسه بأنه لا يحب .. ولا يمكن أن يحب .. ان حياته كلها لم يكن فيها مكان للبنات .. وهى الآن أضيق من أن تتسع لنوال .. ولكن قلبه وخياله أوسع من حياته .. وهما يتسعان .. ويتسعان .. الى أن يفسحا مكانا كبيرا لنوال .. بل هو يستطيع أن يتصور نفسه زوجا لها .. ويستطيع أن يرى نفسه يخرج فى الصباح الى عمله ويعود ساعة الغداء ، ونوال تودعه فى خروجه ، وتستقبله فى عودته .. ما أسعد هؤلاء الناس البسطاء الذين يذهبون الى أعمالهم ويعودون منها ، وما أهنأهم وما أطيب حياتهم

ثم يضم أصابعه فوق كفه ، ويضغط عليها بكل أعصابه كأنه يحاول أن يخنق نفسه ، يخنق قلبه وخياله وآمالا ليست من حقه

وأتى الغد ..

ودخلت نوال الى ابراهيم ، بعد أن خرج أبوها وأخوها ، تحمل له صينية الافطار ..

كان السهر يرسم حول عينيها هالتين من السواد ، كأنهما عشان للأرق .. وكأنها لم تنم طول عمرها . وكانت غاضبة .. غاضبة من نفسها ومن ابراهيم ومن عذابها ..

وقال لها ابراهيم وهو يحتضنها بعينين يائستين : مالك ؟ ..

قالت وهى تضع الصينية على المكتب ودون أن تستدير اليه :

ــ ماليش !!!.. وسكتت .. وسكت معها ..

وترددت برهة ، ثم استدارت لتخرج فقال ابراهيم كأنه يتعلق بها حتى لا تتركه وحده : أقدر أطلب منك خدمة ؟

قالت وظهرها له وهى تبدو كالثائرة : اتفضل ..

قال بعد تردد كأنه يبحث عن الخدمة التى يطلبها منها :

ــ والله البدلة اللى جبتيها امبارح جيبها مقطوع .. ممكن تخيطيه ، أصلها بدلة ضابط ومايصحش يكون فيها حاجه مقطوعة

وحاول أن يضحك .. فبدا كأنه يبكى ..

وقالت نوال وهى تستدير له : هيه فين ؟ ..

وفتح ابراهيم الدولاب وأخرج سترة البدلة ، وناولها لها ..

وأخذتها نوال وهى تبحلق فيها كأنها ترى الكفن الذى تخيلته فى ليلتها .. وظلت واقفة لا تتحرك ، والسترة فى يدها تبحلق فيها بعينين فزعتين .. ثم فجأة .. انهمرت دموعها .. ثم تدلى ذراعها الى جانبها حتى سقطت السترة على الارض .. وارتمت فوق الدولاب ، ورأسها فوق ذراعها الثانى .. وأصبحت دموعها نشيجا حادا ، تحاول أن تكتمه فلا تستطيع ..

وبهت ابراهيم ..

ونضح وجهه بالعذاب ، كأنه هو الآخر يهم بالبكاء ..

واقترب منها ، ورفع ذراعيه كأنه يهم بأن يحتضنها ليتلقى دموعها فوق صدره .. ولكنه عاد وخفضهما .. ووقف حائرا مرتبكا لا يدرى ما يقول ولا ما يفعل .. ثم قال وكلماته تتمزق بين شفتيه : ليه بس يا نوال ؟!!

والتفتت اليه وقالت من بين دموعها :

ــ طبعا انت مايهمكش حاجة .. حيهمك ايه يعنى ؟!!

قال فى أسى : ازاى مايهمنيش يا نوال .. أنا مابقاليش حاجه تهمنى فى الدنيا الا انت ..

قالت وهى تنظر اليه كأنها لا تصدقه :

ــ لو كان يهمك ماكنش تسيب البيت من غير ما تقول لى رايح فين ولا أقدر أطمن عليك ازاى ، زى ما تكون خايف منى

قال وهو يطأطىء رأسه كأنه يلقيه من فوق عنقه :

ــ أنا خايف عليكى .. خايف عليكى منى .. أنا حياتى كلها خطر .. واللى بيدخل فيها بيعيش معايا فى خطر .. كفاية اللى استحملتوه علشانى اليومين دول ..

قالت فى حنان وهى ترفع رأسها اليه :

ــ أنا مايهمنيش الخطر .. انما يهمنى انى أطمن عليك .. يمكن تكون عايز حاجة أقدر أعملها لك .. مش جبت لك البدلة !! يمكن أقدر أجيب لك حاجة تانية ..

قال وهو يهرب من عينيها :

ــ احلف لك انى مش عارف حا أخرج من هنا أروح فين ..

قالت وقد عادت تتحدث كأنها تهم بالبكاء مرة ثانية :

- ماليش دعوة .. لازم فيه طريقة توصلنى لك .. قول انك مش واثق منى .. قول انى ماهمكش ..

وسكت .. وألقى برأسه مرة ثانية من فوق عنقه .. وقطب ما بين حاجبيه يفكر ، وكان الوقت أضيق من أن يتسع للتفكير الهادىء ، فيزداد تقطيب ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يعصر مخه كله فى لحظة واحدة ..

ونظرت اليه برهة طويلة ، ثم استدارت لتخرج وهى تنتفض كالعصفور الجريح، ورفع رأسه وراءها ، وقال كأنه يبتهل اليها : نوال

وتوقفت .. والتفتت اليه وهى تكاد تنهار ..

وقال كأنه عدل عن رأيه ، واختار شيئا آخر يقوله :

- مش حتصلحى البدلة ؟

وتقدمت نحوه خطوات .. وانحنت تلتقط سترة البدلة من على الارض ، وانحنى معها فى نفس الوقت .. وتلامست أيديهما فوق السترة ، فسرت فى كل منهما رعشة كأن الحياة تتدفق فى عروقهما لأول مرة ، لتروى جسديهما بالحب ..

وتباعدت الأيدى سريعا ..

وقال فى صوت مبهور كأنه لم يعد يستطيع أن يقاوم :

- اسمعى .. الطريقة الوحيدة .. انى بعد ما أسيب البيت ، تروحى كل يوم اتنين وكل يوم اربع تستنى فى ميدان عبد المنعم الساعة حداشر الصبح .. وانا لو قدرت ، ولو كنت لسه فى مصر ، حا اقابلك هناك ، ولا حابعت لك واحد يطمنك على ويقول لك انى فين .. مافيش قدامنا الا الطريقة دى ..

واضاءت وجهها ابتسامة .. واحمرت وجنتاها ، كأنهما أطلتا من وراء الليل مع نور الفجر .. ورفعت اليه عينيها ثم خفضتهما سريعا كأن الحب أقوى من أن تراه بعينيها ..

وقال كأنه يبرر خطته :

- أنا اخترت ميدان عبد المنعم علشان قريب من البيت .. وماتبقيش تستنى كتير .. ربع ساعة بس .. اذا ماجيتش تعرفى انى ماقدرتش آجى ..

قالت كأنها تعاتبه لأنه يشككها فى آمالها :

- لأ .. حاتيجى باذن الله !

وحملت السترة .. وخرجت تسير كأنها تسبح فى احلامها .. وقلبها البكر ينبض بأول موعد غرام ..





عقرب الساعة يدور ..

وقلب نوال يخفق بأول موعد غرام فى حياتها ، وهى جالسة فى حجرتها فوق فراشها تصلح سترة البدلة التى سيرتديها ابراهيم فى هربه .. بدلة الضابط .. ولم تعد تتصور هذه البدلة كفنا لابراهيم .. أو لحبها .. انها تضمها بأصابعها كأنها تحتضن أحلامها ، وتمرر ابرتها فى نسيجها بحنان وحرص كأنها تخشى على النسيج أن تجرحه الابرة ، وتنظر اليها بعينين مبتسمتين كأنها تنظر الى ثوب عرسها .. هل سيأتى ابراهيم للقائها وهو مرتد هذه البدلة .. كيف يبدو بها .. وابتسمت وهى ترى فى خيالها قامته الطويلة النحيفة ، وعينيه الواسعتين ، وشفتيه الرقيقتين فوق فكه العريض القوى ، وأنفه الكبير كأنه رأس سهم موجه الى صدر عدوه .. وكل ذلك فى بدلة ضابط .. واتسعت ابتسامتها . ثم احمرت وجنتاها وهى تسمع أجراسا رقيقة عذبة تدق فى صدرها كأن خيالها قد انتقل من أمام عينيها وسرى فى جسدها كله ، وأصبحت تحس بابراهيم ملتصقا بها .. ملتصقا بها جدا .. صدره فوق صدرها .. وشفتاه قريبتان من شفتيها .. وأنفاسه تملأ أذنيها .. وانحنت فوق البدلة فى خفر كأنها تميل فوق عنق ابراهيم .. وكتمت ابتسامتها بين شفتيها حتى لا تفضح خيالها .. ولكن كل شىء فيها ظل يبتسم .. انها سعيدة .. سعيدة جدا .. ولا شىء يمكن أن يقلل من سعادتها .. لقد اختفت المأساة من حياتها ومن تفكيرها ،

ولم يخطر على بالها ان ابراهيم قد لا يأتى الى لقائها .. قد يقبض عليه .. وقد يستمر فى هربه حتى يتجاوزها ويتجاوز مكان اللقاء .. كانت ثقتها فيه أقوى من كل الاحتمالات ، انه أقوى من البوليس وأقوى من أن يخلف وعدا لها ، ستلقاه يوم الاثنين ويوم الاربعاء .. وكل يوم اثنين وأربعاء .. ورغم ذلك فهناك فى أغوار نفسها ظل يتحرك .. وهى تخاف على سعادتها من هذا الظل .. انه ليس خوفا من البوليس .. ولا خوفا على مصير ابراهيم .. لن يحدث له شىء .. هذا مؤكد .. ولكن السعادة عندما تفيض الى هذا الحد يخاف المرء أن يفقدها .. كأن من طبيعة القدر ألا يمنح السعادة الا ليأخذها بعد حين .. لا يعطى الا ليأخذ .. وكأننا نحن البشر قطع من الحديد قضى علينا أن نصهر فى الحوادث حتى نموت .. يلقى بنا القدر فى أفران الشقاء .. ثم يرفعنا ويلقى بنا فى الماء البارد العذب ليطفىء نارنا وننفث فى ارتياح أبخرة الشقاء .. ثم تتوالى علينا المطارق .. ثم نصهر من جديد فى الافران .. ثم الماء العذب والراحة .. ثم المطارق .. ثم .. الموت .. كلنا فى هذه الحياة سواء .. لا مفر لواحد منا .. لكل نصيبه من الشقاء ونصيبه من السعادة .. كل شىء بميزان .. اشتراكية الهية توزع السعادة والشقاء بالأقة والدرهم .. لا سعادة « مشفية » ولا شقاء « مشفى » .. انما لحم على عضم !!

ووجدت نفسها تتوجه الى الله ، وتتوسل اليه أن يصون سعادتها .. أن يعفيها من نصيبها من الشقاء .. وسمعت صوتا من داخلها يتمتم : « اللهم اجعله خير » . ثم عادت تنعم بخيالها .. نعيما صافيا لا يعكره خوف ولا شك ..

وحملت الستره بعد أن أتمت اصلاحها وذهبت الى ابراهيم فى الحجرة المجاورة .. طرقت الباب ، ودخلت وهى تسير فى خفر كأنها تزف اليه .. ومدت له يدها بالسترة ، ورفعت عينيها اليه فالتقتا بعينيه تضمانها برفق ورحمة .. ولم يتكلما ..

مد يده وأخذ منها السترة .. ولم يستطع حتى أن يلفظ كلمة شكر .. كأنه وضع لسانه وقلبه وذهنه فى عينيه اللتين تضمانها برفق ورحمة ..

واستدارت فى بطء كأنها لا تستطيع أن تخلص نفسها من عينيه .. وخطت خطوتين نحو الباب .. ثم توقفت .. وعلته

شفتيها ابتسامة صغيرة كأنها تطلق رنين الاجراس من صدرها.. وفكرت قليلا .. ثم استدارت مرة ثانية وواجهته ، وقالت فى صوت خافت وفى حياء : معاك قلم !؟ ..

قالتها واتجهت الى مكتب أخيها وأخذت تبحث فوقه عن ورقة بيضاء .. ونظر اليها ابراهيم دهشا ، وهو يبتسم ، ثم بدأ يبحث معها فوق المكتب عن قلم ، دون أن يسألها عما تنتويه ..

ونزعت نوال ورقة بيضاء من احدى كراسات أخيها ، ثم وضعتها أمام ابراهيم والقلم فى يده ، وقالت وقد اتسعت ابتسامتها كأنها ترشوه بها : اكتب هنا « لا اله الا الله » !!

وازدادت دهشة ابراهيم وقال وقد ارتفع حاجباه : ليه ؟!

قالت وهى لا تزال تبتسم : اكتب بس .. علشان خاطرى !

وانحنى ابراهيم وكتب « لا اله الا الله »

وأخذت نوال الورقة ، ثم أخذت القلم من يده ، وانحنت تكمل السطر وكتبت « محمد رسول الله » ..

ودون أن تتكلم ، ألقت القلم فوق المكتب ، ثم أمسكت الورقة وقطعتها الى ورقتين .. ورقة تحمل « لا اله الا الله » التى كتبها بخط يده ، وورقة تحمل « محمد رسول الله » التى كتبتها بخط يدها .. ثم أعطته الورقة التى تحمل خط يدها وشهادة ان « محمد رسول الله » وقالت وهى تبتسم :

ــ خللى دى معاك دايما .. اوعى تضيعها !!

واحتفظت لنفسها بالورقة الاخرى التى تحمل شهادة « لا اله الا الله » ، واستطردت قائلة فى خفر وهى تطوى الورقة بأصابعها فى حرص ، دون أن تنظر اليه :

ــ أصل بابا كل ما يسافر ، بيكتب هوه وماما ورقة زى دى .. علشان يرجعوا لبعض تانى !!

ولم ينتبه ابراهيم الى سذاجة الفكرة .. بل لم يشعر بالفكرة نفسها .. انما شعر بحب كبير . والتمعت عيناه كأنهما تشعان حبا .. ودون أن يتعمد امتدت ذراعاه ، وأمسك بكتفى نوال ، وقال كأنه يشهد : نوال ..

ولم تجبه ... ولم ترفع جفنيها عن عينيها .. ولم تحس بكفيه وقد ألقاهما فوق كتفيها .. انما أحست بدمائها تتسابق الى وجنتيها ، وكأن الدماء فى سباقها فاضت عن عروقها .. وأحست بحبها أكبر من قلبها حتى لم يعد يستطيع أن يسعه ..

وأحست بروحها أكبر من جسـدها حتى يرتج جسدها من ضخامة الروح ..
وصحب نشوتها احساس بأنها يجب أن تقاوم .. حتى لا يفيض حبها عن قلبها ، ولا تفيض روحها عن جسدها ، ولا تفيض دماؤها عن عروقها ..
لماذا تقاوم ؟! .. لماذا تقاوم نفسها ؟! ..
لا تدرى .. ولكنها يجب أن تقاوم ..
وسحبت نفسها فى رفق من بين كفيه وسارت بخطوات سريعة مرتبكة نحو الباب ، كأنها تهم أن تطير فلا تستطيع .. ثم التفتت اليه قبل أن تخرج ، وقالت وهى تتزود منه بنظرة أخيرة ، وفى صوتها رنين الأجراس الصغيرة : مش عايز حاجه !
ونظر اليها فى ابتهال ، وعيناه تسألانها فى رجاء : « لماذا تتركينى ؟ » ثم ارتد السؤال اليه ، وحملت عيناه شحنة كبيرة من اليأس ووجد نفسه يتساءل : « لماذا أتركها .. لماذا أغادر هذا البيت .. لماذا لا أبقى فيه .. بجانبها .. متى أستريح ، وأهدأ .. وأستقر .. لماذا لا أكون واحدا من هذه الملايين الهادئة ، المستريحة ، المستقرة . واحدا من سكان هذا البيت .. انها لا تدرى .. لا تدرى انها ستفقدنى ، وسأفقدها » ..
ونظر اليها كأنه يشفق عليها من مصيره ، وقال فى صوت خافت : متشكر ..
ثم كأن ماردا استيقظ فى صدره .. المارد الذى جعل منه بطلا .. فاستطرد وقد تغيرت نبرات صوته ، وأصبحت أكثر قوة : بالحق .. بلاش تقولى لحد انى حاسيب البيت النهارده الا بعد عمى ما ييجى وينام ويصحى من النوم ..
قالت مبتسمة : حاضر ..
ثم استطردت وهى تشير بعينيها الى الورقة الصغيرة التى لا يزال يحملها بين أصابعه : اوعى تضيع الورقة اللى معاك ؟! ..
قال وقد عاد صوته حنونا : مش ممكن !؟ ..
وخرجت نوال .. وهرعت الى غرفتها وهى لا تزال تحاول أن تطير فلا تستطيع .. ثم فتحت دولابها وأخرجت علبة صغيرة من الذهب بداخلها مصحف صغير .. وحملتها وجلست على سريرها ، وفردت الورقة التى كتبها ابراهيم .. وأخذت تقرأ « لا اله الا الله » كأنها تقرأ خطاب غرام للمرة العاشرة وتقبل كل

حرف فيه بعينيها .. ثم عادت وطوت الورقة ، وفتحت العلبة الذهبية الصغيرة ووضعتها فيها .. تحت المصحف الصغير .. ثم أغلقت العلبة وعلقتها حول رقبتها ، وتركتها تتدلى فوق قلبها .

***

وعقرب الساعة يدور ..

والحياة فى البيت تسير كما تعودت أن تسير .. الأم فى المطبخ وسامية تتحرك متكاسلة كعادتها .. تقف فترة بجانب أمها فى المطبخ ، ثم تتذكر انها لم تعقص شعرها ، فتدخل الى غرفتها وتقف أمام المرآة ، وقبل أن تتم عقص شعرها ، تعود ثانية الى المطبخ والمشط فى يدها .. ثم تضع المشط بين أسنانها ، وترفع غطاء وعاء فوق وابور الجاز .. وتقلب ما فيه .. ثم تعود الى مرآتها ، وتتم عقص شعرها ، ثم تتذكر انها يجب أن تبدل ثيابها فتفتح دولابها .. وبدل أن تخرج الثوب الذى ترتديه ، تجلس على الارض بجانب الدولاب وتأخذ فى ترتيب محتوياته ..

وابراهيم سجين فى غرفته ، والورقة الصغيرة بين يده ، يقرأها ويحقق فى خط نوال .. الالف طويلة .. والحاء مضحكة .. ويبتسم .. ثم تنتابه نوبة من اليأس ، تعقبها نوبة من التصميم على تحدى الحكومة ، والبوليس والانجليز ، حتى ينقذ حياته .. من أجلها .. ثم يتنهد كأنه يتنفس من تحت جبل ..

ونوال نشوى بسعادتها .. لا تكف عن الحركة .. تطوف بحجرات البيت ، وكل ما تلمسه تحيله نظيفا أنيقا مرتبا .. وتدخل المطبخ فتنشط « وابورات الجاز » وتزداد حرارة الحلل .. والعلبة المذهبة التى تحمل ايمانها وأحلامها تتأرجح فوق صدرها ، وتلتصق حينا بثوبها ، وتهتز حينا فتتخبط بين نهديها كأنها تبحث عن مكان تنفذ منه الى القلب ..

وجاء محيى فى موعده .. لا جديد .. ولكنه يبدو أكثر قلقا .. كأن دقات الساعة تنقر فوق أعصابه .. وهو يحاول أن يخفي قلقه . أن يخفى تعجله للساعة التى يخرج فيها ابراهيم من البيت .. وكلما أمعن فى محاولته ازداد اضطرابا وتعثر فى تصرفاته وكلماته ..

وأوصاه ابراهيم الا يبلغ والده خبر مغادرته البيت الا بعد أن يعود الوالد وينام ، ويصحو من نومه .. ولم يكن ابراهيم يرمى من وراء ذلك الا أن يحصر الخبر فى أقل عدد من أفراد

البيت .. حتى لا يتسرب الى عبد الحميد .. أو حتى لايضطرب سير الحياة فى البيت اضطرابا قد يثير انتباه عبد الحميد ــ اذا جاء ــ فيداخله الشك ويعود الى مراقبة البيت ..

وقال محيى كأنه يواجه مشكلة عسيرة : واذا بابا سألنى ازاى عرفت تتصل بأصحابك .. أقول له ايه ؟!

وأجاب ابراهيم بعد تفكير : قول له انك قابلت واحد منهم فى الجامعه .. وانك اتفقت معاه على انه يستنانى بعربية ..

وقال محيى فى اقتضاب : معقول ..

واستطرد ابراهيم : وأكد لعمى ان ماحدش من أصحابى عرف انى مستخبى عندكم ! ..

وهز محيى رأسه موافقــا .. ثم كأنه تذكر شيئا ، فعــاد يقول : ولما يشوفك خارج وانت لابس بدلة ظابط ؟! ..

وقال ابراهيم : قول له انك انت اللىجبت البدله من صاحبى !

وسكت محيى ، كأنه لا يملك الا السكوت ..

وجاء الوالد .. فى موعده أيضا .. يسير على مهــل وهو يزحف بقدميه ، وكأنه يخفى ابراهيم فى ثيابه ويخشى أن تسقط عنه ثيابه فيبدو ابراهيم من تحتها .. وهو أكثر من قلق .. انه بائس .. حزين .. ممتعض من الحياة كلها .. وهو متعب من طول التفكير فى المشكلة التى يعيش فيها ، ففضل أن يتخلص من التعب باليأس والاستسلام .. وأصبح كل ما يبذله من مجهود ، هو مجهود لوقف تفكيره وتجاهل كل ما يدور حوله ..

وحيا أولاده واعطى جريدة الاهرام الى محيى ليحملها الى ابراهيم .. ودخل غرفته وأغلق بابها وراءه ..

وجاء عبد الحميد كما توقع ابراهيم .. جاء يفوح ذكاؤه من حوله .. ولم يبق طويلا ..

دخل وجلس مع ابراهيم ومحيى ، وأكد لابراهيم انه اتصل بصديقه ضابط البوليس الذى يعمل فى المحافظة وأنه سيعرف منه أسماء المعتقلين غدا ..

وقال ابراهيم فى رزانة : انشاء الله .. شد حيلك .. ده انت بتعمل لى خدمة كبيرة قوى ! ..

ولم يكن عبد الحميد قد اتصل بضابط البوليس .. ولا حاول الاتصال به بعد .. ولكنه أراد أن يربط نفســه بابراهيم وأن يشعره باخلاصه .. ثم قام وبحث عن سامية ، ونظر اليهــا

بعينين ضاحكتين وقال : ازيك يا بنت عمى !؟ ..
وقالت وهى تشيح عنه بدلال : الله يسلمك ..
قال وهو يبتسم : وحشتك !؟
قالت وهى تنظر اليه بطرف عينيها : ياسم ! ..
واتسعت ابتسامته كأنه تلقى منها اعترافا بحبها .. وخرج من البيت وهو يسير على أطراف أصابعه حتى لايوقظ عمه من نومه ، وحتى لا ينبهه الى وجوده فى البيت ..
واستيقظ الاب فى الساعة الخامسة .. وكانت يقظته بمثابة يقظة البيت كله .. عادت الحركة ، وبدأ الاستعداد لطعام الافطار
ودخل الاب الى الحمام .. وخرج ليؤدى فريضة صلاة العصر .. ثم جلس على الأريكة فى حجرة « القعـــاد » وهو ساهم .. لا يفكر ، ولـكنه يحاول أن يهرب من أفكاره ..
وجاء محيى يحمل جريدة الاهرام .. وتناولها منه الاب .. وأسقط عينيه توا فوق صفحاتها .. وظل محيى واقفـــا قبالته مترددا حائرا ، حتى اضطر والده أن يرفع رأسه اليه ، قائلا فى تساؤل عصبى : ايه .. فيه ايه ؟ .. مالك واقف كده ؟ ..
وقال محيى بسرعة كأنه يحاول أن يتخلص من حمل ثقيل :
ــ ابراهيم حايسيب البيت النهارده ..!
واتسعت عينا الاب حتى صغرت بينهما نظارته ، وقال فى شهقة كأنه ابتلع حفنة من ماء : بتقول ايه ؟! ..
وعاد محيى قائلا : ابراهيم حايسيب البيت و ...
وقاطعه الاب : امتى .. الساعة كام ؟! ..
وقال محيى : ساعة ما المدفع يضرب ! ..
وأحس الاب انه ينفس عن عذاب كبير .. وأحس بابتسامة كبيرة تملأ صدره .. ولكنه قدر أن المناسبة تقتضى منه أن يخفى ابتسامته ، وأن يكبت الراحة التى يحس بها .. فسيطر على تعابير وجهه حتى يظل محتفظا بامارات الجد ، وقال وهو يدعى اللهفة : انما هو عمل حسابه كويس.. مطمئن انه حايسيب البيت من غير ما يجرى له حاجه ؟ ! ..
ولم يكن الاب يتظاهر بهذه اللهفة أمام ابنه ، انما كان يتظاهر بها أمام نفسه .. كان يريد أن يرضى بها عواطفه ، وشهامته ، واحساسه الطبيعى بخلقه الكريم .. ولذلك لم يهتم كثيرا برد محيى عليه قائلا : أيوه .. هو عامل خطة وماشى عليها ! ..

وقال الاب وهو لايزال يدعى اللهفة :
ــ وحايروح فين بعد ما يخرج من هنا ؟ ..
وقال محيى وهو لايزال واقفا أمام أبيه كأنه موظف يقدم تقريره الى رئيسه : ما اعرفش والله .. كل اللى أعرفه ان فيه جماعه أصحابه منتظرينه ..
ورفع الاب عينيه الى ابنه وقال كأنه يوجه اليه اتهاما :
ــ واتصل بأصحابه دول ازاى ؟ !
وقال محيى وهو يخفى عينيه عن أبيه :
ــ قابلت واحد منهم فى الجامعة .. واتفقت معاه ..
ونظر الاب اليه نظرة اختلط فيها الغضب بالذعر .. وقبل أن يتكلم استطرد محيى قائلا كأنه يدافع عن نفسه :
ــ انما ما حدش منهم عرف انه قاعد عندنا ..
وظل الاب ينظر الى ابنه بعينيه الغاضبتين المذعورتين برهة.. ثم حول عينيه عنه ، كأنه قدر ان الوقت ليس مناسبا لتأنيبه ، أو كأن فرحته الخفية بمغادرة ابراهيم البيت قد كفرت عن تمادى محيى فى مساعدته .. وزم شفتيه وقال :
ــ هيه .. بأه كده !
وسكت ..
وشجع سكوته محيى ، فقال مستطردا :
ــ وجبت له منهم بدلة ضابط .. علشان يلبسها وهو خارج!
وعاد الأب ينظر الى ابنه فى دهشة كأنه لا يصدق أنه يستطيع أن ينغمس فى المؤامرة الى هذا الحد .. وبذل مجهودا كبيرا حتى لا يصرخ فى وجهه مؤنبا ثم قال بعد برهة صمت :
ــ ربنا يكتب له السلامة ..
واحس أنه لا ينافق وهو يدعو لابراهيم بالسلامة .. أحس انه مخلص فعلا بالدعاء له ، وان سلامة ابراهيم متعلقة بسلامته شخصيا وبسلامة بيته .. ثم بدأ شعوره بالراحة يطغى عليه.. شعر انه أدى واجبا وانتهى منه سالما .. ثم شعر ببصيص من الزهو والفخر يملأن نفسه .. ألم ينقذ بطلا وطنيا .. ألم يحم فى بيته رجلا التجأ اليه .. ألم يكن شهما .. أليست هذه هى الرجولة .. لقد قام بعمل سيسجل له طول عمره .. ان لم يسجل فى التاريخ فسيسجل على صفحات نفسه .. وسيكون فيه درس لابنه .. درس يعلمه ان الوطنية ليست هتافات ، ولا

مظاهرات ، ولا منشورات ، ولا اغتيالات .. ولـــكنها خلق ، ورجولة وشهامة ..

وكان محيى قد خطا خطوتين وجلس فوق مقعده المفضل .. المقعد « الاسيوطى » .. ولكنه ما كاد يجلس ، حتى قام والده من جلسته ، وقال له وهو يتحسس موضع الشبشب بأصابع قدمه : تعال معايا !!

وسار الوالد الى غرفته وخلفه محيى .. ثم بحث عن حزمة من المفاتيح موضـوعة فوق « الكومدينو » بجـانب السرير .. واتجه الى « الشيفونيرة » وفتح درجا من أدراجها وأخرج محفظة صغيرة قديمة ، فتحها فظهرت فيها مجموعة صغيرة من أوراق النقد ، التقط من بينها ورقة من ذات الخمسة جنيهات اعطاها لمحيى قائلا : ادى دول لابراهيم .. يمكن يحتاج لهم ؟!

ونظر محيى اليه فى دهشـــة ، كأنه لا يصـــدق أن والده يمكن أن يتمادى فى كرمه وعطفه الى هذا الحد ، ثم ابتسم ابتســامة صغيرة كأنه تذكر طيبة قلب أبيه ، وقال :

ــ ربنا يخليك للناس كلها يا بابا ..

وأدار الأب وجهه عنه متشاغلا باعادة وضع المحفظة فى الدرج حتى لايرى ابنه ضعفه أمام عواطفه .. وقال :

ــ والدتك عرفت بالموضوع ؟ ..

وقال محيى : لسه .. حضرتك أول واحد يعرف !

وقال الأب : مش حاتقول لها ؟! ..

وقال محيى : حاضر ..

ودخلت الام ، آتية من المطبخ وقطرات من العرق تتناثر فوق وجهها كحبات من النور المتبلور ، وقالت وهى تتحدث فى عجلة :

ــ ايه اللى مقعدكم هنا فى أودة النوم ؟ ..

ثم استطردت دون أن تنتظر جوابا :

ــ النهاردة ما تعملوش حسابكم على حاجة .. احنا مهيفين .. ما فيش الا عدس وكشرى .. أصلى خلاص عدمت من المطبخ وشغل البيت .. من بكره تشوفوا لكم حل.. سامع يا زاهر..

وقال الأب وهو يبتسم : قول لها يا محيى ! ..

وتردد محيى وقد علت شفتيه ابتسامة هو الآخر ، وعادت الام تقول :

ــ يقول لى ايه .. يا اختى ما تتكلموا ؟ .. انتم مخبيين ايه ؟

وقال الاب وهو ينظر اليها فى حنان :
ـ ابراهيم حايسيب البيت دلوقت ! ..
وردت الأم فى عجلة : بركه .. !!
ثم تنبهت الى أنها تسرعت فى الافصاح عن عواطفها ، فاستدركت قائلة : وماله مستعجل ليه ؟.. اوعى يكون زعل من حاجه .. ده خلاص بقى واحد منا !
وقال محيى :
ـ مازعلش ولا حاجه .. هوه كان عامل حسابه على كده ..
وجلست الام على الكنبة الموضوعة فى مواجهة فراشها ، كأنها تريح عواطفها .. وصمتت قليلا واكتشفت خلال صمتها موجة حزينة تتجاوب فى أعماقها .. شعرت بنوع من الأسف والحسرة ، كأن كل شىء قد صمت من حولها فجأة بعد ضجيج كبير كان يملأ حياتها ، ويثير فيها الاهتمام والنشاط .. كأن المدعوين فى فرح ، أو المعزين فى مأتم ، قد انصرفوا ولم يتركوا لها الا ذكريات نشاطها فى اقامة الفرح أو تنظيم المأتم ، وتمتمت فى صوت حزين : والنبى صعبان عليه ..
وهم محيى أن يغادر الغرفة فاستوقفته والدته قائلة :
ـ الا قول لى يا محيى .. هو ابراهيم مش شايل مصحف ؟
وقال محيى : ما أظنش ..
وقامت الام من جلستها وفتحت درج « الكومدينو » وأخرجت مصحفا صغيرا ناولته لمحيى قائلة :
ـ خد يابنى ، اديله المصحف ده .. ربنا يحميه .. وينجيه ، ويرجعه لأمه بالسلامة .. يارب ..
وقال محيى وهو يتناول المصحف :
ـ قلبك فيه الخير يا ماما ..
ثم خرج من الغرفة ، وسار فى خطوات سريعة الى غرفته ، متلهفا لاعطاء ابراهيم الهدايا التى يحملها اليه ..
وكان ابراهيم قد انتهى من ارتداء بدلة الضابط ، وبدا فيها فتى أنيقا .. وكان واقفا أمام المرآة ينظر الى نفسه وبين شفتيه ابتسامة صغيرة .. لم تكن ابتسامة أعجاب بنفسه ، بل كانت ابتسامة أقرب الى السخرية من نفسه .. كأنه يأسف بها على حظه فى الحياة ..
واستدار الى محيى عندما دخل الغرفة .. وقال محيى مبتسما

وهو يناوله الخمسة جنيهات : بابا باعت لك دول يمكن تحتاج لهم!
وتردد ابراهيم فى أن يمد يده ..
وقال محيى وهو يقترب منه أكثر :
ـ مؤكد انك محتاج لهم .. ده مش وقت كسوف يا ابراهيم !
وكان ابراهيم مقتنعا فعلا بأنه محتاج الى هذه النقود .. بل أن احدى المشاكل الهامة التى كانت تصادف تفكيره وهو يضع خطة هربه هى مشكلة النقود .. كان وهو فى السجن تصله النقود عن طريق والديه ، أما وهو هارب فكيف يعثر على والديه والنقود ؟
ومد يداً مترددة وأخذ الورقة ذات الخمسة جنيهات ووضعها فى جيبه دون أن ينظر اليها ، وهو يقول فى صوت متأثر :
ـ أنا مش عارف أشكركم ازاى ؟..
وقاطعه محيى وهو يمد اليه يده بالمصحف : وده من ماما !!..
وتناول ابراهيم المصحف ، ورفعه الى شفتيه ، ثم وضعه فى جيب سترته العلوي ، وهو يقول فى حنان : ربنا يخليها ..
وسكت قليلا كأنه لايستطيع أن يتكلم ليشكر .. ثم رفع رأسه وقال وهو يتنهد : فاضل اد ايه على المدفع ؟ ..
ونظر محيى الى الساعة فى يده وقال : خمس دقايق ..
واتجه ابراهيم الى المكتب ، وفتح الدرج وأخرج مسدسه الصغير ، ونظر اليه فى أسى .. كأنه يأسف لاضطراره لحمله .. بل كأنه يأسف لأنه عرف المسدسات يوما .. انه لا ينظر اليه اليوم كما كان ينظر اليه قبل أن يسجن .. ليس فى نظرته حب .. ولا لهفة .. ولا احساس بالقوة .. انه ينظر اليه كأنه زوجة لم يعد يربطه بها الا عقد الزواج .. وجذب خزان الرصاص من المسدس ، ونظر اليه كأنه طبيب أسنان ينظر فى أسنان مريضه .. ثم حرك الزناد مرة ومرتين .. ثم أعاد وضع خزان الرصاص ، وأخفى المسدس فى جيب سترته الخارجى .. ومحيي واقف خلفه ينظر اليه فى حذر وخوف كأنه ينظر الى أحد الحواة يلعب بالثعابين ..
والتفت اليه ابراهيم قائلا :
ـ أقدر أسلم على عمى قبل المدفع ما يضرب ؟ ..
وقال محيى ، وهو واقف ينظر اليه كأنه ينتظر أن يتحرك القطار به ليلوح بيده مودعا : اتفضل ..
وتحسس ابراهيم الجيب الصغير الذى يضع فيه الورقة التى تحمل خط نوال .. يريد أن يتأكد من وجودها .. ثم خرج من

الغرفة مع محيى ، وفى طريقهما الي حجرة « القعاد » التقت بهما سامية ، فشهقت شهقة حادة وقد رأت بدلة الضابط قبل أن ترى فيها ابراهيم ، ووضعت يدها على صدرها وهمست همسة حادة : بسم الله الرحمن الرحيم ..

ووقف ابراهيم قبالتها برهة ومد لها يده مبتسما ، وقال وهو يصافحها وينظر اليها فى حنان وشكر : نشوف وشك بخير ! ..

وصافحته سامية مذهولة .. ولحقت به أختها نوال وهمست فى أذنها : أصله حايخرج دلوقت ..

واستردت سامية أنفاسها وهى تقول : ده انا اتخضيت .. انما تعرفى ان البدله لايقه عليه .. منتهى الوجاهة !..

وابتسمت نوال كأن الثناء موجه اليها .. الى رجل تملكه .. ونظرت الى ابراهيم وهو فى بدلة الضابط وهى مبهورة يكاد قلبها يقفز من بين شفتيها ليستقر فوق كتفه بجانب النجوم ..

وسارت الأختان خلف الشابين الى غرفة « القعاد » ..

وانحنى ابراهيم يحاول أن يقبل يد الوالد ، فجذبها الوالد منه قائلا : أستغفر الله .. اتفضل يابنى ! ..

وانحنى ابراهيم مرة ثانية يحاول أن يقبل يد الوالدة ، فجذبتها منه قائلة : العفو يابنى .. ربنا يحميك ويحرسك !! ..

وجلس ابراهيم خجلا مرتبكا ، وبدا كأنه يهم بالقاء خطبة .. وابتلع ريقه مرة ومرتين ، وقال :

— الواقع يا عمى أنا مهما قلت مش حا قدر أشكرك .. كفاية انى أقول لحضرتك انى جيت هنا وأنا خايف تطردونى .. انما لقيت فى البيت ده وطنية وشهامة ما لقيتهاش فى أى حتة تانية

وقاطعه الاب قائلا دون أن ينظر اليه :

— ما فيش لزوم يا ابنى للكلام ده .. أنا عملت الواجب ، واقل من الواجب .. المهم سلامتك .. لازم تحترس .. انت ظروفك صعبة .. صعبة قوى ! !

وقال ابراهيم فى ارتباك : ربنا يستر ..

وقالت الام :

— ربنا معاك يابنى.. ربنا مع كل مظلوم.. وعلى كل ظالم ..

وصمت ابراهيم .. واشتد ارتباكه .. كانت عواطفه أكبر من أن يعبر عنها .. واكبر من أن تدعه يصمت .. ورفع عينيه يتنقل بهما بين وجوه أفراد العائلة كأنه يبحث فيها عن كلمة

يقولها .. وتوقفت عيناه برهة على وجه نوال كأنه يستغيث بها..
فلم يجد فىعينيها سوى الحب.. حب يزيد فى عذابه.. ويستنفد
كل طاقته فى الضغط على أعصابه حتى لاينهار أمامها .. وحول
نظره عنها .. ونظر الى سامية لعلها تقول كلمة يستطيع أن يرد
عليها .. ولكنها كانت صامتة .. وفى عينيها حزن عميق كأنها
تنظر بهما الى جثة شهيد .. ومحيى .. انه ينظر الى الارض ..
والوالد .. انه يجهد نفسه هو الآخر فى البحث عن كلمة .. وقد
وجد كلمة هو نفسه مقتنع بعدم جدواها وقال :

ـ مش لازمك حاجه يا ابنى .. أقدر أعمل لك حاجه ؟..

وقال ابراهيم فى صوت مخلص :

ـ متشكر يا عمى .. حضرتك عملت لى أكتر مما أستحق ..

وقال الوالد : العفو ..

ودوى صوت مدفع الافطار .. وقامت الأم قائلة :

ـ أما أقوم أغرف الشوربه .. ياللا ياجماعه !

وقام أفراد العائلة .. ووقف محيى فوق مسند المقعد وجذب
سجادة الصلاة من فوق الدولاب ، وفردها على الارض ..
ووقف الوالد متوجها الى الله ..

وانتظر محيى وسامية ونوال أن يتقدمهم ابراهيم الى غرفة
الطعام ، ولكنه ظل واقفا ، وقال : اتفضلوا انتم .. أنا حاسلم
عليكم دلوقت ، حانزل وانتم بتفطروا ..

ولم يتحرك واحد منهم ، ونظر كل منهم الى الآخر يدعوه الى
الكلام .. واستطرد ابراهيم قائلا :

ـ أرجوكم .. اتفضلوا انتم .. كل حاجة لازم تمشى طبيعى

وقالت ساميه وهى تنظر اليه فى شفقة : وانت مش حاتاكل ؟

وقال وهو يشكرها بعينيه : لا ..

قالت فى لهفه : ده انت ماكلتش من الصبح ..

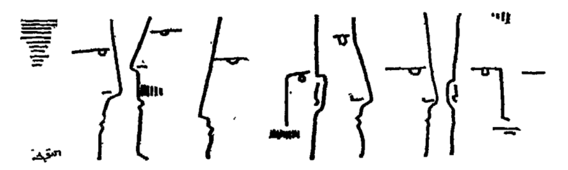
وقال : معلهش .. ما انا فاطر ! !

وقالت نوال : طيب .. أعمل لك ساندويتش تاخده معاك ..

قال وهو يبتسم فىحنان : مرسيه.. أصلممنوع علىالضباط
ياكلوا ساندويتشات فى الشارع ..

وعادت الأم من المطبخ وأطلت عليهم وهى تحمل سلطانية
الشوربه ، وقالت وقد سمعت مايقوله ابراهيم : لا والنبى مش
ممكن تنزل من بيتى وانت جعان .. ده حتى حرام !

وقال فى أدب : معلهش ياطنط .. أنا شبعان ..
ثم اتجه اليهـا والتقـط يدها فى يده .. واحتفظ بها حتى لا تجذبها منه ، وانحنى يقبلها كأنه يضع عمره فوق الكف الكريم وقالت : ربنا يحميك يا ابنى ، ويكتب لك فى كل خطوه السلامة
ثم صافح محيى فى حرارة .. ونظر كل منهما الى الآخر .. كان فى عيونهما كل ما يريدان قوله .. ثم صافح سامية وهو يبتسم لها ابتسامة كبيرة ، وقالت له وهى أقرب الى البكاء : ربنا معاك
ثم وضع يده فى يد نوال.. وتمنى أن لايسحبها أبدا.. وأرخى جفنيه فوق عينيه كأنه لا يريد أن يرى أمنيته.. وسمعها تهمس : خد بالك من نفسك .. ثم بصوت اضعف : علشان خاطرى ..
وخرج أفراد العائلة الواحد بعد الآخر الى غرفة الطعام .. فى خطوات حزينة بطيئة كأنهم يشيعون فقيدا .. وجلس ابراهيم على مقعد وهو يتنهد كأنه تحمل فى هذه اللحظة .. لحظة الوداع أقسى ما تحمله فى عمره .. الى أن انتهى الوالد من صلاته .. ولم يكن قد صلى الا بجسده .. كان عقله وقلبه متعلقين بما يدور حوله فى الغرفة .. وبعد أن انتهى من الصلاة مد يده مصافحا وهو يقول : مع السلامة ، واعتبر البيت دايما بيتك وأنا والدك ؟
وانحنى ابراهيم يقبل اليد التى تصافحه ثم قال : أنا حاستنى دقيقه وحاخرج ، متشكر ياعمى ، متشكر جدا !
وهز الوالد راسه فى صمت ، وخرج ليلحق بعائلته حول المائدة
ولم يبدأ أحدهم فى الأكل.. ولم يتكلم أحد .. ظلوا واجمين.. ثم سمعوا وقع قدميه .. ولمحوا خيالا يمر بهم .. ثم صـوت الباب يفتح فى حرص .. ويغلق فى هدوء ..
خرج ابراهيم .. والعائلة لا تزال واجمة ..
وفجأة سـقط راس نوال فوق المائدة وأجهشت بالبكاء .. وانحنت سامية فوقها تربت على ظهرها .. واذا بها تبكى معها ..
وأزاحت نوال مقعدها بساقيها فى عصبية .. وقامت تجرى الى غرفتها ودموعها تجرى أمامها ..
وجرت ساميه وراءها .. والأب ، والأم ، ومحيى صامتون ..
ومدت الام يدها ، وأمسكت « بكبشة » الشوربة وحركتها فى السلطانية .. ثم توقفت ومسحت بمعصمها دموعا بدأت تتساقط فوق خديها .. ثم قالت وهى تعود وتمسك بالكبشة :
— والنبى دى حاجه تقطع القلب ! !



١٢

دخل أفراد العائلة كل الى غرفته .. واستلقى كل منهم على سريره .. وقد ارتخت أعصابهم بعد أن ظلت متوترة طوال الايام الاربعة التى قضاها ابراهيم فى البيت .. كان كل منهم يحس بنوع من الراحة كأنهم عادوا جميعا من رحلة شاقة متعبة ، أو كأنهم اجتازوا بسلام فترة مرض خطير ألم بهم ، وانتقلوا الى دور النقاهة .. ضعف لذيذ واسترخاء واطمئنان ..

كان الاب مستلقيا على ظهره فى فراشه ينظر الى السقف ، وبين شفتيه ابتسامة صغيرة طيبة ، وأنفاسه منتظمة هادئة ، واحساسه بالزهو لا يفارقه .. احساس رب العائلة الذى قاد السفينة بمهارة وسط الأمواج حتى وصل بها الى شاطىء الأمان .. ثم كان يستعرض فى مخيلته الايام الاربعة الماضية ، ويتبين مدى الأخطار التى كان معرضا لها هو وبيته ، فتتسع ابتسامته ويهز رأسه تعجبا من نفسه .. كيف قبل أن يعرض بيته لهذه الاخطار.. انه لايدرى.. ربما لم يتبين هذه الاخطار عندما سمح لابراهيم بالاختباء فى بيته .. لم يفكر ساعتها تفكيرا منطقيا .. ولا حسب حسابا دقيقا لكل الظروف .. انما سمح لابراهيم بالاختباء فى بيته ، نتيجة احساس.. ربما كان احساسا بالعطف ، أو شهامة ، أو وطنية .. وقد أعماه هذا الاحساس عن كل ما يمكن أن يتعرض له من أخطار .. أخطار لم يحس بها فعلا الا بعد أن أصبح ابراهيم مختبئا فى بيته ، وبعد أن سمع بيان الحكومة يذاع فى الراديو برصد مكافأة خمسة آلاف جنيه للقبض على ابراهيم ، وعقاب كل من يساعده على الهرب .. وهو لم

يفعل شيئا لدرء هذه الأخطار .. كل ما فعله انه استسلم .. ولـكن الله أنقذه ، وأنقذ بيته .. الله وحده ..

ووجد نفسه يتوجه الى الله ويتمتم فى صدره .. « الحمد لله .. لك الحمد والشكر يارب » ..

ولكنه عاد وصعب عليه أن يحرم نفسه من مقومات الزهو ، ألم يقبـــل ابراهيم فى بيتــــه وهو يعلم انه هارب من السجن ، والحكومة تطارده .. ألم يقاوم المكافأة .. ألم يقاوم التهديد بالسجن .. ألم يتحمل سماجة عبد الحميد ويتحايل عليه .. لماذا يحرم نفسه من الاحساس بالبطولة ؟ لماذا لايزهو ؟ لقد قضى عمره كله يطل على الحركة الوطنية دون أن يلقى بنفسه فى غمارها .. كان يحفظ خطب سعد زغلول ولا تتعدى حماسته لها دائرة نفسه ، ومناقشـــاته مع زملائه القـــلائل .. ويواظب على تتبع الحوادث الوطنية فى الصحف ، ويحكم عليها أحكاما مختلفة دون أن يعلن حكمه أو يشترك فى تنفيذ الحكم .. وكان يحس وهو يقرأ أشعار حافظ ابراهيم وشوقى ومقالات الكتاب الوطنيين أنها كلها تعبر عن احساسه ، كأنه هو الذى نظم هذه الأشعار ، وهو الذى كتب هــذه الآراء .. ولـــكنه لم يحاول أبدا أن يعبر عن احساسه بنفسه .. كان دائما فى حاجة لمن يعبر له عن احساسه .. فى حاجة لمن يكتب ، ولمن يثور ، ولمن يستشهد ، حتى يفرج عن احساسه .. ان السلبية لا توجد الا حيث توجد الايجابية .. المتفرجون لا يوجدون الا حيث توجد الحركة .. ورغم ذلك فهو لا يقل وطنية عن كل هؤلاء .. لا يقل وطنية عن المتظاهرين ، أو عن هؤلاء الكتاب ، بل لا يقل وطنية عن الشهداء .. وقد جاءته الفرصة التى أثبت فيها لنفسه انه ليس أقل من غيره وطنية .. فلماذا ينكرها .. لماذا لايزهو ، ويملأ صدره بعبير البطولة ؟..

واتسعت ابتسامته .. واســـتدار فى رقدته ناحية زوجته ، وهى راقدة بجانبه وظهرها له.. ونظر الى الجسد المكتنز العالى ، بعينين مبتسمتين ، كأنه يهنئها بزوجها ! !

وكانت الزوجة قد انتهت من تفكيرها فى يومها .. لم تعد تفكر فى ابراهيم .. الا انه ضيف حل وارتحل .. واختفت من ذهنها بسرعة كل المشاكل التى صحبت وجود ابراهيم ، وكل الأخطار التى أحاطت بالبيت بسببه .. ولم تعد تخاف شيئا .. كأنها نسيت أيضا أن تخاف المستقبل .. انما كانت تفكر فى الغــــد تفكيرا عاديا طبيعيا ..

في الغد ستنظف البيت كله .. وستفتح النوافذ على سعتها.. وستبدل مفارش السراير .. وستدعو عم على البواب ليساعدها في تنفيض السجاجيد .. ثم كأنها تذكرت شيئا ، فقالت في همس دون أن تتحرك من رقدتها : زاهر ، زاهر ، انت نمت ؟ !

وقال زوجها في صوت هادئ وهو يبادلها الهمس :

ـ لأ .. لسه !

قالت وهي لا تتحرك أيضا من رقدتها :

ـ أظن بكره نبعت بأه للبت سنية .. احنا داخل علينا عيد ، وما حدش يقدر يسد الا هيه ؟ !

قال وهو يبتسم : ما فيش مانع ..

قالت وظهرها له : بس على الله أمها ماتكونش ودتها بيت تانى .. أصلها وليه طماعه ، ما تصبرش ..

قال وهو لايزال يبتسم : وهي حتلاقى بيت أحسن من بيتنا .. ولا ست أحسن من ستنا ! ..

وابتسمت الام في دلال .. دلال داخلي ، لم يبد منه شيء .. ثم أغمضت عينيها في سعادة ، ولم تمض لحظات حتى ارتفعت أنفاسها ثقيلة ، كأنها تجرها بعنف من تحت أثقال الشحم واللحم

وغمض الأب عينيه ليهم بالنوم .. ثم فجأة فتح عينيه بسرعة وقد تذكر شيئا مزعجا .. أخافه.. محيى.. ابنه.. هل يتمادى في الطريق الذى دفعه اليه ابراهيم ؟ هل يشتغل بالسياسة كباقى الطلبة المشتغلين بالسياسة ؟ هل يشترك في المؤامرات والاغتيالات ؟ هل يخرج في المظاهرات ليعود اليه جريحا وربما شهيدا ؟ هل يسجن ؟ وهل يكون يوما هاربا كابراهيم ، تطارده الحكومة ..؟ لا .. مستحيل .. ولكن محيى ذهب والتقى بأصدقاء ابراهيم في الجامعة ودبر معهم خطة الهرب ، وقد أخفى عليه الخبر .. انها المرة الاولى التي يخفى عنه شيئا .. لقد كان دائما يعرف عن ابنه كل شيء .. كل حركاته وكل سكناته ، وكل ما يدور برأسه .. ولكنه أخفى عليه خبر التقائه بأصدقاء ابراهيم .. ماذا يخفى عنه أيضا .. وماذا يمكن أن يخفى عنه في المستقبل ؟ وماذا وضع ابراهيم في راسه من آراء وخطط ؟ ومن أدراه ، ربما كانت الخطة الموضوعة أن يظل محيى على اتصال بابراهيم ، وفي خدمته.. لا.. .. مستحيل .. مستحيل قطعا .. انه لا يمكن أن يدع ابنه يغامر بمستقبله ، وينقاد الى هؤلاء الطلبة المهرجين .. انه هو الذى

صنع هذا المستقبل لابنه .. صنعه يوما بيوم .. كأنه كان ينسج له ثوب الحياة .. ولن يدع الثوب يتمزق بعد أن كاد ينتهى من صنعه .. سيسير ابنــه فى الطريق الذى رســمه له ، سينال الليسانس هذا العام ، ويكون ترتيبه الأول بين زملائه ، ويعين معيدا فى الجامعة .. لا شىء يمكن أن يحدث .. سيقتلع من رأس ابنه كل ما يمكن أن يكون ابراهيم قد وضعه فيه .. انه لم يؤو ابراهيم فى بيته ليسرق منه ابنه ، ما كان أغباه يوم أن آواه ، ووضعه بجانب محيى .. فى حجرة واحدة وفى فراش واحد ، كأنه كان يقرب زجاجة السم من ابنــه .. فيم كانا يتحدثان طوال الليل ؟ فى السياسة طبعا .. فى المؤامرات .. فى الخطط .. ولا بد ان ابراهيم قد حشا صدر محيى بأوهام البطولة.. البطولة الفارغة .. شقاوة العيال .. ولكن محيى أعقل من ذلك .. انه يعرف ابنه جيدا .. انه رصين لا ينقاد بسهولة .. والوقت لم يفت .. سيحادثه بحزم .. سيحادثه غدا صباحا .. لا ، سيحادثه عقب طعام السحور بحزم، وسيفتح عينيه جيدا على ابنه، لن يضيع منه

وحاول أن يغمض عينيه وينام .. ولكنه أغمضهما ولم ينم .. ظل قلقا فى انتظار جرس المنبه ، يعلن ساعة السحور ..

وفى الحجرة الاخرى ينام محيى .. انه يحس أن سريره قد اتسع جدا بعد أن تركه ابراهيم ولم يعد ينام بجانبه فيه .. كأن السرير لم يكن أبدا بهذا الاتساع ، وهو لا يستطيع أن يغمض عينيه .. انه يعيد ثم يعيد ذكريات الايام الاربعة التى مرت به كأنه يجترها ليشبع احساسه منها .. وقد حاول عبثا أن يوقف تفكيره فى هذه الذكريات .. حاول أن يتناساها باستذكار دروسه ولكنها كانت تطل عليه من بين سطور الكتب ، فطوى الكتب ومنح نفسه اجازة من الاستذكار .. ثم استلقى على فراشه يحاول أن ينام .. ولكنه لايستطيع .. ورغم ذلك فهو لا يشعر بالقلق ، وقد زايله شعور الخوف والحنق الذى صاحبه فى الايام الماضية .. لم يعد يفكر فى الأخطار التى كان يعيش فيها الا على انها ذكريات.. ما أروع البطولة .. انك لا تكاد تنتهى من العمل العظيم حتى تنسى الأخطار التى صحبته .. انها كعملية الوضع .. لا تكاد الام تنتهى من الولادة حتى تنسى آلامهــا .. وتتــأهب لولادة جديدة .. ان الولادة عملية بطولة .. والامهات بطلات.. وابتسم وهو يكتشف هذه الفلسفة .. ثم اتسعت ابتسامته وهو يكتشف

فى نفسه الاحساس بالبطولة .. ترى هل يعرف زملاؤه فى الجامعة يوما انه بطل .. هل يعرفون انه أخفى ابراهيم فى بيته ، بينما الحكومة كلها تطارده وتبحث عنه ؟ ..

ورأى فى خياله صورة زملائه يلتفون حوله .. وهو يروى لهم ذكرياته . ويبالغ قليلا فى روايتها . ورأى زملاءه يصفقون له .. ثم رأى نفسه فى خياله محمولا على الاعناق . والطلبة من تحته . طلبة يعرفهم ، وطلبة لا يعرفهم ، والجميع يهتفون « عاش محيى بطل الجامعة » !!

ثم تنبه الى نفسه .. وانكمش ..

انكمش كل شيء فيه ، كأنه يخاف هذا الخيال .. وهز رأسه فوق الوسادة كأنه يقول لا . لا . لا يجب أن يعرف زملاؤه شيئا . لو عرفوا فستعرف الحكومة .. وسيقبض عليه ، ويزج به فى السجن . لا . انه لا يريد أن يسجن . لن يسجن .. عليه أن يضع كل ارادته فوق لسانه ، حتى لا يقول شيئا لزملائه .. لا يريد منهم أن يصفقوا له ، ولا أن يحملوه على الأعناق ولا أن يهتفوا باسمه ، لأنه لا يريد أن يسجن

وفى الحجرة المجاورة تنام الأختان ..

كانت نوال قد انقشعت دموعها عن أحلامها . أحلام مشرقة مغردة كاليوم الصحو عقب اليوم المطير . وكانت صورة ابراهيم وهو مرتد بدلة ضابط تملأ خيالها كله . وكان خيالها يسبق عمرها الى يوم الاثنين القادم .. ستلقاه يوم الاثنين فى ميدان عبد المنعم .. وارتسمت صورة الميدان أمام عينيها ، ورأت نفسها واقفة فى وسطه تتلفت حواليها فى انتظار ابراهيم .. أى ثوب ترتديه .. البنى .. لا . الأبيض .. والقفاز الابيض فى يديها .. وحقيبتها البيضاء .. لا . حقيبتها السوداء .. وحذاؤها الاسود .. انها واقفة وسط الميدان مرتدية ثوبها الابيض فى انتظار ابراهيم .. ها هو آت من ناحية شارع عبد المنعم ، مرتديا بدلة الضابط وعلى عينيه نظارة سوداء .. وهو يصافحها ثم يسيران جنبا الى جنب فى الشارع الضيق الظليل المتفرع من الميدان .. لا .. انه آت فى سيارة يقودها بنفسه .. والسيارة تقف أمامها ، وهو يبتسم لها ابتسامته الضيقة القوية التى تميل قليلا على جانب شفتيه . وهى تتردد كثيرا فى الركوب بجانبه .. وقلبها يضطرب . هل تركب ؟ وماذا يقول عنها ان قبلت ان

تركب بجانبه .. لعله يعتقد انها بنت سهلة .. لا .. ان ابراهيم ليس من هذا النوع ، ولا يمكن أن يسيء الظن بها .. يجب أن تطيعه .. وتركب بجانبه .. والسيارة تمرق بسرعة .. سرعة جنونية .. وتأخذها الى بعيد .. ثم تقف فجأة فى مكان ليس فيه أحد .. بل ليس فيه أرض .. كأنها وقفت بها فى السماء .. وهو يلتفت اليها ويحدثها .. انه يحدثها عن الزواج .. ثم تطل عليهما صورة أبيها .. هل يوافق على الزواج ؟!!

وتعبس قليلا وهى تتخيل أباها يهز رأسه علامة الرفض .. ولكنها تبتسم فهى واثقة من طيبة قلب أبيها ، سيوافق أخيرا ! !

وتغرق فى خيالها .. والصور تتوالى أمام عينيها .. وتتغير.. وأصابعها ممسكة بالعلبة الذهبية الصغيرة التى تضم المصحف وتضم الورقة التى كتبها ابراهيم بخط يده .. العلبة التى لا تزال معلقة فى صدرها فوق قلبها ، كأنها تحمل فيها ابراهيم نفسه .. وأفاقت من خيالها على صوت أختها ساميه وهى تقول :

— نوال .. نوال .. انتى سرحانه فى ايه ؟

وقالت نوال بلا وعى منها : ياترى ابراهيم فين دلوقت ؟

وقالت سامية كأنها تطيب خاطر أختها :

— ماتخافيش عليه .. ده من الصنف اللى ما يتخافش عليه !

وسكتت الاختان .. وقبل أن تندمج نوال فى خيالها سمعت صوت ساميه قائلة : تعرفى أنا بافكر فى ايه .. بافكر فى عبد الحميد لما حايعرف ان ابراهيم ساب البيت ، ده حيتجنن وحاشمت فيه شماتة !

وقالت نوال وهى تعلم ان اختها لن تشمت فى عبد الحميد :

— ولا حيتجنن ولا حاجة .. دول بقوا أصحاب ..

وقالت سامية كأنها لم تسمع كلام أختها :

— تفتكرى بابا حيطرده لو جه بكره ؟

وقالت نوال : ماظنش .. يطرده ليه ؟ ! ..

وسكتت سامية ، وعادت تفكر فى عبد الحميد .. وهى تفكر فيه منذ خرج ابراهيم من البيت .. خيل اليها ان الذى خرج هو عبد الحميد لا ابراهيم .. خرج من حياتها .. لن يعود يلاحقها ويلح فى زواجها .. سيطرده أبوها من البيت .. وستعود حياتها راكدة ، تستعرض أسماء وأشكال رجال غرباء يتقدمون للزواج بها .. وليس بينهم من تتدلل عليه ، ويشبع غرورها

ويربط صباها بشبابها .. وهى ليست سعيدة .. لماذا .. أليس هذا ما تريده .. ألم تكن تريد أن يخرج عبد الحميد من حياتها !! ولكنها رغم ذلك ليست سعيدة ، انها لا تريده أن يخرج ، وقد بكت بحرقة عندما خرج ابراهيم .. بكت مع أختها ، ولكنها كانت تعلم انها لاتبكى ابراهيم بل تبكىعبد الحميد

وعادت تقول لأختها فى صوت ضعيف كأنها تتكلم خلال سحب تحيط برأسها : انما تفتكرى عبد الحميد يقدر يعمل حاجه ؟ !

وكانت تتمنى أن تجيبها أختها بأن عبد الحميد يستطيع أن يفعل شيئا ليتم زواجه بها ، ولكن نوال قالت :

ــ ولا يقدر يعمل جنس حاجة .. حايعمل ايه يعنى ؟!

وقالت سامية كأنها تتعلق بالأمل :

ــ يعنى حاينسحب كده من سكات بعد ما يعرف اننا كنا بنضحك عليه لغاية ما ابراهيم يخرج ؟!

وأدارت نوال رأسها ناحية أختها ، وقالت مبتسمة فى حنان : تعرفى أنا متهيأ لى ايه ياسامية ، متهيأ لى انك لسه بتحبى عبد الحميد زى زمان ؟!

وقالت سامية فى حدة كأنها تدافع عن سرها :

ــ طب نامى أحسن لك .. باين انك حاتبتدى تخرفى ؟!

وأدارت ظهرها فى عصبية ناحية أختها ، ودفنت رأسها فى وسادتها كأنها تخفى حبها فى طياتها .. تخفى نفسها ..

ودق جرس المنبه معلنا ساعة السحور ..

وكانت الأم أول من تنبهت ، ولكنها لم تفتح عينيها .. وقالت دون أن تتحرك من رقدتها ، وهى لا تزال مغمضة العينين :

ــ زاهر .. زاهر .. يا زاهر .. السحور !!

وسكتت كأنها عادت الى النوم .. ثم رددت بعد قليل وهى لم تتحرك بعد : زاهر ، قوم يازاهر ، ياللا ياخويا ، السحور ! !

وقال الأب وهو يفيق من نومه القلق :

ــ ما تسيبينى على بال ما تسخنى الاكل ! ..

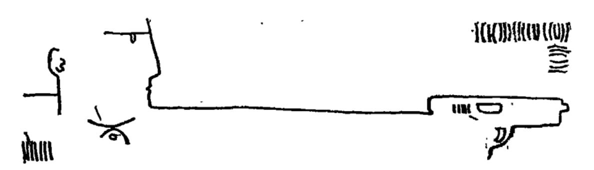
وتحركت الأم فى كسل ، واعتدلت جالسة فوق الفراش ، وهى لا تزال مغمضة العينين ، ثم فتحت عينيها ببطء ، ونزلت من فوق الفراش ، فى تثاقل .. وهى تقول كأنها تتألم :

ــ هيه .. مش عارفة مالى .. جسمى كله سكاكين !

ثم سارت ، وهى ترفع قدميها بصعوبة ، واتجهت الى غرفة

ابنتيها ، ونقرت فوق الباب ، وسمعت صوت نوال قائلة :
ــ صاحيين يا ماما ..
فلم تلح عليهما ، وتركت بابهما ، ثم اتجهت الى غرفة الطعام ، وجلست في تكاسل وهي لا تزال تتألم ، وأشعلت وابور السبيرتو ووضعت فوقه طبق الفول ..
وبعد قليل اجتمعت العائلة حولها ، بعد أن تولى أفرادها ايقاظ بعضهم البعض .. وبدأوا يتناولون طعام السحور في تكاسل
وشرب محيى كوبا من عصير قمر الدين وهم بالقيام عائدا الى غرفته .. ونظر اليه الوالد في تردد كأنه يشفق عليه من أن يحرمه من نومه ، ثم قال كأن لسانه سبقه الى الكلام :
ــ استنى يامحيى شويه .. عايزك !
ونظر محيى الى أبيه وهو يرسم بعينيه علامة استفهام ، ثم جلس في مكانه ، وتبادلت البنتان نظرة وتحركتا لتنسحبا الى غرفتهما .. فقالت لهما أمهما كأنها تحثهما على سرعة الانسحاب :
ــ كل واحدة منكم تشيل طبقين وتحطهم في الحوض ، وتسيب عليهم شوية ميه .. وتسيبهم لغاية النهار ما يطلع ..
وخرجت الاختان .. ولحقت بهما الأم وهى تتنهد الما ..
ونظر محيى الى أبيه كأنه يستعجله الكلام ، وقال الأب في صوت هادىء بعد أن رشف آخر ما في كوب عصير قمر الدين :
ــ ماقلتليش .. انت قابلت أصحاب ابراهيم ازاى ؟
وأحنى محيى رأسه ينظر الى سطح المائدة وهو يضغط بأصبعه على قنطرة نظارته في حركة عصبية كأنه يخشى أن تقع منه .. لقد كان ينتظر أن يفاتحه والده في هذا الموضوع ، ولكنه لم يكن ينتظر أن يفاتحه الآن .. في هذه الساعة .. وقال في صوت خافت : قابلت واحد منهم في الجامعه ، وقلت له ان ابراهيم عايز عربيه تستناه وبدلة ضابط يلبسها ..
وقاطعه الأب : وماسألكش ابراهيم قاعد فين ؟ ..
وقال محيى بسرعة : سألنى .. وقلت له ما اقدرش أقول لك !
وقال الأب : ورضى بكده ! ؟ ..
وقال محيى وهو يشعر بثقل التحقيق : أيوه سكت على طول !
وعاد الأب يسأل : وجبت منه البدله ازاى ؟
قال : قابلته تانى يوم وأنا خارج من الجامعه وخدتها منه ! !
وابتلع محيى ريقه ، كأنه يبتلع كذبته ..

وقال الأب وعيناه كلها فوق وجه ابنه :
ـ وايه عرفك ان ما فيش حد كان مراقبكم ؟!
قال محيى : دى الحكايه ماخدتش دقيقه واحده
وسكت الأب كأنه يتهم ابنه بالغباء .. وقال فى امتعاض :
ـ وما قلتليش ليه قبل ما تروح ؟!
وارتبك محيى قليلا ، ثم قال وهو لا ينظر الى والده :
ـ ما حبتش أزعج حضرتك !
وقال الأب فى تهكم : وماحبتش تزعجنى فى ايه كمان ؟ ! ..
قال محيى : مافيش حاجه تانيه والله يا بابا ! ..
قال الأب : مين عارف .. يمكن عامل خطه مع ابراهيم ..
ما انت خلاص بقيت بتاع سياسه ؟ !
وسكت محيى .. وقال الأب فى حدة : ما تتكلم ..
وقال محيى بصعوبة :
ـ مش عامل خطه ولاحاجه، مافيش حاجه مخبيها على حضرتك !
وسكت الأب قليلا ، ثم قال وهو يفتعل الهدوء :
ـ اسـمع يا محيى .. أنا اذا كنت سمحت لابراهيم يقعـد عندنا ، فمش معنى كده انى باشتغل بالسياسة .. ولا انى أسمح لك تشتغل بالسياسة .. ده راجل استجار بينا وأجرناه .. انما احنا مش زيه ولامستعدين نعمل العمايل اللى بيعملها ، مفهوم؟
وقال محيى : مفهوم يا بابا ..
وعاد الأب يقول فى حزم :
ـ انت فاضل عليك شهرين وتتخرج وبعد كده تبقى تعمل اللى تعمله .. انما قبل ما تتخرج أنا المسئول عنك .. وعايزك توعدنى دلوقت انك ماتتصلش بحد من أصحاب ابراهيم .. وانك ما تخبيش عنى حاجة ..
قال محيى وهو يريد أن ينتهى : أوعدك يا بابا ..
وقال الأب مؤكدا : توعدنى بايه ؟
ورد محيى : أوعدك انى ماخبيش عنك حاجه .. وانى ما ليش دعوه بالسياسه .. ولا بأصحاب ابراهيم ..
وقال الأب : انت راجل .. وانا واثق بكلمتك ..
ثم ازاح كرسيه ، ووقف وهو يقول لابنه : تصبح على خير ..
واتجه الى غرفته .. وسار محيى وراءه الى غرفته ..





وجاء الصباح ..

وكان أول ما فعله الوالد أن ارسل بواب البيت فى شراء جريدة الأهرام ، وكانت المرة الأولى التى يشترى فيها جريدته قبل أن ينزل من البيت .. وتلقاها فى لهفة كأنه كان ينتظر أن يقرأ على صـــدر الصفحة الاولى خبر القبض على ابراهيم .. أو خبــر مقتله .. ولكنه لم يجد شيئا فى الصفحة الاولى .. وقلب بقية الصفحات بسرعة ، ولما لم يجد شيئا .. ألقى الجريدة على الأريكة وبدأ يستعد للذهاب الى عمله

وتسلل أفراد العائلة الواحد بعد الآخر ــ ما عدا الأم ــ كل منهم ينظر فى الجريدة خفية عن الأب .. ووجدت نوال نفسها بعد أن نظرت فى الصفحة الاولى ، تقلب بقيةالصفحات ثم تستقر عيناها فوق صفحة الوفيات . وتأخذ فى قراءة الأسماء .. ثم تنبهت الى نفسها قبل أن تتم قراءة الأسماء ، فانقبض قلبها ، وألقت الجريدة من يدها كأنها تدفع خاطرا أسود عن رأسها ..

وخرج الأب الى عمله .. وخرج محيى الى الجامعه ..

وفتحت النوافذ كلها .. وبدأت عملية تنظيف هائلة فى البيت كله .. واستدعى عم على البواب ليساعد فى تنفيض السجاجيد وتركوه يتنقل فى أنحاء البيت .. كأن هناك تعمدا لاشهاده على ان ليس فى البيت رجل غريب ..

ودخلت نوال غرفة شقيقها محيى .. لقد أصبحت تعتبرها غرفة ابراهيم .. وهى ترى ابراهيم فى كل مكان فيها .. هنا كان يتناول طعام افطاره .. وهنا كان ينام .. وهى تحس به كأنه قريب منها .. قريب جدا .. وتسير فى أنحاء الغرفة فى

خطوات بطيئة مرتبكة كأن عينى ابراهيم تراقبها ..
وفتحت الدولاب ، ووجدت البنطلون والقميص اللذين كان يرتديهما ابراهيم ، وتركهما بعد أن خرج مرتديا بدلة الضابط ..
وأمسكت بالقميص بين يديها فى رفق وحنان كأنها تهم بأن تضمه الى صدرها .. تضم ابراهيم .. ثم وضعت القميص جانبا ، وأمسكت بالبنطلون وطوته فى عناية وعلقته على مشجب داخل الدولاب .. ثم عادت وحملت القميص وذهبت به الى غرفتها ووضعته فى دولابها ، وقد قررت بينها وبين نفسها أن تغسله بيديها ، وتكويه بيديها ، وتحفظه فى دولابها بين ثيابها ..
وانتهت عملية تنظيفات البيت فى الساعة الثانية عشرة ..
وذهب عم على البواب يبحث عن سنية الخادمة عند أمها ..
وبدا كل شىء لامعا ، مرتبا ، مشرقا .. كأن البيت يبتسم بعد طول عناء .. وكادت الساعة تقترب من الواحدة عندما دق جرس الباب .. وفتحت نوال .. ودخل عبد الحميد مسرعا ، وحياها دون أن ينظر اليها : ازيك ؟ !
وأجابت نوال وهى تبتسم ابتسامة ساخرة : الله يسلمك !
ولم ير ابتسامتها .. انما سبقها الى الداخل مهرولا ، كأنه يحمل نبأ خطيرا .. وسارت خلفه وهى تضحك فى سرها كأنها ترى صورته عندما يسمع المفاجأة التى تنتظره ، ثم دلفت الى المطبخ لتنضم الى أمها ..
والتقى عبد الحميد بسامية فى طريقه وهى لا تزال فى ثياب البيت ، وقال دون أن يحييها : ابراهيم بيعمل ايه ؟
وهم أن يتخطاها متجها الى الغرفة التى تعود أن يجد فيها ابراهيم — غرفة محيى — ولكنه سمع اجابتها : خرج .. ! !
والتفت اليها كأنه لا يصدق أذنيه ، وقال وهو لم يستوعب بعد المفاجأة : بتقولى ايه ؟ ! ..
ونظرت اليه سامية بعينين حزينتين مشفقتين ، وقالت فى صوت ضعيف كأنها تطيب خاطره : ابراهيم خرج.. ساب البيت!
واتسعت عينا عبد الحميد وقد التقى بالمفاجأة كلها ، فبدا كالمجنون .. واستطاع بلمحة من ذكائه ، ومن تعوده اساءة الظن بالناس أن يكتشف الخطة التى دبرت حوله ، وقال وهو يفح كأنه حيوان جريح : خرج ، خرج ازاى ؟ مش معقول ! !
ثم تركها ، واندفع الى غرفة محيى . وألقى بنفسه على بابها ،

وفتحه ، واجال فيها عينيه المجنونتين .. ووجنتاه ترتعشان .. وفتحتا أنفه ترتعشان .. وقال وصوته يرتعش :

ــ راح فين .. قوليلى راح فين ؟!

وقالت سامية وهى مذعورة من جنونه :

ــ ما اعرفش .. والله العظيم ما اعرفش

وارتفع الصوت المحشرج حتى كاد يصبح صراخا :

ــ طبعا ماتعرفيش .. والمغفل الكبير اللى هو انا ما يعرفش راخر .. ضحكتم على .. مش كده ، خلاص ، اتفضل ياسى عبد الحميد من غير مطرود .. مافيش جواز.. مافيش فلوس.. انما ده بعدكم .. والله لوديكم كلكم فى داهية .. والله لضلمها عليكم . والذنب مش حيكون ذنبى .. ذنب أبوكى اللى حب يضحك على . انما أنا لحمى مايتكلش حاف .. أنا لحمى مر .. أنا حاوديكم فى داهية .. حاهبب عيشتكم ..

واندفع نحو الباب الخارجى ..

وجرت وراءه ساميه وهى تصرخ : عبد الحميد ، عبد الحميد

ولم يتوقف ، وفتح الباب وخرج منه ، وصفقه وراءه قبل أن تلحق به ..

وعادت سامية الى غرفتها مهرولة وفتحت دولابها .. وبدأت تبدل ثيابها فى عجلة .. دون أن تلتفت الى نفسها فى المرآة .. وشفتاها لا تزالان ترددان بصوت خافت « عبد الحميد .. عبد الحميد » كأنهما ترددان صدى صرخة مفزعة انطلقت من صدرها .. وتفكيرها مرتبك .. لا تستطيع أن تحصره فى شىء ، ولا تدرى ما ستفعله .. وكل ما فى رأسها انها تذكرت حديث عبد الحميد لها بالأمس عندما كان يتحدث عن تبليغ البوليس عن ابراهيم ..

وانتهت من ابدال ثيابها .. ووضعت قدميها فى حذائها ، بلا جورب .. ثم جذبت حقيبتهـا فى يدها ، وهرولت خارج الغرفة دون أن تساوى شعرها .. والتقت بأمها خارجة من المطبخ وهى تقول : هوه عبد الحميد ماله بيزعق كده ليه ؟ ! ..

ولم ترد عليها وجرت نحو باب الشقة ..

ولحقت بها نوال صارخه : ساميه .. ساميه .. رايحه فين ؟

ولم ترد عليها سامية ، وخرجت واغلقت الباب وراءها ..

وأعادت نوال فتح الباب ، واطلت من فوق حاجز السلم وهى تصرخ : طيب استنى لما اجى معاكى ياساميه ! ..

ولم تسمعها ساميه .. أصبحت فى الشارع ..

وتلفتت بعينين مذعورتين تبحث عن عبد الحميد .. ومدت عينيها الى آخر الشارع الذى يقع فيه البيت فلم تره ..

وسارت فى خطى سريعة مهرولة الى شارع الجيزة ، وكل شىء فيها مذعور .. قلبها ، وعيناها ، وشفتاها ، وساقاها ، ويداها .. وخصلات من شعرها تتطاير فى الهواء ، وتتدلى فوق وجهها كأنها تصرخ من الذعر .. وهى لا تزال تتمتم فى صدرها « عبد الحميد .. عبد الحميد .. عبد الحميد » ..

وهى لا تدرى ما ستفعله عندما تجد عبد الحميد .. كل ما تدريه .. انها يجب أن تجده .. أنه ذاهب لتبليغ البوليس عن ابراهيم .. انها تعلم ذلك .. تحسه .. واحساسها يصل الى حد اليقين .. ويجب أن تمنعه .. لا لتنقذ ابراهيم .. ولا لتنقذ عائلتها .. ولكن لتنقذ عبد الحميد .. تنقذه من نفسه .. تنقذ حبها الخفى له .. تنقذ صورته التى رسمتها له فى قلبها .. كأنها تخاف أن تفتضح سفالته ، فيتحطم الأمل الذى يعيش فى أعماق صدرها .. ويتحطم غرورها بملاحقته لها .. ويتحطم زهوها أمام العائلة كفتاة مرغوبة .. يرغبها عبد الحميد الى حد الالحاح الثقيل ..

ووصلت الى شارع الجيزة .. وتلفتت بعينيها المذعورتين تبحث عن عبد الحميد .. ثم شهقت شهقة حادة عندما رأته على الرصيف المقابل ، واقفا أمام دكان بائع سجائر ، يتحدث فى التليفون .. هل أبلغ البوليس عن ابراهيم .. بالتليفون ؟ !

وصرخت كالمجنونة : عبد الحميد .. عبد الحميد ..

وكان عبد الحميد أبعد من أن يسمعها .. فقفزت من فوق الرصيف ، وهمت بأن تعبر الشارع اليه .. ولكن الترام قطع عليها الطريق .. فوقفت فى وسط الشارع تنتظر أن يمر بها الترام وهى تحاول أن تتبع عبد الحميد بعينيها من خلال عرباته .. وخيل اليها أنه أطول ترام التقت به فى حياتها .. خيل اليها ان الثانية التى استغرقها مرور الترام أمامها هى ساعة

وعندما مر الترام لمحت عبد الحميد ينزع سماعة التليفون من فوق أذنه ، ويعيدها مكانها .. ثم يسير فى الطريق متجها الى ميدان الجيزة .. وجرت لتلحق به ..

وصرخت عندما فاجأتها سيارة كادت تدهسها ..

ووقعت حقيبتها من يدها عندما كادت تصطدم بدراجة ..
والتقطت حقيبتها ، وأتمت عبور الشارع وهى تلهث كأنها كانت تخوض فى النار ..
وجرت وراء عبد الحميد وهى لا تزال مركزة عينيها عليه ..
ورأته يتجه نحو موقف سيارات الاجرة ، عند طرف الميدان ..
ثم يركب فى احدى هذه السيارات ..
وانطلقت به السيارة .. ومرت من أمامها .. فصرخت كأنها تلفظ قلبها من فمها : عبد الحميد ! ..
ولكن عبد الحميد لم يسمعها ولم يلتفت اليها ، ورأته فى لمحة وهو ساهم مقطب الجبين ، وقد ركز عينيه الغاضبتين فى قفا السائق ، وانطلقت ساميه نحو موقف السيارات ووضعت نفسها فى احداها وهى تقول للسائق فى صوت يكاد يكون نشيجا :
ـ حصل التاكسى اللى قدامنا ده ..
وانطلقت بها السيارة .. واستطردت فى توسل :
ـ قوام والنبى يا أسطى .. قوام !
وقال السائق ، وهو يتراقص بسيارته بين بقية السيارات والعابرين : عنيه ياست هانم.. حانحصله ، وحانحصل أبوه كمان عيب على .. ما اكونش الاسطى أبو سريع فى زمانى ..
وقهقه السائق ، وهو يتراقص بسيارته ، مطاردا السيارة الاخرى ، وساميه جالسه داخل السياره مبهوتة لاتدرى ماتفعله كل تصرفاتها تلقائية .. تصرفات غريبة عليها .. ولو فكرت قليلا لما أقدمت عليها ..
انها المرة الأولى فى حياتها التى تنطلق من البيت وتخرج بلا اذن من والدتها ولا تنبىء أحدا بوجهتها لأنها لاتدرى وجهتها ..
وهى المرة الاولى التى تركب فيها سيارة أجرة وحدها ..
ولكنها لا تحس انها راكبة فى سيارة .. انها تحس بأنها تجرى فعلا وصدرها يلهث كأنها تجرى فعلا .. وعيناها زائغتان من نوافذ السيارة تبحثان عن السيارة التى يركبها عبد الحميد ، وكلما وجدتها تعلقت بها بعينيها ، الى أن تضيع من أمامها مرة اخرى .. فتعود تبحث عنها .. وهى لا تزال تردد :
ـ قوام .. قوام والنبى يا أسطى !
ثم أصبحت تردد كلمة « قوام » بشكل آلى ، دون أن تعى معناها ، وكأنها محمومة تهرف من لسع نار الحمى ..

والسـائق لا يزال يتراقص بسيارته ويقترب من السـيارة الاخرى فيصيح فى فرح : جيبتك يا اسطى حسنين ! ! ..

وانطلقت السيارتان .. احداهما تتبع الأخرى فوق كوبرى عباس .. ثم فى شارع القصر العينى .. ثم فى ميدان عابدين .. ثم فى شارع السلطان حسين .. ثم فى ميدان باب الخلق .. ثم اتجهت السيارة الاولى الى المدخل الخلفى لبناء المحافظة ووقفت أمام الباب الكبير .. بينما السيارة الثانية لا تزال عنـد أول الميدان ، ولكن سائقها لا يزال يتبع السيارة الاولى بعينيه .. فجرى وراءها الى أن وقف بجانبها ، وهو يقول مقهقها :

ـ برضه حصلتك يا أسطى حسنين !

وبحثت سامية بعينيها فى السيارة الثانيـة ، وهى لا تزال مكانها ، فلم تر فيها عبد الحميد ، فصرخت :

ـ هوه فين .. راح فين الافندى اللى كان راكب معاك ؟؟

وقال سائق السيارة الاولى وهو ينظر اليها فى دهشة :

ـ دخل جوه ..

وأشار بيده الى مبنى المحافظة ..

وفتحت سامية باب السيارة بيد مرتعشة مرتبكة ، والقت نفسها منهـا ، واتجهت تجرى داخل المحـافظة فقفز وراءها الاسطى أبو سريع ، ولحق بها وامسكها من ذراعها ، وهو يقول كأنه يهدد : الفلوس ياست ؟ ! ..

وقالت وهى تحاول أن تنتزع ذراعها من يده :

ـ استنانى شوية .. خليك مستنى !

ونظر السائق الى شعرها المهوش فوق رأسها ، والى عينيها المذعورتين ، والى ثيابها المرتبكة فوق جسدها ، وقال بعد أن ترك ذراعها ووقف يسد طريقها : ما استناش ! ! ..

وقالت فى توسل : اعمل معروف يا اسطى .. أنا راجعه حالا !

وقال الاسطى فى برود : برضه يصح تدفعى.. تمنتاشر قرش!

ونظرت اليه وهى تكاد تبكى ، ولمحت فى عينيه نظرة تصميم أخافتها .. فنكست رأسها فى ذل ، ثم فتحت حقيبتها بأصابع مرتعشة ، ودست يدها فيها ، تبحث عن كيس نقودها .. ثم برقت عيناها كأنما خطرت لها فكرة .. وأعادت اغلاق حقيبتها ، ثم دفعتها فى وجه السـائق ، وقالت فى حزم ، وهى تضـغط الحروف بين شفتيها : خد .. خلى الشنطه معاك لغاية ما ارجعلك

وتوصلني البيت تاني ! ..

وتغيرت نظرة السائق .. أصبح ينظر اليها في اشفاق ورثاء .. ومد يده ليأخذ الحقيبة، ولكنه عاد وأنزل يده ، وقال وهو يفسح لها الطريق : مافيش لازمه ، أنا حاستناكي ، بس ماتتأخريش !

ودخلت سامية الى مبنى المحافظة .. ووجدت نفسها في فناء كبير مرصوف .. تقف فيه مجموعة من السيارات الخاصة ، وسيارات البوليس ، وسارت في خطى مهزوزة مترددة كأنها تقتحم وكر لصوص .. وعيناها قد ازدادتا اتساعا ، واشتد الذعر في نظراتها .. كأن وجوه السائقين والناس الذين تراهم في الفناء ، وجوه غريبة .. ليست وجوها آدمية ..

ووجدت بابا ضخما على يسارها ، يؤدي الى سلم عريض قليل الدرجات .. فاتجهت اليه وقدماها تزحفان في حذر .. وصعدت وهي تنظر الى الداخل كأنها تنتظر أن تجد عبد الحميد واقفا في انتظارها ..

ولم تجده .. ووقفت حائرة ..

وناس ، وجنود بوليس ، يمرون بها دون أن يأبه واحد منهم بها ، أو يثيره منظرها المرتبك ، والحيرة التي تطل من عينيها ..

ومالت على جندي بوليس جالس على مقعد بجانب أحد الأبواب يتحدث مع رجل واقف قبالته ، وقالت في صوت مبحوح مرتجف : من فضلك ..

وانتظرت أن يلتفت اليها ..

ورفع اليها الجندي رأسه ، ونظر اليها نظرة سريعة ، ثم عاد يتم حديثه مع الرجل وكأنه لم ير شيئا ..

واقتربت منه خطوة أخرى ، وقالت وصوتها أشد ارتباكا :

ــ من فضلك يا شاويش ..

ونظر اليها الجندي بتعال ، قائلا : خير .. فيه ايه ؟ ! ..

وقالت في رجاء : من فضلك ماشفتش واحد طويل ، ولابس بدله بني ، دخل هنا دلوقت ؟ ! ..

وقال الشاويش وهو يعتدل في جلسته ويتخذ هيئة الحكام :

ــ واسمه ايه الافندي ده ؟

قالت في عجلة : اسمه عبد الحميد زاهر ..

ورفع الجندي يده ومسح بها على شاربه المشعث ، وأخذ يزوم بشفتيه ، ثم فكر قليلا ، كأنه يحاول أن يتذكر هذا الاسم ،

وقال : هيه .. ويبقى لك ايه عبد الحميد زاهر ؟
قالت : ابن عمى ..
وطأطأ الشاويش رأسه ، ثم عاد ورفعه ، وقال فى لهجة آمرة كأنه وكيل نيابة محقق :
ــ وجايه ورا ابن عمك فى المحافظة ليه ؟ !
قالت وهى تكاد تنفجر باكية : كان مدينى ميعاد هنا ..
وقال الشاويش : بأه كده .. هيه .. كويس والله !
وقالت سامية وهى تكاد تيأس :
ــ والنبى ما شفتوش ، يا شاويش ؟
وصمت الجندى قليلا دون أن يتحرك من مقعده أو يبدو عليه تأثر ، ثم انطلق قائلا :
ــ هو مش جدع أسمر كده ، وعنده حتة شنب صغير ؟
وقالت ساميه فى لهفة : أيوه .. هوه .. راح فين ؟ !
قال الجندى وهو يشير الى الباب الجالس قبالته : دخل ..
قالت فى عجلة : اقدر أشوفه ؟
قال فى برود : ممنوع ..
قالت فى توسل : ده عايزنى ضرورى ، حاجه مهمه خالص !
قال وهو يمسح بيده على شاربه مرة ثانيه : معاكى اماره ؟
قالت فى حدة : بس قول له ، وهوه حايعرف !
قال ، وكأنه يحادث نفسه : أقول للباشا ؟ ..
قالت : باشا أيه .. قول له هوه ! !
قال كأنه يتباهى بذكائه :
ــ ما هو عند الباشا .. اللوا الكبير !
قالت فى حدة كأنها تأمره : طيب قول للباشا ..
ونظر اليها الجندى مليا ، ثم قام متكاسلا قائلا :
ــ طيب استنى عندك شوية !
ودخل الجندى الى الحجرة ، ورفعت سامية عينيها ، فاصطدمتا بلوحة كتب عليها « القلم السياسى » ..
وعاد الجندى بعد قليل وقال فى لهجة أكثر أدبا : اتفضلى ..
ودخلت سامية وهى لا تزال تزحف بقدميها فى خطوات مترددة خائفة .. وقلبها ينتفض فى صدرها ، ويدق دقات عنيفة متوالية كأنها دقات الطبول التى تسبق تنفيذ حكم الاعدام ..
ووجدت نفسها فى حجرة متوسطة الاتساع .. هادئة .. رطبة

بها مكتبان ، يجلس الى أحدهما ضابط من ضبـاط البوليس ، ويجلس الى الثانى رجل فى ثياب مدنية ..

ووقفت حائرة فى وسط الغرفة ، الى أن سمعت صوت الرجل الذى يرتدى ثيابا مدنية يقول لها فى صوت مهذب :

ــ اتفضلى يا هانم .. أى خدمة ؟ ! ..

واتجهت اليه كالتلميذة المذنبة وقالت فى صوت كالبكاء :

ــ هوه فين عبد الحميد .. أنا عايزه عبد الحميد !

ونظر الرجل الى ورقة أمامه :

ــ قصدك عبد الحميد أفندى زاهر ؟ !

قالت فى فرح : أيوه .. هوه !..

قال : بس هوه دخل عند سعادة الريس دلوقت ! ..

قالت وقد عادت تتوسل : اعمل معروف خلينى أدخل له .. ضرورى أشوفه دلوقت .. دلوقت حالا !

قال وهو ينظر اليها نظرات فاحصة : حضرتك تبقى ..

وقاطعته فى عجلة كأنها تقطع الزمن :

ــ أنا بنت عمه .. وخطيبته !

وعاد الرجل ينظر اليها نظرات فاحصة .. الى حالها المرتبك ، والى النظرات المضطربة فى عينيها .. ثم جذب طربوشه من فوق المكتب ووضعه فوق رأسه ، وأماله فى عناية ، وقال وهو يقوم من على مقعده متكاسلا : طيب اتفضلى استريحى شويه ..

وجلست سامية على حافة المقعد الذى أشار لها عليه ، وهى تتبع الرجل بعينين مبتهلتين كأنها تنظر بهما الى السماء ..

ودفع الرجل بابا جانبيا ، واختفى وراءه ..

وعاد بعد قليل .. وقال وهو لايزال واقفا بجانب الباب الذى خرج منه : اتفضلى يا افندم ..

وأبقى الباب مفتوحا لتمر منه ..

كان عبد الحميد فى ثورة غضبه قد أحس انه فقد كل شىء .. فقد كل آماله التى علقها على وجود ابراهيم فى البيت .. فقد المكافأة السخية التى كان يمنى نفسه بقبضها ، وفقد سامية .. لن يتزوجها .. وفقد احساسه بأنه سيد الموقف .. أحس انه أهين فى ذكائه عندما خدعوه وأقنعوه ان ابراهيم سيبقى فى البيت على الأقل أسبوعين .. وأعمته كل هذه الأحاسيس عن التفكير السليم .. أعمته عن ذكائه .. وبدأ يتصرف كالمجنون متصورا

أنه لايزال يستطيع أن يستخلص شيئا من آماله ، ولو على حساب خراب العائلة كلها ..

وهرع الى الشارع واتصل بالتليفون باللواء محمدبكهمام رئيس القلم السياسى ، وابلغه ان لديه معلومات اكيدة تؤدى الى القبض على ابراهيم حمدى ، فطلب اليه همام بك أن يأتى لمقابلته حالا..

واستقل عبد الحميد سيارة الأجرة ، وظل طول الطريق وهو لا يفكر فيما سيقوله لهمام بك .. بل كان يفكر فى خطته التى فشلت .. وكان الغضب واليأس يشعلان فى رأسه نارا يرى من خلالها وجوه عائلته التى خدعته .. عمه .. وزوجة عمه ، ومحيى ، ونوال .. حتى سامية اشتركت فى خداعه .. ثم يرى صورة أبراهيم بابتسامته الهادئة التى تميل الى جانب شفتيه ، فتزداد النار اشتعالا فى رأسه ، ويمتلىء صدره بالحقد الأسود ، ثم يقطر الحقد فى أعصابه فيرفع قبضته يدق بها على ركبته وهو جالس فى السيارة ، كأنه يدق رأس ابراهيم ليخمد ابتسامته التى تغيظه !

وعندما دخل فناء المحافظة بدأ يكبت ثورة غضبه ، وبدأ يشعر بالحيرة والارتباك .. بدا يسائل نفسه : لماذا جاء ..؟

ولكنه استمر فى طريقه ، مدفوعا بغيظه وثورته .. ودخل الى حجرة السكرتارية .. وعندما طلب اليه السكرتير أن يجلس ريثما يسمح رئيس القلم السياسى بمقابلته ، بدأ يعد فى رأسه ماسيقوله .. وفجأة اكتشف انه لن يستطيع أن يقول شيئا ..

انه لايدرى أين اختفى ابراهيم ، فلن يستطيع أن يرشد البوليس اليه ..

ربما كان محيى أو عمه يعلم أين ذهب ابراهيم .. ولكن هل يستطيع حقا أن يبلغ البوليس عن عمه أو ابن عمه ؟ ! وتحرك فى صدره شىء كالسكين يشق لحمه .. انه لايستطيع .. انه يعلم انه لايستطيع .. ان هذا الشىء الذى تحرك فى صدره طالما منعه عن الاقدام على تصرفات كثيرة .. لولا هذا الشىء لكان اليوم من أغنى الأغنياء أو لكان فى السجن .. وهو يكره هذا الشىء .. يكره صميره .. لكنه لايستطيع أن يقاومه .. انه يتجاهله أحيانا ، ولكن هذا الشىء الملعون يتحرك فى اللحظة الأخيرة .. دائما فى اللحظة الأخيرة ، وعندما يتحرك لايستطيع أن يقاومه ..

ربما يستطيع أن يبلغ البوليس عن الصديقين اللذين طلب اليه

ابراهيم أن يتحرى عنهما ، وأن يبحث عما اذا كانت الحكومة قد اعتقلتهما أم لا .. وعن طريق هذين الصديقين يستطيع البوليس أن يجد ابراهيم .. ولـكن ..

سيسأله البوليس ، من أين عرف هذين الاسمين .. فاذا قال انه عرفهما من ابراهيم شخصيـــا ، سيعود البوليس ويسأله : أين التقى بابراهيم ؟.. ولن يستطيع أن يقول انه التقى بابراهيم في بيت عمه والا خرب بيت عمه .. وضــــميره ـ الشيء الذى يتحرك في صدره كالسكين ـ يأبى عليه أن يخرب بيت عمه ..

وندم لأنه جاء الى المحافظة ..

وفكر فى أن يهرب .. أن يعدل عن مقابلة همام بك ! !

ولكنه لايستطيع والا وضع نفسه موضع الاشتباه من البوليس

وقرر أن يلفق أى كلام يقوله ، ولا يهم بعد ذلك أن يثبت كذبه

ودعاه السكرتير الى الدخول ..

ودخل الى حجرة متسعة خافتة الضوء فى نهايتها مكتب ضخم يجلس وراءه همام بك.. رقيقا ، مهذبا ، لم تستطع الرقة المفتعلة ولا التهذيب المفتعل أن يخفيا الخبث الذى يطل من عينيه الضيقتين

وقام همـــام بك ولف من وراء مكتبه وجاء اليه مادا يده فى ترحيب كبير ، كأنهما أصدقاء قدماء .. وصافحه عبد الحميد بيد مرتعشة ، والهيبة والحيرة تكادان تقتلعان قلبه ..

وأجلسه همام بك على أريكة من الجلد وجلس بجانبه ، بلا تكلف ، وبدأ يحادثه فى بساطة .. ولم يكن يحدثه عن ابراهيم حمدى .. بل كان يحدثه فى مواضيع عامة كأنهما جالسان فى قهوة يتباسطان ويلعبان عشرة طاولة .. كان يريد أن يكسب ثقته ، وأن يحرره من الرهبة .. وفعلا بدأ عبد الحميد يهدأ ، وبدأ يلم أطراف تفكيره المزق ..

وبعد دقائق قليلة ، وقبل أن يصل الحديث الى ابراهيم حمدى دخل السكرتير ، وهمس فى أذن همـــام بك ببضــــع كلمات ، فابتسم همام بك وقال بصوت مسموع : خليها تتفضل !..

ودخلت ساميه .. ووقفت جامده فى وسط الحجرة ، وعيناها متحجرتان فوق عبد الحميد ..

ونظر عبد الحميد اليها فزعا ، كأنه رأى السكين الذى يتحرك فى صدره ، منتصبا أمامه .. رأى ضميره ! !

وقال وهو مبهوت : ايه اللى جابك ؟ ..

وقالت سامية فى صوت ضعيف وهى تحاول أن تتمالك نفسها :
ــ جيت وراك .. حد يسيب خطيبته بالشكل ده ؟ ..
وضغطت على كلمة « خطيبته » كأنها ترشوه بها ..
ونقل همام بك عينيه الخبيثتين بينهما ثم قال لسامية ، وهو يقوم واقفا فى أدب مفتعل : اتفضلى يا هانم ..
وجلست سامية على الأريكة بجانب عبد الحميد ، بينما جلس همام بك على مقعد عريض ، وهو يقول :
ــ ما شاء الله .. ومخطوبين بقى لكم زمان ؟ !
والتفتت سامية الى عبد الحميد ، وقالت دون أن تدير رأسها الى همام بك : بقى لنا اسبوع واحد بس ! ..
وظلت معلقة عينيها بعبد الحميد كأنها تحاول أن تذكره بنفسها .. بحبه لها .. بأمله فى الزواج بها .. بكل ذلك ، أن يصون سرها ، وسر عائلتها ..
ورفع عبد الحميد عينيه اليها ، ثم خفضهما سريعا .. وقد احتقن وجهه وأخذ يضغط احدى يديه باليد الاخرى فى عصبية كأنه يحبس الدم فى يده .. حتى لاينسكب من أطراف أصابعه.. كان ثائرا .. وكانت ثورته منصبة على سامية .. كيف تتبعه .. وكيف تدخل المحافظة وحدها .. كيف سمحت لنفسها بأن تخرج الى الشارع بهذا الشكل .. كيف واتتها الجرأة .. انها مجنونة قليلة الحياء ؟ ! .. وأحس انه أهين فى عرضه .. فى شرفه .. لأن بنت عمه .. حبيبته .. دخلت المحافظة وحدها .. !
ولكن ثورته ما لبثت أن انقلبت على نفسه.. انه هو السبب.. هو الذى دفعها الى هذا السلوك .. هو الذى مرمطها فى الشوارع وفى المحافظة .. ترى ماذا فعل بها رجال البوليس قبل أن يسمحوا لها بالدخول ؟ ..
واشتدت ثورته ، وكلما تمادى فى محاولة كبتها ، ازداد وجهه احتقانا ، وازدادت عصبيته ، ورعشة يديه ..
وهمام بك لايزال ينقل عينيه الخبيثتين بين الفتى والفتاة ، المهذبة : احنا كنا بنقول ايه ؟ ! ..
وانطلق صوت عبد الحميد مرتفعا كأنه لم يعد يستطيع أن يكتم ثورته ، ولم يعد يحتمل هذا الأسلوب المهذب الذى يحادثه به همام بك ، وقال فى لهجة حادة دون أن ينظر الى سامية التى لا تزال تعلق عينيها فوق وجهه :

ـ أنا يا افندم كنت جاى أبلغك معلومات عن ابراهيم حمدى اللى قتل عبد الرحيم باشا شكرى ..

وقاطعته شهقة حادة صـــدرت من سامية ، أعقبتها بتمتمة خافتة : عبد الحميد ..

وانتبه همام بك الى صوت الشهقة فى يقظة .. وأكمل عبد الحميد كلامه بسرعة ، كأنه يريد أن يسكت سامية حتى لا تتدخل فى الموضوع : أنا شفته النهارده ماشى فى الشارع .. شارع .. شارع العباسية !

وسكت كأنه انتهى مما يريد قوله ، واطمأن الى أن ســـامية قد عرفت انه لن يفشى السر ..

وتنهدت سامية فى ارتياح .. تنهدة عميقة كأنها أطلقت أبخرة كثيفة كانت تملأ صدرها .. أبخرة الخوف والجزع !

ولاحظ همـــام بك ، علامات الارتيـــاح التى بدت على وجه سامية ، وقال وبين شفتيه ابتسامة خبيثة يحاول أن يخفيها :

ـ وبعدين ؟ ..

ورفع عبد الحميد حاجبيه فوق عينيه فى دهشة ، كأنه فوجىء بهذا السؤال وقال ، وهو لم ينته بعد من رسم الأكذوبة فى خياله :

ـ وبعدين ؟.. وبعدين مشيت وراه ..

وسكت كأنه يلتقط أنفاسه ، وتعجله همام بك قائلا :

ـ كويس خالص .. وبعدين ؟ ..

وقال عبد الحميد ، وقلبه يرتعش : وبعدين شفته ركب عربية .. رحت ضارب لسعادتك تليفون على طول ! ..

وقال همام بك : وشفت نمرة العربية ؟..

وقال عبد الحميد :

ـ لا والله .. أصلى كنت ماشى وراه من بعيد .. ما قدرتش أشوف نمرة العربيـــة .. حتى كانت النمرة متآكلة وأرقامهـــا ممسوحة .. وأول ما حط رجله فيها جريت على طول ..

قال همام بك وهو لايصدقه : ماشفتش ولا رقم من النمرة ؟

وقال عبد الحميد وهو يبتلع ريقه :

ـ أيوه شفت رقم ثمانية .. ورقم واحد !

وابتسم همام بك كأنه يحاول أن يقنعه بأنه يصدقه رغم كذبه وسأله : والعربية كان لونها ايه ؟ ..

وقال عبد الحميد فى عجلة : سودة !! ..

وقال همام بك : والهانم خطيبتك كانت معاك ؟ ..

قال عبد الحميد فى حدة ، كأنه مصر على ابعاد سامية من الموضوع : لا .. لا .. ماكنتش معايا !

وأدارت سامية رأسها ناحية همام بك وهزت رأسها علامة الموافقة ، وفى عينيها نظرة ساذجة .. وابتسم لها همام بك وعاد يسأل عبد الحميد : وحضرتك ساكن فى العباسية ؟ ..

قال عبد الحميد : لأ .. فى شبرا ..

قال همام بك وهو يحاول أن يدفعه الى التمادى فى الكذب :

ــ لازم خطيبتك هيه اللى ساكنة فى العباسية ؟

وقال عبد الحميد : لا .. انا كنت فى العباسيه ، لانى كنت رايح لواحد صاحبى أعمل له تأمين ! ..

وقال همام بك وهو لايزال محتفظا بهدوئه وابتسامته المهذبة :

ــ واسمه ايه صاحبك ؟ ..

وتردد عبد الحميد ريثما يبحث فى رأسه عن اسم أحد أصدقائه .. ثم قال : اسمه محمد نوفل ! ..

ثم استطرد كأنه خشى أن يبحث البوليس عن صديقه فى حى العباسية فلا يجده :

ــ الحقيقة هو ساكن فى مصر الجديدة .. لكن أنا نزلت فى العباسية علشان آخد الترامواى الأبيض من هناك !

وسكت عبد الحميد .. وقام همام بك ودق جرسا صغيرا موضوعا فوق مكتبه ، ثم قال وهو لا يزال واقفا :

ــ الواقع دى معلومات قيمة جدا يمكن تساعدنا فعلا ..

وقبل أن يرد عبد الحميد ، دخل السكرتير .. ولاقاه همام بك فى وسط الغرفة ثم انتحى به جانبا ، وهمس فى أذنه ببضع كلمات .. خرج بعدها السكرتير توا .. وعاد همام بك وجلس على مقعده .. وقال له عبد الحميد :

ــ انا فى الخدمة دايما يا افندم ..

وقال همام بك وابتسامته بين شفتيه :

ــ على كل حال احنا متشكرين قوى .. لو عرفت اى حاجة تانية لازم تيجى تقول لى .. ولا يمكن تفتكر حاجة يمكن نسيت تقولها .. على طول تيجى .. احنا بنعتمد كتير على أمثالك من اللى قلبهم على البلد ..

واحس عبد الحميد احساسا خفيا بأن همام بك يتعمد اهانته

وقف واقفا ووقفت معه سامية وقال : تسمح لى يا افندم ..
وقام همام بك واقفا وهو يقول :
ــ متشكر .. مع السلامة .. بس سيب عنوانك عند السكرتير يمكن نحتاج لك علشان نكتب الكلمتين اللى قلتهم فى محضر .. ولا مش ضرورى .. انا الكلام اللى باسمعه بينكتب فى راسى .. راسى فيها ييجى مليون محضر ؟! ..
واشار همام بك بيده الى رأسه متباهيا ، ثم مد يده وصافح عبد الحميد وسامية ، وتبعهما حتى باب غرفته ..

وحياهما السكرتير فى الغرفة المجاورة باحترام كبير .. وخرجا الى النور .. والتفتت اليه سامية بعينين فرحتين ، كأنه كان غائبا عنها وعاد اليها .. عاد سالما .. بطلا .. ولكنها اصطدمت بعينيه غاضبتين ، وقال فى صوت غاضب مبحوح وهو يمسك بيديها ويضغط عليهما بقوة :
ــ ازاى تسمحى لنفسك تيجى ورايا بالشكل ده .. انتى اتجننت ، ماحدش رباك .. ده شكل تخرجى بيه فى الشارع .. من امتى بنات العيلة بتدخل المحافظة ؟
قالت وهى تبتسم كأنها تتباهى بغضبه :
ــ أصلى خفت لتكون زعلان ..

قال فى حدة : لا ياشيخة ، بأه كده خايفه لاكون زعلان ، لا والله ما كنش لازم أزعل .. انتى جايه علشان كنت خايفه على بيتكم وعلى سى ابراهيم بتاعكم .. مش خايفة لاكون زعلان ! !
ــ لا .. والله العظيم أبدا .. أنا كنت خايفه عليك !
قال فى حدة : من ايه بقى ياستى ؟ ..
قلت فى خفر : خايفه ماترجعليش تانى .. الكلام اللى قلتــه مش صحيح يا عبد الحميد .. اذا كانت الدنيا كلها تضحك عليك .. أنا مش ممكن أضحك عليك ..
قال وهو يسحبها من يدها ناحية ميدان باب الخلق :
ــ طيب تعالى .. أنا خلاص مش ناوى اتجوز .. ومش ناوى أدخل لــكم بيت !
ونظرت اليه سامية وهى تمد خطاها حتى لا يسبقها :
ــ ما تقولش كده يا عبد الحميد ..
وقاطعها الاسطى أبو سريع سائق سيارة الاجرة التى جاءت

فيها قائلا وهو يشير اليها بيده : أنا هنا ياست ..

وتوقفت وقالت لعبد الحميد :ده التاكسى اللى جيت فيه .. أصل نسيت أجيب فلوس من البيت علشان أدفع له ! !

وتردد عبد الحميد قليلا كأنه يعد فى عقله ما يحمله من نقود .. ثم اتجه نحو السيارة ، وهو يقول لسامية : اتفضلى ! ..

وركبت سامية ، وركب عبد الحميد بجانبها .. وعادت تنظر اليه بعينين فرحتين كأنها ذاهبة معه الى بيتهما ، عقب حفـــلة الزفاف .. وعبد الحميد غاضب .. يزفر أنفاسه فى قسوة .. كان يستعيد كل كلمة قالها لهمام بك ويحاول أن يعثر على الثغرات التى قد يفتضح منها كذبه .. وكان يشعر بغلطته .. ويشعر انه كان غبيا .. ويستسخف نفسه .. وشعوره بالسخافة يمزق قلبه

وقالت سامية ، وهى تمد يدها فى حياء وتضعها فوق يده :

ـ ماتزعلش نفسك خلاص كل حاجة حاتمشى كويس باذن الله .

وجذب يده من تحت يدها ، وهو يقول : سيبينى وحياة أبوكى .. أنا مش فاضيلك دلوقت .. ولا فاضى للكلام ده !

وسكتت سامية فى استسلام ، وهى لا تزال تنظر اليه بعينيها الفرحتين، وقد لمع فيهما الحب.. انها لم تعد تجاهدلتخفىحبها .. وهى تعتقد انه لم يكذب على البوليس الا من أجلها .. لانه يحبها

ووصلت بهما السـيارة الى البيت .. ونزلا منها .. وقرأ عبد الحميد العداد ، ثم نظر الى سامية كأنه يحملها مسؤولية هذه المصيبة الجديدة .. ثم وضع يده فى جيبه ، ودفع ..

وابتعد السائق بسيارته وهو يقول : متشكرين

وقالت سامية وهى تنظر الى عبد الحميد كأنها تهبه نفسها :

ـ مش حاتطلع معايا ؟ .. قال فى اختصار : لأ ..

قالت : انا مش حاقول لحد احنا كنا فين ! ..

قال وهو ينظر اليها : أحسن ..

قالت كأنها تتوسل : وحاتيجى امتى ؟ . قال : ما اعرفش

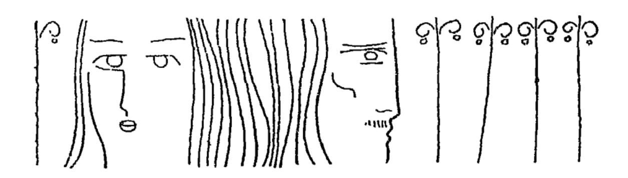
قالت : لازم تيجى .. علشان ماحدش ياخد باله ..

قال : اما أشوف .. سعيدة ..

وأدار لها ظهره وسار متجها الى شارع الجيزة ..

ولم يشعر أن هناك رجلا يتبعه ..

لم يشعر بأنه أصبح مراقبا من البوليس ! !



١٤

يوم الاثنين ..

ونوال حائرة أمام مرآتها ، لا تكاد تنتهى من زينتها حتى تبدأ من جديد .. تضع ضفيرتها فوق صدرها ثم تعود وتلقيها خلف ظهرها ، ثم تلفها فوق مؤخرة رأسها ، ثم تسدلها من جديد وتمسك بالقلم الأسود تزجج به حاجبيها ، ثم تعود وتبلل اصبعها بريقها وتمسح ما خطته فوق حاجبيها .. وتدس يديها فى قفازها الأبيض ، ثم تسحب احدى يديها من القفاز ، وتمسك بحقيبتها .. وتبتعد قليلا عن المرآة لترى نفسها على بعد ، ثم تقترب من المرآة مرة ثانية ، وتبدأ زينتها من جديد .. زينة بسيطة بريئة ليس فيها ألوان .. الا ألوان عينيها السود وبشرتها التى تختلط سمرتها بحمرة دمائها النشطة الشابة ..

وظلت فى حيرتها حتى سمعت دقات الساعة فى الراديو تعلن العاشرة والنصف فارتبكت وظنت أنها تأخرت .. تأخرت كثيرا عن موعد ابراهيم .. وألقت نظرة سريعة الى المرآة ، ولوت شفتيها كأنها غير راضية عن جمالها .. وخطفت حقيبتها وأسرعت بالخروج ، وهي تصيح : انا نازله ياماما ..

وقالت أمها من الغرفة المجاورة ، دون أن ترفع رأسها :

ــ ما تتأخريش .. الساعة اتناشر تكونى هنا .. وسلمى على تفيدة هانم ، وقولى لها ما تنساش الأمانة !

ولم تنتظر نوال لتسمع بقية كلام أمها .. وأغلقت الباب وراءها وقفزت الدرجات قفزا لتجد نفسها فى الشارع ..

وركبت الاوتوبيس ..

ولم تعد تفكر فى نفسها ولا فى زينتها .. أصبح كل ما تفكر فيه هو ابراهيم .. هل ستراه مرتديا بدلة الضابط .. أم سيأتى اليها بالقميص والبنطلون كما رأته أول مرة ؟ ! هل سيأتى فى سيارة ، أم سائرا على قدميه ؟ ! هل سيأتى مبتسما كما كانت تراه أحيانا ، أم جادا مفكرا كما كانت تراه غالبا ؟! ..

وكانت تفرح وتحزن تبعا للحال الذى تتصور ابراهيم فيه .. وعندما تفرح ترتسم ابتسامة فوق شفتيها دون أن تدرى بها ، وعندما تحزن يتقطب جبينها دون أن تدرى .. كانت ملامحها تنفرد وتتقلص تبعا لاحساسها ، كأنها تحادث انسانا آخر فى داخلها .. وكان أحساسا يستبد بها حتى يكاد يصبح همسا .. وهمسها يحتد حتى يكاد يصبح كلاما واضحا تنطق به ملامحها ..

ونزلت من الاوتوبيس .. واشتد وجيب قلبها ..

انها تقترب .. تقترب من ابراهيم ..

وسارت نحو ميدان عبد المنعم فى خطوات مرتبكة ، ورأسها منكس ، ووجنتاها مصهورتان بالخفر .. وجفناها يضطربان فوق عينيها .. وهى لا تنظر الى أحد ، ولا الى شىء .. كأن الناس والجدران وأسفلت الشارع ، كأن كل شىء يعلم انها انها ذاهبة لملاقاة ابراهيم .. لملاقاة رجل !

ووقفت فى الميدان تحت ظل شجرة .. ورأسها لايزال منكسا ، وعيناها تنظران من تحت جفنيها الى بوز حذائها ، كأنها عروس فى انتظار أملها ليرفع عن وجهها النقاب .. نقاب الحياء والخفر ..

واشتد وجيب قلبها عندما سمعت صوت سيارة تقترب منها .. ولم ترفع رأسها .. انما انتابتها رعشة سرت فى أعصابها كلها .. وحاولت ان تشد قامتها ، وأن تعتدل فى وقفتها ، ثم تعمدت أن تدير رأسها الناحية الاخرى حتى لا يرى ابراهيم لهفتها ، وقفزت ابتسامة صغيرة فوق شفتيها كأنها تنفس بها عن حياتها واضطرابها ..

وأصبح صوت السيارة فوق أذنها تماما .. وانتظرت أن تسمع صوت وقوفها .. ثم صوت بابها يفتح .. ثم صوت ابراهيم يقول لها « صباح الخير » .. ولكن السيارة لم تقف ..

مرت بها دون أن تخفف من سرعتها ..

ورفعت رأسها فى دهشة وتبعت السيارة بعينين ملهوفتين كأنها تتبع أملا ضاع منها .. ثم عادت ونكست رأسها فى حسرة .. وعادت تنتظر ..

وبدأت تنقل قدميها فى وقفتها ، كأنها فرس مشدودة الى عربة أتعبها طول الوقوف والانتظار ..

ثم تسللت بعينيها الى الساعة الفضية الصغيرة المربوطة الى معصمها .. نظرت اليها خفية كأنها تخشى أن يضبطها أحد وهى تنظر الى الساعة ..

ان الساعة الحادية عشرة ، وعشر دقائق .. ما الذى أخره ؟! .

وبدأت تتلفت حولها فى حذر .. انها ترى هناك رجلا مرتديا جلبابا .. وفى الناحية الاخرى أما تسحب طفلها .. ولكنها لاترى ابراهيم .. وتنهدت ..

وسارت بضع خطوات ، ووقفت تحت ظل الشجرة التالية ، وأخذت تتلفت من جديد .. ما الذى أخره ؟ ! ..

ربما اتبع طريقا طويلا حتى يضلل البوليس !

وارتجفت عندما تذكرت البوليس .. كان قد غاب عنها منذ استيقظت فى الصباح ان ابراهيم انسان هارب ، وان البوليس يبحث عنه .. نسيت هذه الحقيقة فى لهفتها الى لقائه ..

هل يكون البوليس قد قبض عليه ؟!

لا .. مستحيل .. لا يستطيع أحد أن يقبض على ابراهيم !

وسمعت صوت سيارة أخرى تقترب منها . وفى هذه المرة استدارت بجسدها كله ناحية السيارة ، ونظرت الى داخلها بكل عينيها ، ثم ردت عينين خائبتين ، لم تر ابراهيم داخل السيارة

ونظرت الى ساعتها مرة أخرى .. انها الحادية عشرة والثلث ..

وبدأت تحس بالضيق .. وتحركت من وقفتها ، وبدأت تسير حول الميدان الواسع فى خطوات بطيئة ضيقة ، كأنها تزفر خطواتها من صدرها .. وتتلفت فى كل شارع جانبى تمر به من الشوارع التى تصب فى الميدان كأنها تنتظر أن تجد ابراهيم مختبئا فيه أو آتيا منه .. ثم تعود وتتلفت خلفها بين كل خطوة وأخرى كأنها تخشى أن يفاجئها ابراهيم من الخلف ..

وأتمت دورة الميدان ، وعادت الى حيث كانت واقفة تحت ظل الشجرة .. عادت متعبة يائسة وقد تهدل كل شىء فيها .. تهدل ذراعها الى جانبها فلم تعد تمسك حقيبتها برشاقة كما

كانت تتعمد عندما جاءت ، انما أصبحت تمسكها فى اهمال كأنها تكاد تقع منها .. وتهدلت نظراتها فلم يعد فيها هذا النشـاط والبريق .. وتهدلت شفتاها فلم تعد بينهما هذه الابتسـامة الضيقة الخجول ، انما أصبحت تبدو كأنها « مبوزة » ، وتهدل قوامها فلم تعد تشده وتسيطر على حركاته ، انما انحنى ظهرها وانتهت ركبتاها كأنها تكاد تنهار على الارض ..

ونظرت الى ساعتها مرة أخرى ..

انها الثانية عشرة الا ربعا .. انه لن يأتى ..

وأحست بصوت يرتفع من صدرها يؤكد لها انه لن يأتى .. ويردد فى الحاح « لن يأتى .. لن يأتى .. لن يأتى » كأن هذا الصوت يتعمد اغاظتها .. وتحطيم آمالها ، واظلام حياتها ..

ثم أحست برغبة فى البكاء .. كل شىء فيها أصبح يتجمـع للبكاء . أعصابها بدأت تعصر نفسها لنزف الدموع .. وعيناها بدأتا تلتهبان ..

ورفعت رأسها كأنها تقاوم دموعها ..

وتلفتت حولها كأنها تستغيث من اليأس ..

وفى تلفتها التقت بوجه اسمر ينظر اليها نظـرات ساخرة وبين شفتيه ابتسامة جارحة ..

انه رجل يقف مستندا على جدار سيارة .. لعله سائق .. لعله يراقبها هكذا منذ فترة طويلة .. ولعله استنتج انها جاءت لملاقاة رجل .. وان الرجل تخلى عنها ولم يأت ..

وانقلب يأسها الى غضب .. ثم الى ثورة ..

أحست أن كرامتها أهينت .. أنها اصبحت سخرية بين الناس فى الشارع

كيف يدفعها ابراهيم الى هذا الموقف ؟

كيف يرضى أن يتركها للناس يسخرون منها هكذا !!

وتحركت .. وقد قررت أن تعود الى بيتها ..

وسارت فى خطى سريعة نحو محطـة الاوتوبيس .. ولكنها ما لبثت أن خففت سرعتهـا ، والتفتت الى الوراء كأنهـا ترشف بعينيها آخر قطرة من الامل .. ولم تر الا الوجه الاسمر ينظـر اليها النظرة الساخرة ، وبين شـفتيه الابتسـامة الجارحة .. فعدلت رأسـها ، وعادت تخطو خطوات سريعة نحو محطـة الاوتوبيس .. وركبت الاوتوبيس وثورتها تكاد تقتلع قلبها ، وقد

جمعت كل ارادتها فوق عينيها حتى تحبس بها دموعها ..
انها لن تعود مرة ثانية ..
لن تعرض نفسها لمثل ما تعرضت له اليوم ..
ستقاوم نفسها ، وتقاوم حبها ، وتقاوم ابراهيم ..
وكانت لا تكاد تتصور أنها وصلت الى قمة المقاومة ، حتى يبدو لها وجه ابراهيم جادا ، مضطربا ، وهو يهرب بعينيه منها حتى لا تكشف اضطرابه ومشاعره .. فتحس بالحنين اليه .. حنين فيه اشفاق بقدر ما فيه اعجاب .. كأنه حنين أم لابنها الذى ذهب الى ميدان القتال .. وتبدأ فى تلمس الأعذار له .. ربما حال تهربه من البوليس دون حضوره .. ولكنه لا شك حاول أن يحضر للقائها .. ربما .. ربما ..
واطلت من عينيها نظرة فزعة ، وهى تتصور انه ربما استمر فى الهرب حتى ترك مصر كلها .. ابتعد عنها .. لن تراه أبدا .. ولكن . لا .. انه لن يتركها ، لن يخرج من مصر ، ان مكانه بجانبها.
وتنساق فى خيالها.. وترتفع أصابعها لتحتضن العلبة الذهبية الصغيرة المعلقة فوق قلبها والتى تضم المصحف والكلمة التى كتبها ابراهيم بخط يده .. ثم لا تلبث أن تفيق من استسلامها وتتذكر الوجه الاسمر الذى ينظر اليها ساخرا ، فتعود وتقرر المقاومة .. مقاومة نفسها وحبها ..
وظلت فى هذه الحيرة بين المقاومة ، والاستسلام .. حتى وصلت البيت .. ومر بقية اليوم ، ويوم الثلاثاء .. وحيرتها تشتد .. حتى انقلبت عذابا .. عذابا يبكيها وهى تحاول أن تقاوم عواطفها ويبكيها وهى تستسلم لهذه العواطف ..
وهى فى حيرتها مبتعدة عن كل من فى البيت .. لا تطيق أن تحادث أختها سامية .. ولا تطيق أن تناقش أمها .. ولا تطيق أن تجلس فى غرفة «القعاد» خلال الاجتماع العائلى الذى يعقب طعام الافطار .. ولا تطيق أن ترى أخاها محيى .. انه يزيد من عذابها وحيرتها كلما رأته .. يزيد من عذابها لأنها تخفى عنه ما بينها وبين ابراهيم فلا تستطيع أن تسأله عنه ، ولأنه لا يعلم بعذابها فيحاول أن يخفف منه .. ولا تطيق أن ترى عبد الحميد الذى لا يزال يتردد على البيت كل يوم ، وأعمتها حيرتها عن الحال الجديد الذى يبدو فيه عبد الحميد .. لم تلحظ انه يبدو صامتا اكثر مما تعود ، ولم تلحظ انه لم يفاتح أباها فى موضوع الزواج ،

وانه لايتحدث عن ابراهيم الا فى اشارات غريبة ، ولم تلحظ الهمسات الكثيرة التى تدور بينه وبين أختها سامية كأنهما يخفيان شيئا .. لم تلحظ كل شىء ..

وهى أيضا لا تطيق أن تجلس مع الضيوف الذين بدأوا يترددون على البيت بكثرة كأن أباها يتعمد أن يدعو كل العائلة والأصدقاء ليشهدوا ان ليس فى بيته رجل غريب .. ولا تطيق أن ترى سنية الخادمة وقد عادت الى خدمة البيت ، فلا تكاد تراها حتى تصرخ فى وجهها كأنها تصب عذابها عليها ..

كل ما كانت تفيق له وهى فى حيرتها هو أن تتطلع على جريدة الأهرام ، وتسمع نشرة الاخبار فى الاذاعة ، علها تقرأ أو تسمع خبرا عن ابراهيم .. ووجدت نفسها صباح الاربعاء ، تفتح دولابها وتلبس ثوب الخروج ، وتقف أمام مرآة لتتزين ..

لم تفكر كثيرا .. انما وجدت نفسها منساقة ، كأن هاتفا يدعوها اليه .. الى ابراهيم !

ولم تتزين كثيرا كما كانت تزينت أول مرة .. لم تحتر فى زينتها انما وقفت أمام مرآتها كأنها تنظر فيها الى انسانة أخرى لا تعرفها ولا تقر تصرفاتها ..

وقالت لأمها ، بعد أن بلغت الساعة العاشرة والنصف :

ــ أنا رايحة لوفاء يا ماما !

وقالت الأم فى حزم : لأ .. كفاية خروج ! ..

وتنبهت نوال الى أنها ستخوض معركة .. كأن اعتراض أمها على خروجها كان احتمالا بعيدا لم تفكر فيه ، وقالت فى تردد ، وهى تمنح أمها أجمل ابتساماتها : ده انا لبست خلاص يا ماما ؟

قالت الام دون أن تحتد : قلنا مافيش خروج ! ..

وقالت نوال وهى تقترب من أمها كأنها تحاول أن تلمس قلبها : والنبى يا ماما ، الله يخليكى ، انا مش حاتأخر ، ربع ساعة بس .. أصلى عايزة أتعلم منها قصة فستان جديد !

ونظرت اليها أمها مليا ، ثم قالت كأنها تقاوم حنانها :

ــ يا بنتى هو كل يوم خروج .. حتى أبوكى يزعل ؟

وقالت نوال : ما أنا قاعده فى البيت ماخرجتش بقالى يومين .. ويعنى أنا رايحه فين ؟ ..

وقالت الأم وهى تدير رأسها حتى لا يبدو ضعفها :

ــ تعرفى تتأخرى عن نص ساعة .. بقطع رقبتك ؟

وقالت نوال فى فرحة لانتصارها : حاضر ..
وخرجت نحو الباب ..
وما كادت تصل الى الشارع حتى زايلتها فرحتها .. وسارت مستسلمة كأنها منقادة الى مأساة ..
وعندما نزلت من الأوتوبيس ، لم تتعمد أن تخفى عينيها عن الناس .. بل كانت فى قرارة نفسها تسخر من النـاس الذين يعتقدون انها فى طريقها لملاقاة رجل .. لا .. لن تلاقيه .. انه لن يأتى .. استريحوا ايها الناس .. فلن نلتقى بابراهيم ..
ووقفت تحت ظل الشجرة نفسها فى ميدان عبد المنعم .. وهى تحس بيأس كبير .. كأنها تؤدى مهمة واثقة من فشلها ..
ونظرت سريعا الى ساعتها .. كأنها تريد أن تهرب من الفشل
وكانت الساعة الحادية عشرة ودقيقتين
وقررت بينها وبين نفسها أن تنتظر حتى الساعة الحادية عشرة وخاس دقائق .. ثم مدت الاجل ـ بينها وبين نفسها أيضا ـ حتى الحادية عشرة وعشر دقائق ..
ولكنها ما كادت تنزل ذراعهـا الذى يحمل السـاعة ، حتى بوغتت بسيارة تقف أمامها فجأة بعد أن زحفت عجلاتهـا على الأرض وأطلقت صوتا حادا ، كأن الأرض نفسها هى التى توقفت عن الدوران .. ونظرت داخل السيارة بعينين مبهورتين ..
لم يكن ابراهيم .. ولكنه كان صديقه فتحى المليجى
وكان يبتسم يحييها ، وقالت فى عجلة قبل أن تلتقط ابتسامته :
ـ فين ابراهيم ؟
ثم كأنها ندمت على تعجلها فاستطردت فى صوت خفيض خجل :
ـ ازيك يا أستاذ فتحى ؟
وقال فتحى وابتسامته لا تزال بين شفتيه :
ـ الله يسلمك .. ابراهيم ماقدرش ييجى .. الظروف ال ..
وقاطعته فى لهفة : ازيه ؟ ..
قال وقد اتسعت ابتسامته :
ـ كويس الحمد لله .. بيسلم عليكى وبيقول ..
وقاطعته مرة ثانية : هو فين .. قاعد فين ؟ ..
قال وهو ينظر اليها فى حنان كأنه يشفق عليها من سذاجتها :
ـ فى أمان .. وبيقول لك انه حايحاول ييجى الدور الجاى . والدور الجاى ماتستنيش هنا .. عارفة ميدان « فنى » اللى

جنبنا ، تستنى هناك عند الناصية اللى فيها مستشفى عانوس
وقالت فى استسلام عجيب : حاضر ..
واستطرد فتحى : وقولى لعبد الحميد ياخد باله ، أحسن البوليس مراقبه . وقولى له مايتكلمش كتير فى القهوة !
وقالت نوال فى دهشة : عبد الحميد ! ماله عبد الحميد !..
وقال فتحى ويداه فوق عجلة القيادة :
ـ ما اعرفش .. جات لنا معلومات ان البوليس بيراقبه .. حاطط له واحد ماشى وراه !
وفغرت نوال فاها ، كأنها لا تستطيع أن تبتلع دهشتها ، وقبل أن تهم بالكلام ، قال فتحى :
ـ أنا آسف .. لازم أمشى دلوقت .. اطمنى !!
ثم انطلق بسيارته قبل أن تفيق من دهشتها وقبل أن تحييه
وظلت واقفة مكانها جامدة واجمة ، كأنها تمثال جميل من الحجر الأسمر ..
ثم بدأ وجومها يذوب .. وأحست بفرحة خفيفة تنساب الى قلبها .. ان ابراهيم بخير وهو يذكرها وهو حريص على لقائها ..
وأحست كأن كل حيرتها وعذابها قد تبخر .. وان النور قد أشرق من جديد .. وان حياتها قد عادت نضرة نشطة مثيرة .. ومدت أصابعها واحتضنت العلبة الذهبية ، كأنها تصافح ابراهيم تهنئه بسلامة العودة .. العودة اليها !
وتذكرت ما قاله فتحى عن عبد الحميد ..
لماذا يراقب البوليس عبد الحميد ؟
لماذا عبد الحميد .. لماذا لا يكون أخوها محيى ؟!
وعادت الى بيتها فى حركات نشطة مسرعة لتؤدى المهمة التى كلفها بها ابراهيم .. لتقول لعبد الحميد أن يحترس من البوليس الذى يراقبه .. كيف تقول له ؟ ! ..
وبماذا تجيب اذا سألها ، كيف عرفت ان البوليس يراقبه ؟!
انها قطعا لن تقول انها تذهب كل يوم اثنين ، وأربعاء ، لتلقى ابراهيم .. ولن تقول له ان ابراهيم أرسل لها فتحى المليجى ليطلب منها أن تحذر ابن عمها من البوليس ..
ودخلت بيتها وذكاؤها كله محصور فى البحث عن الوسيلة التى تنبىء بها عبد الحميد ، حتى بدت كالتائهة .. تتحرك كالتائهة.. وتنظر كالتائهة .. وتتكلم كالتائهة ..

وجاء عبد الحميد فى الساعة الثالثة بعد الظهر .. كعادته أن يأتى عندما يكون الأب نائما ..

وما كادت تراه يدخل البيت ، حتى أسرعت الى الشرفة ، وأطلت منها تبحث عن رجل البوليس الذى قال لها فتحى انه يتبعه ..

وآدارت عينيها فى الرجال القلائل الذين تراهم فى الطريق .. عم عثمان بواب البيت المقابل .. والأسطى حنفى الكواء .. ومحمود بائع السجائر والحلوى .. و .. هناك رجل يقف بعيدا عن البيت مستندا الى عمود النور مرتديا ثيابا مدنية ، ويقرأ فى جريدة .. رجل غريب لم تره من قبل فى هذا الشارع .. غريب فى مظهره ، وغريب فى وقفته ، وغريب فى نظراته التى يطلقها بين الحين والحين ناحية البيت ..

وغادرت الشرفة ، ومرت بعبد الحميد وهو جالس مع سامية فى حجرة القعاد دون أن تقول له شيئا ..

وانتظرت الى أن خرج عبد الحميد ، وأسرعت مرة ثانية الى الشرفة وأطلت منها .. وراقبت عبد الحميد وهو يبتعد عن البيت .. وراقبت الرجل الآخر .. لقد طوى الجريدة بيديه ، ثم سار خلف عبد الحميد محتفظا بمسافة كبيرة تبعد عنه .. وانحرف عبد الحميد الى اليمين عندما وصل الى آخر الشارع ، فانحرف الرجل الآخر خلفه ..

وتركت نوال الشرفة ، وقلبها يضطرب خوفا ، كأنها رأت عبد الحميد يذبحه البوليس .. ولم تتكلم ..

وعانت كثيرا حتى تمنع نفسها من الكلام .. كانت تريد أن تقول لسامية كل شىء .. أن تطلعها على سرها الخطير .. ولكنها خافت أن تفشى سامية سرها لعبد الحميد .. ان سامية كتومة ، ولكنها تحب عبد الحميد ، ولم تعد تخفى حبها فى الأيام الاخيرة ، وقد تفزع للنبأ فينهار لسانها أمام حبها .. ولذلك فضلت نوال أن تحمل سرها وحدها وتعانى ضغطه على صدرها وعلى أعصابها .

وجاء عبد الحميد فى اليوم التالى .. وأطلت نوال من الشرفة فرأت نفس الرجل .. يقف نفس الوقفة ، مستندا الى عمود النور ، مرتديا نفس البدلة ، والجريدة فى يده ..

وتركت الشرفة ، ووقفت أمام عبد الحميد قائلة وهى تتروى فى كلماتها حتى لا يسقط منها سرها :

ـ اسمع يا عبد الحميد .. أنا ملاحظة حاجة غريبة قوى !
ورفع عبد الحميد رأسه المهموم ، الذى لم يبد همه الا فى الايام الاخيرة ، وقال بصوت خافت ، لم يخفت الا اخيرا :
ـ خير انشاالله !
وقالت نوال : انا ملاحظه انك كل ما تيجى هنا ، فيه راجل بييجى وراك ، ويفضل مستنى فى الشارع لغاية ما تخرج يبتدى يمشى وراك .. أنت تعرفه الراجل ده ؟ !
واتسعت عينا عبد الحميد ، وقال فى دهشة يختلط بها الفزع :
ـ راجل .. راجل ايه ؟!
وقالت نوال وهى لا تزال تختار الفاظها : أنا عارفه .. متهيأ لى انه زى ما يكون عسكرى داوريه ، بس لابس بدلة أفندى !..
وقالت سامية فجأة كأنها تنفى تهمة تحرص على نفيها :
ـ عسكرى، واحنا مالنا ومال العساكر، احنا مانعرفش عساكر!
وقال عبد الحميد وهو يكاد يرتجف :
ـ فين هو ده .. هو واقف دلوقت تحت ؟!
قالت نوال : ايوه .. تعال حتى شوفه !..
وقام عبد الحميد ، ووقف فى الشرفة مبتعدا عن حاجزها ، وأشارت نوال الى الرجل الغريب الواقف مستندا الى عمود النور، ودخل عبد الحميد بسرعة الى الحجرة وهو يقول لنوال :
ـ وبقى لك أد ايه وانتى بتشوفى الراجل ده ؟
قالت وهى تنظر اليه فى اشفاق : من مدة اربع أيام !!..
وسكت عبد الحميد ، وأخذ يروح ويجىء فى الغرفة وهو يفرك احدى يديه بالأخرى فى عنف ، وسامية تنظر اليه مبتهلة كأنها تستجديه كلمة يطمئنها بها ..
وقالت نوال وهى لا تزال تنظر اليه فى اشفاق :
ـ تفتكر انه بوليس ؟!
وقال عبد الحميد فى حدة : ماعرفش ..
ثم خرج من الحجرة مسرعا وسامية خلفه تصيح .
ـ عبد الحميد .. رايح فين ؟!
ورد عليها عبد الحميد وهو متجه نحو باب الشقة :
ـ رايح أشوف الراجل ده ماشى ورايا ليه !
وخرج وصفق الباب وراءه ..

وشهقت سامية كأن قلبها قد اختنق بين ضلفتى الباب !

نظر عبد الحميد الى الرجل الذى أشارت عليه نوال ، ثم سار متجها الى شارع الجيزة وتلفت خلفه فاذا بالرجل يتبعه عن بعد

ووقف عند محطة الترام ، فاذا بالرجل يلحق به ويقف على الجانب الآخر من المحطة ؟

وركب الترام نمرة « ١٥ » ونظر خلفه فاذا بالرجل يركب خلفه فى نفس العربة.. ونزل من الترام فى ميدانالعتبة الخضراء ، ورأى الرجل ينزل خلفه ويتبعه ..

وركب الترام نمرة « ٨ » المتجه الى شبرا ، وركب معه الرجل .. ونزل عند شارع شيكولانى ، فنزل الرجل خلفه ..

وسار الى بيته والرجل يتبعه ..

ودخل بيته ، وأطل من النافذة ، من خلال الواح « الشيش » فاذا بالرجل واقف قبالة البيت مستندا الى جدار ، وقد فرد جريدته أمام وجهه ..

وترك النافذة ، وانهار على مقعد ، وأسقط رأسه بين يديه .. وأحس بمرارة حارة تقطر من قلبه ويكاد يذوق طعمها بلسانه ..

انه يحس بهذه المرارة منذ ذهب الى المحافظة وقابل الاميرالاى همام بك .. مرارة الفشل .. مرارة الاهانة المضاعفة التى لحقت بذكائه ، عندما خدعه ابراهيم وترك البيت دون أن يعلم ، ثم عندما تسرع وقابل همام بك واكتشف انه لا يستطيع أن يقول له شيئا ، واضطر أن يكذب عليه ..

وكان يحاول أن يتغلب على هذه المرارة .. أن يبتلعها ويهضمها كما استطاع أن يهضم كثيرا من الأخطاء التى ارتكبها فى حياته ..

كان يحاول أن يقنع نفسه أنه ليس انسانا فاشلا ، ولكنه انسان ذو ضمير .. وأن ضميره هو الذى غلبه !

وكان فى حاجة الى سامية أكثر من حاجته اليها فى أى وقت مضى .. انها تمثل اقتناعه بأنه لم يفشل .. وهى الوحيدة التى تمده بالثقة فى نفسه ، وتشعره بغروره .. وهى لم تعد تتدلل عليه ، ولا تصده ، ولا تتهمه بسوء الخلق ، بل منذ لحقت به فى « المحافظة » وهى تنظر اليه كانسان كبير ، وتعتقد أنه كذب على همام بك من أجلها .. من أجل حبها .. أنقذ البيت كله اكراما لخاطرها .. ومنذ ذلك اليوم وهى تتودد اليه ، وتعطيه اهتمامها وحنانها أكثر مما أعطته طول حياتها .. وتدفعه الى

الاصرار على الزواج بها .. تدفعه بكلمات ملفوفة فى طيات حيائها .. ولكنه رغم ذلك لم يعد يستطيع أن يحتفظ باصراره ، لم يعد يشعر بالقوة والذكاء اللذين يصر بهما على مطالبه .. كان يشعر بالضعف ، ومن خلال ضعفه بدأ يعترف لنفسه بنقائصه.. بدأ يحس بالندم على حياته كلها .. الندم على عربدته .. والندم لأنه لم يتم تعليمه وينل شهادته .. ومن خلال ضعفه أيضا أصبح حبه لسامية أكثر رقة ، وبدأ يشفق عليها من نفسه ، ومن مصيرها معه .. لم يعد فى حبه هذا التحدى ، وهذا العنف ، وهذا الذكاء .. وكلما اشتد احساسه بضعفه ، اشتد احساسه بحاجته الى سامية .. فيذهب اليها مستسلما ، مستكينا ، صابرا .. لا يحاول أن يقحم نفسه على قلبها ، ولا يحاول أن يفاتح عمه فى موضوع الزواج .. عمه الذى تجاهل هذا الزواج منذ خرج ابراهيم من البيت ، وكأنه لم يعط به وعدا ..

وكان يعتقد أن فشله سينتهى عند هذا الحد .. لن يكون له عواقب أخرى .. فقط سينتظر فترة ما ، الى أن تمتص الايام ما يحس به من مرارة ، والى أن يتقرر مصيره مع سامية

ولم يكن يعتقد أن البوليس سيتعقبه ، ويراقبه ، لم يكن يعتقد أن همام قد اكتشف كذبته ، فقد كان يبدو أمامه مصدقا مهذبا ، كأنهما أصدقاء .. هذا الثعلب .. هذا المجرم .. هذا السفاح

وشعر ان له عدوا .. عدوا قاسيا ظالما ..

همام .. البوليس .. كل رجال البوليس ..

ورفع رأسه من بين يديه ، وقام واقفا وأخذ يطوف فى أنحاء الشقة الصغيرة البسيطة الكالحة الأثاث التى يقطنها وحده .. وهو يفكر .. كيف يهرب من همام .. كيف يهرب من البوليس.. انه هو الآن الذى يهرب من البوليس لا ابراهيم .. وخبط مقعدا صادفه فى طريقه ببوز حذائه .. ثم أسند رأسه على الحائط وأخذ يخبط عليه بقبضتيه ، كأنه انسان وجد نفسه فى السجن ، وجدران السجن تنطبق على جسده حتى تكاد تحطم ضلوعه

ودخل الخادم الذى عاش معه فى عربدته منذ استقل بالسكن بعيدا عن أهله .. خادم من أولاد البلد ، كل شىء فيه نشط وتحس انه يستطيع أن يفعل كل شىء .. يكنس ، ويطبخ ، ويغسل ، ويرتق الجوارب ، ويعد جلسات الحشيش ، ويتفاهم مع الصنف الرخيص من النساء ، وفيه نعومة وتثن ، كأنه نصف

رجل .. وفيه صفاقة كأن ليس فى الحياة كلها ما يستوجب الحياء .. وفيه ذكاء مريب .. وفيه أيضا اخلاص عاطفى ، وشهامة لا ترتكز على أخلاق .. نوع من الخدم تجده دائما فى بيوت الطلبة وصغار الموظفين العزاب ..

ونظر الخادم فى جزع الى سيده ، وهو يضرب الحائط بيده ، وقال فى لهفة نسائية وبلهجته المتميعة : خير ياسى عبد الحميد .. كفى الله الشر .. حصل أيه ياسيدى !..

ورفع عبد الحميد رأسه وصرخ فيه : ابعد عنى غور من وشى

وقال الخادم فى توسل : ايه بس ياسيدى ، ايه اللى جرى !..

وصرخ عبد الحميد مرة ثانية وهو يتقدم نحوه كأنه يدفعه من أمامه : با أقولك غور من وشى .. غور ..

وطأطأ الخادم رأسه دون أن يتحرك من مكانه ، ثم رفعه وقال : مش حاتفطر ياسى عبد الحميد .. المدفع قرب يضرب احنا ماطبخناش حاجة النهاردة .. حضرتك نزلت من غير ما تدينى فلوس !

ورفع عبد الحميد كفه وهوى بها على صدغ الخادم .. وفى نفسه احساس يدفعه الى أن يضرب أى شىء .. الحائط ، الخادم، نفسه ، أى شىء .. وصرخ :

ــ مش حاتسمم النهارده .. مافيش سم النهارده .. فاهم . انزاح من قدامى .. انزاح باقول لك ، قبل ما شرحك !

وتلقى الخادم الصفعة ، وانسحب من الغرفة ذليلا كالكلب

وقرر عبد الحميد الا يخرج من البيت .. وظل حائرا ..

ودوى مدفع الافطار .. وصرخ فى خادمه يأمره باحضار قطعة من الجبن ورغيف عيش ..

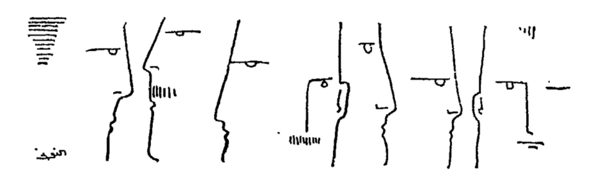
والقى بالطعام فى جوفه دون أن يحس بطعمه ..

ثم لم يستطع أن يبقى فى بيته .. وقرر أن يخرج .. بأى ثمن ومهما حدث ، انه سيختنق ان لم يتحد البوليس وهمام بك !

ودخل الحمام .. وفتح الدش فوق رأسه كأنه يستغيث بالماء من النار التى تندلع فى صدره .. وارتدى ثيابه ، ثم نزل .. وسار فى الشارع متجها الى شارع شبرا .. ونظر خلفه ليجد نفس الرجل يتبعه ..

وسار فى شارع شبرا طويلا فوق الرصيف .. ثم نزل من

الرصيف فجأة ، وجرى خلف عربة ترام وتعلق فيها ..
ونظر خلفه .. كان رجل البوليس واقفا فوق الرصيف ينظر اليه ، ويبتسم ..
وأحس انه ضلل البوليس ، هرب من همام بك ..
ولـكن لماذا كان رجل البوليس يبتسم ؟ ! ..
وهز كتفيه بلا مبالاة .. واكتفى بأن اتهم رجـل البوليس بالبلاهة !.. واتجه الى المقهى الذى تعود أن يجلس فيه .. ولم يعد ينظر وراءه خلال سيره
وصافح أحد زملائه فى المقهى ، وجلس معه ، وطلب صندوق الطاولة ، وأخذ يلعب الطاوله وفكره كله مشغول بالبوليس ..
ورفع رأسه فجأة .. وشهق ..
ان رجل البوليس واقف هناك .. قريبا جدا من المقهى .. وهو ينظر اليه ، وبين شفتيه ابتسامته البلهاء .. اذن ، لقد عرف البوليس كل الاماكن التي يتردد عليها .. أصبح محاصرا..
وابتلع شهقته ، واعتذر لصديقه عن الاستمرار فى اللعب .. ثم قام منكس الرأس واتجه الى بيته .. ولم ينظر وراءه ..
فقد كان يرى ظل رجل البوليس يسبقه .. يرى خيالا أسود ينطلق من أفكاره المشوشة ، ويفرش أمامه الطريق ..



١٥

ولم ينم عبد الحميد ..

اخذ يتقلب فوق أفكاره السود .. والظلام يملأه .. ظلام فى قلبه ، وظلام فى رأسه ، وظلام فى عروقه .. وينتابه الفزع من هـذا الظـلام ، وتجحظ عينـاه كأنه مخنوق ، ثم يغمض عينيه ليهرب من الظلام ، فيجد الظلام تحت جفنيه !

وكانت كل فكرة تخطر له ، تغزه فى جنبه كالشوكة ، ويكاد يصرخ منها .. يصرخ غيظا ، وحقدا ، وخوفا ..

فكر أن يذهب مرة ثانية الى همام بك ، ويروى له القصـة كاملة ، ويطلب منه أن يعفيه من هذه المراقبة وهذا الحصـار المفروضين عليه ..

ولكنه لايستطيع .. لم يعد ضميره وحده الذى يمنعه من أن يبلغ البوليس عن ابراهيم وعن عمه ، وعن أولاد عمـه .. انه الحقد أيضا .. الحقد على همام .. انه يشعر بكراهية عجيبة له .. كأنه اختزن طاقته الثورية كلها طول عمره ليصبها اليوم حقدا على همام ، وعلى البوليس ..

لقد أصبح همام يمثل أمامه شاهد فشله ، وغبائه .. وفكر أن يقتل هذا الشاهد .. أن يقتل همام .. حتى لا يعود أحـد يشهد على انه انسان فاشل ، جشع ، ضعيف ..

ولـكنه أضعف من أن يقتل همام ..

وفكر أن يهرب من القاهرة كلها .. أن يختفى فى مكان ما بعيدا عن عين همام .. ولكن لماذا يهرب ؟ ولماذا يراقبه البوليس ؟..

ان ما يغيظه ويحنقه انه لا يجد شيئا يقنع به نفسه انه يستحق

مراقبة البوليس .. لا يستطيع أن يقنع نفسه بأنه بطل وطنى يطارده البوليس .. انه ليس بطلا .. وليس وطنيا .. بالعكس .. لقد كان أقرب الى البوليس ، منه الى الابطال الوطنيين !..

وأحس بالندم لأنه لا يستطيع أن يحس باحساس البطل .. لايستطيع أن يجد شيئا يؤمن به ويتحمل فى سبيله مراقبة البوليس ! وقام فى الصباح مقرح الجفنين مشتت الذهن خائر الاعصاب .. وأطل من النافذة بعينين مضطربتين ، يبحث عن الرجل الذى يراقبه ، فلم يجده .. لم يجد الرجل الذى كان يراه بالامس .. ماذا حدث ؟ ! أين ذهب ؟ ! هل أعفاه من اهتمامه ؟.. هل تأكد انه برىء وانه لايستحق المراقبة ؟

ولم يفرح .. ولم يطمئن .. ان قلبه لايزال منقبضا ، ولا يزال الظلام يملأه .. واغتسل ولبس ثيابه ، وهو ساهم ، حتى نسى أن يحيى خادمه بالسب كما تعود أن يحييه كل صباح ..

وخرج من البيت فى طريقه الى الشركة التى يعمل بها .. وبحركة تلقائية التفت خلفه ، فلم ير انسانا معينا يتبعه .. وسار بضع خطوات والتفت خلفه مرة ثانية ، فخيل اليه أن هناك من يتبعه .. انسان آخر غير الذى كان يتبعه بالامس .. والتفت مرة ثالثة .. انه انسان يرتدى جلبابا وفوقه معطف ، وعلى راسه طربوش طويل كطرابيش رجال البوليس .. ووقف على محطة الترام ، فوقف الرجل على الناحية الاخرى من رصيف المحطة.. وتأكد ان هذا الرجل يتبعه ، ان همام بك استبدل عينه بعين أخرى

وبدأت نوبة من الاضطراب الشديد تسرى فى أعصابه .. أخذ دمه يرتعش داخل عروقه .. ثم يبرد .. كأنه تجمد .. وكأنه يرى الموت .. وركب الترام ثم قفز منه أثناء سيره ..

وقفز الرجل الآخر خلفه ..

ولم يكن لعبد الحميد خبرة الشبان الثائرين الذين يوضعون تحت مراقبة البوليس .. لم يكن يعلم أن دليل الاتهام لدى البوليس هو محاولة الهرب من رقابته ، وان المتهم الذى يتظاهر بعدم شعوره بمراقبة البوليس ، تعلن براءته .. لا لشىء إلا لأنه لا يشعر بأنه متهم وبالتالى لا يشعر بأنه مراقب .. فهو برىء !

لم يكن عبد الحميد يعلم ذلك ، فأخذ يتهرب من الرجل الذى يتبعه .. يقفز من ترام الى ترام ... يركب سيارة أجرة ، ثم يتركها .. ويدخل مبنى الشركة ثم يخرج منها .. ويتجه الى

الجيزة ثم يعود يتجه الى مصر الجديدة .. فاذا غاب الرجل الآخر عن عينه ، خيـــل اليه أن هناك غيره .. ان أى رجل فى الطريق يتبعه .. كل الرجال يتبعونه .. كلهم من رجال البوليس سلطهم عليه همام بك .. وأصبح كالمجنون .. يجرى فى الطريق وكل شيء فيه يلهث فى فزع كأن النار وراءه وأمامه ومن حوله ..

وجاء المساء وهو منهك .. أغبر الوجه .. وخصلات من شعره تتطاير فوق رأسه كأنها أكثر فزعا منه .. وثيابه تهدلت فوق جسده .. طار رباط عنقه فى ناحية ، واتسخت ياقة قميصه ببقع من عرقه ، وانكمشت سترته .. وأحس بالتعب .. تعب شديد .. أحس أن قواه كلها قد تخلت عنه .. لم يعد يستطيع أن يجر ساقيه .. ولم يعد يستطيع أن يقف .. ولم يعد يستطيع أن يفتح عينيه .. أنفاسه بدات تتهدج فى صدره ، كأنه أيضا لايستطيع أن يتنفس .. ولم يكن قد ذهب الى بيته طول يومه ، خاف أن يذهب اليه فيجد همام بك فى انتظاره .. ولم يكن قد أكل شيئا الا « ساندوتش » بالفول ، التهمه وهو واقف ، وعيناه تدوران حوله تبحثان عن رجال البوليس الذين يتبعونه ..

وأراد أن يذهب الى سامية .. ليستريح !

. أحس انه فى حاجة لأن يضع رأسه فوق كتفها ، ويبكى ..

انها الوحيدة التى تفهمه .. وتحبه .. كل الدنيا تكرهه وتسيء فهمه ، ما عدا سامية .. وهو يجد فى فهمها وحبها ، راحته وثقته بنفسه ورجولته .. انها الناحية الوحيدة من حياته التى ظلت نظيفة طاهرة هادئة ، لم يلوثها بذكائه !

وقرر أن يذهب الى بيت عمه ..

وركب الترام حتى وصـــل الى ميدان الجلاء ، ثم نزل منه وسار على قدميه .. وهو دائما يشعر بأن هناك من يتبعه .. ودائما يتلفت خلفه .. والنظرة المذعورة المضطربة لا تفـــارق عينيه .. وسار فى شارع الجيزة طويلا ، ثم جرى خلف سيارة أوتوبيس وتعلق بها .. ووصل الى بيت عمه .. ونظر خلفه ، واعتقد ان لا أحد يتبعه .. ودخل البيت ..

وهمست ســـامية فى أذنه وهى تنظر فى اشـــفاق الى حاله المضطرب : مالك ؟ ..

قال وهو يحاول أن يبتسم : مافيش ..

قالت وهى لا تصدقه : حصل حاجه ؟ ! ..

قال وهو يرفع اليها عينيه كأنه يستغيث بها :
ــ لا .. ما فيش حاجة !
قالت وهى لا تزال تهمس :
ــ عرفت حكاية الراجل اللى بيمشي وراك ؟ ..
قال وهو يدير عينيه عنها حتى لا يفضحه اضطرابه :
ــ يعنى حا يعمل ايه اللى يمشي ورايا .. يتفضلوا يمشوا ورايا .. أما نشوف حيحصل أيه ! !
ونظرت اليه سامية وهى لا تصدقه ثم نكست رأسها كأنها تكبت ألما .. وعاد عبد الحميد يرفع اليها عينيه كأنه يستجديها الا تزيد من متاعبه .. ويستجديها أن تدعه يضع رأسه على كتفها ، ويبكى .. ثم هز رأسه فى حسرة ، كأنه يطرد حاجته الى البكاء .. ودخل حجرة « القعاد » حيث تعودت أن تجتمع العائلة عقب الافطار ..
ونظرت اليه الام فى دهشة ، وقالت :
ــ مالك يا عبد الحميد يا ابنى .. مالك معفر كده ؟ !
وقال عبد الحميد ، وهو ينحنى يقبل يدها ، ويحاول أن يشد من صدره المظلم ابتسامة : أصلى ما رحتش البيت النهارده .. قعدت طول النهار فى الشغل ! ! ..
وقالت الأم : وفطرت ؟ ! ..
قال وهو يستدير ليصافح عمه : ايوه فطرت فى الشارع ! !
ومد الاب يده اليه دون أن يرفع وجهه عن الجريدة التى يقرأ فيها ، فالتقطها عبد الحميد وانحنى يقبلها .. دون أن يتكلم .. وقام محيى من المقعد « الاسيوطى » العريض الذى يجلس عليه ، وقال وهو يخرج من الغرفة : ازيك ياعبده ؟ ..
ثم استطرد وهو يدير ظهره اليه : أما أروح أذاكر لى كلمتين !
ونظرت اليه نوال بلهفة ، وهى تحاول أن تقرأ أخباره على وجهه المضطرب ، ثم سكتت ، كأن ما قرأته شل لسانها ..
وجلس عبد الحميد فى المقعد « الاسيوطى » العريض الذى تركه محيى .. وأحس بالراحه ..
راحة كبيرة ، كأن روحه المصهورة بالنار تنفث أبخرتها ، لتعود باردة هادئة .. وشعر بالاطمئنان .. والأمان .. كأن هذه العائلة البسيطة الطيبة تستطيع أن تحميه من اخطائه .. وأحس انه يريد أن ينام .. نوما طويلا عميقا ، لايزعجه فيه شبح همام بك

ومال بظهره الى الوراء ، وأغمض عينيه برهة كأنه سينام فعلا ثم ما لبث أن فتحهما على صوت جرس الباب الخارجى ..

ولم يتحرك أحد من العائلة لسماع رنين الجرس .. ظل الأب مسقطا رأسه فى صفحات جريدته .. والام تفرد بين يديها ثوبا قديما ثم تطويه وهى تفكر فى طريقة تحيل بها هذا الثوب الى شيء آخر جديد .. وسامية تنظر الى عبد الحميد وتتنهد .. ونوال تطلق خيالها وراء ابراهيم ، ثم تنتبه لتقلب فى صفحات مجلة ، ثم تعود وتجرى وراء خيالها .. ثم تتعب من الجرى ، فتمد يدها وتلتقط بعض حبات البندق من الطبق الموضوع بجانب أكواب الشاى الفارغة ، وتبدأ فى تكسيرها بأسنانها ..

وسمعوا صوت قدمى سنيه الخادمة ، وهى تتجه نحو الباب .. ثم سمعوا صوت الباب يفتح .. وسمعوا صوتا غليظا يتحدث ، وأن لم يتبينوا كلامه .. ثم عادت واجتازت غرفة « القعاد » فى طريقها الى غرفة محيى ، ولكن الام أوقفتها صارخة دون أن ترفع رأسها عن الثوب القديم : مين يابت ؟ ! ..

واطلت سنية برأسها الصغير عليهم قائلة :

ــ دول جماعة بيسألوا على سيدى محيى !

وأزاح الأب الجريدة من أمام وجهه وقال : جماعة ايه ؟ ! ..

وقالت سنية : ما اعرفش ياسيدى .. تلات رجالة كبار .. شكلهم كده ما اعرفش ازاى ! ! ..

وقفز عبد الحميد الى مقدمة المقعد الذى يجلس عليه وقد فتح عينيه على سعتهما ورفعت الام رأسها عن الثوب القديم ، وتبادلت العائلة نظرات حائرة مضطربة ثم اتجهت الانظار كلها الى الاب .. وصمت الاب فترة وقد قطب ما بين حاجبيه كأنه يحاول أن يخترق الجدران بعينيه .. من يا ترى بالباب .. ليس من عادة أصدقاء محيى أن يزوروه فى البيت .. وسنية الخادمة تصفهم بأنهم رجال كبار .. وليس لمحيى أصدقاء كبار ؟ !

وتحركت سنية الخادمة لتكمل طريقها الى غرفة محيى ، ولكن الاب أوقفها قائلا فى صوت عميق يجذبه من بين أفكاره المضطربة :

ــ ادخلى انتى المطبخ ..

ثم استطرد مخاطبا نوال :

ــ قومى انتى يا نوال شوفى مين ؟.. واستفهمى كويس !

وقامت نوال .. وما كادت تجتاز باب الغرفة ، حتى فوجئت

برجل طويل يرتدى جلبابا وفوقه معطف أسود ، وعلى رأسه طربوش ، يقف فى عرض الباب الذى يفصل الصالة الخارجية والمر المؤدى الى باقى غرف البيت .. وينظر الى الداخل نظرات وقحة جريئة .. وشهقت نوال .. وارتدت خطوة ..

ثم كتمت شهقتها ، وتقدمت فى خطوات مهتزة ، وقلبها ينتفض بعنف فى صدرها ، وتنتفض معه رموش عينيها ..

وقالت وهى تحاول أن تسيطر على انتفاضة صوتها :

ــ حضرتك عايز مين ؟ ! ..

ولم يتكلم الرجل .. ظل واقفا ينظر اليها من عل .. ثم رفع ذراعه وأشار لها بأصبعه الى رجل آخر يقف فى وسط الصالة مرتد بذلة مدنية أنيقة ويضع يده فى جيب سترته كأنه يقبض على شىء ..

وتقدمت نحو الرجل الآخر بعينين متسائلتين ، فابتسم لها ابتسامة لزجة مفتعلة ، وقال فى لهجة حاول أن يجعلها مهذبة :

ــ الاستاذ محيى زاهر موجود ؟ ! ..

وقالت نوال وهى تضغط بكل أعصابها على رعشتها :

ــ نقول له مين ؟ ..

ونظر اليها الرجل مليا ، كأنه يشفق عليها ، ثم قال ويده لاتزال فى جيب سترته : البوليس ! ! ! ..

وشهقت نوال شهقة حادة لم تستطع أن تحبسها ، ورفعت يدها ووضعتها فوق شفتيها ، كأنها تكتم أنفاسها ، ثم قالت بصوت لاهث : بوليس .. بوليس .. ليه ؟ ! ..

وقال الرجل وابتسامته اللزجة تسيح فوق شفتيه :

ــ ما فيش حاجة .. بس اديله خبر !

وجرت نوال الى الداخل كأن النار أمسكت بثيابها ، ودخلت غرفة « القعاد » ، وهى تصيح كأنها تنعى ميتا : البوليس !!!..

وهب الاب واقفا وهو يمسك بنظارته الذهبية بكلتا يديه حتى لا تسقط فوق أنفه ، وقال وهو لا يكاد يلتقط أنفاسه :

ــ بتقولى ايه .. بوليس ؟ ! ..

وخبطت الام على صدرها وهى تصيح كأنها تعدد وراء نعش :

ــ يامصيبتى .. بوليس .. يامصيبتى .. يامصيبتى .. آدى آخرتها يا زاهر .. قلت لك من الاول يا زاهر .. و ...

ونهرها الاب فى صوت خافت :

ـ بس يا تحية .. امسكى نفسك اعملى معروف ، أحسن نروح كلنا فى داهيه ، مافيش حاجه حاتحصل ، احنا خايفين ليه ؟!
وشد قامته وساوى فتحة جلبـابه حول عنقه ، ومد يده يصلح من وضع الطاقية فوق رأسه ، كأنه يحاول أن يعطى مثلا بشجاعته لباقى أفراد العائلة ..
وظل عبد الحميد جالسا .. وانكمش فى مقعده ، وقال بصوت خافت : دول عايزينى أنا .. أنا عارف .. عايزينى أنا ! ! ..
وقالت نوال فى حسرة وقد سمعته :
ـ لا .. دول بيسألوا على محيى ! !
واخذت سـامية تدير عينيها بين أفراد العـائلة ، وتلتقط كلماتهم ، ثم أسقطت رأسها فوق صـدرها ، وأخـذت تنشج بالبكاء ، وقالت فى كلمات ممزقة : أنا قلبى كان حاسس بكده .. كنت عارفه ان كل ده حيحصل لنا ! ! ..
ونهرها الاب وهو يهمس فى صوت خافت محتد :
ـ بس بلاش عياط .. ما تودناش فى داهية .. اعملوا نفسكم ما تعرفوش حاجة ! !
ثم وضع قدميه فى الشبشب ، وقال لنوال :
ـ روحى اندهى لأخوكى وخليه يحصلنى ! !
ثم خرج من الغرفة ، والتقى بالرجل الطويل الذى يقف على عرض الباب بين الصالة والممر الداخلى .. فتوقف قليـلا .. وشعر كأن هذا الرجل قد صفعه .. كأنه اهين .. كأن شرفه وكرامته قد سلبا منه .. كيف يسمح هـذا الرجل لنفسه بأن ينظر الى داخل البيت بهذه الوقاحة .. بأى حق يعتـدى على حرمة البيت ؟ ! ..
ودارى احساسه بالصفعة التى لطمت كرامته ، وتقدم بضع خطوات وهو يبحث بعينيه عن الآخرين ..
واجتاز الرجل دون أن يحييه ، كأنه يرد له الاهانة ، ووجد نفسه فى الصالة أمام الرجل الآخر الذى يرتدى البدلة المدنيـة الأنيقة ، والتفت فرأى رجلا ثالثا يقف بجوار باب الشقة يرتدى جلبابا بلديا ..
وقال الرجل الأنيق ، وابتسامته اللزجة لا تزال فوق شفتيه ، ويده لا تزال فى جيب سترته : حضرتك والد محيى زاهر ؟ ..
وقال الأب وهو يحاول أن يبدو هادئا : ايوه .. فيه خدمة ؟ !

وقال الرجل : امال فين محيى ؟ ! ..
ونطق اسم محيى بلا تكلف كأنه صديقه ..
وقال الأب : بيذاكر .. جاى حالا ! ..
وجاء محيى .. ممتقع الوجه ، يسير فى خطوات مترددة مرتعشة ، ونظراته حائرة خلف نظارته كأنها حبيسة فى قفص من زجاج ، ووقف ملتصقا بوالده كأنه يحتمى به .. ونظر الى الرجل دون أن يتكلم ..
وقال الرجل الأنيق ، وهو يحاول أن يكون أنيقا فى كلماته :
ـ ازيك يا محيى ؟ !
وقال محيى وهو يبدو كالأبله : الله يسلمك ! ..
وقال الرجل ملتفتا الى الأب ، فى لهجة أكثر جدية :
ـ تسمحوا لنا نفتش البيت ؟ ..
وتنهد الأب كأن هما ثقيلا انزاح من فوق صدره .. انه واثق انهم لن يجدوا أحدا فى بيته .. وقال متعجلا : اتفضلوا ..
ثم اكتشف تعجله ، فاستطرد قائلا : ليه ؟ ! ..
وقال الرجل وهو يبتسم : مجرد اجراء .. روتين ! ! ..
وقال الأب كأنه يدافع عن بيته : حضرتك تبقى ...
وقاطعه الرجل فى زهو :
ـ أنا اليوزباشى محمود الدباغ ، من القلم السياسى ..
وارتعش محيى رعشة خفيفة ، ونكس الأب رأسه .. فقد كان اسم محمود الدباغ ، اسما خطيرا مخيفا يقترن دائما باسم همام بك ، ويتردد دائما فى كل حركة وطنية كعدو للطلبة وعدو للناس
وقال الأب وهو لايزال منكس الرأس : تسمحوا تبتدوا بأودة الضيوف لغاية ما أدى خبر للستات ؟ ..
وقال الضابط فى أدب سمج : اتفضل يا افندم ..
واتجه الضابط الى غرفة الضيوف التى أشار اليها الأب ، وفتح بابها ، ونظر فيها بلا مبالاة دون أن يدخلها .. بينما كان محيى قد استرد بعض شجاعته وأخذ ينظر اليه كأنه يرى أسطورة مجسمة .. هذا هو محمود الدباغ .. الرجل الذى يطالب زملاؤه الطلبة برأسه فى كل مظاهرة .. انه أقصر مما كان يعتقد .. وأعرض قليلا مما كان يرسمه فى خياله .. وهو يبتسم ، ولم يكن يعتقد انه يبتسم .. وهو يتحدث فى هدوء ، وقد كان يعتقد أنه لا يتكلم الا سبابا وصفعا ..

وأحس برغبة خفية فى أن يتحدى هذا الضابط .. محمود الدباغ .. انه مطمئن الى أن هـــذا الدباغ لن يجد شـــيئا ولا أحدا فى البيت .. لن يجد ابراهيـــم حمـــدى .. ورغم ذلك فالشعور بالاطمئنان لا يكفيه .. انما هناك شعور آخر يدفعه الى التحدى .. كأنه يريد أن يثبت لنفسه انه لا يخاف .. كأنه يحاول أن يمثل قصة يرويها لزملائه يوما ما .. ولـكن كيف يتحداه ؟ ..

واستغرق فى حديث بينه وبين نفسه : « لماذا لا يسأله عن أمر التفتيش .. ان البوليس لايستطيع أن يقتحم بيتا ويفتشه الا بأمر النيابة .. فهل استصدر محمود الدباغ أمرا من النيابة ؟.. ان من حقه أن يطلع على هذا الأمر قبل أن يسمح له بالتفتيش.. ومن حقه أن يمنعه من التفتيش اذا لم يكن معه هذا الأمر .. فليسأله عنه وليطالبه بأن يبرزه له مكتوبا ، مختوما بختم النيابة »

وأحس محيى بالزهو ــ بينه وبين نفسه ــ وهو يكتشف هذا الاستشكال القانونى .. وتصور نفسه أستاذا كبيرا من أســاتذة القانون .. يحتمى بالقانون ولا يستطيع أحد أن يخدعه فيه ..

ورفع عينيه الى اليوزباشي محمود الدباغ ، فواجهته الابتسامة اللزجة ، تطل من تحت نظرة ساخرة مستهترة كأنه يستهين به ، ويحتقره ! ! ..

وارتعشت عينا محيى ، ورفع اصـبعه يضغط به على قنطرة نظارته ، ولم يتكلم .. شىء يمنعه من الكلام .. كأنه يخاف أن تكلم أن يغضب اليوزباشي الدباغ ، فيصـــفعه ، أو يطلق عليه الرصاص ، ولكنه يجب أن يتكلم ، أن يتحرر من الخوف ويتكلم !

وكان لايزال يحاول الكلام ، عندما عاد الأب ، وقال لضابط البوليس : اتفضلوا ..

وتقدم الرجال الثـــلاثة الى الداخل .. ومحيى خلفهم ، وهو لايزال يمنى نفسه بالكلام ، ويحاول أن يتحين فرصة يتكلم فيها..

ودخل اليوزباشى الدباغ حجرة الأب وهو يسأل :

ــ دى أودة سعادتك ؟ ..

وأجاب الأب فى استسلام ، وقد اكتسى وجهه المتقع حمرة حقيقية .. كأن دماءه ثارت لدخول رجل غريب الى غرفته .. الغرفة التى ينام فيها هو وزوجته : ايوه ..

وأجال الدباغ عينيه فى أنحاء الغرفة فى استهتار ، ثم خرج منها سريعا دون أن يعلق بشىء ..

ومر الجميع بالمطبخ ـ وهو على الناحية المقابلة من باقى الغرف ـ فأشار الدباغ الى أحد الرجلين ، فدخل ليفتشه وحده .. واستمر هو فى طريقه ، ووصل الى غرفة « القعاد » ووقف على بابها ينظر الى الأم وبنتيها والى عبد الحميد نظرات وقحة ، وهو يقول : لامؤاخذة ..

واشاحت عنه الأم برأسها .. ونظرت الى سامية نظرة واحدة ثم خفضت عينيها ، وهى تبذل جهدا كبيرا فى حبس دموعها .. وكانت نوال واقفة مستندة الى باب الشرفة ، فأدارت رأسها ناحية السماء ، وهى تحاول أن تحتفظ بعينيها ناحية الرجال .. ووقف عبد الحميد .. ورفع يدا مترددة بتحية مرتجفة صامتة ، وهو يبدو شاحبا كأن اضطرابه قد امتص روحه ..

واتسعت الابتسامة اللزجة ، وقال اليوزباشى الدباغ فى سخرية : ازيك ياسى عبد الحميد ؟ ! ..

والتفت الاب فى حدة ناحية الضابط كأنه يسأله كيف عرف اسم عبد الحميد ؟ !

ولم يجبه الضابط على نظرته المتسائلة ، انما ظل محتفظا بابتسامته اللزجة كأنه يتلذذ بهذه الدهشة التى أصابت الاب .. ثم التفت الى الرجل الآخر الذى يصحبه وقال له هامسا : شوفه !

وخطا الرجل داخل الغرفة ومد كلتا يديه الى عبد الحميد ، فابتعد عنه عبد الحميد ، وقال فى فزع : ايه .. عايز ايه ؟ ! ..

وقال الدباغ وهو لايزال واقفا عند الباب :

ـ سيبه يفتشك ياسى عبد الحميد .. دى حاجات بسيطة ! !

وتحسس الرجل ثياب عبد الحميد من تحت ابطيه حتى ركبتيه والعائلة تنظر اليه فى فزع مشوب بالدهشة ، ولما اطمأن الى أن عبد الحميد لا يحمل سلاحا تركه وعاد يقف خلف ضابطه ، بينما سقط عبد الحميد على المقعد كأنه لم يعد يستطيع الوقوف

وانتقل الجميع الى غرفة البنتين ، ووقف الضابط على بابها دون أن يدخلها أيضا ، وسأل : ودى أودة مين ؟ ! ..

وأجاب الأب مستسلما : أودة البنات ! ! ..

وتحرك الجميع ، ومحيى لايزال يسير فى الخلف ، يشجع نفسه على اثارة الاستشكال القانونى الذى خطر له .. ولم يعد يمنى نفسه بمنع التفتيش ، بل كل ما يتمناه أن يتباهى أمام اليوزباشى الدباغ بمعلوماته القانونية ، ويتحداه بها .. وكان فى نفس الوقت

يتعجب من البساطة واللامبالاة التى يجرى بها تفتيش البيت ..
لقد كان يتصور عندما يقرأ عن بيت هاجمه البوليس ليفتشه ، ان كل شىء فى البيت قد قلب رأسا على عقب .. لم يكن يتصور أن التفتيش هو مجرد هذه النظرات التى يطلقها الدباغ من بعيد

ووقف اليوزباشى الدباغ ، أمام غرفة محيى قائلا :

ــ أظن دى تبقى أودة محيى ؟ !

وأجاب الوالد ، وهو يزفر : ايوه ..

وقال الدباغ : طيب نقعد هنا شويه ! !

وقبـــل أن يدخـــل الى الفرفة ، لحق به معاونه الذى أمره بتفتيش المطبخ والحمام ونظر الى قائده نظرة ذات معنى ، كأنه يقول له ان التفتيش لم يسفر عن شىء ..

ودخل الدباغ الى الغرفة .. وترك الرجلين اللذين يصحبانه يعبثان فيها فى اهمال وجلس هو الى مكتب محيى يفتش فيه بنفسه

ولم يكن الدباغ ينتظر أن يجد شيئا .. ولم يكن يبحث عن شخص ابراهيم حمدى .. فقـــد كانت تحرياته خـــلال اليومين السابقين قد دلته على أن ليس فى هذا البيت رجل غريب .. انما كان يفتش عن أى شىء يفسر الدوافع التى دفعت عبد الحميد الى تقديم بلاغ كاذب الى همام بك عن ابراهيم حمدى .. وهو بلاغ أثار ريبة همام .. أثارها الى حد كبير .. الى حد لم يقره عليه معاونه محمود الدباغ .. ورغم ذلك فقد راقب عبد الحميد ، ثم بدأ يرتاب فيه حين بدأ عبد الحميد يحاول الهرب من المراقبة وانتهى من مراقبته بأن هاجم بيته فى شبرا ــ أثناء غيبته عنه ــ ثم جاء الى هذا البيت .. وقرر أن يفتشه أيضا ، دون أن يكون على ثقة بأنه سيجد شيئا .. انما مجرد اجراء لا ضرر منه ..

واخذ يفتح أدراج المكتب واحدا بعد واحد ، ويفتح الـكتب والكراسات بأصابع خبـــير فى فنون التفتيش .. قد يعثر على منشور مما يحتفظ به الطلبة فى أدراجهم .. قد يعثر على مذكرات .. قد يعثر على أى شىء يدل على وجود صلة بين محيى واحدى الجمعيات السياسية ..

وتقدم منه محيى مترددا ، واستجمع شجاعته ، ثم انطلق مرة واحدة قائلا : حضرتك معاك أمر من النيابة بالتفتيش ؟ ..

وقال الدباغ وقد انتهى من تفتيش الادراج ، وبدأ يعبث فى الأوراق الموضوعة فوق المـكتب : ياسيدى ما تدقش ! ..

وقال محيى وقد بدأ يتعود الكلام : انما القانون بيحتم ان...
وقاطعه الدباغ قائلا فى سخرية : هوه فيه قانون ؟ ! ..
وقال محيى وقد تشجع : ايوه فيه قانون ..
وقال الدباغ وهو ينظر فى الاوراق التى يعبث بها :
ـ عندكم بس .. فى الكلية .. فى كراسة المحاضرات .. انما البلد ما فيهاش قانون .. على كل حال اطمن .. ما فيش حاجة
واحس محيى انه لا يستطيع أن يقول أكثر مما قال ، فسكت وهو مغتاظ .. ومرت فترة قصـــيرة والدباغ يعبث فى الأوراق الموضوعة فوق المـكتب ..
وفجأة ، التفت فى حدة الى محيى ، وهو ممسك بورقة فى يده ، وقال فى صوت قوى كطلقة مدفع الافطار :
ـ انت تعرف جميل عزت منين ؟ ..
وارتبك محيى ، وقد فوجىء بلهجة الضابط ، والنظرة الخطيرة التى تطل من عينيه وقال : جميل عزت مين .. ما اعرفوش !
ونظر اليه الدباغ مليا .. نظرة فاحصة ، قاسية ، كأنه يحاول أن يشج رأسه بعينيه ليرى ما فيها ، ثم أشاح عنه ، وأخذ يقرأ الورقة التى فى يده للمرة الثانية .. وقرأ فى همس :
« عزيزى اللازم أول جميل عزت ..
« بعد التحية .. كان يجب أن أكتب اليك لأبرر ما فعلتــه و .. » ..
واستدار اليوزباشى الدباغ ناحية المكتب ، وفتح كراسة من كراسات محيى واخـذ يقارن بين خطــه ، والخط المكتوب فى الورقة .. ثم التفت الى محيى وفى احدى يديه الكراسة ، وفى اليد الاخرى الورقة التى عثر عليها ، وقال وهو يقرب الكراسة من وجه محيى : مش خطك ده ؟ ! ..
وأجاب محيى وهو يرفع أصبعه ويضغط على قنطرة نظارته :
ـ أيوه ..
وأزاح الدباغ الكراسة من أمام وجهه وقرب اليه الورقة التى يحملها فى يده الاخرى وقال : وده يبقى خط مين ؟ ! ..
وامتقع وجه محيى ، وقال وهو يرتعد :
ـ ما اعرفش ... ما اعرفش .. مش خطى !!
وقال الدباغ وهو يركز عينيه فوق وجهه :
ـ عارف انه مش خطك .. انما خط مين ؟!

وقال محيى وهو يبتعد عنه كأنه يهم بالفرار :
ــ ما اعرفش .. ماشفتش الخط ده قبل كده !
واقترب الأب منهما وفى عينيه دهشة مرتجفة ، وقال :
ــ ايه الحكاية ؟!
ونظر اليه الدباغ نظرة اتهام قائلا : لسه ما تعرفش الحكاية ..
وعاد ينظر الى محيى ، نظرة مليئة بالاحتقار ، وقال وهو يهز رأسه فى تعجب : عجيبة .. مين كان يصدق ؟ !
ثم وضع الورقة التى عثر عليها فى جيب سترته ، والتفت الى معاونيه قائلا فى لهجة أمر : فتش كويس يا أومباشي ! ! ..
وفى لحظة واحدة انقض الرجلان على أثاث الغرفة ، وأخذا يقلبانه رأسا على عقب .. فتحا الدولاب .. وكل الادراج .. ورفعا السجادة عن الارض .. وازاحا السرير من مكانه .. ونقرا بأيديهما على الجدران لعل فيها مكانا أجوف سريا . ثم أخرج أحدهما مطواة من جيبه وشق مرتبة السرير ومد يده وبعثر ما فيها من قطن مندوف .. ثم شق بالمطواة كسوة المقاعد ثم بدأ الرجلان يدبان على الارض بأقدامهما ليختبرا صلابتها ..
وكل ذلك يجرى بسرعة عجيبة ، وبقسوة ، وبلا رحمة .. بلا حساب لأى شيء ! والأب واقف مشدوه وقد أذهلته المفاجأة
ومحيى واقف يرتعش ، ويتمتم تمتمات مبهمة ، كأنه يرى حلما مخيفا يحاول أن يفيق منه ..
والدباغ يشرف على عملية التفتيش بيقظة خبيثة كأن فى وجهه ألف عين
وجاء بقية أفراد العائلة على صوت الضجيج الذى تثيره عملية التفتيش .. وما كادت الأم تلمح الرجل يشق مرتبة السرير بمطواة حتى هجمت عليه بكل ثقلها وهى تصرخ :
ــ ياخرابى ، بيتى ، عفشى ، ابعد ياراجل يا ابن الكلب ..
وترنح الرجل تحت ثقلها ، ثم أزاحها عنه بذراعه فى قسوة .. وظل قابضا على كتفها بكفه ، فهجم عليه الأب واختطف زوجته الى صدره ، وهو يصيح فى صوت مرتعش ..
ــ نزل ايدك يا قليل الأدب ..
ونظر اليه الرجل فى تحد ثم عاد يشق مرتبة السرير بمطواه ..
وابتعدت الأم عن صدر زوجها وأخذت تلطم خديها لطمات متتالية ، وهى واقفة فى وسط الغرفة ترتعش ، وتدق الأرض

يقدميها كطفلة عنيدة ، وهى لا تزال تصيح :
ـ يا خرابى .. بيتى يا خراب بيتى .. يا اخواتى ..
وتقدمت منها نوال واحتضنتها بين ذراعيها ، وقالت وهى تحاول أن تسحبها خارج الغرفة :
ـ بس ياماما ، بس ياحبيبتى ، كله يتعوض ، ربنا معانا ..
وأسندت سامية رأسها الى الجدار فوق ذراعيها ، وأجهشت بالبكاء ، بكاء حادا ، ونشيجا مذعورا ..
وكفت الأم عن الصراخ ، وأجهشت هى الاخرى بالبكاء ، وهى تنشج نشيجا ممزقا تقتطعه من لحمها . .
ولم تستطع نوال أن تقاوم أكثر من ذلك ، فألقت برأسها فوق صدر أمها وشاركتها دموعها ، وهى لا تزال تردد :
ـ بس يا ماما .. بس يا حبيبتى !
كأنها تحاول أن تهدئ نفسها لا أمها
وعبد الحميد واقف ممتقع الوجه ، حائر ، وعيناه جاحظتان..
واليوزباشى الدباغ يشرف على التفتيش فى يقظة صامتة .. كأن كل هذا الصراخ لا يصل الى أذنيه .. وكل هذه الدموع لا تبلل قلبه .. كأنه يستمع الى ألحان تعود سماعها وهو يؤدى مهمته .. وكأنه لا يستطيع أن يؤدى مهمته الا وسط ألحان العذاب .. لم ينهر أحدا .. ولم يطالب بالهدوء .. ظلت ابتسامته اللزجة لاصقة بشفتيه .. وربما أحس بنقص كبير لو لم يفلح فى اثارة هذا البكاء وكل هذا الصراخ ، وكل هذا العذاب
ومد يده الى الدولاب المفتوح ، والتقط بأصابع الخبير ، بنطلونا معلقا وجده على مشجب .. لاحظ بسرعة ان مقاسه أطول من قامة محيى؟.. وتقدم به الى محيى وسأله : البنطلون ده بتاعك ؟
ونظر محيى الى البنطلون فى ذعر وقال مترددا :
ـ أيوه .. لأ .. أيوه .. أصل ..
وقاطعه الدباغ قائلا : ايوه والا لأ ؟ ..
وقال محيى فى ضعف : لأ ..
وقال الدباغ : امال بتاع مين ؟
وقال محيى كأنه يصرخ : ما اعرفش .. ما اعرفش !
ونظر اليه الدباغ وقد اتسعت ابتسامته اللزجة :
ـ ده بنطلون رمادى ، ماتفتكرش كده واحد صاحبك . واحد مهم قوى .. كان لابس بنطلون رمادى !

وقال محيى فى ذعر : لأ .. ما افتكرش أنا ماليش اصحاب !
وقال الدباغ وهو ينظر اليه ساخرا :
ــ كده .. بأه مالكش أصحاب .. والله كويس !
وطوى البنطلون فى حرص واحتفظ به تحت ابطه.. ثم نظر الى الرجلين ، وسحبهما بعينيه خارج الغرفة .. ودخل بهما الى غرفة البنتين ، ثم أشار لهما بعينيه ، فبدأت عملية التفتيش كالعملية الاولى .. وانقلب كل شىء فى الغرفة ، كأن محراثا يمر فيها ويشق كل ما عليها .. ورفع أحد الرجلين « سوتيان » من دولاب سامية وأخذ ينظر اليه فى وقاحة مستهترة ، فهجم عليه عبد الحميد ، كأن ريحا عاصفة هبت فى صدره ودفعته اليه ، واختطف « السوتيان » من يده وألقى به فى الدولاب وقال وهو يتحدى الرجل بعينيه : خليك مؤدب ! ..
وقال الدباغ يرد عليه :
ــ ماتزعلش نفسك كده ياسى عبد الحميد .. امسك نفسك !
وركزت نوال عينيها على قميص ابراهيم الذى تحتفظ به فى دولابها .. وقلبها واجف .. وكلما اقتربت منه يد ، اشتد وجيب قلبها ، وأغمضت عينيها ، وأخذت تهمس فى صدرها « يا رب .. يا رب .. يا رب » ..
ولم تمتد يد الى القميص .. ولم يجد الدباغ شيئا يهمه فى هذه الغرفة ، فانتقل الى غرفة أخرى .. وجرت عملية التفتيش العنيف فى البيت كله .. والدموع ، وأصوات النشيج ، والوجوه المتقعة ، تصاحبها ..
ومال الدباغ على أذن محيى ، وقد كادت عملية التفتيش تنتهى ، وقال هامسا كأنه يتودد اليه :
ــ روح البس هدومك ، علشان تيجى معانا ..
ورفع محيى عينيه المذعورتين خلف نظارته ، وقال فى صوت مرتجف : آجى معاك فين ؟ ..
وقال الدباغ من خلال ابتسامته اللزجة : حناخد منك كلمتين اطمن .. مجرد روتين ، وانت راجل قانون وفاهم ! ..
ونكس محيى عينيه .. ولم يشعر بالخوف ..
كأنه خاف ما فيه الكفاية ، حتى لم يعد فيه شىء يحتمل مزيدا من الخوف .. شعر باستسلام تام ، كأنه اصبح جثة هامدة يحملها الدباغ فوق ذراعيه ..

ونظر الى والده ، وقبل أن يتلقى جواب نظراته ، انسحب من بين الجميع الى غرفته .. وأخذ يرتدى ثيابه ، وهو ساهم ، لا يستطيع أن يفكر فى شىء ، ولا يستطيع أن يتصور ما يمكن أن يحدث له ، انما امتلأ راسه بأفكار مشوشة لا يستطيع أن يفهمها ، وصور مهزوزة لا يستطيع أن يتبينها ..

واكمل ارتداء ثيابه ، وهو لا يدرى ماذا ارتدى ..

وعاد ينضم الى الجمع ..

ونظر اليه والده فى دهشة مذعورة وقال : لبست هدومك ليه ؟

ولم يجبه ، انما أشار بعينيه الى الدباغ ، فالتفت الأب الى الضابط وقال كأنه يبرز أظافره ويكشر عن أنيابه :

ــ انتم واخدين محيى معاكم ليه ؟

وقال الدباغ فى هدوء : كلمتين .. حا نعمل محضر !

وقال الأب وهو يهم بالتحرك الى الداخل :

ــ طيب استنى لما آجى معاكم !

وقال الدباغ فى صوت حازم :

ــ لأ .. خليك انت .. الحكاية ماتستاهلش !

ورفع الأب صـــوته : ماتستاهلش ازاى .. تاخـــدوا ابنى البوليس ، وتقوللى حكاية ماتستاهلش ! ..

وقال الدباغ فى لهجة أكثر حزما : خليك ما تبهدلش نفسك !

وقبض أحـــد الرجلين على ذراع محيى ، وبدأ يجـره نحو الباب .. ولاحظت الأم ما يجرى حولها ، فاندفعت بجســدها المكتنز تحتضن ابنها وهى تصرخ :

ــ ابنى .. حياخدوا ابنى .. مش ممكن .. الحقونى .. الحقونى يا ناس .. حياخدوا ابنى منى !

وقال محيى ، وهو يبتعد عن صدر أمه :

ــ ماتخافيش يا ماما .. انا راجع تانى !

ولم يأبه الدباغ بصراخ الأم ، ونظر الى عبد الحميد قائلا :

ــ اتفضل معانا ياسى عبد الحميد ..

وقال عبد الحميد وقد انقلب كمده الى تحد :

ــ ليه .. أنا مش ساكن هنا ؟!

وقال الدباغ : ما أنا عارف ، كنت عندك من قيمة شويه !

وقال عبد الحميد فى دهشة : عندى .. عندى فين ؟ !

قال الدباغ مبتسما :

ـ فى شبرا .. زرتك زى الزيارة دى كده .. بس للأسف ماكنتش موجود .. الزيارة الجاية حابقى آخد منك ميعاد !

ونظر الى معاونه ، فتقدم ، وقبض على ذراع عبد الحميد وأخذ يجره نحو الباب ..

ونزع عبد الحميد ذراعه من الرجل ، وهو يقول فى حقد :

ـ سيبنى .. ماتحطش ايدك على .. أنا جاى لوحدى !

وصرخت ساميه : عبد الحميد ..

ثم كتمت صرختها كأنها تخاف أن يفتضح حبها ، أكثر مما تخاف على عبد الحميد نفسه .. ونظر اليها عبد الحميد صامتا ، ثم حول عينيه عنها فى يأس ..

وتقدم الدباغ ، وخرج من باب الشقة وهو يقول دون أن يسمعه أحد : لا مؤاخذه .. السلام عليكم !

وتبعه يحيى ثم أحد الرجلين ثم عبد الحميد ثم الرجل الآخر ..

وتقدم الأب فى لهفة الى الرجل الذى يسير خلف عبد الحميد وقال فى توسل وهو يكاد يبكى :

ـ اعمل معروف يا ابني .. قول لى رايحين فين !

ونظر اليه الرجل فى اشفاق وأجابه هامسا كأنه يخاف أن يسمعه ضابطه : المحافظة .. وخرجوا ..

واطلقت الأم صرخة حادة كأنها لفظت قلبها ، ثم سقطت على الأرض وهي تنتفض وتتقلب كأن النار اشتعلت فيها

وهرع الأب الى غرفته ليرتدى ثيابه ..

وارتفع نشيج سامية ، ثم أسقطت نفسها بجانب أمها واخذت تربت عليها دون أن تنطق حرفا ، كأن لسانها سجن وراء قضبان من دموعها ..

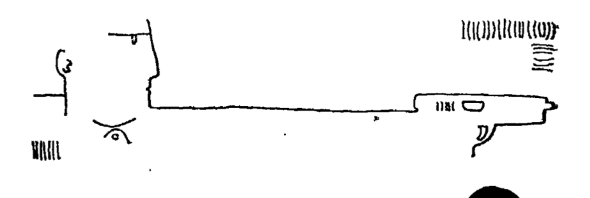
وانهمرت الدموع على خدى نوال ثم مالت على أمها كأنها تطفىء نارها بدموعها واخذت تردد : ما تعمليش كده يا ماما ..

ثم سكتت فجأة .. وانبثق فى ذهنها اسم ابراهيم ..

ابراهيم .. انه وحده الذى يستطيع أن ينقذ أخاها ..

كيف .. انها لا تدرى .. ولكنه يستطيع .. يستطيع كل شيء .. انه بطل .. انه يعرف هذه الاشياء .. انه أقوى من البوليس .. وأقوى من هذا الضابط المجرم ..

ولكن أين ابراهيم ؟! .. كيف تستطيع أن تجده ؟! .. أين هو؟ وارخت عينيها كأنها لا تجد ابراهيم إلا عندما تنظر الى قلبها



١٦

وركب محيى وعبد الحميد فى المقاعد الخلفية من سـيارة البوليس « البوكس » وركب معهما الجنديان
وركب اليوزباشى محمود الدباغ بجانب السائق ..
وكان محيى يرتعش .. كل شىء فيه يرتعش . قلبه ، وركبتاه وعيناه ، وشفتاه . ولكنه لم يكن يحس برعشته .. كأن هذه الرعشة صاحبته طول عمره حتى أصبحت من طبيعته ، حتى أصبح لا يحس بها ..
وكانت أفكاره ترتعش أيضا .. وقد ركز كل ارادته ليسيطر عليها ، محاولا أن يتبين مصيره ..
ان البوليس سيسأله عن ابراهيم حمدى .
وقد يتهمه باخفائه فى بيته ..
وفى يد الدباغ دليل قاطع على ان ابراهيم كان فى البيت .. فى يده بنطلون ابراهيم الذى تركه وراءه فى الدولاب .. وفى يده هذه الورقة المكتوبة بخط ابراهيم .. وهو يذكر ان ابراهيم طلب منه ورقة وقلما فى ثانى يوم من وصوله الى البيت .. وجلس يكتب ولكنه لم يعرف ماذا كان يكتب .. لم يقل له ابراهيم شيئا .. ولم يذكر له شيئا عن هذا الاسم الذى واجهه به الدباغ .. اسم الملازم أول جميل عزت .. من يكون جميل عزت هذا .. وكيف يترك ابراهيم وراءه ورقة مكتوبة بخط يده .. كيف اختفت هذه الورقة عن كل من فى البيت حتى وقعت فى يد الدباغ ؟ ! .. وماذا يقول للبوليس ؟ !

هل يعترف ؟.. انه لايدرى اين ذهب ابراهيم .. ولن يؤدى اعترافه الى القبض عليه ! ..

ولكنه يستطيع ان يبلغ البوليس عن فتحى المليجى .. صديق ابراهيم الذى اعد له بدلة الضابط ، واعد له السيارة التى هرب فيها .. وعن طريق فتحى المليجى يستطيع البوليس ان يعثر على ابراهيم ، ويقبض عليه ..

ولكن لماذا يعترف ؟ .. لماذا يضع نفسه فى خدمة البوليس ؟

وكيف يستطيع أن يواجه زملاءه الطلبة بعد ذلك .. كيف يستطيع أن يواجه نفسه ؟!

واحس بقشعريرة تسرى فى بدنه ، كأنه يتقزز من نفسه لمجرد فكرة طرأت على ذهنه بأن يعترف للبوليس ؟!

ولكنهم سيسجنونه .. ولن يدخل الامتحان ..

لن يكون أول دفعته ، ولن يعين معيدا فى الجامعة ؟!

سيضيع مستقبله .. هل ينقذ مستقبله ، لو اعترف ؟ !

من أدراه ؟ ربما كان اعترافه سببا قويا فى استمرار سجنه ؟ لا

انه حائر .. مرتبك .. لا يستطيع أن يصمم على شىء .. وحيرته تمزق فى نفسه ، أكثر مما يمزق فيها الخوف ..

ربما كان الأجدى عليه ان يترك نفسه لله ، يفعل به ما يشاء !!

واحس ببعض الراحة عندما تذكر الله والتجأ اليه ، كأنه القى بهمومه كلها على كتف قوى .. ولكن ما لبثت هذه الراحة أن تبخرت ، عندما أمعن فى مناقشة الله .. لماذا يتركه الله لهذا المصير .. ما ذنبه اذا كان انسانا شهما أجار انسانا هاربا . لقد حرص طول عمره على أن يبتعد عن السياسة حتى يتجنب مصير المشتغلين بها من زملائه الطلبة .. فلماذا يلقى الله فى وجهه بابراهيم ثم يعرضه للسجن ، ويعرض مستقبله للدمار .. وهل كان الله يعفيه من هذا المصير لو انه رد ابراهيم خائبا ، ورفض أن يؤويه فى بيته .. هل يعاقب الله الوطنيين ؟! وهل هذا الضابط الدباغ رسول من الله لمعاقبة الوطنيين وتشريدهم ؟ اذن لماذا يترك الله رجال البوليس أحرارا يسلطون العذاب على الناس ؟! ولماذا لا ينقذه الله الآن .. حالا .. قبل أن يبدأ البوليس فى سؤاله ؟!

وخاف من أفكاره .. واشتدت قشعريرته .. واحس بنفسه

يستغفر ربه ، ويتلو فى سره آية الكرسى ، كأنه يخشى أن يتخلى عنه أمله الوحيد .. الله !

ثم اتجهت أفكاره الى عبد الحميد ..

هل يعترف عبد الحميد ؟.. ورفع عينيه الحائرتين اليه ..

وأحس بالاطمئنان .. أحس انه ليس وحده .. وأحس ـ لأول مرة ـ انه قريب جدا من عبد الحميد ، وانه يحبه .. لم يحس به كابن عم كما يحس به الآن .. وخيل اليه أن عبد الحميد انسان قوى يستطيع أن يحميه .. ان عبد الحميد لن يعترف وهو ذكى وجرىء ويعرف كيف يتصرف مع البوليس

وتبدد بعض الخوف الذى يشعر به .. وقال فى صوت ضعيف متوسل : عبد الحميد ! ..

وكان عبد الحميد جالسا فى السيارة ورأسه منكس ، وهو يقضم فى أصابعه بأسنانه ، كأنه يمزق نفسه .. وسمع نداء محيى ، فرفع رأسه ، ونظر اليه نظرة قوية وقال فورا كأنه يعرف ما يعانيه : ما تخافش ..

وقال أحد الجنديين بصوت آمر : ممنوع يا افندى ! ..

ورد عبد الحميد فى تحد : ايه هوه اللى ممنوع ؟ ! ..

وقال الجندى باستهتار : الكلام ..

وعاد عبد الحميد يتحدى : لأ مش ممنوع ..

ونظر اليه الجندى فى تعجب ثم قال :

ـ بلاش لماضة أحسن لك ..

وقال عبد الحميد وهو يشد وسطه : اتكلم بأدب ..

وقال الجندى وهو يزفر كأنه يرفض أن يدخل فى معركة :

ـ حاضر .. حقك على يا سيدنا الافندى .. بس اعمل معروف اسكت .. الأوامر اللى عندنا انه ممنوع الكلام ..

وظل عبد الحميد ينظر الى الجندى فى تحد .. فأدار الجندى راسه عنه كأنه يبتعد عن شر ..

ثم عاد عبد الحميد ونكس راسه واخذ يقضم اظافره .. كأن تعبه وخوفه ، قد انقلب الى نوع من التحدى الصارخ بعد أن وجد نفسه فى أيدى البوليس .. وكان يحس فى قرارة نفسه انه هو الذى تسبب فى كل هذا ، عندما تسرع وذهب لمقابلة همام بك .. وكان يحاول أن يتخلص من احساسه هذا .. أن يغطيه..

فاندفع فى تصميمه على تحدى البوليس .. لعل تحديه يكفر عن خطيئته ..

ورفع عبد الحميد عينيه ، ونظر من خلال البـاب الخلفى للسيارة فوجد انهم يسرعون فى شارع الملكة نازلى ، فى اتجاه ميدان المحطة .. طريق آخر غير الطريق الذى يؤدى الى المحافظة

وقال كأنه يسأل نفسه : احنا رايحين فين ؟ ! ..

وأجاب الجندى الآخر : دلوقت تعرف ! ! ..

وقال محيى : بيقولوا حياخدونا المحافظة ..

قال عبد الحميد وهو يحاول أن يتبين الطريق :

ـ دى مش سكة المحافظة ..

وظلت السـيارة مسرعة فى اتجاه ميدان محطـة مصر ، ثم انحرفت السيارة فى شارع ضيق قبل أن تصل الى الميدان ، ووقفت أمام سور من الحديد لبناء معتم ..

ورفع عبد الحميد عينيه ثم قال وقد امتقع وجهه :

ـ دول واخدينا سجن الاجانب ..

ونظر محيى من خلال باب السيارة وعيناه بارزتان تكادان تحطمان زجاج نظارته وقال : السجن .. مش يسألونا الاول ؟ !

ولم يجبه عبد الحميد .. وقفز الرجلان من السيـارة .. وأشارا الى عبد الحميد ومحيى بالنزول ..

وتقدم اليوزباشى الدباغ الجميع ، واجتاز السور الحديدى ، ثم وقف أمام باب ضخم من الخشب المصفح ، ومد ذراعه وضغط على جرس كهربائى مثبت فى الحائط ، ففتحت كوة صغيرة فى الباب أطل منها وجه غليظ جامد ينتشر فوقه شارب مشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوق شفتين ملوثتين ..

وما كاد الوجه الغليظ يرى اليوزباشى الدباغ ، حتى أغلق الكوة بسرعة ، وشد مزلاج الباب الحديدى ، فارتفع صوت حاد كأن الحديد يصرخ .. ثم فتح باب صغير فى الباب الكبير ، ووقف الحارس منتصبا كالتمثال رافعا ذراعه بالتحية العسكرية ..

واجتاز اليوزباشى الدباغ الباب الصغير وخلفه صيده الثمين ومعاوناه ، وقفل الباب خلفه بسرعة وارتفع صوت صراخ الحديد عندما تحرك المزلاج مرة ثانية .. والتفت محيى وعبد الحميد خلفهما بحركة تلقائية وفىعيونهما نظرات فزعة كأنهما يودعانالدنيا

واتجه الدباغ الىغرفة على اليمين بعد الباب مباشرة.. غرفة

فيها مكتب يجلس خلفه « كونستابل » ، وبضعة مقاعد وأريكة « اســتامبولى » وخزينة ملتصــقة بالحــائط ، ومجموعة من الكلبشات والبنادق ..

ووقف الكونستابل رافعا ذراعه بالتحية العسكرية .. ورد الدباغ تحيته بطرف اصبعه .. ثم أشار الى محيى وعبد الحميد بأن يجلسا متباعدين وقال لمعاونيه بلهجة آمرة :

ــ خليهم بعيد عن بعض !

ثم ترك الغرفة واتجه الى غرفة أخرى فى الناحية المقابلة علقت على بابها لوحة كتب عليها : « المأمور » .. ودخلها وهو يتحرك بسرعة .. غرفة اكثر هدوءا ونظاما وفخامة من الغرفة الاولى.. وكان يجلس وراء المكتب العريض الذى يتوسطها ضابط شاب ، قفز واقفا بمجرد أن رأى الدباغ ..

وقال الدباغ ، وهو يتجه ليجلس مكان الضابط الذى بدأ يخرج من وراء المكتب : البيه المأمور هنا ؟ ..

وقال الضابط كأنه يهم بالدفاع عن المأمور : لا يا افندم ، راح البيت من مدة خمس دقايق بس ، ننده له يا افندم ؟

وقال الدباغ ساخرا وهو يضع البنطلون الذى يحمله فوق المكتب : لا ياسيدى خليه مستريح .. كفايه احنا صاحيين !

ثم جلس على المقعد خلف المكتب ، وأمسك بسماعة التليفون وادار رقما ، ثم قال وقد تغيرت لهجته ، وأصبحت لهجة مهذبة رقيقة : ايوه يا افندم ، أظن احنا محتاجين لسعادتك هنا ، رأى سعادتك كان فى محله .. عمر نظرتك ما تخيب ..

وقال بعد أن سمع رد الطرف الآخر :

ــ لأ .. انما لقيت اثباتات مهمة جدا .. حنوصل باذن الله !

وأعاد سماعة التليفون مكانها ..

ثم مال بظهره على المقعد ، وأخرج من جيبه الورقة التى عثر عليها بين أوراق محيى وأخذ يعيد قراءتها ، وهو يدلك جبهته بيده كأنه يحاول أن يفتح طاقة جديدة فى ذهنه .. ثم رفع رأسه وقال للضابط الذى كان لا يزال واقفا منتصبا أمامه :

ــ اطلب لنا قهوة .. يظهر حانقعد الليلة للصبح !

ونادى الضابط على أحد الجنود وأمره أن يحضر قدحا من القهوة . وقبل أن تأتى القهوة ارتفع صوت صراخ الحديد . وفتح باب السجن .. ودخل الى الغرفة همام بك .. وهو يخطر فى

خطوات سريعة نشطة .. ورفع الضابط الشاب يده بالتحية .. وقفز اليوزباشي الدباغ واقفا ، وانسحب من وراء المكتب ، ليترك مكانه للقادم الجديد ..

ولم يرد همام بك التحية وقال على عجل : خير ، لقيت ايه ؟

وقبل أن يتكلم الدباغ ، التفت همام بك الى الضابط الشاب ونظر اليه نظرة ذات معنى ، فتحرك الضابط وهو يقول : عن اذنك يا افندم ! .. ثم خرج من الغرفة ! ..

وجلس همام خلف المكتب ، وبدأ الدباغ يروى له تفاصيل مهاجمة بيت عبد الحميد وبيت محيى .. ثم عرض عليه الورقة والبنطلون اللذين عثر عليهما .. وقال همام : وما تكلموش ؟..

وقال الدباغ وهو يبتسم ابتسامة لزجة :

ــ لا .. انما حيتكلموا .. باين عليهم ناس طيبين !!

وقال همام وهو يرد ابتسامة الدباغ بابتسامة أبرد منها :

ــ طب خد انت محيى ، وابعت لى عبد الحميد ، ده صاحبى !

وقهقه همام .. كأنه يتثاءب !

وخرج الدباغ الى الغرفة المقابلة ، واستدعى عبد الحميد ومحيى فقاما اليه وخلفهما الجنديان ، وقال لعبد الحميد :

ــ خش انت هنا .. همام بك مستنيك .. عايزك فى كلمتين ، وانتم طبعا اصحاب ..

ثم التفت الى محيى قائلا : تعال انت معايا يامحيى ! ..

وسار الدباغ متجها الى داخل السجن ومحيى خلفه يسير مبهور الانفاس ، قلبه يدق دقات تضج فى أذنيه ضجيجا يغطى على صوت وقع خطاه ..

ووقفا أمام حاجز من قضبان حديدية رفيعة ، يصل من الأرض حتى السقف المرتفع ، ويفصل بين القسم الخارجى من السجن ، والقسم الداخلى .. وفتح باب من بين القضبان الحديد ..

ووجد محيى نفسه يسير فى ممر يدور حول فناء صغير ، وعلى جانب الممر أبواب كثيرة من الحديد كلها مغلقة ..

وفتح أول باب من هذه الأبواب ..

ودخل الدباغ وخلفه محيى ، والجندى الذى يصحبهما ..

ووجد محيى نفسه فى حجرة ضيقة .. ضيقة جداً . أرضها من الاسفلت .. وجدرانها نصفها الاسفل مطلى باللون الاسود ، ونصفها الأعلى مطلى بالجير الابيض .. ولها نافذة واحدة ..

مرتفعة جدا ، مثبت فيها أسياخ من الحديد . وبها مكتب صغير ، وثلاثة مقاعد .. وعرف محيى انه فى زنزانة !

وكان القلم السياسى منذ هرب ابراهيم حمدى ، قد اتخذ من سجن الاجانب مكانا للتحقيق فى حادث هربه .. يجمع فيه كل الشبان المشتبه فيهم ، ويحقق معهم ويواجههم بعضهم ببعض.. وكان التحقيق يجرى فى غرفة المأمور ، وعندما احتاج الأمر الى التحقيق مع أكثر من شاب فى وقت واحد ، خصصوا احدى زنزانات السجن ، كغرفة أخرى للتحقيق ..

وجلس الدباغ وراء المكتب الصغير ، وأشار لمحيى ليجلس على مقعد مواجه ، وشد الجندى الذى يصحبهما مقعدا وجلس مستندا على أحد جوانب المكتب ..

واخرج الدباغ بضعة أوراق بيضاء وضعها أمام الجندى ، ثم قال لمحيى فى لهجة حاول أن تكون رقيقة :

ـ احنا نتكلم بصراحه بأه يا محيى .. وانا عايزك تكون مطمئن .. ساعدنى وأنا أساعدك !

وانطلق محيى كأنه يقول كلاما أعده من قبل :

ـ أنا ما اتكلمش الا قدام النيابه ..

وابتسم الدباغ ابتسامته اللزجة وقال : النيابه ما لهاش لازمه.. اعتبر اننا حانتكلم كلام خاص.. حتى بلاش كتابة محضر ثم التفت الى الجندي قائلا : بلاش تكتب يا أومباشى ..

وعاد بعينيه قائلا وهو ينظر اليه نظرات نافذة :

ـ قول لى بأه .. انت تعرف جميل عزت منين ؟ !

وقال محيى صادقا : جميل عزت مين ؟ ما اعرفوش .. دى أول مرة أسمع بالاسم ده ! ..

وركز الدباغ عينيه على وجه محيى ، وقال : خلينا اصحاب امال .. ده اسمه مكتوب فى ورقه لقيتها على مكتبك ! ..

وقال محيى فى اصرار : ما اعرفوش ..

وقال الدباغ كأنه يصدقه : تحب تعرفه ؟ ! .. جميل عزت ياسيدي يبقى الضابط اللى هرب منه ابراهيم حمدى ! ..

واتسعت عينا محيى كأنه فوجىء ، ثم قال كأنه يردد كلمة لا يحس لها معنى : ما اعرفوش .. ما اعرفوش ..

وقال الدباغ وهو لايزال مركزا عينيه عليه :

ـ طيب تعرف ابراهيم حمدى ؟ ..

وصرخ محيى على الفور : ما اعرفوش .. عمرى ما شفته !
وقال الدباغ وقد اتسعت ابتسامته اللزجة :
ــ ومالك بتزعق كده ليه ؟ ..
ثم استطرد وهو يلوح بالورقة المكتوبة بخط ابراهيم حمدى أمام عينيه : والورقة دي تبقى ايه ؟ ..
وقال محيى وقد بدأت قطرات من العرق تنتفض فوق جبينه :
ــ ما شفتهاش .. ما اعرفش حاجة عنها !
وقال الدباغ كأنه تعود على الصبر الطويل :
ــ أمال ازاى لقيتها على مكتبك ؟ ! ..
وقال محيى وهو يتنفس بصعوبة :
ــ ما كانتش على مكتبى .. يمكن انت اللى حطيتها بايدك ! ؟
ولأول مرة يفقد الدباغ أعصابه ، وصرخ فى وجه محيى :
ــ انت حا تعمل زيهم .. ما هى أصل المودة بين الطلبة اليومين دول ان كل حاجه نلاقيها عندهم ، نبقى احنا اللى جايبينها معانا .. قديمة ياسى محيى .. شوف لك حكاية تانية .. ده أنا كنت فاكرك ولد طيب .. أتاريك منهم !
ولم يرد محيى .. انما اشتدت رعشته ..
وكتم الدباغ ثورته ، ثم قال بصوت أكثر هدوءا :
ــ وطبعا البنطلون أنا اللى جايبه من بيتنـــا برضه .. مش كده .. تعرف البنطلون ده يبقى بنطلون مين ؟.. يبقى بنطلون ابراهيم حمدى .. ابراهيم لما هرب كان لابس بنطلون رمادى ، والمقاس مقاسه !
ولم يرد محيى .. ظل يرتعش !
وأشـــعل الدباغ سيجارة ، وشد منها نفسا عميقا ، وقذف الدخان فى الهواء كأنه يقذف ثورته فى وجه محيى ، ثم قال وقد سيطر على أعصابه :
ــ اسمع يا محيى .. احنا مش عايزين منك حاجة .. قول لى ابراهيم حمدى يبقى فين ، ولا راح فين .. واقسم لك بشرفى انك تنام فى بيتكم الليلة دى !
وقال محيى وقد احتقن لون وجهـــه من كثرة ما احتبس فى عروقه من دم : ما اعرفش .. ما اعرفش حاجه ! ..
قال الدباغ وهو يتنهد كأنه بدأ يفقد صبره :
ــ انت صعبان على يا محيى .. اتكلم أحسن .. انت ما لكش

دعوة بالحاجات دى .. لغاية دلوقت ما لكش دوسيه عندنا .. والمعلومات اللى عندى انك عمرك ما اشتغلت بالسياسة .. ما تخليش شوية العيال دول يضحكوا عليك ، ويودوك فى داهية .. ارحم أبوك وأمك .. واسمع كلامى ! !

واهتز يحيى عندما تذكر أباه وأمه ، كأن قطرات من الندى وقعت على عود الحطب الجاف .. ووجد نفسه يتساءل : هل يريده أبوه أن يعترف .. هل لو كان أبوه بجانبه الآن يأمره بالاعتراف ؟ وتحركت شفتاه ، وردد وهو ساهم كأنه يتلقى أمرا من بعيد .. أمرا من أبيه :

— ما اعرفش .. ما اعرفش .. ماعنديش حاجة أقولها !

وسمع وقع أقدام فى الممر الخارجى ، ثم برز همام بك فى باب الزنزانة ، وأشار الى الدباغ ، فقام اليه ، وأخذ الاثنان يتهامسان طويلا ، ثم اختفى همام بك ، وعاد الدباغ يجلس وراء المكتب الصغير ، وقال وهو يبتسم ابتسامته التى تسيل فوق شفتيه كبقعة الزيت : خلاص ياسيدى .. أهو عبد الحميد اعترف !.

وقفز رأس يحيى من فوق عنقه ، وقال والمفاجأة تمزق كلماته :

— اعترف .. اعترف .. قال ايه ؟ ! ..

وقال الدباغ وهو يتلذذ بوقع المفاجأة على يحيى :

— اعترف بكل حاجة .. وزمانه دلوقت راجع بيتهم !

وألقى يحيى برأسه فوق صدره ..

هل صحيح اعترف عبد الحميد ؟ أم ان هذا الرجل يخدعه ؟

واذا كان قد اعترف ، فلماذا يصر البوليس على أن يعترف هو الآخر .. لماذا لا يكتفى باعتراف عبد الحميد ؟ ! ..

واستطرد الدباغ كأنه يشجع يحيى : ياللا اتكلم انت راخر علشان تروح معاه .. ساكت ليه .. مستنى ايه ؟ ..

وقال يحيى فى ضعف : انا ماعنديش حاجه اعترف بيها !

قالها وفى نفسه نازع يراوده على الاعتراف .. ونازع أقوى يمسك لسانه عن الاعتراف .. كأنه يقاوم فى نفسه جريمة يخافها كما يخاف المؤمن من النار .. ولم يكن يفكر فى ابراهيم .. ولا فى موقفه الوطنى .. لم يكن ما يمنعه من الاعتراف هو خوفه على ابراهيم ، ولا تشبثه بموقف وطنى .. ولكن كان ما يمنعه هو احساسه بأن الاعتراف جريمة لا يستطيع أن يقدم عليها .. جريمة لا تقرها مبادئه الخلقية ، ولا ضميره النظيف .. كان

كالطالب الذى يأبى أن يقفز من فوق سور المدرسة ، لا حرصا على الدراسة ، ولكن لأن أباه وضع فى نفسه ان الهرب من المدرسة عيب ! .. وبدأ الدباغ يفقد أعصابه مرة ثانية وقال فى حدة :

ــ يعنى انت حا تكون احسن من ابن عمك .. ما تتكلم .. قول لى ابراهيم حمدى راح فين ؟ ! ..

وفجأة ارتفع ضجيج كبير منبعث من القسم الخارجى للسجن وتبين محيى وسط هذا الضجيج صوت عبد الحميد وهو يصرخ صراخا حادا : « آى .. يا اولاد الكلب .. ما تضربونيش .. الحقونى .. يا مجرمين يا أولاد الكلب .. آى .. » ..

وابتسم محيى .. ابتسامة انبعثت رغما عنه ..

انهم يضربون عبد الحميد .. انه لم يعترف ..

ورفع محيى رأسه وواجه الدباغ بابتسامته .. واشتدت حدة الدباغ وقال للجندى الجالس بجانبه :

ــ قوم اقفل الباب ده يا أومباشى !

وقام الاومباشى ، وقبل أن يصل الى الباب ، استوقفه الدباغ قائلا كأنه غير رأيه : استنى ..

ثم قام من وراء المكتب الصـــغير ، وخرج من الغرفة بعد أن همس فى أذن الاومباشى : جرب معاه ! ! ..

واغلق الاومباشى الباب وراء الدباغ ثم عاد الى محيى ووقف قبالته ، وقال وهو يبتسم من بين أسنانه :

ــ انت ما تعرفش تشوف من غير النضارة دى ؟ ..

ورفع اليه محيى رأسه وهو جالس على مقعده ، كأنه لا يفهم معنى السؤال .. واستطرد الاومباشى قائلا : ورينى كده ؟ !..

ومد يده يحاول أن يخلع النظـــارة من فوق عينى محيى .. فتراجع محيى برأسه الى الخلف ، وقد بدأ يرتجف ، واستطرد الاومباشى ويداه ممدودتان الى وجه محيى : ورينى كده امال؟ !

ولم ينزع محيى نظـــارته .. فنزعها الرجل فى حركة سريعة خفيفة ، ثم قال وهو يصر على أسنانه كأنه يحاول أن يثير نفسه :

ــ أنا أصلى ما تعجبنيش الطريقة بتاعة الضباط بتوعنا دول انتم أصلــكم ما تجوش بالذوق .. ما تتكلموش الا بالعافية .. انت حاتتكلم ولا لأ ؟ !

ونظر اليه محيى وشفتاه ترتعشان ، وفى عينيه نظرة توسل ، كأنه يصد بها شرا لا يدريه ..

وصرخ فيه الرجل : ما تتكلم باقول لك ؟ ! ..
ثم رفع كفه الثقيل الجاف وهوى به على صـــدغ محيى .. وارتفع صوت الصفعة كأن أما مكلومة تصرخ ! !
وفغر محيى فاه .. وبدا مذهولا ..
ورفع يدا مرتعشة تهتز أصـــابعها كأوراق الشجر الجافة ، ووضعها مكان الصفعة .. وهو لايزال مذهولا ..
ولم يكن يحس بألم فى مكان الصـــفعة ولكنه أحس بلسعات كلسع النار تسرى فى بدنه كله ، ثم تتجمع اللسعات فى مكان ما من صدره .. وأحس بشىء فى صـــدره ينزف .. كرامته .. آدميته .. كبرياؤه ..
وضاق صدره .. ضاق حتى بدأ يحس بالاختناق ..
ثم اغرورقت عيناه بالدموع .. وبدأ يبكى . .
وقال الاومباشى وهو يرفع يده الثانية :
ــ الله .. احنا حانعيط .. ما تخليك راجل .. طب خد !..
وهوى بكفه على الصدغ الثانى كأنه يهوى فوقه بمطرقة من حديد
وانحرفت الصفعة فوق صدغ محيى فشقت شفته السـفلى وانبثق منها الدم .. وعالجه الرجل بصفعة ثالثة أشد ، فمال المقعد الذى يجلس عليه محيى ، ووقع به على الارض ..
وهو يبكى .. يبكى فى استسلام دون أن يتأوه ..
وركله الاومباشى بقدمه وهو ملقى على الارض ، وصرخ فيه :
ــ مالك خرع كده .. ما تقف على حيـــلك زى الرجالة .. رجالة ايه دول ياخويا ! ؟ ..
ثم جذبه من قميصه وأوقفه على قدميه ، ورفع محيى ذراعيه فوق وجهه يحمى بهما نفسه من الصفع ، وهو لايزال يبكى .. وقد أصبح بكاؤه نشيجا ..
وصرخ الاومبـــاشى : ما تتكلم انطق .. ده ماله عامل زى البرغوت كده .. انت ما بتاكلش فى بيتكم ؟ ..
ثم لكمه فى جنبه بقبضة يده لكمة قوية ، فصرخ محيى صرخة حادة : آه ..
ثم سقط صدره فوق ساقيه .. ومال فى وقفته حتى سـقط على الارض .. وبدا ممتقع الوجه .. كأنه نزف دماءه كلها .. كأنه مات ! !
وفى هذه اللحظة دخل اليوزباشى الدباغ مندفعا ، وهو يصرخ

فى وجه الاومباشي صراخا مسرحيا :
ـ ايه ده يا أومباشى .. مين اداك أوامر بالضرب .. انتم ايه ؟.. متوحشين ؟.. بهايم ؟.. والله لأخرب بيتك ! !
وانحنى الدباغ فوق محيى .. وأحاطه بذراعه ، وعاونه على الوقوف ، ثم أجلسه على المقعد ، وهو يقول للأومباشى :
ـ روح هات قطنة بمركركروم قوام الله يخيبك .. بشرفى لأدخلك السجن ! ..
وخرج الجندى من الغرفة .. واستدار الدباغ لمحيى قائلا :
ـ أنا آسف يا محيى .. جايبين لنا بهايم يشتغلوا معانا .. كان فاكرك زى الباقيين .. انما برضـــه الحق عليك لو كنت اتكلمت ما كانش حصل ده كله ! ..
ورفع محيى وجهه الأصفر المذهول وأخذ يردد من بين دموعه :
ـ ما اعرفش .. ما اعرفش .. ما اعرفش ..
ثم ارتفع صوته حتى أصبح صراخا كأنه جن ، وعاد يردد :
ـ ما اعرفش !.. ما اعرفش !.. ما اعرفش !..
ودخل الاومباشى يحمل قطنـــة ملوثة بسائل أحمر ، أخذها منه الدباغ وبدأ يمر بها على الشفة المشقوقة التى تنزف دما ، وهو يقول : بلاش كلمة « ما اعرفش » دي .. خلينا ننتهى على خير .. انت مش قد « ما اعرفش » ! ..
ونزع محيى وجهه من بين يدى الدباغ ، وصرخ صرخة طويلة حادة كأنه يطلق روحه فى صدر عدوه : ما .. عر .. فشى ! ..
ثم وضع رأسه بين يديه وأجهش بالبكاء ..
ونظر اليه الدباغ فى احتقار .. وقال :
ـ ده انت باين عليك تعبان قوى .. قوم استريح لك شويه.
ولم يتحرك محيى من مقعده ، ولم يرفع رأســـه .. فجذبه الدباغ من تحت ابطه وحاول أن يوقفه ، ولكن محيى لم يستطع الوقوف .. كان منهارا ، ولا يزال يبكى ، وكل شىء يسيل منه مع دموعه حتى لم يعد فيه شىء صلبا ..
وقال الدباغ : تعال يا اومباشى اسند معايا ..
ووقف الاومباشى على الجانب الثانى من محيى ، ووضع يده تحت ابطه .. ثم تعاون مع الدباغ ، فى رفعه ، وأخذا يشدانه وقدماه تزحفان على الارض ، كأنهما يجران جثة قتيل .. وخرجا من الغرفة .. واستقبلهما عند الباب أحد السجانين ، فصـــاح

فيه الدباغ : افتح نمره تمانيه ..
وسارا فى الممر الطويل الذى يحاذى الأبواب المغلقـة ، وهما يجران محيى ..
ولم يكن محيى يرى شيئا أمامه .. كان غارقا فى ظلام دامس.. وكان منهارا ، متخاذلا ، يحس كأن معدته تنقلب .. ولـكنه كان واعيا .. كان عقله هو كل ما بقى فيه صاحيا ..
وسمع صوتا ينبعث من وراء أحد الأبواب المغلقة :
ــ شد حيلك .. خليك جامد !
وسمع صوتا ينبعث من وراء باب مغلق ثان :
ــ انت مين يا أخينا قول اسمك ؟ ! ..
وسمع صوتا ثالثا يصيح :
ــ سيبوه يا مجرمين .. يا انذال .. يا جبنا ..
وسمع من وراء الباب الرابع أنينـــا .. خيل اليه انه أنين عبد الحميد ! ! وسمع من وراء الباب الخامس صوتا ثائرا غليظا يهتف بأبيات من الشعر :
«حطموا الأقلام ، هل تحطيمها يمنع الأيدى أن تنقش صخرا ؟!»
« قطعوا الأيدى ، هل تقطيعها يمنع الأعين أن تنظر شزرا ! »
وأحس بكل هذه الأصوات ، كأنها أصوات أصدقاء يرحبون به بينهم .. كأنه داخل الى الجنة والملائكة ينشدون له ويزفونه الى عرشه .. ومست هذه الأصوات أعصابه فشدتها وأحس كأن الروح ترتد الى صـــدره .. وكأن طيفا حانيا يمسح على شفته المجروحة ، ويربت على مكان الصفعات فوق وجنتيه .. ويجفف دموعه .. أحس انه مع كثيرين .. ينظـــرون اليه فى اعجاب .. ويهتفون له .. ويشدون أزره ..
وبدأ يحاول التملص من الايدى التى تمسك به .. وشد ظهره .. وثبت قدميه على الارض .. وسار معتمدا على نفسه
ووقفوا به أمام باب مغلق .. وفتح السجان الباب ..
وفجأة ارتفع ضجيج صاخب اهتزت له جنبات السجن .. طرقات عنيفة فوق الأبواب الحديدية المغلقة .. كأنهم يطرقونها بأيد من حديد .. كانت هذه هى تحية الشبان المسجونين لزميل جديد لايعرفونه .. يطرقون أبواب الزنازين بالاطباق والملاعق والاكواب المصنوعة من الصاج ..
وأسرع الدباغ ودفع محيى داخل الزنزانة .. ثم هرول خارج

السجن يفر مرتعدا من هذا الضجيج المخيف ..
وأدار السجان مفتاحه فى القفل ..
ومد يحيى ذراعيه يتحسس فى الظلام .. وتقدم بضع خطوات .. فاصطدم بسرير صغير ، ألقى نفسه عليه وهو لايرى شيئا ثم تحسس وجهه وهمس : نضارتى ! ! ..
وقام وتحسس الارض بخطاه ، حتى وصل الى الباب المغلق ، واخذ يطرقه بكلتا يديه ، وهو يصرخ : نضارتى.. نضارتى..
وضاع صراخه وسط الضجيج الذى كان لايزال ينبعث من وراء الابواب الاخرى .. ثم سكت الضجيج شيئا فشيئا ..
ويحيى لايزال ملتصقا بالباب ، وبدأ يعيد الطرق ويصرخ بأعلى صوته : نضارتى .. نضارتى ؟ ! ..
ولم يجبه احد .. وساد الصمت .. صمت ثقيل رهيب ..
فعاد يتحسس الارض بقدميه ، وألقى بنفسه على السرير الصغير الجاف ..
وبدأ يحس بآلام .. آلام لم يحس بها من قبل ..
أحس كأن سكينا يشق شفته الجريحة .. وكأن نارا تلهب خديه المصفوعين .. وكأن شيئا يتلوى ويتقلص فى جنبه مكان اللكمة التى أصابته .. وتأوه ..
وشعر انه لا يستطيع الحراك .. كأن جسده شد فوق السرير بسلاسل ثقيلة من الحديد .. وهو يريد أن ينام .. ليستريح ! أغمض عينيه ..
وما كاد يغمضهما حتى سمع صوت المفتاح يدور فى قفل الباب ، فرفع رأسه متحفزا .. ولكن الباب لم يفتح .. وظل رافعا رأسه مدة طويلة .. ولكن الباب لم يفتح ..
وأعاد رأسه مكانه .. وأغمض عينيه .. انه متعب .. انه قطعة من التعب .. ويريد أن ينام ..
وفجأة .. سمع صوت المفتاح يدور فى القفل من جديد .. ورفع رأسه فى اعياء .. بلا تحفز .. وانتظر أن يفتح الباب .. ولكن الباب لم يفتح .. انتظر مدة طويلة ، ولم يفتح الباب ..
وسقط رأسه فوق السرير اعياء .. وشعر بالخوف .. وكان أضعف من أن يقاوم خوفه فبدا يرتعش،كأنه أصيب فجأة بالحمى.
وحاول أن يغمض عينيه ، انه يتعذب ، يكاد يموت من العذاب.
وفجأة أضاء النور داخل الزنزانة .. وارتجفت جفناه فوق

عينيه ، كأنهما جناحا عصفورة مذعورة ..
وأدار بصره حوله .. ورأى زنزانتـــه لأول مرة .. قاتمة ، موحشة .. ورأى سريره .. وجردلين أحدهما ملىء بالماء والآخر فارغ .. والباب لايزال مقفلا ..
وانتظر أن يفتح الباب .. ولـكن الباب لم يفتح ..
وفجأة انطفأ النور ، كما أضاء فجأة .. انهم يعذبونه .. انهم لايريدونه أن ينام .. انهم يتلفون أعصابه ..
وأحس بنفسه يتجمع للبكاء .. ولكنه لم يبك .. لم تعد فيه قوة تكفى لقذف الدموع من عينيه ..
ولايدرى كم مضى عليه من الوقت ولكن الدنيا لاتزال ظلاما..
الى أن بوغت بالباب يفتح ، والنور يضاء داخل الزنزانة .. ورأى من بين رموشـــه المرتعشة اليوزباشى الدباغ واقفا أمامه وفوق شفتيه ابتسامته اللزجة .. وسمعه يقول فى لهجة مفتعلة الرقة : انت لسه صاحى يا محيى ، حبيت أطمئن عليك قبل ما أروح .. مش عايز حاجة ؟ !
ونظر اليه محيى فى ضعف كأنه يتوسل اليه أن يرحمه ، وقال فى صوت متهدج خفيف ، وهو لا يزال راقدا : نضارتى ! ! ..
وقال الدباغ وهو يدعى الحنان : بس كده .. ؟
ثم التفت الى خارج الزنزانة وصاح : روح ياعسكرى هات النضارة لمحيى من فوق المـكتب اللى فى أودة التحقيق ! ..
ثم عاد ينظر الى محيى قائلا : تحب أسيب لك الباب مفتوح ؟
وقال محيى فى ضعف : متشكر ..
وقال الدباغ : وتحب أسيب لك النور مولع .. يمكن تكون بتخاف من الضلمه ؟ ! ..
وردد محيى : متشكر ! ..
وجلس الدباغ على حافة السرير بجانب الجســـد المعذب ، وقال : تعرف .. انا مش هاين على أروح وأسيبك هنا .. نفسى الك ترجع البيت الليلة دى .. دلوقت ..
ولم يرد محيى .. وعاد الدباغ يقول :
ـ انا كل اللى عايز اعرفه .. ابراهيم حمدى راح فين بعد ما كتب الورقة دى وقلع البنطلون اللى لقيته عندك .. مش عايزك تقول لى أكتر من كده .. مش عايز أعرف كان بينك وبينه ايه ، ولا قابلته فين .. بس قول لى راح فين ؟ ..

وقال محيى كأنه يتأوه : أنا تعبان ، اعمل معروف سيبنى ..
وقال الدباغ : ما أنا عايز أريحك ، بس اتكلم ، كلمة واحدة !
وقال محيى وهو يدير رأسه فوق الوسادة القذرة :
ـ ما اعرفش .. ما اعرفش حاجة !
وصرخ الدباغ : ما تقولش ما أعرفش.. مش عايز أسمع منك الكلمة دى تانى .. فاهم !
ثم سكت قليلا ، واستطرد بعد أن ضبط أعصابه :
ـ خلينا اصحاب يا محيى .. طيب أنا حاقول لك حكاية .. انت عارف مين دلنا عليك ؟ .. عبد الحميد ابن عمك ! ؟ ..
ورفع محيى رأسه فى فزع من فوق الوسادة ، ثم عاد وألقى يه مكانه ، كأنه تذكر أن الدباغ لا يمكن أن يكون الا كاذبا ..
واستطرد الدباغ قائلا :
ـ مش مصدقنى .. طيب بص .. مش دى نوتة عبد الحميد .. بص مكتوب فيها ايه .. نمرة تليفون همام بك رئيس البوليس السياسى . ونمرة تليفون النائب العام كمان .. مش تعرف خط عبد الحميد .. بص كده ؟ ! ..
وقرب الدباغ المفكرة الصغيرة التى كان يحملها عبد الحميد فى جيبه ، والتى عثر عليها عندما فتشت ثيابه بعد دخوله السجن.. قربها من أنف محيى ، فرأى فيها نمرة تليفون همام بك والنائب العام مكتوبة بخط عبد الحميد .. ففغر فاه .. ورفع عينيه الى وجه الدباغ كأنه يحاول أن يكذبه .. ثم سكت ! !
واستطرد الدباغ قائلا :
ـ حضرته ياســـيدى ضرب تليفون لهمام بك وراح قابله ، علشان يبلغ عن ابراهيم ويقبض المكافأة .. خمسة آلاف جنيه.. مش انت أحق بيهم فى ذمتك .. ثم اذا كان ابن عمك ناوى يوديك فى داهية ، ما تنفد بجلدك وتتكلم قبل ما يلبسك المصيبة كلها
وشعر محيى بقلبه ينقبض .. كل شىء فيه ينقبض الا ذهنه ..
هل صحيح ان عبد الحميد هو الذى بلغ البوليس ؟ ..
وماذا أبلغهم ؟.. ولماذا لم يقبضوا عليه منذ أبلغهم ؟ ..
ولماذا يضربون عبد الحميد .. كما يضربونه ؟ ..
ولـكن هذه نوتة عبد الحميد .. وهذا الخط خطه ، وهـذه نمرة همام بك ! .. أحس بحيرة تمزق عقله ..
أحس أنه يريد أن يكون وحيدا .. يريد أن ينام ..

وقال فى صوت أشد ضعفا : أنا ما اعرفش حاجه .. أرجوك ارحمنى .. أنا تعبان .. عايز أنام ..

وادار راسه فوق الوسادة !

وقام الدباغ منتفضا من فوق حافة السرير ، ومد يده وقبض على محيى من قميصـــه ثم رفعه من فوق الفراش ، وجذبه الى الارض وهو يصرخ : انت باين عليك غبى .. حمار .. مابتفهمش .. الحمير اللى زيك لهم طريقة نعاملهم بيها ..

ثم تركه وصرخ مناديا الجنود الذين يقفون عند الباب ، قائلا :

ـ خش يا عسكرى انت وهوه .. شيلوا السرير ده بره .. ما تخلوش حاجة فى الزنزانة .. وادلقوا له جردلين ميه ! !

ودخل جنديان وحملا السرير خارج الزنزانة ، وحملا الجردلين لم يعد فى الزنزانة شىء الا أرضها السوداء .. ثم عادا بصفيحة مملوءة بالمـــاء وسكباها على الارض الاسفلت .. وخرجا وعادا بصفيحة أخرى.. وسكباها .. وصفيحة ثالثة .. حتى أصبحت أرض الزنزانة كمستنقع صغير رطب ..

وقال الدباغ وهو واقف عند باب الزنزانة :

ـ أما أشوف حتتكلم ولا لأ .. اقفل الباب يا عسكرى !

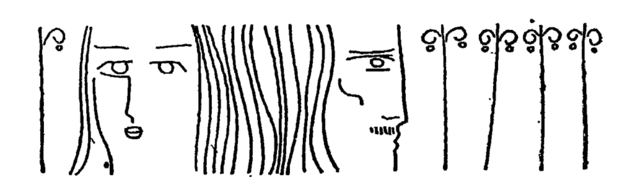
وقفل باب الزنزانة .. وعاد الظلام يغمرها ..

ومحيى واقف مستند على الجدار ، وقدماه فى الماء ..

انه لا يحس بالماء .. ولكنه يحس بالتعب ..

ويريد أن ينام .. وأغمض عينيه ..

ووقع فوق الارض .. فى المستنقع الرطب .. مغشيا عليه ! !





كانت الساعة الخامسة والنصف صباحا عندما بدأت الحركة من جديد فى سجن الاجانب ..

وكانت التعليمات المشددة التى وضعها القلم السياسى لتطبق فى السجن طوال فترة التحقيق فى حادث هرب ابراهيم حمدى ، تقضى بألا يجتمع المسجونون تحت التحقيق ، بعضهم ببعض ، والا يرى أحدهم الآخر .. وأن يظل كل منهم حبيسا داخل الزنزانة طول الليل والنهار .. حبسا انفراديا .. الى أن يجن أو ينهار فيعترف ويدلى بمعلومات تؤدى الى القبض على ابراهيم حمدى ..

وكانت هذه التعليمات المشددة تقضى بأن تفتح كل زنزانة فى الصباح لمدة عشر دقائق ، ليخرج منها السجين ويذهب الى دورة المياه ، يصحبه عسكرى .. على الا تفتح زنزانتان فى وقت واحد ، والا تفتح الزنزانة الثانية الا بعد أن تغلق الزنزانة الاولى على سجينها .. وبدأت الابواب المصفحة تفتح ، ويخرج المساجين الى دورة المياه الواحد بعد الآخر ..

وبدأ المساجين يلتقطون أخبار الأمس من أفواه العساكر .. والأخبار تتناقل داخل السجون أسرع من تناقلها خارج السجن .. وتتسرب الى الزنازين من تحت الابواب المغلقة ، ومن بين الثقوب الضيقة .. كل الأخبار .. سواء كانت خبرا عن زوجة مأمور السجن أو خبرا عن أعتراف متهم .. انه عالم صغير لا يخفى فيه شىء ! ..

وكان الخبر الذى التقطه المساجين هذا الصباح ، خبرا مثيرا .. مذهلا .. لقد قبض البوليس على شاب .. لا أحد يعرف اسمه .. وجاء به اليوزباشى الدباغ الى السجن .. ثم عذبوه ليعترف .. ومات أثناء تعذيبه .. وجثته لا تزال ملقاة فى الزنزانة رقم « ٨ »

وصاح صوت قوى من خلف باب الزنزانة رقم « ١٦ » .. ولم يكن صاحبها قد جاء دوره ليفتح بابه ويخرج الى دورة المياه

ـ يا نمرة تسعة .. يا نمرة تسعة .. سمعت اللى حصل ؟..

وأجاب صوت من خلف باب الزنزانة نمرة « ٩ » :

ـ خير على الصبح ؟ ! ..

وعادت الزنزانة رقم « ١٦ » تتكلم بصوت عال :

ـ دول موتوا واحد فى نمرة تمانية .. مش سامع حاجة فى الزنزانة اللى جنبك ؟ ! ..

وبعد برهة ارتفع صوت الزنزانة رقم « ٩ » :

ـ لأ .. مش سامع حاجة .. زى ما يكون فيها قتيل !

وصرخت الزنزانة رقم « ١٦ » :

ـ عملوها ولاد الكلب .. الدور علينا .. مش حنخرج من هنا الا على التربة .. ما تعرفش مين اللى جابوه ليلة امبارح ؟..

وقالت الزنزانة رقم « ٩ » :

ـ لأ .. استنى لما اسأل نمرة حداشر ..

وارتفع صوت الباشسجان وهو واقف فى الفناء الصغير الذى يتوسط الزنازين : بس يا مسجون انت وهوه ، يا فتاح يا عليم

ولم تأبه به الزنزانة رقم « ٩ » واستطردت تصرخ :

ـ يا نمرة حداشر .. يا نمرة حداشر .. ماتعرفش مين اللى جابوه فى نمرة تمانية ؟

وارتفع صوت من وراء باب الزنزانة نمرة « ١١ » .. صوت قوى غليظ : لأ .. ما اعرفوش .. بيقولوا قتلوه ! !..

وقالت الزنزانة نمرة « ٩ » :

ـ سمعتهم امبارح فى الليل بيفتحوا عليه ..

وفجأة ارتفع صوت مرتعش مذعور من خلف باب الزنزانة رقم « ١٢ » وصرخ : قتلوه ؟ .. قتلوا محيى ؟! ..

ثم ارتفع صوت ضربات عنيفة فوق نفس الباب ، والصوت المرتعش يصرخ : افتحوا يا مجرمين .. افتح يا عسكرى ..

أنا لازم أشرب من دمكم .. حاوديكم فى داهيه ..

وقاطعه صوت حاد من الزنزانة رقم « ١٦ » :

ـ محيى مين يا أخينا .. اسمه الكامل ايه ؟

وصرخ الصوت المرتعش من خلف باب الزنزانة :

ـ محيى ابن عمى ، قتلوه ، قتله الدباغ .. قتلوه .. قتلوه

ثم ارتفع صوت نشيج حاد من خلف الباب المصفح ..

وصرخ صوت الزنزانة رقم « ١١ » : الموت للقتلة ..

ورددت باقى الزنازين : الموت للقتلة ..

وعادت زنزانة أخرى تهتف : نموت وتحيا مصر ..

ورددت باقى الزنازين : نموت وتحيا مصر ..

وهتفت زنزانة ثالثة :

ـ الى الجحيم يا همام .. نريد رأس الدباغ ..

ورددت الزنازين :

ـ الى الجحيم يا همام .. نريد رأس الدباغ ..

وهتفت زنزانة رابعة : يسقط المجرمون .. !

ورددت الزنازين : يسقط المجرمون .. !

وارتفعت دقات عنيفة صاخبة فوق أحد الابواب المصفحة .. وكانت هذه اشارة متفق عليها ، فأمسك كل سجين بالجردل الموضوع داخل الزنزانة .. وأخذ يطرق به بابه المصفح طرقات منتظمة عنيفة كأنه يحاول تحطيمه .. وترددت هذه الطرقات فى جنبات السجن .. فهزته هزات قوية ، وعلا ضجيج صاخب مخيف ، كأن السماء تزمجر غاضبة ..

ودخل الضابط النوبتجى فى فناء السجن مهرولا ، وهو لايزال يضم أطراف سترته ، وصرخ فى وجه الباشسجان :

ـ ايه اللى حصل يا شاويش .. فيه ايه ؟!

واقترب منه الباشسجان ، وقال فى صوت هامس :

ـ بيقولوا فيه واحد مات فى نمرة تمانية ..

وارتسم الاهتمام فى عينى الضابط .. ثم قال :

ـ اقفل الزنازين كلها .. ماحدش يروح الدورة .. وأخر توزيع الاكل لغاية ما أقولك ..

ثم خطا داخل السجن ، والتفت الى الباشسجان كأنه يقاوم خوفا بدأ يتسرب الى قلبه ، وقال : تعال معايا ..

ثم اتجه الى الزنزانة رقم « ٨ » ..

وكان المتهمون قد اعتلى كل منهم حافة سريره داخل زنزانته ، وأخذ ينظر من خلال الفتحة الرفيعة الضيقة جدا التى تفصل بين ضلفة الباب والحائط المثبت فيه .. ورأوا الضابط متجها الى الزنزانة رقم « ٨ » فكفوا عن الضجيج ولصق كل منهم عينيه بالفتحة الضيقة يحاول أن يتتبع الضابط ، وقد بدأ التطلع يغلب غضبه .. وفتح الضابط الزنزانة ..

ورأى محيى .. رآه جثة مكومة على الارض السوداء .. وسط مستنقع الماء الذى صنعه له اليوزباشى الدباغ ..

وانحنى الضابط فوق الجثة فى فزع وتسمع دقات القلب ..

ان القلب لا يزال يدق .. انه لم يمت ..

وأمسك الضابط بيد « الجثة » .. انها باردة .. قطعة من الثلج .. والنبض ضعيف .. ضعيف جدا ..

وقام الضابط وهرول خارج الزنزانة .. وأغلق بابها على الجثة التى تلفظ الروح .. واتجه فى خطوات سريعة نحو مكتبه فى البناء الخارجى للسجن

وصرخت احدى الزنازين : قتلوه .. قتلوه ..

وبدأت الطرقات العنيفة فوق الأبواب المصفحة تتوالى من جديد .. ونظر أحد جنود السجن الى زميله .. وبصق على الارض .. دون أن يتكلم ! ..

ووصل الضابط الى مكتبه ، ووضع طربوشه فوق رأسه ، ثم أمسك بسماعة التليفون فى لهفة ، وأدار رقما ثم قال فى صوت مرتبك : سعادة اللواء همام بك موجود ؟! ..

ثم استطرد : أرجوك تصحيه .. هنا سجن الاجانب ..

وقال بعد أن سمع صوت همام بك :

ـ أيوه يا افندم .. المتهم فى نمرة تمانية اللى وصل امبارح .. حالته .. خطرة جدا .. بيموت .. لسه ما ماتش ..

وأخذ يستمع الى تعليمات همام بك وهو يردد :

ـ حاضر .. حاضر يا افندم .. حاضر .. أيوه يا افندم

والقى سماعة التليفون ، وعاد مسرعا الى داخل السجن ، ثم فتح الزنزانة رقم « ٨ » وصرخ فى الباشسجان الذى كان يقف بجانبه : هات سرير قوام يا شاويش .. وهات اتنين عساكر ينشفوا الميه دى ..

وفى دقائق ، حمل جنود السجن سريرا الى داخل الزنزانة ،

ثم حملوا محيي ووضعوه فوق السرير .. وبدأ اثنان من الجنود يجففان المياه الراكدة على الأرض بمناشف من الخيش .. نفس الجنديين اللذين سكبا المياه على الارض فى الليل .. وانحنى الضابط مرة ثانية يتسمع دقات قلب محيي .. انه لا يزال يدق . لم يمت بعد . وأمسك بيده .. انها باردة .. قطعة من الثلج .. والنبض ضعيف .. ضعيف جدا .. وقرب من أنفه قطعة من القطن معبأة بمحلول النشادر .. فلم يتحرك محيي .. وقرب منه قطعة القطن مرة ثانية حتى كاد يدسها فى فتحة أنفه ، فاهتز رأس محيي هزة خفيفة ، ثم عاد وتصلب . وخاف الضابط أن يقرب قطعة القطن مرة ثالثة من أنف محيى ، فقام من جانبه وهو حائر مرتبك ..

ووقف أحد جنود السجن ملتصقا بباب الزنزانة رقم « ٩ » ، وقال فى صوت يكاد يكفى ليخترق الباب المصفح وسط هـذا الضجيج : ما متش .. لسه فيه الروح ! ..

وصرخت الزنزانة لتبلغ باقىالزنازين : مامتش، لسه مامتش !!

وسكت الضجيج .. وكفت الطرقات فوق الأبواب ، احتراما للزميل المعذب المريض .. ومرت ربع ساعة ..

وفتح باب السجن الخارجى .. الباب الكبير .. ودخـل اليوزباشى الدباغ مهرولا ، واتجه الى غرفة المأمور التى كان يجلس فيها الضابط .. وقال وهو يرفع اصبعه بتحية باردة :

ـ ازاى الحال . جرى له ايه ؟!!

وقال الضابط وهو ينتصب واقفا :

ـ قلبه بيدق .. انما مغمى عليه !

وهز الدباغ رأسـه . ثم رفع عينيـه الى الضابط ، فرآه مضطربا ممتقع الوجه . فقال وهو يبتسم :

ـ ماتخافش .. مش حايموت !!

وجلس على مقعد مريح ، وهو يقول :

ـ البيه المأمور لسه ما جاش ؟!

وقال الضابط : زمانه جاى يا افندم ! ..

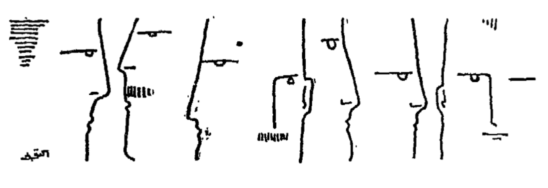
وقال الدباغ ساخرا : على مهله ، كفاية احنا شايلين الهم كله !

وفتح الباب الكبير مرة ثانية ، ودخل همام بك .. وصافح الدباغ ، وحيا الضابط بطرف اصبعه .. ثم انسحب الضابط الى الغرفة الأخرى .. غرفة المعاون .. وقال الدباغ :

ـ تبقى مصيبة .. لو مات قبل ما يتكلم !!
وقال همام بك فى صوت مفتعل الرقة .. كأنه يتهكم :
ـ والله الجماعه دول بيصعبوا على ، أنا عارف مابيتكلموش ليه !
وفتح الباب الكبير ، ودخل طبيب السجن ، ساخطا متبرما تخينا . ويجب أن يقال لك انه طبيب حتى لا تعامله على انه جزار
وقام همام بك واليوزباشى الدباغ يرحبان به .. ثم خرج الدباغ لينادى الضابط .. فجاء وصحب الطبيب الى داخل السجن ، وهمام بك يقول من ورائهما :
ـ أنا آسف يا دكتور لازعاجك .. انما نعمل ايه فى الروتين والاجراءات
ودخل الطبيب الى فناء السجن ، واستقبلته عيون لا يراها تطل عليه من خلال الفتحات الضيقة التى تفصل بين أبواب الزنازين والحائط المثبتة فيه .. وسار الى الزنزانة رقم «٨» ، ودخلها .. ووقف فوق جسد محيى دون أن يلمسه .. ووقف ينظر اليه من بعيد .. ورأى الوجه الأصفر صفرة الموت .. والجثة الضعيفة المكومة .. والشفة المشقوقة من أثر الضرب .. والخدين المتورمين من أثر الصفع .. ورأى المياه التى تبلل الأرض .. وسمع الأنفاس الضعيفة التى تنطلق فى مشقة كأنها تلفظ آخر ما فيها ثم خرج مسرعا كأنه يهرب من رائحة كريهة .. وعاد الى غرفة المأمور حيث كان ينتظره همام والدباغ .. وقال وهو يفرد أمامه ورقة ويخط فيها تقريره :
ـ التهاب حاد فى المصران الأعور .. أظن من الأفضل ينتقل للمستشفى .. علشان تخلوا نفسكم من المسؤولية !
وقال الدباغ : ضرورى يعنى يا دكتور ، يروح المستشفى ؟!
وقال الطبيب وهو يفتح فمه عن أسنان صفراء :
ـ على كل حال اطمن .. أنا حاكتب انه مصران أعور .. وحاباشره بنفسى هناك !
وابتسم همام قائلا : فيك الخير يا دكتور .. والله دول ما يستهلوا المعامله الطيبه دى ..
وبعد فترة وقفت سيارة من سيارات الاسعاف ، أمام باب السجن ، وعاد الضابط الى الزنزانة رقم «٨» يصحبه جنديان حملا جسد محيى بين أيديهما ، وخرجا به الى القسم الخارجى من السجن حيث وضعاه فوق « نقالة » حملها رجلان آخران

ووضعاها داخل السيارة .. وتحركت السيارة ..

وسارت فى محاذاة سور السجن ، وقبل أن تصل الى شارع الملكة نازلى ، مرت برجل عجوز متعب ، يحمل فى يده حقيبة صغيرة ، تبدو ثقيلة عليه ، ويسير فى خطوات بطيئة مرتجفة نحو الباب الكبير .. رجل لم يعلم ان هذه السيارة التى مرت به ، تحمل جسدا بين الحياة والموت .. جسد ابنه ..



١٨

كان الأب قد ارتدى ثيابه على عجل بعد أن تم القبض على ابنه وابن أخيه ، وترك زوجته ملقاة على الأرض تعـانى نوبة عصبية تهز بدنها كله ، وبجوارها ابنتاها .. وخرج يشق الليل بخطوات فزعة متجها الى دار المحافظة ، بعد أن قال له الجندى الذى اشترك فى القبض على ابنه انهم متجهون اليها ..

ووجد بناء المحافظة غارقا فى الليل ، يبدو كشبح يتوسط ميدان باب الخلق ، وليس فيه سوى بصيص ضئيل من النور ينبعث من حجرتين كأنهما عينا شيطان لا ينام ..

ودخل واجف القلب .. مهتـديا ببصيص النور .. بعينى الشيطان الذى يسكن الدار .. واستطاع أن يقابل أحد الضباط وعلم منه ان ابنه ليس فى المحافظة .. ولم يستطع أن يعلم منه أكثر من ذلك .. لم يستطع أن يعلم أين أخذوا ابنه ..

وخرج من مكتب الضابط ، ولم يعد الى بيته .. انما جلس على مقعد خشبى فى ممر طويل مظلم داخل بناء المحافظة بجانب أحد الجنود .. منتظرا ابنه .. لعلهم يأتون به الى هناك ..

ولكنهم لم يأتوا به .. أين أخذوه ؟ أين ذهبوا به .. ؟

ولأول مرة يرى القاهرة فى مخيلته بلدا كبيرا غامضا مخيفا .. ان القاهرة ليست هذه الشوارع التى يعرفها .. وليست هذه الأبنية والدور التى تحمل أرقاما وأسماء .. انها شىء أكبر من ذلك واخطر . ان فيها سراديب لا يعرفها ، وأماكن خفية لم يسمع بها أحد ، سراديب تحت الارض وأماكن خلف أسوار عالية

وبدأ يتخيل تحت كل شارع يعرفه سردابا يخفون فيه ابنه . لعل تحت بناء المحافظة سردابا رطبا مظلما ألقوا فيه بابنه وتركوه بين الثعابين والعقارب ..

لعل ابنه وراء هذا السور العالى الذى يطل على فناء المحافظة ، وتعلوه أسلاك شائكة ، وأبراج يقف فيها جنود مسلحون ..

وكان خلال هذه التخيلات يتنازعه الخوف واللوعة حتى يكاد يبكى ، ثم يطغى عليه احساس عنيف بالسخط فيحس كأن يديه تمتدان رغما عنه لتقبضا على عنق اليوزباشي الدباغ وتخنقه .. ثم لا يكتفى بخنق الدباغ ، وتمتد يداه لتخنقا وزير الداخلية .. ثم رئيس الوزراء .. ثم الملك نفسه .. يخنقهم بلا رحمة ، ويضغط على أعناقهم وهو يصرخ : « أين ابنى .. أعيدوه الى .. أين محيى » ؟!!

ويفيق من هذه التخيلات ليجد نفسه صغيرا تافها .. وهو لم يكن أبدا صغيرا الى هذا الحد .. ولا تافها الى هذا الحد .. كان دائما يحس بشخصيته كاملة .. شخصية محددة واضحة ، قضى حياته كلها يرسم فيها .. شخصيته فى بيته ، وسط عائلته .. وشخصيته فى عمله بين زملائه .. ولكنه الآن يحس بأن ليس له شخصية .. ليس له كيان .. وبأنه لم تكن له هذه الشخصية وهذا الكيان أبدا .. لم تكن له شخصية فى بيته ولا فى عمله .. انما كانت مجرد مظهر من مظاهر الشخصية ، لا شخصية حقيقية ثابتة يستطيع أن يطمئن اليها .. ليس لأحد من أهل هذا البلد شخصية .. ليس لأحد حقوق أو واجبات .. انما الناس فى مصر مجرد بهائم ، تعلق فى سواق .. وتحدد لها الدوائر التى تدور فيها .. وتلهب ظهورها بالسياط ..

ليس لأحد فى هذا البلد شخصية ما دام البوليس يستطيع أن يخطف أولاد الناس ، ويخفيهم فى سراديب تحت الارض ، وخلف أسوار عالية .. دون أن يكون من حق الناس أن يعرفوا أين اختفى أولادهم ..

وازداد احساسا بالتفاهة ، والضعف .. وانكمش على نفسه وانكمشت قسمات وجهه ، تبدا كالفأر المذعور .. وأشفق الجندى الجالس بجانبه على حاله .. فقال وهو ينظر اليه فى رثاء :

ــ يا سيدنا الافندى مافيش فايدة من القعدة دى .. روح بيتكم أحسن .. انت مش باين عليك وش بهدلة !

وقال زاهر افندى كأنه يتشبث بجلسته :

ـ بس عايز أعرف ابنى خدوه فين .. ما اقدرش أروح قبل ما أعرف هوه فين .. وأدينى قاعد ، انشاالله للصبح ..

وقال جندى البوليس وهو يتنهد : ويعنى حاتعمل ايه لما تعرف ، مافيش فايده ، قوم روح أحسن لك وقول يا رب ..

وقال الأب الملتاع : بس عايز أطمن .. راح فين !!

ونظر اليه الجندى مليا ، ثم قال فى لهجة العليم ببواطن الامور:

ـ هو متهم فى ايه ؟

قال زاهر افندى بسرعة : ما أعرفش .. دول لسه قابضين عليه دلوقت ، من مدة ساعة واحدة ! ..

وعاد العسكرى يقول فى لهجة الفيلسوف :

ـ ما هو دايما كده .. الوالدين يشيلو الهم من غير ذنب .. من غير ما يعرفوا حاجة .. انما انت كنت متأكد ان البوليس السياسي هوه اللى قبض عليه .. ما يمكن مسكوه فى مخدرات ولا سريقة .. مين عارف !

ـ لأ .. مش ممكن .. اللى قبض عليه ظابط اسمه اليوزباشى محمود الدباغ ..

ورفع الجندى حاجبيه كأنه يرفعهما رهبة أمام الاسم الخطير ، وقال : بنفسه ؟! ..

وتلفت الجندى حوله ، ثم همس فى أذن زاهر افندى :

ـ تلاقى ابنك دلوقت فى سجن الاجانب .. هناك جنب المحطة .. حضرة اليوزباشي بيعمل كل شغله هناك .. وبياخد المتهمين بتوعه طوالى على السجن من بره بره ..

وغاص قلب الأب فى صدره ، وانطلق كأنه يتأوه :

ـ سجن !! قبل ما يحققوا معاه !!

وهمس الجندى :

ـ بس وطى صوتك . ماهو التحقيق برضه هناك !

وقال الأب كأنه تائه : انت متأكد ؟ ..

وقال الجندى متباهيا بنفسه : الا متأكد .. ما هو احنا ياسيدنا الافندى اللى نعرف كل حاجه .. احنا الاساس !

وقام الأب وهو يهمهم بكلمات لا معنى لها .. وزحف فى الظلام الى أن وضع نفسه فى سيارة أجرة .. وذهب الى سجن الاجانب .. ونزل من السيارة ، وما كاد يقترب من سور السجن

حتى صرخ فى وجهه أحد الحراس وهو يرفع بندقيته من فوق كتفه : عندك ..

وكانت الصرخة كافية لتقذف به بعيدا عن السور .. ووقف ينظر الى السجن من بعيد .. وهو يتصور ابنه فى كل مكان منه ، ويكاد يطل عليه من كل حجر فيه ..

وعدل عن محاولة طرق باب السجن ..

ووضع نفسه فى سيارة الأجرة مرة ثانية ، وعاد الى بيته ..

كان يائسا .. مهدما .. يعذبه احساس بصغر شأنه ، وفشله فى العثور على ابنه ..

وكان يأسه يصور له انه هو الذى جنى على ابنه وألقى به بين أنياب البوليس .. هو الذى سمح لابراهيم حمدى بأن يختبىء فى البيت .. هو الذى جر على ابنه كل هذه المصائب ..

لماذا لا يقبض عليه البوليس بدلا من ابنه ؟!

لماذا لا يقدم نفسه للبوليس ويعترف بأنه هو الذى سمح لابراهيم حمدى بالاختباء عنده ؟!

ما أغبى البوليس .. انهم يعتقدون ان الشبان وحدهم هم الذين يتهورون فى وطنيتهم . انهم لا يتصورون ان رجلا عجوزا مثله يستطيع أن يشارك ابنه فى تهوره ..

وواجبه كأب يلزمه بأن يفتدى ابنه !

يجب أن يحمى ابنه من الضياع !..

أن ابنه هو المستقبل الذى يعيش له .. أما هو فهو الماضى .. وهو يستطيع أن يضحى بالماضى ، ولا يستطيع أن يتنازل عن المستقبل ! .. ولن هل يقبل البوليس هذا الفداء ؟!

هل يطلقون سراح محيى .. لو تقدم معترفا على نفسه ؟!

يجب أن يفكر .. وأن يفكر طويلا ..

وسار داخل بيته بين قطع الاثاث المتناثرة المحطمة من اثر عملية التفتيش التى أجراها البوليس .. ثم وقف على باب غرفته ، وشد ظهره ، وحاول أن يريح قسمات وجهه من تعابير العذاب وأن يجمع ارادته حتى يبدو هادئا .. ثم دخل على أطراف أصابعه !

وكانت زوجته راقدة فى الفراش ، وعيناها مفتوحتان معلقتان فى السقف وخيوط من الدمع تجمدت فوق وجنتيها .. وقد عصبت رأسها بمنديل شدته حول جبينها شدا قاسيا كأنها تحمى

رأسها من الانفجار .. وكانت سامية جالسة على طرف السرير تدلك فى قدمى أمها .. ونوال واقفة عند الطرف الآخر تدلك فى يديها وذراعيها .. والثلاثة فى صمت ثقيل حزين .. وقد فاحت فى الغرفة رائحة عطر عنيف تغلب عليه رائحة « السبرتو » كأنها فى غرفة مستشفى .. ورفعت البنتان رأسيهما الى أبيهما وفى عينى كل منهما نظرات متسائلة ملتاعة ..

وأحست الأم بأنفاس زوجها ، فاهتز جسدها الثقيل هزة عنيفة ، وتأوه السرير فى صرير حاد ، وقامت جالسة وسط الفراش وهى تنظر الى زوجها نظرات مبهورة ، ولما لم تسمعه يتكلم صرخت : هو فين ، ماجاش معاك ليه ، عملوا فيه ايه ؟!

وشد الأب ابتسامة باهتة علقها على شفتيه ، وقال فى حنان :

ــ يا ستى اطمنى .. كل حاجة ماشية كويس ..

وقالت وهى لا تزال تصرخ : شفته .. شفته بعينك ؟

وقال الأب وهو يرخى عينيه حتى لا تفضح كذبه :

ــ شفته ، وقعدت معاه .. واطمنت عليه ؟!

وعادت الأم تصرخ : وماجيتوش معاك ليه .. ماتكدبش على يا زاهر .. قلبى بيقوللى انك بتكدب على !!

وقال وهو يحاول ألا يتلعثم :

ــ حاكدب عليكى ليه يا تحية .. صدقينى واطمنى .. دلوقت قاعد فىأودة الضابط مستنيين النيابة علشان ياخدوا منه كلمتين

وقالت الأم وهى تنظر فى وجه زوجها :

ــ وسبته لوحده يا زاهر .. يهون عليك تسيب ابنك لوحده.. ابنى، ياحبيبى يا ابنى، ياترى عاملين فيك ايه دلوقت ؟

وبدأت تجهش فى البكاء ..

وانحنت البنتان تربتان علي ظهرها .. وقالت نوال :

ــ بس يا ماما .. ريحى نفسك من العياط بأه .. كفاية !

وشدتها سامية تحاول أن ترقدها على ظهرها ، وهى تقول :

ــ ارقدى يا ماما .. كفاية اللى عملتيه فى نفسك .. أهو بابا بيقول ان محيى بخير !

وقال الأب وهو يدير وجهه :

ــ وبعدين بأه يا تحية .. ماتعمليش زى العيال .. انت طول عمرك عاقلة وبتستحملى .. أنا محتاج لك اليومين دول ، بدل ما تعيطى خلينا نفكر سوا فى حالنا .. وصدقينى .. محيى

كويس .. كل اللى حصل ان وكيل النيابة ضرب تليفون وقال انه مش حيقدر يجى الا الصبح .. واضطر محيى انه يستناه .. واطمنى ، ماحدش عرف حاجة ، ولا حيقدروا يعرفوا حاجة

واستمرت الأم فى البكاء والنشيج ، واستطرد الأب يقول :

ـ أنا حاروح أنام فى اودة محيى .. ومن بدرى حاكون عنده !

وخرج من الغرفة .. وما كاد يتعدى الباب ، حتى تخلت عنه ارادته ، وعادت قسمات العذاب الى وجهه ..

وقالت الأم من بين دموعها :

ـ قوموا يا بنات شوفوا أبوكم .. قوموا معاه .. أنا خلاص بقيت كويسه .. خدى له الجلابيـــة معاكى يا نوال .. وانتى يا سامية ، شوفى اذا كان عايز يتسحر حطى له السحور ..

ونظرت البنتان الى أمهما فى تردد ، ثم كأنهما قدرتا ان أمهما لن تستريح الا اذا اطمأنت على راحة الأب ، فقامتا من جانبها ، وحملت نوال جلبـــاب والدها وخرجت مع أختها الى الغرفة الأخرى .. غرفة محيى !

وكان الأب قـــد ألقى بنفسه فوق مقعـــد بين قطع الأثاث المبعثرة .. وجلس صامتا يدير عينيه حوله كأنه يبحث عن محيى فى كل ما يراه .. وبين رموشه حبات من الدمع عجزت ارادته عن حملها ، فتركها تسقط على وجنتيه ..

وقالت نوال فى لوعة وهى ترى دموع أبيها :

ـ جرى ايه يا بابا .. انت حا تعمل زى ماما ؟ !

وقال الأب كأنه يرجوها :

ـ وطى صوتك .. أحسن مامتك تسمعك ! ..

ومدت سامية يديها الى سترته قائلة :

ـ قوم اخلع هدومك يا بابا ، واستريح شويه ..

وقال الأب هامسا وهو يزيح يد ســـامية عن كتفه ، وقد ارتسمت على وجهه علامات الجد : اسمعوا .. أنا حاقول لكم على حاجه مش عايز أمكم تعرفها .. محيى فى السجن ..

وشهقت كل من البنتين ، وظلت شهقتهما معلقة بين شفاههما برهة ..

وقالت ساميه كأنها تعرض صدرها لطعنة أخرى: وعبدالحميد ؟

قال الأب وهو ينكس رأسه : معاه ..

وقالت نوال : وعرفوا حاجه ؟! ..

وقال الأب وهو لايزال منكس الرأس :
ــ ما اعرفش .. ما قدرتش أشوفه .. انما عرفت انهم أخدوه السجن .. سجن الاجانب !
وخيم على الثلاثة صمت حزين .. كل منهم يرى السجن فى مخيلته ويرى محيى خلف قضبانه .. ثم قالت سامية :
ــ أنا أعرف ان ابن خالة خديجة صاحبتى يبقى ضابط فى البوليس .. ما نكلمه .. يمكن يقدر يعمل لنا حاجة ؟ !
ولم يجبها أحد .. ظل الأب صامتا غارقا فى حيرته .. وظلت نوال سادرة فى تفكيرها .. انها تفكر فى ابراهيم .. يجب أن تجده .. انه وحده الذى يستطيع أن ينقذ أخاها .. انه يعرف كيف ينقذه .. يعرف كل شىء !
وقال الأب وهو يتنهد :
ــ خدوا بيجامة محيى وغيار جوانى وفوطة وصابونة .. وحطوهم فى شنطه صغيره يمكن أقدر أوصلهم له بكره الصبح..
وبدأت البنتان تتحركان ..
والبيت كله غارق فى الصمت والخوف كأنهم يرتقبون الموت !
وخرج الأب من الساعة السادسة صباحا حاملا الحقيبة الصغيرة التى تضم ملابس محيى ، ومر فى طريقه على بائع فاكهة واشترى ثلاث أقات من الموز .. ثم ركب الترام الى شارع الملكة نازلى ، ونزل قبل ميدان المحطة ، وسار نحو سور السجن ، ومرت به سيارة الاسعاف وهو لا يدرى انها تحمل جسدا معذبا .. فقد النطق من كثرة ما تحمله من عذاب .. جسد ابنه !
ووقف أمام الباب الكبير حائرا ثم مد ذراعا هزيلا وضغط على الجرس المثبت فى الحائط ..
وفتحت طاقة صغيرة فى الباب وأطل عليه وجه غليظ جامد ينتشر فوقه شارب مشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوق شفتين ملوثتين .. وقال فى غلظة : نعم .. انت مين ؟!
وقال الأب فى تخاذل : صباح الخير .. أنا والد محيى الدين مصطفى زاهر .. وجايب له شوية هدوم !
وقرب الجندى وجهه من الطاقة ، ونظر الى الحقيبة التى يحملها زاهر والى اللفافة التى تضم صوابع الموز .. ثم مط شفتيه ، كأن ما رآه لا يكفى لأن يفتح الباب ، ثم قال فى حدة :
ــ خليك عندك ..

ثم أغلق الطاقة فى وجهه ..

وظل زاهر أفندى واقفا .. وطال وقوفه .. فوضع الحقيبة الصغيرة على الارض وجلس عليها .. وانتظر .. انتظر طويلا.. نصف ساعة .. ساعة .. ثم فتح الباب الصغير ، وقال له الجندى : اتفضل !! ..

وهب زاهر أفندى واقفا ، وجمع الحقيبة ولفافة الموز بين يديه فى ارتباك .. ثم دخل ، وعلى وجهه فرحة كأنه سيلتقى بابنه بمجرد أن يتعدى الباب ...

وقاده الجندى الى غرفة المأمور ..

ودخلها وهو يدير عينيه بحثا عن محيى ..

ولكنه لم يجده .. وجد ثلاثة ضباط بينهم اليوزباشى الدباغ

ونظر الى الدباغ فى توسل ، كأنه يستجديه ابنه .. واقترب منه الدباغ مادا يده وهو يصيح فى ترحيب ، وابتسامته اللزجة تسيل على شفتيه : أهلا ، صباح الخير ، ازيك يا زاهر افندى !

واصطدمت يده بالحقيبة الصغيرة ولفافة الموز ، فقال من خلال ابتسامته : كل ده علشان محيى .. طيب اتفضل استريح !

وأخذه الى ركن من الحجرة وأجلسه على مقعد كبير من الجلد ، وجلس بجانبه على مقعد من الخيزران .. والضابطان الآخران لا يلتفتان اليهما ..

وقال الدباغ : ياسيدى اطمن .. محيى بخير !!

وقال الأب فى لهفة وهو يقفز الى مقدمة مقعده : أقدر أشوفه ؟

وقال الدباغ :

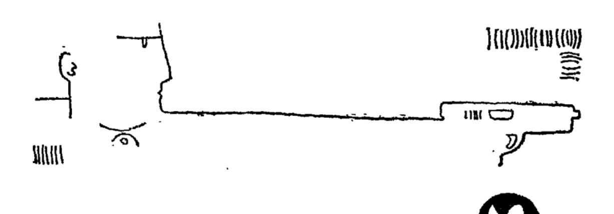
ـ حلمك على .. أصل الحقيقة ان محيى مزعلنى .. يظهر ان فيه شوية عيال ضاحكين عليه ومفهمينه انه ما يتكلمش .. وأنا عايزه يتكلم علشان يرجع البيت .. ويلتفت لدروسه ..

وعاد الأب الى مؤخرة المقعد وقد بدا عليه اليأس وقال فى حزن : يتكلم يقول ايه يا سعادة البيه ؟ ..

وقال الدباغ :

ـ يقول كل حاجة يعرفها عن ابراهيم حمدى .. احنا لاقينا فى أودته حاجات تخص ابراهيم حمدى ، وكل اللى عايزين نعرفه ابراهيم راح فين ؟ الا قول لى .. انت ما لاحظتش على محيى حاجة فى اليومين اللى فاتوا .. بيتأخر بره .. بيجتمع بصحابه كتير .. حاجة زى كده ..

وقال الأب وهو يتنهد :
ـ أبدا يا سعادة البيه .. يحيى مش بتاع حاجات زى دى .. ده عمره ما كان له دعوة بالسياسة ، ولا يعرف ابراهيم حمدى ولا غيره ..
وقال الدباغ كأنه يأسف :
ـ ما هو ده اللى محيرنى .. الحقيقة اننا عمرنا ما سمعنا عن يحيى ولا كان له دوسيه عندنا .. انما مين عارف .. يمكن كان اشطر مننا ..
وقال الأب : أبدا يا سعادة البيــــه .. هوه مالوش دعوه بالسياسة أبدا .. ده أنا اللى مربيه !
وقال الدباغ بعد فترة صمت :
ـ اسمع .. أنا حاخليك تقابله علشان تقنعه بأنه يتكلم .. وحط فى بالك ان التهمة الموجهة له خطـــيرة .. عقوبتهـــا ثلاث سنين سجن على الأقل ولو اتكلم يأخذ مكافأه خمستلاف جنيه
قال الأب فى لهفة : حاقابله دلوقت ؟! ..
وتذكر الصباغ آثار التعذيب التى قد تكون بادية على يحيى ، فقال : لأ .. دلوقت مش ممكن .. لازم نجيب أذن من الحاكم العسكرى .. وأنا حاسعى لك فى الاذن ده .. ابقى فوت على فى المحافظة بعد بكره ..
وقال الأب : بس أشوفه أطمن عليه ..
وقال الدباغ وابتسامته لا تزال بين شفتيه :
ـ اطمن ، ده فى عهدتى ، ماتخافش ، فوت على بعد بكره
وقال الأب يائسا : أقدر أسيب له الحاجات دى ؟! ..
وفكر الدباغ قليلا ، ثم عدل عن أن يقول للأب ان ابنه ذهبوا به الى المستشفى ، وقال : أمال .. أنا حاوصلهم بنفسى !
وقال الأب فى ضعف : متشكر ! ..
وقام وصافح الدباغ بيد مرتعشة ، وخرج من الباب الـكبير وسار كأنه يكاد يقع على وجهـــه فى كل خطوة .. وركب الترام الى الوزارة .. ووقف يوقع على الســاعة التى يوقع عليهـــا الموظفون عند وصولهم وانصرافهم ..
ورفع عينيه فوجدها الساعة الثامنة والنصف ..
لقد تأخر نصف ساعة .. لأول مرة فى حياته ..
وأحس ان حياته كلها قد اختلت ! !



١٩

كانت نوال وهى تفكر فى ابراهيم ، لا تدرى بالضـــبط ماذا يمكن أن يفعله لانقاذ أخيها محيى من السجن .. ربما استطاع أن يساعده على الهرب .. وربما استطاع أن يزوده بدليل يثبت به براءته .. انها لا تدرى .. ولـكنها تحس احساسا عميقا بأن ابراهيم يستطيع تحمل مسئولية محيى ، وأن ينقذه ..

وهى تحمله هذه المسئولية بلا حقد ، وبلا لوم .. انها تحملها له كبطل .. وكزعيم .. وكأخ .. وكرجل يخفق قلبها بحبه ..

وقد فكرت أن تبحث عنه بدل أن تنتظر موعده .. فكرت أن تذهب الى صديقه فتحى المليجى ، وتبلغه نبأ القبض على محيى وعلى عبد الحميد ، وتطلب اليه أن يأخذها الى رجلها .. ولكنها خافت أن تذهب .. خافت أن يفسد ذهابها خطة من خطط ابراهيم .. ربما كان البوليس يراقب فتحى المليجى .. ربما كان يراقبها هى شخصيا .. انها حائرة .. لا تدرى شيئا .. لا تدرى كيف يفكر هؤلاء الشبان ، ولا كيف تصــل اليهم .. ولـكنها تحاول بينها وبين نفســـها أن تفكر بعقليتهم على قدر ما فهمت من عقلية ابراهيم .. وفضلت الانتظار الى الغد ..

كان الغد يوم الاثنين ..

ولم تقف طويلا أمام المرآة .. لم تحس هذه المرة انها ذاهبة الى موعد غرام .. كانت لهفتها على أخيهـــا وابن عمهـــا قد استحوذت على تفكيرها كله وعلى عواطفها كلها .. حتى لم يبق منها لابراهيم الا دوره فى انقاذهما من السجن ..

ولم تتعب نفســـها كثيرا فى استئذان أمها .. كانت الام قد هدتها لوعتها على ابنها فلم تعد تستطيع أن تغادر فراشها الا لبضع خطوات تخطوها مستندة على ذراع احدى ابنتيها .. وقد تركت البيت للبنتين يقومان بالاشراف عليه ، وبين عينيها نظرة ضعيفة تتبعهما بها ، كأنها تشفق عليهما من هذا العبء الثقيل الذى لا يستطيع أن يقوم به أحد الا هى ..

وســـارت فى خطوات جريئة سريعة نحو محطة الاوتوبيس ، وهى تتلفت خلفهـــا بين كل بضع خطوات لتتأكد أن البوليس لايراقبها كما كان يراقب عبد الحميد ..

ولم تكن تفكر خلال الطريق الا فيما يمكن أن يفعله ابراهيم من أجل أخيها .. قد يصمم على أن يقتل الضابط الذى اعتقله لا .. لن تتركه يقتل مرة ثانية .. انها تخاف عليه .. ورغم ذلك فهى فى أعماقها تتمنى لو قتل هذا الضابط .. لو قتل كل الضباط .. وكل رجال البوليس ، اذا كان هذا هو الطريق لانقاذ أخيها .. ولكن على شرط الا يتولى ابراهيم قتلهم .. انها تريده سالما .. تريده هو وأخاها ..

وكانت متأكدة ان ابراهيم سيأتى للقائها ..

شىء فى صدرها يكذب كل شك يساورها فى حضوره ..

انه لا يستطيع أن يتخلى عنها اليوم ..

لا يستطيع أن يترك محيى فى السجن .. ولا يأتى ليطمئنها على ما سيفعله من أجله ..

ونزلت من الاوتوبيس ، وسارت الى ميـدان « فنى » وهى لا تحس بالحرج من عيون الناس التى تتبعها .. لم يعد شىء يهمها الا أن تلتقى بابراهيم لتنقذ أخاها .. انها ليست ذاهبة الى موعد غرام أيها الناس ، انها ذاهبة لانقاذ أخيها ..

ووقفت فى ميدان « فنى » بجوار مستشفى عانوس ، وهى تتلفت حولها ، وفى عينيها نظرات قوية ، جريئة ..

ومضت الدقائق .. مضت ربع ساعة ..

وبدأ الشك يراودها .. وخفتت نظراتها القوية الجريئة ..

ومضت الدقائق .. مضت نصف ساعة ..

وبدأ الشك يقترب من اليقين .. وبدأ الأمل يقترب من اليأس .. وبدأت ثورة عارمة تتجمع فى صدرها ..

ومضت الدقائق .. ثلاثة أرباع الساعة ..

انه لن يأتى .. هرب من المسئولية .. ماذا يهمه لو قبض على أخيها ، وسجن أو شنق .. ماذا يهمه لو قبض عليهم جميعا ؟ لو احترق البيت بمن فيه ؟ كل ما يهمه أن يهرب ، أن ينقذ نفسه وانفجرت الثورة فى صدرها ..

لماذا تحبه ؟ .. هذا الأنانى ؟! .. وماذا تحب فيه ؟! ..

ربما كانت تحب فيه وهما .. وهما صوره لها بطلا .. ولكن أين البطل ؟.. انه هرب .. انه ترك أخاها وابن عمها فى السجن وهرب .. لم تكن تتصور ان الابطال يهربون .. يضحون بالناس فى سبيل سلامتهم !

لماذا لا تذهب للبوليس وتنقذ أخاها بنفسها .. لماذا لا تقول للبوليس كل شىء ؟.. ستدلهم على فتحى المليجى .. وفتحى يستطيع أن يدلهم على ابراهيم ، ان ابراهيم أحق بالسجن من أخيها ومن ابن عمها .. انه بطل .. والسجون أقيمت من أجل الابطال .. أما أخوها وابن عمها فليسا بطلين !! ..

وأحست بغصة تقبض قلقها ..

لا .. انها لا تحب وهما .. انها تحب رجلا عاش فى بيتها .. تحب حقيقة عاشت فى عينيها ، وفى رأسها ، وفى قلبها ..

وأحست بثورتها تلين وهى تستعيد صورته .. عينيه الواسعتين ، وأنفه الكبير ، وشفتيه الرقيقتين ، وذقنه القوى ، وحديثه الهادىء الخجول ، وسيماء النبل والشهامة والرجولة تكسو وجهه ..

وأحست بعواطفها تتمزق .. كأن ابراهيم يشدها من ناحية وأخاها يشدها من الناحية الاخرى .. انها حائرة .. حائرة بين حبيبها وأخيها .. لا تستطيع أن تضحى بأحدهما .. ولا تكاد تجمعهما فى قلبها حتى يشدهما عن بعضهما لهفتها على أخيها السجين ولهفتها على حبيبها الهارب ..

وأحست باليأس .. كأن باب الأمل الوحيد قد أغلق فى وجهها ، الباب الذى كان يقف فيه ابراهيم ويمد منه يده لانقاذ أخيها ..

ودفعها اليأس الى الاحساس بالاستسلام .. بالاستسلام للقدر .. لله .. ووجدت نفسها تتنهد من أعماقها وهى تسير عائدة الى بيتها ، تردد : يارب ياسيده زينب ياسيدنا الحسين !

ووصلت الى البيت لتنضم الى العائلة الحزينة .. حزنا

مستسلما صامتا الا من أصوات النشيج الخافت كلما خلت الام أو احدى البنتين بنفسها ..

وقضى الاب يومه يحاول أن يعثر على « واسطة » تتوسط فى انقاذ ابنه .. ذهب الى رئيسه فى عمله .. ووعده رئيسه خيرا .. وذهب الى صديق له من موظفى وزارة الداخلية .. ووعده خيرا .. وذهب الى نسيب يمت بصلة قرابة بعيدة لنائب فى البرلمان .. ووعده خيرا .. واستمع الى زملائه ، وكل منهم يدلى بنصيحة ، ويوصيه بطريق ..

وقال له محمد أفندى العنتيل زميله فى المكتب :

ـ بصراحة .. معاك قرشين .. اذا كان معاك أد خمسين جنيه ، استغنى عنهم ، وحطهم فى ايد عبد الله بيه عبد الله .. ده عضو مجلس نواب وكلمته تفتح كل باب حتى باب السجن ..

وأحصى الأب فى ذهنه كل ما يملكه ، وقرر أن يضحى بالخمسين جنيها فى سبيل ابنه .. ولكنه ما لبث أن يئس عندما أكد له زميل آخر ، ان عبد الله بيه عبد الله لن يفعل له شيئا الا أن يتنازل ويقبل الخمسين جنيها ليضعها فى جيبه ..

وعاد فى آخر النهار لتقابله مشكلة أخرى ..

كيف يكذب على زوجته كذبة أخرى ، ليخدعها فى مصير ابنه ، وقال لها قبل أن يركز تفكيره :

ـ ياستى التحقيق اتأخر ، حيضطروا يبيتوه الليلة دى كمان !

وقالت الام وهى تتأوه :

ـ انت بتكدب على يا زاهر .. ما تكدبش على يا اخويا .. قول لى الحقيقة .. عملوا فى ابنه ايه ؟.. سجنوه .. شنقوه ..

وقال وهو يدير وجهه عنها :

ـ هوه السجن بالساهل .. ده لسه تحقيق طويل ..

قالت وهى تحرك رأسها فى عصبية فوق الوسادة :

ـ بالساهل يا اخويا .. كل حاجة عندهم بالساهل .. دول مجرمين .. يارب يشحططهم على ولادهم ، زى ما شحططونى على ابنى .. ربنا ينزل عليهم مصيبة تاخد أجلهم .. زى ما بيصيبوا ولاد الناس ..

وتركها الاب ، وهرب الى غرفة « القعاد » ، حتى لا ترى يأسه على وجهه .. وازدحم البيت بعد الافطار ..

جاء الجيران الذين سمعوا الخبر .. جاءوا وعلى وجوههم

دهشة .. لم يكن أحد منهم يعتقد أن محيي له دخل فى السياسة .. وبعضهم لا يتصور انه قبض عليه فى قضية سياسية .. من يدري .. ماذا يستطيع هذا الشاب الضعيف الخجول أن يفعله ؟ ربما اشترك هو وابن عمه فى جريمة سرقة .. ربما ضبطا فى حادث حشيش .. ان ابن عمه حشاش وبايظ ، ولم يتم تعليمه ..

وكلهم تغلبهم الرغبة فى الاستطلاع وسماع القصة ، على رثائهم للعائلة وعطفهم عليها ..

والام فى فراشها ، تستقبل جاراتها ، والبنتان بجانبها يرويان لهن قصة القبض على أخيهما ، ويعيدان روايتها فى كلمات مبتورة وصوت حزين ..

وكلما سألت احدى الجارات عن سر القبض ، أجابت احدى البنتين : ما نعرفش ، ما حدش عارف حاجه لغاية دلوقت !

وتستطرد الاخت الاخرى :

ـ دول الايام دى بيقبضوا على الناس عميانى .. اللى يلاقوه فى وشهم يقبضوا عليه !

وتمصمص الجارات شفاههن حسرة .. وتتنهد الام قائلة :

ـ افرجها يارب ! !

والاب فى غرفة « الضيوف » يستقبل جيرانه براس منكس ، ويروى هو الآخر القصة المرة بعد المرة ، وفى كل مرة يضع لها تفاصيل جديدة ، ويحذف منها تفاصيل سبق أن قالها ..

وجاء أخوه .. والد عبد الحميد .. انه أضعف منه ، وأقل حزما ، وكان طول عمره أضعف منه ، وأقل حزما .. وحياته كانت دائما مهزوزة ، مائعة ، وهو من هذا الصنف من الرجال الذى يستسلم لزوجته ، اذا لم يجد انسانا آخر يستسلم له .. وقد كان أشد حيرة من أخيه منذ سمع بخبر القبض على ابنه .. ولم يستطع أن يفعل شيئا ، لم يستطع حتى أن يذهب الى المحافظة ويسأل هناك .. انما خرج من البيت مرضاة لزوجته ، وجلس فى المقهى .. ثم جاء الى أخيه ليستمع منه الى بعض تفاصيل يعود بها الى بيته ويرويها لزوجته ، كأنها تفاصيل وقف عليها بنفسه .. وقال الأخ لأخيه بعد أن استمع الى القصة تروى على مسامع الجيران المرة بعد المرة :

ـ طيب قولنا ان عبد الحميد ابنى ولد شقى .. مين عارف كان بيعمل ايه ؟ .. انما محيى .. ده طول عمره عاقل ومقتصر فى

حاله .. ذنبه ايه كمان ؟ !

وقال الأب : مالوش ذنب ، ولا عبد الحميد له ذنب ، قسمتنا كده !

وقال صديقه السيد عبد الفتاح : قسمتنا ده ايه ؟ .. بأه دى عيشه ترضى ربنا .. ده ظلم .. دى حكومة سفاحين ..

وقال خليل أفندى أبو العز :

ــ الحقيقة حالة البلد بقت ما تنطقش .. وما حدش عارف آخرتها ايه ؟ .. ما فيش طريقة تودى الناس دول فى داهية ؟ !

ورد السيد عبد الفتاح : قبل ما يودونا فى داهية ! ..

وقال عباس أفندى مرتضى :

ــ والله الواحد ابتدا يعذر الشبان بتوع السياسة .. لو كنت لسه فى شبابى كنت عملت زيهم واكتر شوية ..

واستمع الأب الى تعليقات جيرانه وأصدقائه فى دهشة صامتة .. انها المرة الاولى التى تتردد فيها مثل هذه الاقوال فى بيته ، والمرة الاولى التى يسمعها تتردد على السنة أصدقائه .. ولكنه يحس ان هذه الاقوال كانت حبيسة فى صدره منذ زمن طويل.. كان دائما يرددها فى نفسه ولا ينطقها ..

وأحس برغبة جامحة فى أن يشارك أصدقاءه تعليقاتهم .. ان يثور .. وأن يسب ويشتم فى الحكومة ، وفى الملك ، وفى الانجليز ولكنه كبت رغبته بكل ارادته .. كان خوفه على ابنه يحول دون ثورته ، وكان يعتقد ان من الافضل له أن ينافق الحكومة ــ حتى فى حديثه مع أصدقائه ، وحتى بينه وبين نفسه ــ لعلها ترحم ابنه

وبدأ الجيران ينصرفون .. وانصرف معهم أخوه ، ومال على اذنه وهو يصافحه قائلا : تفتكر حا يحصل ايه ؟..

وقال زاهر أفندى وهو يطأطىء رأسه :

ــ والله ما أنا عارف ياخويا .. أنا مسلم أمرى لله ..

ونامت العائلة مفتحة العينين ..

وخرج زاهر أفندى فى الصباح الباكر ليعاود محاولة الاتصال بابنه ، وقد قرر أن يذهب الى رئيسه ، ويستأذنه فى غياب يوم حتى يستطيع أن يذهب لمقابلة اليوزباشى الدباغ ليسهل له مقابلة ابنه ، كما وعده .. وبقيت الأم وبنتاها فى البيت .. يتحركون كأنهم يتأوهون من الألم .. !

ودق جرس الباب فى الساعة الحادية عشرة .. وفتحت

سامية ، ثم تراجعت عن الباب وهى تضع يدها فوق صدرها ، وقالت فى حدة يشوبها الذعر : عايز ايه ؟! ..
وظلت تنظر الى الطارق بعينين واسعتين ، كأنها تخشى أن يمد يده الى عنقها ويخنقها ..
ولم يكن الطـــارق سوى جندى من جنود البوليس فى ثيابه الرسمية .. وكان يبتسم فى تواضع ، ويغض نظره فى أدب .. وقال فى صوت هامس :
ـ انا جاى من طرف سى عبد الحميد أفندى ! ..
وقالت سامية وهى لا تزال تنظر اليه بعينين واسعتين :
ـ عبد الحميد ! ! عبد الحميد مين ؟ ! ..
وقال الجندى : مش ده منزل مصطفى افندى زاهر ؟ ..
وقالت سامية ، وقد بدأت تحاول أن تفهم : أيوه ..
وقال الجندى وهو يهمس : أنا جاى من سجن الاجانب .. وسى عبد الحميد مسلمني رسالة أوصلها لكم !
ثم أخرج من جيبه ورقة مطوية ، ومد بها يده الى سامية ..
وتناولتها سامية بيد مرتعشة .. ونظرت الى الجندى صامتة .. ثم فردت الورقة أمام وجهها ونظرت فيها ..
انه خط عبد الحميد .. انها تعرف خط يده من بين آلاف الخطوط .. تعرفه طول حياتها .. وقرأت :
« عمى العزيز ..
« بعد تقبيل أياديكم الكريمة ، أبلغكم اننا بخير ، ولم يحدث شىء يمكن أن يزعجكم ، ويسىء الى موقفنا .. وقد نقلوا محيى الى المستشفى هذا الصباح ، وقد علمت انه بصحة جيدة ، ولكن أصابه بعض التعب من أثر الرطوبة .. والمستشفى خير له ، على كل حال ، من السجن .. فلا تنزعجوا .. أرجوك يا عمى أن تثق بنا ، وكل ما نحتاج اليه هو الصبر .. صبركم وصبرنا .. أرجو أن تطمئن والدى ووالدتى .. وأن تطمئننى على أخبـاركم عن طريق حامله .. تحياتى الى الجميع » ..
والخطاب بلا توقيع ..
ورفعت سامية رأسها وقالت فى لهفة :
ـ محيى فى المستشفى .. ليه .. حصل له ايه ؟ ! ..
وتلفت الجندى حوله ليشعرها بأنه لا يزال واقفا على الباب ، وقال : ماحصلش حاجه .. بس كان تعبان شويه !

وقالت سامية وهى تكاد تصرخ : تعبان .. تعبان من ايه ؟ ..
وعاد الجندى يتلفت حوله ، ولاحظت سامية تلفته ، فأفسحت له الباب قائلة : اتفضل ! ..
ثم أغلقت الباب وراءه ، وهى تقول : اعمل معروف طمنى !..
وقال الجندى ، وهو ينظر الى المقعد لتدعوه الى الجلوس :
ـ اطمئنى ياست هانم ماحدش يروح المستشفى الا بواسطه
وقالت سامية وهى تشير الى المقعد : اتفضل ! ..
وتركته واتجهت الى داخل البيت ، ونادت أختها هامسة ، خفية عن أمها ، وانزوت بها فى ركن من الممر الذى يصل بين الحجرات ، وأطلعتها على رسالة عبد الحميد ، ونقلت لها حديث الجندى .. ثم خرجتا اليه سويا ، وقالت نوال وفى عينيها لهفة :
ـ ما تعرفش من فضلك نقلوه أى مستشفى ؟ ! ..
وقال الجندى ، وهو جالس : والله مش متأكد ، انما اللى أعرفه انهم كلهم بيروحوا القصر العينى ! ..
وارتفع صوت الأم من الداخل : مين يا بنات .. ؟!
وتبادلت البنتان النظرات ، ثم دخلت اليها نوال قائلة :
ـ ده واحد جاى من عند يحيى وعبد الحميد بيطمنا عليهم !
وقفزت الام جالسة فوق سريرها ، ثم نزلت من فوق السرير فى خفة ، كأن شبابها رد اليها ، وقالت :
ـ جاى من عندهم .. لازم أشوفه !
وقالت نوال فى ارتباك :
ـ بس ساوى شعرك يا ماما .. ما يصحش .. و ....
وقالت الأم مقاطعة : ناولينى منديل راسى والشال بتاعى ..
وناولتها نوال منديل الرأس والشال ، ثم تركتها مسرعة ، وخرجت الى الجندى وقالت له هامسة :
ـ اعمل معروف ما تقولش لها حاجة .. قول لها انهم بيحققوا معاهم بس .. ما تجبش لها سيرة السجن ولا المستشفى .. أصلها عيانة شوية واحنا مخبيين عليها ..
ودخلت الام وهى تسير فى خطوات سريعة كأنها تركت وراءها آلامها ، وجسمها المكتنز ، وتوقفت قليلا عندما رأت الجندى بزيه الرسمى ، ثم قالت :
ـ انت شفتهم يا ابنى .. شفتهم بنفسك ؟ ! ..
وقال الجندى وهو يقوم واقفا :

ـ أيوه .. كويسين ومستريحين وصحتهم عال ..
وقالت الأم : وحيرجعوا امتى ؟ قول لى ياابنى .. طمنى ؟!
وقال الجندى : تهون ياست هانم !..
وقالت الأم فزعة : تهون .. ودى تهون أبدا .. ما تقول .. ماتخبيش .. حاترجعوهم امتى ؟! ..
وارتبك الجندى ونظر الى البنتين كأنه يستغيث بهما ، ثم قال :
ـ كلها يوم ولا اتنين ، ويخلص التحقيق ..
وقالت الام كأنها تعتبر هذا الجندى هو المسئول الأول أمامها :
ـ والنبى يا ابنى دول مظلومين .. صدقنى .. دول مظلومين .. واللى ييجى على المظلومين ربنا ما يرحموش .. خافوا من ربنا يا ابنى ..
ثم جلست كأنها سقطت فوق المقعد ..
وأحس الجندى بحرج ، ومط شفتيه كأنه يشفق على هـذه العائلة الساذجة ، ثم ردد وهو يبحث عن أى كلام يقوله :
ـ اطمنى ياست .. الفرج قريب باذن الله .. على كل حال لو حبيتوا توصلوا لهم أى حاجة أنا فى الخدمة ..
وقالت الام وكأنها لا تسمعه :
ـ وبتحققوا معاهم فى ايه بأه ؟ .. ايه اللى عملوه ؟ ! ..
وعاد الجندى ينظر الى البنتين ، ثم قال :
ـ على كل حال .. اطمنى ياست ..
وقالت الأم : وياترى بيناموا ازاى ؟ ..
وقال الجندى : على سراير.. زى سرير حضرة الضابط تمام !
وعادت الام تقول وهى تمصمص شفتيها وترفع عينيها الى السماء : وياترى بياكلوا ايه ؟ ..
وقال الجندى :
ـ الفطار .. لحمـة .. ورز .. وخضـار .. والله حضرة الضابط يسيب الأكل اللى جاى من بيتهم وياكل من أكل السجن !
وخبطت الأم على صدرها ، وصاحت :
سجن ؟! .. هم خلاص دخلوا السجن .. ؟!
وبوغت الجندى ، ثم قال بلهجة العليم :
ـ لأ ياست هانم ، دول اسمهم .. تحت التحقيق !
ثم قام واقفا ، كأنه يريد أن يفر من هذا الحرج ، وقال :
ـ تحبوا أوصل لهم حاجة ؟

وقالت الأم :
ـ أيوه والنبى يا ابنى نفسى أبعت له شوية من حاجات رمضان أصل محيى طول عمره يحب البندق واللوز .. ولازم أبعت له شوية هدوم ، زمانه مش طايق الهدوم اللى عليه ياحبة عينى .. وكمان شوية فاكهة يغذى بيهم نفسه .. وكتبه .. ما هو لازم يذاكر .. الامتحان فاضل عليه يدوبك كم يوم ..
والتفت الجندى الى البنتين وقال لهما ، كأنه يئس من التفاهم مع الأم : الحاجات دى مش ممكن تدخل الا باذن .. انما اذا كان فيه حاجات صغيرة ممكن الواحد يدخلها له
قالت سامية : زى ايه ؟ ..
وقال الجندى وقد عاد يتعجب لهذه العائلة الساذجة :
ـ فلوس مثلا .. ماهم برضه هناك محتاجين لفلوس !
وقالت نوال وهى تضع ذراعها فى ذراع أمها :
ـ تعالى يا ماما .. عايزاكى فى كلمة جوه !
وقامت الأم وهى تتأوه ، وقد عادت اليها كل آلامها ، واتجهت مع ابنتها الى غرفتها . ثم صعدت الى سريرها وارتمت عليه يائسة كأنها عادت من رحلة خائبة ، وأشارت الى ابنتها . وقد فهمت ما قاله الجندى ، وقالت :
ـ افتحى الدرج اللى عندك ده ، تلاقى منديل معقود على جنيه .. خدى الجنيه واديه للجدع ده يوصله لمحيى .. يمكن يكون صحيح محتاج له ..
وفتحت نوال الدرج ، وفكت عقدة المنديل ، ثم حملت الورقة ذات الجنيه وعادت بها الى الجندى قائلة وهى تناولها له فى ارتباك : اذا كان محتاج لحاجه تانيه ، ابقى فوت علينا .. يكون بابا جه !!
ونظر الجندى الى الورقة المالية وقال :
ـ ده بأه اديه لسى عبد الحميد ؟
وقالت نوال : أيوه ..
وعاد الجندى ينظر الى الورقة المالية دون أن يتحرك فى وقفته ، وقال : والله الواحد بيجازف بمستقبله علشان خاطره ، أهى عمله زى دى يمكن تودينى فى داهيه ، ولا انسجن فيها ..
وقالت سامية : فيك الخير ..
وعاد الجندى يقول وهو ينظر الى نوال ثم يعود وينظر الى

الورقة المالية : انما الحقيقة دول رجاله يستاهلوا ..
ولم يتحرك من وقفته ، ولم يبد عليه نية الانصراف !
وبرقت عينا نوال كأنها فهمت شيئا .. ثم التفتت الى أختها ، قائلة : ساميه .. اسمعى !..
ثم أخذتها من ذراعها ودخلت الى البيت وهى تقول للجندى :
ـ دقيقة واحدة من فضلك !
ثم همست فى أذن سامية ، وقد أصبحتا على باب غرفتهما :
ـ هاتى الخمسة وعشرين قرش اللى معاكى ، على الخمسة وعشرين قرش اللى معايا .. وندبهم له ..
وقالت سامية : يمكن يرفضهم .. ويزعل !
ـ مش باين .. كل الناس بتعمل كده وأصلنا محتاجين له !
وهزت سامية رأسها كأنها غير مقتنعة .. ثم أخرجت كل من الأختين حقيبتها وتناولت ما فيها من نقود ، ثم جمعت نوال المبلغ فى يدها ، وعادت به الى الجندى ، ووضعته فى يده وقلبها يدق بعنف كأنها ترتكب جريمة !
ولم ينظر الجندى الى المبلغ ، انما تحسسه بيده كأنه أعمى يعد نقوده ، ثم قال : ودول علشان مين بأه ؟ ..
وقالت نوال وهى تتلعثم : دول علشانك.. علشان المواصلات !
وقال الجندى وهو لا يزال قابضا على النقود فى يده :
ـ مافيش لازمة .. لا والله .. ماتجيش !
واتسعت عينا سامية كأنها تصدقه
وترددت بين شفتى نوال كلمات لا معنى لها ..
ووضع الجندى النقود فى جيبه ، قائلا : متشكرين ! ..
ثم تحرك نحو الباب ، ونوال تقول له :
ـ ابأه طمنا دايما .. كل يوم ..
وقال الجندى : حاضر .. خليتكم بعافية !
وخرج .. ودخلت نوال الى المطبخ ، وهى تسير مقطبة الجبين كأنها تخنق أفكارها
وفتحت سامية خطاب عبد الحميد . وأخذت تعيد قراءته كأنها تلتقى به بين السطور .. ثم غطت عينيها بالخطاب .. وبكت .. كأنها تبكى على صدره !
وكانت الساعة قد بلغت الثالثة بعد الظهر عندما عاد الأب .. عاد أكثر يأسا .. وأشد ضعفا .. وأصغر شأنا .. لقد ذهب

الى مكتب اليوزباشي الدباغ فى المحافظة ، فلم يجده .. وانتظر على بابه ثلاث ساعات جالسا بين السعاة ، الى أن جاء الدباغ .. وعندما جاء أبقاه على الباب ثلاث ساعات أخرى ، ثم رفض أن يقابله .. رفض حتى أن يطمئنه على ابنه .. وعاد الى بيته وهو يسحب قدميه ويسير فى ظلام لا يرى خلاله شيئا .. ولا يرى فى داخل نفسه الا الحقد .. والثورة المكبوتة فى عنف

واستقبلته ابنتاه وأطلعتاه على نبأ الجندى الذى جاء .. وقرأ خطاب عبد الحميد .. وشعر ببصيص ضئيل من النور يتسلل الى صدره .. انه على الأقل يعرف أين ابنه الآن .. ويحس كأنه يسمع صوته .. صوت محيى وصوت عبد الحميد .. وسار متجها الى غرفته ليطمئن على زوجته .. ولكنه توقف فجأة .. كأنه سمع صرخة حادة .. صرخة محيى وهو راقد فى المستشفى يناديه ويستغيث به ..

واستدار فى عجل .. وخرج من البيت قبل أن يطمئن على زوجته .. واستقل سيارة من سيارات الأجرة ، وأمر السائق أن يتجه به الى مستشفى القصر العينى .. بسرعة .. بسرعة وحياة أبوك يا أسطى .. ولكنه لم يستطع أن يرى ابنه ..

لقد تخبط بين جنبات المستشفى ساعات طويلة ، وكل ما استطاع أن يراه غرفة يقف على بابها جنديان مسلحان .. عرف ان فيها ابنه .. وكل ما استطاع أن يقف عليه كلمة قالها له طبيب شاب .. طمأنه بها على صحة ابنه .. انه مصاب بضعف .. ضعف شديد .. هذا كل ما فى الأمر ..

وعاد الى البيت فى الساعة السادسة مساء .. يحمل همه .. عاد ليستقبل ـ هو وعائلته ـ ليلا طويلا ..

***

صباح الاربعاء ..

واستعدت نوال لتذهب الى موعدها .. الموعد الذى لم تلتق فيه أبدا بابراهيم .. وهى لا تدرى لماذا تذهب .. ولماذا لا تيأس .. ولكنها كانت يائسة فعلا .. لم يكن فى قلبها قطرة من الأمل .. كانت تحس كأنها ذاهبة لزيارة قبر .. قبر آمالها .. قبر نذرت نفسها لزيارته صباح كل يوم اثنين وصباح كل أربعاء

وخرجت من البيت وهى غارقة فى الحداد .. حداد قلبها ..

ووقفت فى ميدان « فنى » ، دون أن تتلفت حولها .. وقفت منكسة الرأس كأنها تتلو الفاتحة لتستنزل رحمة الله على أملها الشهيد ..

ووقفت بجانبها سيارة ..

ورفعت رأسها فى بطء ، ورأت فى السيارة فتحى المليجى ، فاندفعت اليه فى لهفة ، وقالت دون أن تحييه :

ــ عرفت ايه اللى حصل ؟!

ونظر اليها فتحى فى حنو ، كأنه يربت على قلبها بعينيه ، وقال بصوت هادىء :

ــ عرفت .. عرفنا كل حاجة .. وابراهيم باعتنى مخصوص علشان أطمنك .. بيقولك تأكدى ان مش حيحصلهم حاجة !

وقالت نوال فى صوت ضعيف وهى تنكس رأسها حتى لا يرى فتحى عينيها : وازاى ابراهيم ! ..

وقال فتحى وبين شفتيه ابتسامة حلوة كأنه يحيى بها حبا عظيما : كويس .. بخير ..

وسادت فترة صمت ثم عادت نوال تقول :

ــ انما حيطلعوا من السجن ازاى ؟

وقال فتحى :

ــ السجن مش مهم .. المهم انهم ما يعترفوش .. ولغاية دلوقت ماحدش منهم اعترف .. ما كانش ممكن حد يصدق أن محيى وعبد الحميد يستحملوا ده كله .. دول استحملوا كتير .. دول أبطال ..

وقالت نوال مذعورة : استحملوا ايه ؟ ..

وتراجع فتحى قائلا وقد استنتج انها لا تدرى ما تحمله أخوها وابن عمها من عذاب :

ــ المهم ان ابراهيم بيطمنك .. بس المسألة عايزه وقت !

وقالت نوال وهى لا تفهم : مسألة ايه ؟ ..

قال : مسألة الافراج عنهم ..

قالت : عايزه وقت كتير ؟!

قال : لأ .. مش كتير .. بس المهم مايعترفوش !

قالت ساخرة : كل اللى يهمكم انهم ما يعترفوش مش كده ؟!

قال فى هدوء :

ـ لو اعترفوا حيروحوا المحكمة ويتحكم عليهم ، أقله بتلات سنين .. ولو ما اعترفوش حيفضلوا معتقلين شهر ولا شهرين ، ويخرجوا ..

ونكست رأسها وكأنها خجلت من نفسها ..

وقال فتحى : أنا مضطر أسيبك دلوقت .. شدى حيلك .. وخدى بالك اوعى حد يتكلم !..

قالت كأنها لم تعد تستطيع أن تقاوم :

ـ ما اقدرش أشوف ابراهيم !

قال وبين شفتيه ابتسامته الطيبة :

ـ ده كان حايودى نفســه فى داهية مرتين علشــان ييجى يشوفك .. وانتى عارفه ظروفه .. انما ضرورى حاتشوفيه .. باذن الله !

ونكست نوال رأسها ، وقد التمع وجهها ، وكست وجنتيها حمرة خفيفة .. كأنها تواجه حبها لأول مرة .. انه لم ينسها .. حاول أن يراها .. خاطر بنفسه فى سبيلها .. انه يحبها ..

وتركها فتحى المليجى هائمة .. وانطلق بسيارته ..

***

قاد فتحى سيارته حتى وصل الى ميدان الجامع الازهر .. ثم أوقف السيارة بين مجموعة من سيارات التجار التى تعودت أن تقف هناك فى انتظار أصحابها .. وسار على قدميــــه ، ثم انحرف الى اليمين محاذيا الجامع الازهر .. واستمر فى سيره حتى وصل الى شارع « الباطنية »

ووقف أمام بيت مكون من ثلاثة أدوار .. يبدو أكثر متانة من البيوت التى حوله .. وأطلق صفيرا حادا عدة مرات

وفتحت نافذة فى الدور الاول ، وأطل عليه شاب يرتدى جلبابا وقال بمجرد أن رآه :

ـ أهلا .. ازيك يا فتحى .. جبت كراسة المحاضرات ؟

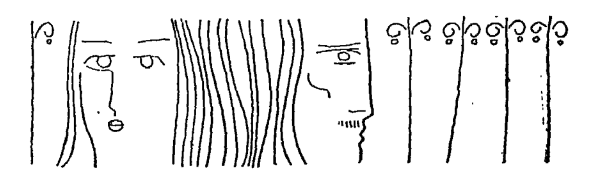
وقال فتحى ، وهو ثابت لا يتلفت حوله :

ـ طبعا .. عايزين نذاكر شوية .. مش فاضى دلوقت !!

وتردد الشاب برهة ، ثم قال : فاضى .. اتفضل ! ..

ودخل فتحى من باب البيت .. وحيا امرأة لا يعرفها جالسة فى الحوش الضيق الذى يستقبل الداخل ، ثم ارتقى السلالم الحجرية القليلة ، حتى وصل الى الدور الاول ، فانفتح الباب ،

وبرز له الشاب الذى أطل عليه .. عريض قصير تبدو رقبتـه الغليظة وفوقها رأسه الكبير كسندانة حداد ..
وتبادلا نظرات صامتة ..
ثم تقدم الشاب بضع خطوات وأغلق الباب الذى خرج منه .. ثم أخذ يصعد السلم الحجرى فى خطوات بطيئة هادئة ومن خلفه فتحى .. ووصلا الى الدور الثالث ..
وأخرج الشاب مفتاحا من جيب جلبابه وفتح الباب .. ودخل ومن خلفه فتحى صامتين ..
كانت شقة مظلمة .. كل نوافذها الخشبية مغلقة .. ليس فيها من ضوء الا ما يتسلل من بين خشب النوافذ المغلقة ..
واتجها الى احدى الغرف ..
وفتح الشاب الباب ، وترك فتحى يمر قبله ..
وانبعث صوت من جانب الغرفة .. صوت متعب كأن صاحبه يتنهد : شفتها ؟ ! !..
وقال فتحى باسما :
ـ طب استنى يا ابراهيم لما أقول لك السلام عليكم ..
واعتدل ابراهيم فى جلسته على الأريكة .. انه يبدو نحيـلا هزيلا .. ووجهه ممتقع .. وعيناه تبرقان ببريق لامع عصبى ، كأن روحه كلها تجمعت فى عينيه .. وقد أطلق شاربه .. فبدا أكبر من سنه .. وذقنه غير حليق .. فبدا كالمريض
وقال ابراهيم فى عصبية : وعليكم السلام .. قالت لك ايه !
وقال فتحى وهو يجلس بجانبه : كانت خايفه على أخوها .. انما قدرت أطمنها .. وطبعا عايزه تشوفك !
وسكت ابراهيم .. سكت فترة طويلة .. وفتحى ينظر اليه مبتسما كأنه تعود منه هذا الحال ..
ثم نكس ابراهيم رأسه ، وقال :
ـ أنا بافكر أسلم نفسى .. مافيش طريقه انقذ بيها محيى الا انى أسلم نفسى !
وقال فتحى وهو لا يزال هادئا : ما تبقاش مجنون ! ..
وقال ابراهيم وهو يسند جبينه فوق رأسه :
ـ يظهر انى لازم أتجنن !!





كانت الخطة التى وضعها ابراهيم مع أصدقائه قبل أن يهرب من السجن تقضى بأن يدبروا له وسيلة يستطيع أن يخرج بها من مصر كلها .. وكانت الوسيلة التى اتفقوا عليها هى أن يتصلوا بصديق لهم فى الاسكندرية ، ابن أحد مقاولى شحن السفن ، ليساعد ابراهيم على التسلل الى احدى السفن الراسية فى الميناء ، والاختباء فيها ، حتى يصل الى مرسيليا .. وهناك يبدأ فى وضع خطة جديدة ..

وخرج ابراهيم من بيت محيى مرتديا بدلة الضابط .. ساعة الافطار .. ولم يلمحه بواب البيت فقد كان مشغولا فى تناول افطاره .. وسار فى خطوات سريعة نحو شارع النيل .. والطريق خال من الناس .. وارتبكت خطواته قليلا عندما لمح عسكرى داورية ، جالسا على حافة « السور » المقام على ضفة النهر وهو يتناول طعام الافطار .. رغيف عيش ، وقطعة جبن ، وحزمة فجل .. واستطاع ابراهيم أن يسيطر على خطواته بسرعة . واستمر فى سيره .. ولمحه عسكرى الداورية فوقف منتصبا يؤدى التحية العسكرية لحضرة الضابط .. ونطت حزمة الفجل على الارض . ولم ينتبه ابراهيم الى تحية العسكرى الا بعد أن تعداه ، فرفع يده يرد له التحية دون أن يلتفت اليه بوجهه ..

ورأى من بعيد السيارة التى تنتظره .. انها سيارة فتحى المليجى .. انه يعرفها ..وكثيرا ما استعملها فى عمليات الاغتيال التى كان يقوم بها .. وأسرع الخطى .. وحاذى السيارة دون أن يبطىء من خطاه ، كأنه لن يركبها .. والتفت بطرف عينه

فرأى صديقه فتحى وبجانبه محمود عرفه .. صديق آخر من طلبة كلية التجارة .. وانحرف فجأة ناحية السيارة وفتح بابها الخلفى وألقى بنفسه فيها ..

وكان محرك السيارة دائرا .. فانطلقت مرة واحدة .. دون أن يلتفت فتحى أو محمود الى ابراهيم .. ودون أن يتفوه أحدهم بكلمة .. وظل ابراهيم جالسا منحنيا الى الامام حتى يبعد وجهه عن نافذة السيارة ..

وتعدت السيارة ميدان الجيزة فى دقائق ، وانطلقت كالصاروخ فى شارع الهرم .. ثم انحرفت فى حدة الى طريق الاسكندرية ..

وقال فتحى كأنه يتم حديثا لم ينقطع :

ـ احنا لازم نكون فى اسكندرية الساعة حداشر الا ربع .. عبد العزيز مستنينا فى التريانون الساعة حداشر تمام ..

وقال ابراهيم فى صوت هادىء : الساعة كام دلوقت ؟

ورد محمود عرفه دون أن يلتفت الى ابراهيم : سبعه الا ربع

وقال ابراهيم : حانلحق بالراحة .. هدى شويه يا فتحى أحسن يوقفونا عند نقطة الحدود !

وهدأ فتحى من سرعة السيارة قليلا ، دون مناقشة .. ثم بدأ الثلاثة يتحدثون عن تفاصيل الخطة التى وضعوها .. وعن زملائهم الذين فى السجن ، والذين فى المعتقل ، والذين لم يقبض عليهم بعد.. وعن أخبار السياسة.. وأخبار همام بك واليوزباشى الدباغ . ولم يتكلم ابراهيم عن البيت الذى كان مختبئا فيه ، ولم يسأله أحد عنه .. وكان ابراهيم فى حديثه لا يبدو متحمسا كعادته ، ولا يبدو واعيا .. لم يكن يوجه هذه الاسئلة الحاسمة الدقيقة التى تمس صلب كل موضوع وتكشف عنه .. كان يبدو كأنه يائس .. حزين .. كأن روحه تنسحب منه رويدا رويدا ، كلما تقدمت به السيارة نحو الاسكندرية .. ولم يكن بينه وبين نفسه يفكر فى تفاصيل خطة الهرب ، ولم يكن يحس بأصدقائه الذين يتحدث عنهم ، ولا بأخبار السياسة التى يستمع اليها .. انما يملأه الاحساس بأنه على وشك أن يترك مصر كلها .. احساس رهيب مخيف يتجاوب فى صدره كالهواء البارد الثقيل.. ماذا يفعل بعيدا عن مصر .. ما قيمته هناك ، فى فرنسا .. سيكون انسانا حيا .. يأكل ويشرب ويسير على قدميه .. ولكن ما قيمته .. ما قيمة هذه الحياة التى يحياها فى بلد ليس

وطنــه .. لن يكون له هنــاك هدف ، ولا مستقبل ، ولا شيء يحبه .. لن يرى هذه الارض التى ولد عليها ووقف فوقها طول عمره .. ولن يرى أباه وأمه ولن يرى أصدقاءه ولن يشترك فى جهادهم .. ونوال .. نوال .. الخفقة التى خفق بها قلبه .. الأمل الجديد الهادىء الذى تفتح فىحياته .. لن يراها أبدا .. لن يعود الا بعــد عشرين عاما حين تســقط جريمتــه بمضى المدة القانونية .. عشرون عاما يقضيها انسانا مشلولا لا فائدة منه ، بلا حب ، وبلا وطن ، وبلا هدف .. وليس له الا ذكريات تعيش فى صدره ، وبينها وبينه البحر الابيض المتوسط

وابتسم كأنه يتحسر .. لقد كان فى صباه يتمنى أن يذهب الى فرنســا .. كان يحلم بأن يطوف الدنيا كلها .. بل كانت أحلامه تصل أحيانا الى حد الهجرة من مصر .. ولكنه الآن وقد بدأت أحلام الصبا تتحقق ، يستطيع أن يرى بشاعتها .. وقسوتها .. ويحس بها كالكابوس لا كالأحلام

ونظر من خلال النافذة الى الرمال التى تحيط بالطريق .. ما أجملها ، كأنها تنبض بالحنان .. وتمنى لو ملأ عينيــه منها حتى لو أصبحت آخر شيء يراه .. حتى لو أصيب بالعمى .. ورأى فى كل بقعة من هذه الرمال قبرا له .. وأحس بالحنين الى قبره .. انه يريد أن يدفن هنا فى أى مكان من مصر !

وهدأت السيارة من سرعتها أكثر عندما اقتربت من نقطــة الحدود عند الكيلو (١٠) .. وأشار لها الجنود لتقف .. ولكنها لم تقف وسارت بينهم ببطء ، ولمح الجنود بدلة الضابط التى يرتديها ابراهيم ، فرفعوا أيديهم بالتحية العسكرية ، وتركوا السيارة تمر بينهم بعد أن سجلوا رقمها فى دفاترهم .. ورد ابراهيم تحيتهم وهو منحن الى الامام حتى لا يروا وجهه ..

وعادت السيارة تنطلق بسرعة بعد أن اجتازت نقطة الحدود وعاد ابراهيم الى أفكاره الحزينة التى تملأ صدره كالهواء البارد الثقيل .. مصر .. نوال .. أهدافه .. ابوه وأمه .. وكلما انقاد الى أفكاره أحس بضعفه .. وكلما أحس بضعفه كره نفسه .. انه يكره نفسه هاربا .. يكره هذا التسلل والاختباء الذى لا هدف له الا انقاذ حياته .. ويكره هذه الرعشة التى تصيب قلبه كلما صادفته عقبة فى الطريق .. انه يريد أن يكون دائما مهاجما .. يطلق الرصاص على أعدائه وأعداء وطنه .. ويدبر خطط الهجوم

لزملائه . هكذا كان دائما .. وهكذا أحب نفسه .. تمنى أن تفشل خطة هربه .. الا يترك مصر أبدا .. وحاول أن ينزع هذه الأمنية من نفسه .. ولكنه لم يستطع .. انها تدوى فى صدره ، كصوت طبل ضخم يأتى اليه من بعيد .. وأحس انه أصبح منساقا الى الهرب خارج مصر ، أكثر منه مقتنعا به ..

ووصلت السيارة الى الاسكندرية ..

ودارت فى شوارعها ، ثم وقفت فى شارع سعد زغلول قبل التقائه بميدان محطة الرمل ..

ونزل محمود عرفه .. شاب طويل رفيع فى عينيه سذاجة تخفى وراءها خطورة أفكاره .. وسار على قدميه الى مقهى التريانون .. وحيى شابا جالسا على احدى الموائد .. وجلس بجانبه ، وتهامسا لفترة قصيرة ثم قام وعاد الىالسيارة ، وجلس فى مكانه بجانب فتحى المليجى ، وهو يقول :

ـ سيدى بشر .. بعد تلت ساعة !

وتحركت السيارة .. واتجهت الى شارع الكورنيش ، وهى تسير على مهل كأنها تحمل جماعة يشمون الهواء

وأطل محمود عرفه من نافذة السيارة وراء فتاة تسير فى الطريق وأطلق صفيرا حادا .. وقال فتحى المليجى بسرعة : أيوه بصبص يا اخويا علشان ننفد من‌الدباغ ، ويمسكنا بوليس‌الآداب !

وقال محمود عرفه وهو يقهقه : دى حركة للتعمية !!

والتفت الاثنان الى ابراهيم ليشاركهم ضحكهم .. ولكنه كان واجما .. حزينا .. هائما وراء أفكاره .. فكفوا عن ضحكهم احتراما لصمته ، وتبادلا نظرات تساؤل .. فكل منهما يعرف أن ليست هذه هى عادة ابراهيم عندما يقوم بتنفيذ خططه !!

ووصلت السيارة الى سيدى بشر ..

واتجهت الى طريق معسكر الانجليز .. وعلى جانب الطريق الهادىء المظلم لمحوا سيارة واقفة.. فأطفأ فتحى المليجى مصباحى سيارته ثم أضاءهما .. ثلاث مرات .. وردت السيارة الأخرى.. فأضاءت مصباحيها وأطفأتهما ثلاث مرات ..

وقاد فتحى السيارة فى هدوء ، وأوقفها فى محاذاة السيارة الاخرى .. ومضت برهة صمت كان خلالها كل من فى السيارة يضع يده على مسدسه .. الى أن تحقق محمود عرفه من شخصية قائد السيارة الاخرى .. فنزل وصافحه :

ـ أهلا عبد العزيز .. اتأخرنا عليك !
وقال عبد العزيز : يدوبك .. اتفضلوا !
وبدأ محمود يقدم عبد العزيز الى كل من فتحى وابراهيم .. انه مجاهد من الاسكندرية لم يكن ابراهيم يعرفه من قبل ..
وسار الجميع فى الرمال التى يشقها الطريق ، الى أن وصلوا الى « كابين » خشبى ، أقيم بعيدا عن الكبائن الاخرى ، واوقد عبد العزيز مصباحا غازيا صغيرا ..
وجلس الأربعة يتحدثون عن تفاصيل الخطة ..
لقد اتفق عبد العزيز مع أحد بحارة سفينة يونانية ستبحر غدا الى بيروت ومنها الى مرسيليا .. وسيتنكر ابراهيم فى زى أحد عمال نقل الفحم .. وقد أعد له عبد العزيز بطاقة شخصية مزورة تتيح له دخول الميناء .. وسينتظره عند رصيف الفحم ليسلمه الى بحار الباخرة .. وتركهم عبد العزيز
وذهب فتحى ليملأ خزان السيارة بالبنزين .. ثم عاد .. ولم ينم ثلاثتهم .. وفى الساعة الخامسة صباحا .. جاء اليهم عبد العزيز .. يحمل بعض الثياب الرثة ، وقطعة فحم .. وارتدى ابراهيم الثياب على اللحم .. بنطلون قذر أسود لا يصل الى قدميه ومشدود الى وسطه بحبل .. وقميص ممزق متسخ .. ثم بدأ عبد العزيز يطلى وجه ابراهيم ويديه وصدره وقدميه ، بلون الفحم .. ثم نظر اليه من بعيد ، كأنه فنان يتأمل صورة انتهى من رسمها ، وقال بلهجته الاسكندرانية : أيو .. و .. ه يا رتنا نشتغلو الشغله دى على طول .. كنا تكسبو دهب !!
وسبقهم عبد العزيز بسيارته .. وركب ابراهيم فى سيارة فتحى ومحمود ، ورقد فى أرضها حتى لا تثير رؤيته دهشة أحد
كان حافى القدمين .. ليس على لحمه سوى هذه الخرق البالية .. وليس فى جيب بنطلونه الكالح الممزق ، سوق البطاقة الشخصية المزورة ، وخمسون جنيها زوده بها فتحى بالاضافة الى الخمسة جنيهات التى أعطاها له زاهر أفندى .. ومصحف صغير يضم بين صفحاته ورقة صغيرة مكتوب عليها « محمد رسول الله » بخط نوال .. وقال ابراهيم وقد اقتربوا من منطقة الميناء ، وهو لا يزال راقدا على أرض السيارة : فتحى .. فاكر البنت اللى بعتها لك البيت ؟
وقال فتحى دون أن يلتفت اليه : أيوه ..

واستطرد ابراهيم فى صوت حزين كأنه يتنهد :
ـ تروح ميدان عبد المنعم يوم الاتنين الساعة حداشر .. تلاقيها واقفة هناك .. طمنها على .. ماتقولش لها انا رحت فين .. بس طمنها !
وقال فتحى وهو ينظر أمامه وقد راتفع حاجباه دهشة : حاضر
وقال ابراهيم كأنه يكاد يبكى : ماتنساش ! ..
ورد فتحى وقد ازدادت دهشته : حاضر ! ..
وقال ابراهيم : ماتتصلش بالبيت عندنا الا بعد ما تهدأ الحكاية !
وكرر فتحى قائلا : حاضر ..
ثم استطرد فتحى :
ـ احنا حانفضل جنب باب نمرة « ٦ » لغاية المركب ما تقوم !
وقال ابراهيم كأن الزعامة لا تستطيع أن تتخلى عنه :
ـ اعملوا نوباتشية ، ما تفضلوش مع بعض ، وما تستنوش فى العربية .. دوروا على قهوة تقعدوا فيها !
ووقفت السيارة بجانب سور البناء ، بعيدا عن الباب نمرة « ٦ » .. وقال محمود عرفه بعد أن تلفت حواليه : أمان ..
قالها فى صوت حازم خافت ، كأنه يصدر حكما بالاعدام ..
واعتدل ابراهيم ، وفتح باب السيارة ونزل منها بسرعة ، وسار فوق قدميه الحافيتين .. دون أن يلتفت خلفه .. وفتحى ومحمود يتبعانه بنظرتهما .. وقلب كل منهما فى حلقه .. وفى عينى كل منهما دموع لا تنهمر ..
واجتاز ابراهيم باب الميناء دون أن يعترضه أحد من الجنود .. كأن ثيابه الرثة والبقع السوداء التى تغطى وجهه وصدره ، تكفى كجواز للمرور .. وسار داخل الميناء وقد استعاد ذهنه ، والتمعت عيناه بكل ذكائه .. ولكن قلبه لا يزال يرتعش فى صدره .. قلب الهارب ..
وتلفت حوله ، ورأى عبد العزيز واقفا بعيدا .. وتبادلا اشارة خفية .. ثم سار عبد العزيز يتبعه ابراهيم عن بعد .. سارا طويلا .. حتى وصلا الى رصيف الفحم ، ودخل عبد العزيز فى « كشك » صغير ، اتخذه والده مكتبا لادارة أعماله الخاصة بتموين السفن .. ثم خرج عبد العزيز من « الكشك » وصرخ فى وجه ابراهيم الذى كان قد اقترب منه : جرى ايه يا وله ، نجيبولك بسكليت تركبها ، ما تتلحلح وتروح تشيل لك مقطف ..

وأحنى ابراهيم رأسه ، واتجه الى مجموعة من « المقاطف » ملقاة على الرصيف وحل واحدا منها ..

واتجه عبد العزيز الى سلم الباخرة الراسية ، وأخذ يتحادث مع أحد البحارة ..

ثم صعد البحار سلم الباخرة ، وتبعه ابراهيم ..

ونزل البحار الى قاع الباخرة .. وابراهيم خلفه .. وفى مكان رطب مظـــلم كأنه قفص من الحديد ، بجانب مخزن الفحم فى الباخرة ، قريبا من عنبر الآلات ، استدار البحار الى ابراهيم وقال له بانجليزية ركيكة :

ــ ستبقى هنا الى ان نصل .. وسأحضر لك بعض الطعام ..

وهز ابراهيم رأسه صامتا .. وألقى « المقطف » الذى يحمله على الارض وجلس فوقه مستندا الى الحائط الحديدى ..

وخرج البحار .. ثم عاد بعد قليـــل يحمل أرغفة من الخبز « الافرنجى » وبعض علب الطعام المحفوظ .. وناولها لابراهيم ، وهو يبلغه موعد قيام الباخرة ويلقى اليه بتعليماته .. وقطع حديثه صوت أقدام تقترب .. ثم ظهر بحار آخر ، وما كاد يرى ابراهيم جالسا على الارض ، حتى بدأ نقاشـــا طويلا مع زميله باللغة اليونانية .. نقاشا لم يفهم منه ابراهيم شيئا .. انما ظل صامتا ، وفى عينيه اضطراب وجزع ..

والتفت البحار الاول الى ابراهيم قائلا :

ــ ان هذا الرجل يريد مبلغا من المال ..

ودون أن يتكلم ، وضع ابراهيم يده فى جيبه ، وأخرج ورقة من ذات الخمسة جنيهات ناولها للبحار .. ونظر البحار الثانى الى الخمسة جنيهات فى امتعاض ، ثم دسها فى جيبه وخرج ..

وقال البحار الاول ، وهو يخرج خلف زميله :

ــ هل تعرف أن الباخرة ستعود من بيروت الى الاسكندرية ، قبل أن تبحر الى مرسيليا ..

وبهت ابراهيم ، وقال فى فزع : كيف ؟! ..

وقال البحار باللغة الانجليزية : هذا ما سمعته الآن من زميلى !

وخرج البحار ..

وجلس ابراهيم هائما ، وهو يحس بكل عضلاته تتقلص .. انه لا يستطيع أن يبقى فى هذا القفص الحديدى ثلاثة أســابيع الى أن تصل الباخرة الى بيروت .. ثم تعود الى الاسكندرية ،

ثم تبحر الى مرسيليا .. وقد يكتشفون أمره خلال هذه المدة ، أو قد يعود البحار الثانى الى التهديد بطلب نقود .. ثم قد يسلمونه للبوليس فى الاسكندرية عندما تعود اليها الباخرة ..

انه لا يستطيع أن يبقى ، يجب أن يغادر هذه الباخرة حالا ..

وأحس بالراحة وهو يتخذ هذا القرار .. أحس كأنه أفرج عنه .. انه سيعود الى مصر .. الى وطنه ، وحمل « المقطف » الذى يجلس عليه ، وتسلل من الطريق الذى أتى منه ..

ونزل الى الميناء .. وبحث بعينيه عن عبد العزيز .. واقترب منه .. وما كاد عبد العزيز يراه حتى صرخ صرخة مكتومة ، وقال : جرى ايه ؟! ..

قال ابراهيم هامسا : المركب راجعه اسكندريه تانى ، لازم اخرج من هنا حالا ، اسبقنى وادى خبر لفتحى ومحمود

وخرج ابراهيم من منطقة الميناء ..

وركب فى سيارة فتحى ، وقد تقرر أن يبحث عبد العزيز عن باخرة أخرى متجهة الى مرسيليا رأسا .. ولكن ابراهيم رفض أن يبقى فى الاسكندرية .. انهم هنا لا يعرفون أحـــدا ، وليس لهم صديق يبلغهم تحركات البوليس .. وأصر على أن يعود الى القاهرة .. انه هناك يستطيع أن يختبىء .. !

وارتدى ابراهيم بدلة الضابط مرة ثانية .. وعادت به السيارة الى القاهرة .. كأنها تعود به الى بيته .. وتقرر أن يقيم مع محمود عرفه فى حجرة يسكنها فوق سطح احدى العمارات بشارع البورصة القديمة المتفرع من شارع قصر النيل ..

وكان المفروض أن يبقى ابراهيم فى هـــذه الغرفة ، الى أن يبلغه عبد العزيز خبر اتفاقه مع باخرة أخرى يهرب عليها .. ولكنه كان فى قرارة نفسه ينوى ألا يترك مصر .. كان قد اقتنع

انه لا يستطيع أن يعيش هناك ، فى فرنسا ، أو فى أى مكان غير مصر ، لا يستطيع أن يعيش مشلولا بلا هدف وبلا حب وبلا وطن

ولكنه لا يســتطيع أن يبقى فى القــاهرة بلا عمل .. مجرد هارب .. وفى نفسه طاقة من الحقد الثورى يريد أن ينفس عنها .. يريد أن ينتقم من الذين حرموه حريته .. وحرموه حبه

وكان يفكر فى حبه كثيرا ، كان كلما اندمج فى تفكيره الوطنى شغله طيف نوال فيهيم فى حلم جميل .. بيت هادىء .. وعائلة بسيطة .. ونوال بجانبه ..

وقد حاول أن يرى نوال .. قرر مرة ومرتين أن يخرج من مخبئه ويذهب اليها فى موعدها ، ليرى شـــعاعا من حلمه .. ولــكنه كان يعدل فى اللحظة الاخيرة .. كان يخاف عليها من حلم لن يتحقق أبدا .. وكان يتمنى لها اليأس .. اليأس منه ، ومن حبه .. ويتمنى أن يحمل العذاب كله .. ألا يجرح هذا القلب البكر الـكريم .. وأن يمزق قلبه قربانا لها ..

وبقى فى الحجرة أياما .. وقد أطلق شاربه ، وترك ذقنه غير حليق .. وقد أقضه الحرمان والقلق والتوتر ، فبدا نحيلا ، أصفر الوجه ، كأنه مريض .. وكان يرتدى جلبابا ، ويضع فى جيبه دائما النقود التي يملـكها ، والمصحف الذى يضم الورقة الصغيرة التىكتبتها نوال بخط يدها ، وحذاؤه معد دائما بجانبه فالهارب يجب أن يكون دائما علي استعداد للمفاجآت ..

ولم يكن قد قرر بعد أن يعمل شيئا .. وكان يكتفى بأن يجلس مع زميله محمود عرفة ويضعان سويا خططا وطنية لا يشترك فى تنفيذها .. قنبلة تلقى على المعهد البريطانى .. اغتيال جنود انجليز فى منطقة القنال .. ولم تكن كل هذه الخطط تنفذ .. كان ينقصها اليد التى تستطيع التنفيذ .. يده هو ..

الى أن كان يوم ..

وكان جالسا فى الحجرة مع محمود عرفة ذات صباح .. عندما اقتحم عليهما الباب « كونستابل » من قوة البوليس السياسى ، يصـحبه اثنـــان من البوليس السرى .. وفهم ابراهيم توا ان البوليس جاء فى طلب محمود عرفه ، لا فى طلبه ..

ووقف بعيدا عن صديقه .. ونظر اليه الكونستابل نظرة عابرة دون اهتمام .. ودون أن يخطر بباله ان هذا الشاب الآخر ، هو ابراهيم حمدى .. وقال : مين فيكم محمود عرفه ؟! ..

وأجاب محمود فى تحد : عايز ايه ؟! ..

وأزاحه الكونستابل من طريقه ، ودخل يفتش مكتبه ، بينما بقى الجنديان واقفين يسدان الباب ..

وبسرعة .. وبحركة مبـــاغتة .. مرق ابراهيـــم من بين الجنديين وأخذ يعدو فى فناء السطوح ، ثم أخذ ينزل السلم قفزا

وصرخ الكونستابل : حصله يا عسكرى انت وهوه ..

ومد يده وقبض على محمود عرفة حتى لا يهرب هو الآخر ..

وكان ابراهيم يضع شبشبا فى قدميه طارت احـــدى فردتيه

وهو يجرى ، فتخلص من الفردة الاخرى .. وظل يقفز فوق السلالم حافى القدمين .. والجنديان وراءه .. ووصل الى الشارع .. وظل يجرى .. وسمع الجنديان يصيحان من ورائه : « حرامى .. حرامى .. » ووقف الناس فى الطريق .. وهم بائع جرائد بأن يعترض طريق ابراهيم ، فصاح بأعلى صوته : « أنا مش حرامى .. دول بوليس سياسى » .. فتنحى بائع الجرائد بسرعة ، وخرج كواء من باب دكانه .. رجل عريض ضخم .. واعترض طريق أحد الجنديين .. وتصدى له .. ثم أمسكه من يده فى قوة ، وقال فى هدوء : ايه الحكاية ياسيدنا لفندى ؟ ..

وقال الجندى وهو يلهث : ياجدع سيبنى ، أوع من سكتى !

وقال الكواء وهو يضع يده فى شق جلبابه ، كأنه يستعد لحديث طويل : بس مش تقول ايه الحكاية .. علشان نساعدك ؟!

وقال الجندى فى حدة : حرامى ، مش سامعنى باقول حرامى !

وقال الكواء وهو لايزال قابضا على يد العسكرى :

ــ عجيبه .. وسرق ايه بأه الحرامى ؟ ..

وقال الجندى : ياجدع سيبنى أحسن أوديك فى داهية !

وقال الكواء : هوه حضرتك مخبر .. طيب ماتقول كده من الصبح .. اتفضل .. !

وانطلق الجندى يجرى وقد غاب ابراهيم عن عينيه ..

وعاد الكواء الى دكانه وهو يبتسم ابتسامة خبيثة ..

وأسرع بائع الجرائد يجرى ، وسبق الجندى الآخر ، والقى نفسه فى طريقه مدعيا ان ما يحمله من الصحف سقط منه .. ووقع الجندى فوقه .. ثم قام وهو يسب ويلعن ، وتلفت حوله فلم ير ابراهيم ..

وكان ابراهيم قد مرق من شارع قصر النيل .. واتجه الى ميدان الازهار .. وهو لايزال يجرى .. ولم يعد يسمع وقع الاقدام التى تجرى خلفه.. ولكنه ظل يجرى .. وأخذ يصيح :

ــ اسمع ياجدع .. يا أخينا استنا !

وكان يصيح ليقنع الناس انه يجرى ليلحق بشخص آخر .. ثم كف عن الجرى .. وأخذ يسير بخطى واسعة ، ثم دخل الى مخبز ، واشترى عشرة أرغفة من الخبز حملها بين يديه بحيث تخفى نصف وجهه .. وبدا وهو يسير حافى القدمين ، يرتدى جلبابا ، ويحمل أرغفة العيش ، كأنه خادم عائد من السوق ..

وسار فى اتجاه ميدان العتبة الخضراء .. وهو يفكر .. يفكر بسرعة .. أين يذهب ؟ أين يختبىء ؟.. وانحرف فى شارع الازهر .. ووقف عند بائع فاكهة ، واشترى برتقالا وأقتين من الموز ، وترك البائع مشغولا بوضع ما اشتراه فى « كيس » كبير من الورق .. واتصل بصديقه فتحى المليجى بالتليفون .. ولكنه لم يجده .. فحمل « كيس » الفاكهة ، وسار فى شارع الازهر حتى آخره .. واتجه الى شارع « الباطنية » .. لقد تذكر صديقه عبد الله السحرتى .. طالب معه فى كلية الحقوق ، من الوطنيين المتحمسين .. ولكنه لم يشترك فى جمعية سرية .. وكان بعيدا عن مراقبة البوليس .. هل يجد عبد الله فى بيته ؟ !

ووجده فى البيت ..

ولم يتردد عبد الله فى معاونته على الاختباء .. وكان يسكن فى بيت يمتلكه أبوه ، مكون من ثلاثة أدوار .. والدور الثالث يقيم فيه طالبان من الازهر ، وقد سافرا الى بلدتهما ، وتركا مفتاح الشقة مع عبدالله .. وصعد عبدالله بابراهيم الى الدور الثالث..

وأقام فى شقة الطالبين المسافرين .. يقضى ليله ونهاره فى مكان واحد منها دون أن يبدى أى حركة حتى لا يشعر أحد من السكان بأن هناك من يحتل الشقة ، وظلت النوافذ مغلقة ليل نهار ، وعبدالله يتسلل اليه فى أوقات متفاوتة ليزوده بالطعام والشراب

ومرت أيام .. ولم يعد يستطيع أن يهدأ !

ان أعصابه التى كان يستمد قوته من قوتها .. أعصابه الهادئة الباردة .. بدأت تخونه .. بدأت تهتز .. انه يحس أحيانا أنه سيجن، يحس انه يريد أن يصرخ ، أن يحطم ، أن يدمر، أن يقتل !

يقتل من ؟ .. همام بك واليوزباشى الدباغ ، اللذان يتبعانه ويسلطان عليه رجالهما ؟ .. لا .. انهما يمثلان طبقة الخدم .. خدم لسياسة مرسومة ، يرسمها الاستعمار !

يقتل الانجليز كما كان يفعل قبل أن يقبض عليه ؟ لم لا ؟ ..

يجب الا يرتاح الانجليز فى مصر .. يجب أن يقلقوا دائما على حياتهم ما داموا فى مصر ! وقرر أن يعمل .. أن يعمل بنفسه ..

واستطاع أن يتصل بفتحى المليجى .. وبدأ الثلاثة يعقدون اجتماعات سرية فى الشقة الخالية .. ابراهيم ، وفتحى ، وعبد الله .. ولكن فتحى كان يعارض بشدة فى أن يقوم ابراهيم بتنفيذ احدى الخطط بنفسه .. انه انسان هارب .. وتصرفات

الانسان الهارب تختلف عن تصرفات الانسان المهاجم .. ولو قام ابراهيم بالعمل فسيحتاج الى خطتين فى وقت واحد .. خطة لتغطية هربه ، وخطة لتنفيذ عملية الاغتيال .. وقد تعرقل احدى الخطتين الأخرى .. وكان ابراهيم مقتنعا بمنطق فتحى ! ..

ولكنه يريد أن يعمل ...

انه لايستطيع أن يعيش مختبئا كالفأر طول عمره ! !

وطال تردد الثلاثة فى القيام بعمل ما ...

الى أن بلغهم خبر القبض على محيى وعبد الحميد وتعذيبهما .. وبلغهم انهما تحملا السجن والعذاب ولم يعترفا ..

وفقد ابراهيم أعصابه .. جن غضبا .. !!

لقد رأى كثيرا من زملائه يعتقلون ويعذبون .. ولكنهم كانوا جميعا من الطلبة المشتغلين بالسياسة .. كانوا كلهم يعدون أنفسهم للقبض والتعذيب .. ولكن محيى ، انه لم يكن مشتغلا بالسياسة .. انه واحد من الناس البسطاء السلبيين الذين يحتلون مقاعد المتفرجين .. انه الشعب .. الشعب كله .. وقد وقف الشعب بجانبه .. تحمل الشعب العذاب من أجله ، دون أن يتخلى عنه ، وازداد احساسا بالشعب ، وهو يفكر فى محيى

يجب أن يرد الثمن للشعب .. يجب أن يثبت لمحيى .. ونوال وزاهر أفندى .. والست تحية.. انه يستحق ثقتهم.. يستحق العذاب الذى تحملوه من أجله ..

وتخلص من احساسه بأنه انسان هارب ..

ورفض أن يستمع الى اعتراضات فتحى المليجى ، وهدد أن يعمل وحده ان رفض فتحي أن يعمل معه ..

ولم يرفض فتحى .. وفى نفس الليلة تمت عملية اغتيال أحد الجنود الانجليز قرب معسكر العباسية .. ولم يعد ابراهيم من العملية راضيا ، لم يهدأ ولم يحس انه قام بعمل كبير ..

وكان يعلم ان الحكومة ستمنع نشر الخبر فى الصحف ، حتى لا ينعكس على الناس ويؤلبهم على الانجليز .. ويعلم أن البوليس سيدعى فى تقاريره الرسمية أن القتل حصل بقصد السرقة ، رغم أنه – اى البوليس – يعلم أنها عملية اغتيال سياسى ، وربما علم أن ابراهيم هو الذى قام بها ، فقد تمت بنفس الاسلوب ونفس الخطة التى كان ابراهيم يتبعها فى الاغتيالات السابقة ..

واقتنع ابراهيم –كما اقتنع من قبل – انعملية الاغتيالالفردى

للجنود الانجليز ، لا طائل من ورائها ، وأخذ يجهد نفسه فى التفكير يجب أن يقوم بعمل كبير ..

عمل أكبر من اغتيال جندى انجليزى ، وأكبر أيضا من اغتيال وزير من عملاء الانجليز .. ومن خلال تفكيره بدأ وعيه يتطور ..

ان الانجليز فى احتلالهم لمصر لا يعتمدون على جنودهم ، ولا على واحد أو اثنين أو عشرة من عملائهم ، انما يعتمدون على نظام كامل ، نظام للحكم ، نظام يبـــدأ بالملك ، ويرتكز على طبقـــة الاقطاعيين التى تحتكر مقاعد الوزراء ومقاعد البرلمان ..

يجب قلب هذا النظام اذا أردنا تخليص مصر من الانجليز ، ومن العملاء ، ومن الظلم ، ومن الفقر ، ومن همام ، والدباغ .. اذا أردنا انقاذ محيى ، وزاهر أفندى ، والست تحية ، وبقيـــة الناس الطيبين البسطاء ، واذا أراد أن يحقق حلمه البعيـــد ، البيت الهادىء الذى يضمه هو ونوال !

وتعجب من نفسه عندما وصل الى هـــذا الحد من التفكير ، كأنه اكتشف حقيقة بسيطة غابت عنه العمر كله ..

ولكن كيف ؟ .. كيف يقلب نظام الحكم ؟!

واتسعت عيناه .. وانطلق منهما بريق لامع .. كأنه يحاول بهما أن يخترق سحب الغيب .. وأحس بذكائه يشتعل فى رأسه حتى يكاد يحرقه ..

لو استطاع أن يجمع حوله مائتى شاب مسلح .. مائتين فقط من الشباب الفدائى .. لاستطاع بهم أن يستولى على الحكم .. سيحتل بهم أولا محطة الاذاعة .. ثم يحاصر رئيس الوزراء فى بيته .. ويقبض على رؤساء البوليس السياسى .. و .. وحتى لو فشل فى الاستيلاء على الحكم ، فستكون ثورة مسلحة تهز مصر وتوقظ شعبها .. ولكن كيف يجمع مائتى شاب مسلح ؟! ..

سيطبق نظام الخلايا ، سيجمع خمسة يثق بهم ، وكل واحد من الخمسة يجمع خمسة يثق بهم ، وهكذا الى أن يتم جمع المائتين !

وأخذ يستعرض وجوه المائتين الذين سيجمعهم .. ورأى من بينهم كثيرا من زملائه طلبة الجامعة .. ورأى وجه عبد العزيز المجاهد السكندرى .. ورأى وجه سائق التاكسى الذى رفض أن يأخذ منه النقود عندما قرر أن يقوم بأول عملية اغتيال .. ورأى وجه الطبيب الذى تستر على هربه من مستشـــفى قصر العينى .. ورأى كل الوجوه التى مرت فى حيـــاته .. وكأنهـــا

اصطفت أمامه فى طابور عسكرى ينتظر أمره ، ليقلبوا نظام الحكم كيف يسلحهم ؟ ..

انه فى حاجة الى أموال كثيرة ليشترى بها السلاح .. أموال يتبرع بها أصدقاوه الاغنياء .. ولن يقول لهم خطته ، فقط سيجعلهم ينبرعون .. ولم يضع وقتا ..

وبدأ فى صباح اليوم التالى يسوق الخطة الى فتحى وعبد الله بطريقته الخاصة .. يدفعهم اليها دفعا ، حتى ينطلقوا بها قبله

ومرت أيام أخرى .. وبدأ فتحى المليجى يجمع الخمسة الذين يكونون الخلية الاولى ..

وابراهيم مختبىء فى الشقة لا يغادرها .. ولكنه لم يعد يشعر بالضيق .. انه مشغول دائما بالتفكير فى خطته ، ويشتعل حماسة لها .. ولكن مجهودات فتحى المليجى فى تكوين الخلايا تسير ببطء .. بل تتعثر ولا تكاد تسير ..

وابراهيم يتمادى فى التفكير ، وكلما تمادى فى تفكيره داخله الشك فى خطته .. ومن خلال الشك اكتشف حقيقة أخرى غابت عن تفكيره ..

انه لا يمكن جمع مائتى شاب فدائى مسلح مخلص ، الا اذا كانت وراءهم قاعدة شعبية عريضة متحركة .. قاعدة ثائرة ، تغلى بالثورة .. ان مائتى شاب لا يستطيعون أن يقوموا بثورة .. ولكنهم يستطيعون أن يقوموا بدور فى الثورة ..

ان مائتى ثائر مسلح ، لا ينبتون فى أرض باردة جامدة ، ولكنهم ينبتون فى أرض ثائرة ملتهبة .. يجب أن تثور الارض أولا ..

يجب أن يلتهب الشعب .. أن يعم السخط ، أن يحس العامل ، والتاجر ، والموظف ، والطالب .. بروح الثورة .. أن تتحرك الهيئات كلها .. والجمعيات كلها .. ومن خلال هذه الحركة .. يتجمع مائتا شاب مسلح لقلب نظام الحكم !

اذن .. عليه أن يبدأ أولا باشاعة روح الثورة ، بتحريك الهيئات ، باثارة قضايا وطنية .. الغاء المعاهدة .. الجلاء .. الفساد .. الظلم .. نفوذ غير المسئولين .. عملاء الاستعمار .. كل هذه القضايا يجب أن تثار مرة واحدة .. أن تصبح حديث الشعب وغذاء العقول .. ولكنه لا يستطيع أن يفعل كل ذلك وحده ..

وبدأ خلال الايام التالية يتتبع اخبار الهيئات والجمعيات الثورية ، وكان يعلم أن هناك أكثر من جمعية ثورية سرية ..

جمعيات داخل الجيش .. وجمعيات فى أوساط الشعب .. فبدأ يرسـل فتحى وعبد الله لمحاولة الاتصـال بهذه الجمعيات .. والعمل على توحيدها واشراكها فى عمل واحد ..

وبدأ يؤمن بأهمية المنشورات السرية .. وأهمية الصحـافة المتطرفة .. وأهمية الازمات السياسية .. كل ذلك وهو جالس فى الشقة المظلمة .. وقد بدأ احساسه بأنه انسان هارب يعاوده أشد مما كان .. وبدأ يضيق بنفسه .. وبحياته ..

ما دوره فى كل ذلك ؟ ..

انه لايستطيع أن يتنقل بين الجمعيات السرية ، ولا يستطيع أن يشترك فى المظـاهرات .. ولا يستطيع أن يكتب المنشورات ويوزعها ولايستطيع أن يتصل بالطلبة والناس ليثيرهم ويثير سخطهم

كيف يستطيع أن يقوم بدور تنفيذى .. يخدم به وطنه ؟ !

ومن خلال ضيقه ، قرر انه انسان منته .. انسان لا أمل له ، فهو لايستطيع أن يعيش هاربا ، ولا يستطيع الا يكون هاربا .. فهو منته .. أن الطريق الوحيد أمامه اذا أراد ألا يسلم نفسه للمشنقة ، هو أن ينتحر .. ولكنه لن ينتحر كما ينتحر الضعفاء بل سيقوم بعملية وطنية انتحارية .. عملية يضرب بها مثلا لمن يأتى بعده .. للشباب كلهم ..

لم يعد يعنيه أن يعيش .. كل ما يعنيه هو أن تقوم ثورة ..

فليكن الطلقة الاولى فى الثورة .. التى تعقبها كل الطلقات .. ليكن الطلقة التى توقظ النـاس .. وتفتـح أعينهم .. وتثير حماستهم .. وليعرفوا الى أى حـد يمكن أن يضحى فرد فى سبيل وطنه ..

لا .. لن يقوم بعملية انتحارية واحدة .. عدة عمليات .. اما أن تلحقه الثورة .. أن يموت لتحيا الثورة ..

هذا هو دوره .. دوره أن يكون ضحية يبكى الناس فوقها شهيدا يتخذ الناس من دمه علما للثورة ..

وكان هـذا هو آخر ما قرره بينه وبين نفسه ، عندما عاد فتحى المليجى اليه بعد أن قابل نوال .

وعندما قال ابراهيم لفتحى انه يفكر فى تسليم نفسه للبوليس كان يمهد للعملية الانتحارية التى يوشك أن يشرك فيها زميله ..

***

وقال فتحى كأنه يعاتبه :

ـ حكاية تسليم نفسك دى ، لازم تشيلهـــا من دماغك .. احنا ما عملناش ده كله علشان تيجى فى الآخر تسلم نفسك !..

وقال ابراهيم وهو يخفى عينيه عن زميـــله حتى لا يفتضح ما فى رأسه : يعنى حافضل مستخبى زى الفار كده طول عمرى ؟

وقال عبدالله : بأه انت مستخبى.. لو ماكنتش مستخبى كنت عملت ايه ؟ .. الراجل الانجليزى لسه مابردش دمه !

وقال ابراهيم : طيب وبعدين .. ضربنا واحد انجليزى .. ضربنا عشره انجليز .. ايه اللى حا يحصل ؟ !..

وقال فتحى : والله اللى يستحق الضرب أكتر من الانجليز .. هما همام وشلته .. هم دول اللى حاكمين البلد !

ورد ابراهيم دون أن يرفع رأسه : لو خلصنا على همام ، حيطلع اللى ألعن منه .. سيبك .. المسدسات ما بقتش نافعة !

وقال عبدالله فى غباء : أمام حتضربوهم بشومة ؟! ..

وقال فتحى : أمال ايه اللى ينفع ؟ ..

وقال ابراهيم :

ـ أنا عارف الواحد لازم يعمل عمل كبير .. عمل يفرقع !

وقال فتحى وقد تعود على أسلوب ابراهيم حتى فهمه :

ـ قنابل .. مثلا .. ديناميت ! ؟ ..

وقال ابراهيم وقد رفع عينيه الى فتـــحى كأنه يهنئه على ذكائه : وحانجيب القنابل والديناميت منين ؟ ..

وقال فتحى وقد اكتسى وجهه بعلامات الخطورة :

ـ بسيطة .. بس حا نستعملها فى ايه ؟ ..

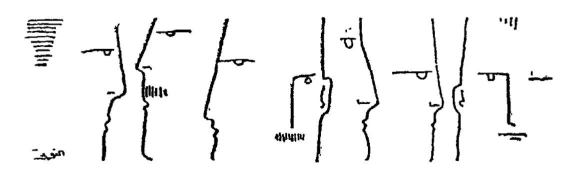
وقال ابراهيم : بس اتشطر وهاتهم الاول ..

وقام فتحى وقال وقد تعود ألا يلح على ابراهيم فى حديث :

ـ لما حاجيبهم حابقى اتصل بيك !

وخرج فتحى ومعه عبد الله ..

وتركا ابراهيم فى الظلام ..



٢١

ومضى يومان ..

وكان ابراهيم خلال هذين اليومين ، هادئا .. لم يعد شيء يثيره .. ولم يعد شيء يحيره .. ولم يعد يحس باحساس الهارب .. لقد عرف مصيره .. انتهى من تحديد دوره فى المعركة الطويلة العنيفة التى خاضها .. ودوره الذى اختاره لنفسه هو أن يكون الطلقة الاولى فى الثورة ، وأن يظل يعمل حتى تلحقه الثورة .. وأن يموت وتحيا الثورة .. ثورة مصر كلها .. ثورة الشعب كله ..

وكان كل ما يبدو عليه من آثار الايام العنيفة التى مرت به ، هو هذا الشارب الذى أطلقه فبدا أكبر من سنه .. وذقنه التى تركها بلا حلاقة فوق وجهه المتقع ، فبدا كأنه مريض

وكان يفكر تفكيرا هادئا فى خطة الثورة .. وفى اختيار المكان الذى يبدأ منه العمل .. ولم يكن خلال تفكيره يحس باحساس المنتحر .. لم يكن يائسا .. ولا ساخطا . كان كأنه مقبل على اختراع جديد يحاول تجربته .. اختراع لاشعال الثورة فى مصر .. وكان يدرس اختراعه بعقلية العالم المدقق ، الواثق من النجاح .. يحدوه الامل .. والبشر .. ويرى النور ينبثق من بعيد .. من أعماق روحه ، ومن أعماق تفكيره ..

وكانت صور من حياته تنعكس فى خياله ، فينظر اليهـا فى حنان ، وبين شفتيه ابتسامة راضية ..

صورة بيته الذى نشأ فيه بحى المنيرة .. وصورة أمه .. كم احبها ، وكم أحبته .. وساءل نفسه : هل أغضبها .. هل سببه

لها عذابا .. لا .. انهما تفهمه .. لقد عودته دائما أن تفهمه .. وقد ورث عنها كل أخلاقها .. هذا العناد ، وهذا الهدوء الذى يغلف به ثورته .. كل ذلك ورثه عنها .. وربما لو كانت رجلا لكانت زعيما .. لأتت نفس الاعمال البطولية التى يقوم بها .. انها فى قرارة نفسها تفخر به .. مهما حاولت أن تخفى هذا الفخر ، ومهما حاولت أن تحذر من اندفاعه ، فقد كان يرى فى عينيها دائما نظرة الزهو به ، والاعتزاز ببطولته .. ويوم قبض عليه ودخل السجن ، رأى فوق وجنتيها آثار دموع ، ولكنه رأى خلف آثار الدموع ظل ابتسامة .. ابتسامتها القوية المتكبرة التى تضن بها دائما ، ولا تكشف عنها الا بما يكفى ليضىء وجهها بالنور .. نور السماحة الطيبة ..

وأبوه .. وابتسم ابتسامة كبيرة ، وهو يرى فى خياله صورة ابيه .. انه رجل يؤمن بالنظام .. النظام الذى يطبقه فى وظيفته الحكومية ، وهو نفس النظام الذى يطبقه فى البيت .. ولم يكن يغضب لتصرفات ابنه الا لأنها خروج على النظام .. ولم يكن يعتقد ان هناك سببا للقبض على ابنه الا لأنه خرج على النظام .. ورغم ذلك فقد كان يزهو دائما بابنه.. لم يكن مقتنعا بتصرفاته ، ولكنه كان يزهو بها .. شىء أقوى منه ، وأقوى من منطقه كان يدفعه الى الزهو .. وكان ابراهيم يحس بهذا الزهو حتى فى أعنف المناقشات التى دارت بينهما ..

واتسعت ابتسامة ابراهيم .. لقد كان أبوه يريده أن ينال ليسانس الحقوق .. وكان يتصوره قاضيا .. وكان أحيانا يتصوره وزيرا .. انه لن يكون قاضيا ولا وزيرا.. ولكنه سيكون أكثر من ذلك .. ان القضاة والوزراء يموتون كما يموت عامة الناس .. ثم ينساهم الناس .. وينسون آباءهم .. ولكنه سيموت شهيدا .. ولن ينساه الناس .. سيمنح أباه ذكرى لا تنسى .. وهذا هو كل ما يستطيع أن يعوض به أباه .. ذكرى يزهو بها أمام الناس

وتوالت الصورة فى خياله .. صور زملائه فى المدرسة الثانوية . وصور زملائه فى الجامعة.. كم احبهم .. وكم أحبوه . انه يستطيع الآن أن يرى هذا الحب .. يكاد يلمسه بيده .. ان هذا الحب هو الذى زوده بالقوة التى اقتحم بها كل يوم من أيام حياته .. لقد كان يحس بينهم انه أقوى من البوليس ،

ومن الحكومة ، ومن الانجليز .. أقوى بهم من نفسه .. من الخوف ، ومن الطمع ، ومن الضعف .. ورأى أصدقاءه فى مخيلته واحدا واحدا .. ورأى حتى الوجوه التي خيل اليه انه نسيها.. وكان يذكر مع كل منهم واقعة ، أو نادرة .. فيضحك بينه وبين نفسه لواحد منهم ويبتسم للآخر ويعاتب الثالث ، وتعابير وجهه تنفرج وتنكمش كأن وجهه شاشة سينمائية ترتسم عليها عواطفه

واستعرض كل مغامراته الوطنية .. كل المظاهرات التى اشترك فيها .. وكل العمليات التى قام بها .. وأيامه فى السجن . والتحقيق الذى أجرى معه .. ومر أمامه وجه همام بك ، ووجه اليوزباشي الدباغ ، ووجوه وكلاء النيابة .. ثم أيامه فى مستشفى القصر العينى .. واليوم الذى هرب فيه .. وأحس بعواطفه كلها تتجمع وهو يقترب بخياله من بيت محيى .. ورآه بوجهه المستدير .. ونظارته .. وقامته القصيرة .. وزاهر افندى .. والست تحية .. وسامية .. وعبد الحميد .. وابتعد بخياله عن نوال .. انه يخافها .. انه يستطيع أن يعوض كل النـاس باستشهاده فى سبيل الثورة ، انه يحس وهو مقدم على خطته الجديدة ، انه يدفع الثمن للناس كلهم .. انه يضحى بحياته من أجل الناس كلهم .. ما عـدا نوال .. انه يريد أن يعيش من أجلها .. ان موته ليس تضحية من أجلها ، انه تضحية بها .. وهو لا يريد أن يتشبث بالحياة ، انه محتاج الآن لكل جرأته ، وكل استهتاره ، وكل زهده ، حتى ينفذ الخطة التى قررها ..

وكلما حاول أن يبتعد بتفكيره عن نوال ، لحقت نوال بخياله.. الى أن استسلم لهـا .. ورآها بعين خيـاله ، وهى تفتح له الباب .. رأى عينيها المرحتين النشطتين .. ورأى وجنتيهـا العاليتين .. ورأى بشرتها السمراء المشربة بالحمرة ، كأنها فتاة من الهنود الحمر .. ورآها وهى تفسح له الطريق كل صباح ليدخل الحمام .. ثم وهى تقدم له افطاره .. وأحس بعينيه تلتقيان بعينيها ، وأحس بخفقة قلبه التى تعودها كلما واجهته بابتسامتها.. وأمعن فى استسلامه.. دون أن يراوده حلمه الذى يعاوده .. حلم البيت الصغير الذى يضمه هو ونوال .. لقد اختفى هذا الحلم من قلبه .. لم يعد فى قلبه أحلام ، انما امتلأ بالحقيقة .. حقيقة تعوضـه عن أحلامه .. حقيقـة أقوى من حلمه .. حقيقة الحب .. انه يحب وهذا يكفيه .. وهو سعيد

بحبه .. بلا حاجة الى الأمل ، ولا الى الاحلام ..
هل يمكن أن يصل الحب الى هذا الحد .. الحد الذى يصبح فيه أقوى من الأمل .. لا يدرى .. ولكنه ـ فى هذه الساعة ـ لا يتعذب بحبه ، ولا يحس بحاجته الى المزيد ..
وانتبه من عواطفه ، على صوت المفتاح يدور فى قفل الباب ..
ودخل فتحى المليجى ، ومن ورائه عبدالله ..
وقال فتحى ، وصوته يكاد يزغرد :
ـ هات ياعم .. عبد العزيز جه من اسكندريه امبارح ، واتصل بيه ، وقال لى انه اتفق مع مركب حاتقوم على مرسيليا بعد بكره .. طوالى .. ولازم نكون فى اسكندرية بكره الساعة حداشر بالليل ..
وابتسم ابراهيم دون أن يترك ابتسامته تصل الى شفتيه .. انه لن يسافر .. لن يترك مصر .. هذا قرار نهائى .. ولكنه لم يبلغ فتحى قراره وقال فى صوت حاول أن يضمنه بعض الحماسة :
ـ عال .. كويس .. نقوم من هنا بكره الساعة سابعة . جبت الحاجات ؟
وقال فتحى : حاجات ايه بأه .. مابلاش شغل اليومين دول ، لغاية ما تسافر بالسلامة !
واحتد ابراهيم على غير عادته وقال :
ـ انت وعدت انك تجيب قنابل وديناميت .. وأنا كنت معتمد على وعدك .. ولسه قدامنا وقت كبير نقدر نشتغل فيه !
وقال فتحى ، وهو دهش لاحتداد ابراهيم :
ـ أنا جيبتهم .. تلات قنابل يدوية .. وشوية صوابع جلجنايت .. انما أنا شايف ان ..
وقاطعه ابراهيم فى عجلة : حاططهم فين ؟..
وقال فتحى فى استسلام : فى العربيه ! !..
وقال ابراهيم : ياخبر ، حاططهم ازاى فى العربيه .. دول يمكن ينفجروا وانت ماشى .. هاتهم هنا حالا ..
وقال فتحى وهو ينظر الى ابراهيم مدققا كأنه لا يصدق أن هذا هو ابراهيم .. الانسان الهادىء ، الذى لا يأمر ، انما يسوق خططه فى لباقة : يعنى انزل أجيبهم وآجى .. أفضل طالع نازل قدام الناس ..
وقال ابراهيم فى حزم : ايوه ..

وعاد فتحى يقول فى تردد :
ـ طيب مش نتفق الاول حانعمل بيهم ايه ؟
وقال ابراهيم فى حدة :
ـ لما أشوفهم الأول بين ايديه ، أبقى أقول لك ..
وسكت فتحى ، وتنبه ابراهيم الى انه فقد أعصابه ، فعاد يقول فى صوت معتذر :
ـ ارجوك يافتحى تستحملنى النهارده كمان.. أنا عارف انى باتعبك .. انما كلهم كام ساعة ، وأسيب مصر كلها ، باذن الله ..
ورق قلب فتحى وقال وهو ينظر الى ابراهيم فى تقدير وايمان :
ـ مش قصدى يا ابراهيم .. بس أنا كنت عايز اليومين دول يفوتوا على خير .. وبكره زى ما انت عارف الوقفه .. وحقنا نبطل شغل زى بقية الناس !
وابتسم فتحى كأنه يرشو ابراهيم بابتسامته ..
وقال ابراهيم وهو يرد ابتسامة صديقه : كل سنه وانت طيب
ثم سكت ، ليقنعه بأنه لا يزال مصمما على رأيه ..
وقال عبد الله : أوصل أنا أجيب الحاجات من العربيه.. أهو اسمى داخل وخارج من بيتنا ..
ونظر فتحى الى ابراهيم يسأله رايه ..
وقال ابراهيم : فكره صح !..
وقال فتحى ، وهو يخرج مفاتيح سيارته من جيبه ، ويناولها لعبد الله : العربيه مركونه فى ميدان الأزهر.. تلاقى فى الدواسه اللى ورا جرابندية فيها الحاجات .. وماتنساش تقفل العربيه ، أحسن فيها مسدس !
وقال عبد الله وهو يتناول المفاتيح : حاضر ..
ثم خرج على أطراف أصابعه ..
وبقى ابراهيم وفتحى لا يتحدثان فترة ، كان كل منهما يخشى ان تكلم أن يعود الى الاحتداد ، الى أن قال ابراهيم بلا مقدمات :
ـ أنا حادخل معسكر العباسية الليلة !
وفوجىء فتحى .. واتسعت عيناه .. وقال وهو يلتقط أنفاسه من الهواء : ياخبر .. ندخل معسكر انجليزى ازاى .. ده بعد خطوتين نكون رحنا فى داهيه !
وقال ابراهيم دون أن يرفع عينيه :
ـ ده أسهل حاجة .. ولا حد حايحس

وقال فتحى وهو يبتلع ريقه بصعوبة : وحا ندخل نعمل ايه ؟
قال ابراهيم فى هدوء : أنا حادخل لوحدى ! !..
وارتفع صوت فتحى كأنه لم يعد يطيق ، وقال :
ــ تدخل معسكر بحاله لوحدك ؟ ده انتحار !
وقال ابراهيم : بالعكس .. لما يكون واحد بس يبقى أسهل.. اتنين يلخموا بعض ، وينكشفوا !..
وسكت فتحى برهة ، ثم عاد يقول :
ــ مابلاش يا ابراهيم .. كفاية تضرب واحد ، ولا اتنين .. زى كل مره ، اللى حاتعمله فى المعسكر نقدر نعمله بره المعسكر
وقال ابراهيم فى صوت عميق كأنه يلقى وصيته :
ــ كل اللى بتعمله مش حايطلع الانجليز من البلد .. مافيش حاجة حاتطلع الانجليز الا ان البلد كلها تثور .. تتحرك .. وعلشان تتحرك لازم نعمل حاجه تصحيها .. لازم نعمل حاجه تفرقع .. لازم تكون المقدمة للثورة .. وده اللى حاعمله .. يوم ما حادخل المعسكر ، البلد كلها حاتدخل كل معسكرات الانجليز ورايا .. وبكره تشوف !
وسكت فتحى برهة ، ثم عاد يقول : انت متأكد ؟..
وقال ابراهيم فى حزم : متأكد ..
وقال فتحى : طيب ماتسيب غيرك يعمل الحكايه دى .. انت عملت اللى عليك واكتر .. ومن يوم ما ضربت عبـــد الرحيم شكرى ، واهى البلد هايجه !
وقال ابراهيم : مش كفايه .. لازم أعمل حاجه كمان .. ولازم كل يوم يحصل حاجه !..
ثم سكت قليلا ، واستطرد :
ــ أنا عارف معسكر العباسية كويس .. زمان قبل ما يتقبض على قدرت أجيب خارطة للمعسكر كله ، ودرستها حتة حتة .. ولسه فاكرها لغاية دلوقت !
وهز فتحى رأسه ، وسكت .. كأنه يعلم انه لا يستطيع أن يثنى ابراهيم عن قرار اتخذه ..
وارتفع صوت المفتاح يدور فى القفل ..
ودخل عبدالله وفى يده حقيبة من القماش السميك الاصفر ، كالتى يعلقها الجنود فوق ظهورهم .. ووجهه ممتقع ، ويداه ترتعشان كأنه يحمل الموت بينهما

ووضع الحقيبة بحرص على مائدة صغيرة ، وما كاد يتركها من يده ، حتى تنهد فى ارتياح .. وقال وهو يمسح بذراعه قطرات العرق المعلقة فوق جبينه : مش هى دى ؟..
وقال فتحى دون أن يتحرك من جلسته : أيوه ..
وهب ابراهيم واقفا ، وقفز نحو المائدة فى خطوة واحدة ، واخذ يفتح الحقيبة ، بأصابع متلهفة ، وقد زم شفتيه وارتسمت فى عينيه أمارات الاهتمام العميق ، كأنه عالم امام أنبوبة اختبار
وأخرج من الحقيبة أصابع الجلجنايت .. قطع طرية ذات لون أسمر ، كأنها قطع من الملبن ..
وقال عبدالله وعيناه متسعتان فى سذاجة :
ـ هو ده اللى بيقولوا عليه جلجنايت .. ده مش باين عليه حاجة .. زى ما يكون ملبن ..
وقال فتحى ضاحكا فى مرارة : تحب تدوق ! !..
وبدأ ابراهيم يخرج القنابل اليدوية ويضعها فوق المائدة . وعاد عبد الله يقول فى سذاجة : ودى بيستعملوها ازاى ؟ !..
والتفت اليه ابراهيم وفى يده احدى القنابل ، وقال كأنه يلقى عليه درسا : زى مابتشوف فى السينما تمام .. تشد الدراع ده ، وتنزع المفتاح ده بأسنانك .. وترمى ! !
وقال عبد الله : ياحفيظ يارب ؟..
واتجه ابراهيم الى الفراش الذى يحتل جانبا من الحجرة .. ونزع الملاءة التى تغطيه ، ثم مزق منها جزءا صغيرا ، واخذ يمزق هذا الجزء الى عدة شرائط طويلة
وقال عبدالله ، كأنه يحاول أن يوقف ابراهيم :
ـ يا أخينا مش كده .. دى مش حاجتنا ..
وقال ابراهيم وهو يبتسم ابتسامة ضيقة :
ـ ماهو لازم أصحاب الشقة يشتغلوا معانا !!
واستمر يصنع الشرائط الطويلة .. ثم بدأ يأخذ كل خمس أصابع من أصابع الجلجنايت ، ويربطها الى بعضها بشريط .. ويثبت بينها فتيلا قصيرا ، قابلا للاشتعال ..
وقال فتحى : ماتطول الفتيل شويه.. أحسن ينفجر فى ايدك قبل ما ترميه !..
وقال ابراهيم فى حزم :
ـ مافيش وقت .. لازم الانفجار يحصل بسرعة !

واستمر فى عمله .. وبدأ يلقى بتعليماته وأصابعه مشغولة بين قطع الجلجنايت .. دون أن ينظر الى فتحى أو الى عبدالله ..
أنه سيدخل المعسكر من ناحية دار السينما المخصصة للجنود الانجليز والتى تقع على ناصية شارع مدرسة البوليس ، وشارع السرايات .. ويتولى عبد الله مهمة تعمية جندى البوليس ، ان وجد .. وفتحى يساعده على القفز من على سور دار السينما..
وبعد ذلك يعود فتحى بالسيارة الى بيته ويظل منتظرا هناك
وقال فتحى محتجا : مش استناك لغاية ما تخرج ..
وقال ابراهيم ، والجلجنايت بين يديه :
ـ لأ .. أنا حاخرج من ناحية الجبل .. والعربية لازم ترجع ، لأنها لو اتمسكت ، ولا اتعرفت نمرتها .. حانتقفش كلنا ..
وسكت فتحى ، وهو ينظر الى ابراهيم فى تعجب ..
ثم أخذ الثلاثة يتداولون الخطة ويعدون أسلحتهم .. حتى كان منتصف الليل .. وخرج الثلاثة من البيت ..
عبدالله يحمل بين يديه الحقيبة القماش التى تضم الموت .. وفتحى يحمل حقيبة مدرسية أشبه بحقائب المحامين.. وابراهيم يرتدى قميصا أزرق وبنطلونا أخذهما من عبدالله .. ويحمل فى يده كتابين من كتب القانون التى تدرس فى كلية الحقوق ، وليس به من آثار التنكر الا شاربه وذقنه غير الحليق .. وساروا فى حى الباطنية ، كأنهم طلبة عائدون من استذكار دروسهم .. والمقاهى على الجانبين مزدحمة بروادها ، وقد زينت بالمصابيح الكهربائية احتفالا بوداع رمضان .. والشوارع مزدحمة بعربات الفاكهة .. والحلوى .. والكبد والكلاوى .. والاطفال يصرخون فى مرح .. ومجذوب يصيح : يارب .. وعسكرى ينظر بعينين سارحتين الى رجل يشد أنفاسه فى الجوزة .. وخادم المقهى يصيح : تلاتة أخضر . واتنين عجمى !
والثلاثة يحاولون تبادل حديث أثناء سيرهم ، فيأتى حديثا مبتورا لا تتصل كلماته .. ويحاولون الضحك ليظهروا فى هيئة طبيعية فتقع ضحكاتهم تحت أقدامهم كقطع الطوب ..
وخرجوا الى ميدان الأزهر .. ووصلوا الى السيارة ..
وتلفت فتحى حوله بحركة تلقائية ، وهو يفتح السيارة .. ثم جلس فى مقعد القيادة ، وجلس عبدالله بجانبه ، وجلس ابراهيم فى المقعد الخلفى .. وقال ابراهيم وقد قاربت السيارة ميدان

العتبة الخضراء : اطلع بينا على الدقى ..

وتقلص وجه فتحى كأنه يكاد يبكى تأثرا ، واتجه بالسيارة الى حى الدقى دون أن يسأل شيئا .. وكأنه يعلم كل شىء .. وعندما وصل الى الدقى اتجه الى ميدان « فنى » .. وأوقف السيارة بجانب مستشفى عانوس ، دون أن يوقف الموتور .. وظل ساكتا لا يتكلم .. وعبدالله لا يدرى شيئا ..

واطل ابراهيم من نافذة السيارة ، وفى عينيه نظرة حانية مبتسمة ، كأنه يرى فى الليل الذى أمامه .. نوال ..

وقال فى صوت هامس وهو لا يزال ينظر فى الليل :

ــ هيه كانت لابسة فستان لونه ايه ؟

وقال فتحى دون أن يلتفت اليه : أبيض ..

وتنهد ابراهيم ثم قست تعابير وجهه .. وسحب عينيه من الليل واعتدل داخل السيارة ، وقال فى صوت أجش :

ــ ياللا بينا يا فتحى ..

وانطلقت السيارة وابراهيم صامت .. وعضلات وجهه متقلصة .. كأنه فى معركة مع نفسه .. انه يقاوم ضعفا يحس به .. ضعفا يسرى فى عواطفه ، ويغلف أعصابه ، فيجعله يميل الى الاسترخاء ويدفعه الى الاستسلام .. انه يريد أن يغمض عينيه ويحلم .. ويريد أن يبكى فى حلمه .. ويبتسم ويضع يده فى يد نوال .. ثم يضمها الى صدره .. ويضغطها اليه بقوة حتى يحس بها بين خفقات قلبه .. ولكنه يقاوم هذا الضعف ويقاوم بقسوة .. لقد جاء اليها فى مكان لقائهما لأنه وعدها .. انه ليس ضعيفا .. ولكنه فقط أراد أن يبر بوعده .. أن يأتى للقائها .. وقد جاء متأخرا .. ولكنه جاء ..

وانتبه الى السيارة ، وهى تمر أمام المعرض الزراعى ، وقال :

ــ الساعة كام ؟

وقال عبد الله بعد أن نظر فى الساعة : واحده وربع ..

وقال ابراهيم : لسه بدرى ..

ثم استطرد بلا وعى وكأن شخصا آخر يتحدث فى نفسه :

ــ اطلع بينا على المنيرة .. نفسى أشوف بيتنا !

وقال فتحى فى جزع : يمكن يكون البيت مراقب ..

وقال ابراهيم : احنا حا نمر من قدامه بس .. يمكن تكون أودة أمى منورة !..

وسكت فتحى، وهو يحس بقلبه يتشقق تأثرا.. وقاد السيارة الى حى المنيرة .. ومر من أمام بيت ابراهيم بسرعة .. وأطل ابراهيم من نافذة السيارة كأنه يريد أن يلمس الجدار بيده .. ان البيت غارق فى الظلام .. وحجرة والدته ليست مضاءة .. وهو لا يزال يحس بالضعف .. الضعف الذى يسرى فى عواطفه .. ويغلف أعصابه .. وعاد يقاوم ضعفه من جديد ..

وقال كأنه يستعين بأى شىء على عواطفه :

ـ سوق على مهلك ، مش عاوزين نوصل قبل الساعه اتنين

وخفف فتحى من سرعة السيارة ..

وعاد ابراهيم يقول : فين المسدس ؟..

ومد فتحى يده ، وفتح درج السيارة المثبت فى « التابلوه » وأخرج مسدسا كبيرا « برابللوم » ..

وانكمش عبدالله فى مقعده ، وقال :

ـ ياجدع .. ابعد البتاع ده عن وشى !!

وضحك ابراهيم ، وقال وهو يمد ذراعه ويتناول المسدس من يد فتحى : ده مسدس ما يضربش الا فى وش الانجليز ..

ثم انه أراد أن يستمر فى الضحك ليتغلب على ضعفه ويستعيد طبيعته ، فاستطرد ، وهو يوجه المسدس الى رأس عبدالله :

ـ استنى أما أشوف اذا كنت انجليزى ولا لأ !!

وغطس عبدالله فى مقعده ، وصرخ وقد امتقع وجهه :

ـ وحياة أبوك بلاش الهزار التقيل ده ..

وقال ابراهيم وهو لا يزال يضحك :

ـ من بكره حاديك دروس فى ضرب النار ..

وقال عبد الله : لأ أنا ما ليش فى المسدسات ، طبيعتى كده !

وقال فتحى :

ـ ده انت لو رحت الهند تبقى زعيم زى غاندى .. أهو زيك كده مايحبش المسدسات .. أصلك هندى !!

واستمر الثلاثة فى هذا الحديث .. وهم يلحون فيه .. ويشدون الضحكات من أفواههم شدا .. حتى يتغلبوا بها على وجيب قلوبهم الواجفة ، ويستشعروا الاستهتار والجرأة ..

وكان ابراهيم يضحك ويتحدث ، وهو يعبث بالمسدس ، ويشد خزان الرصاص منه ، ويتأكد من كل قطعة فيه بأصابع خبيرة

متمرسة ، تحتضن المسدس فى رقة وحنو كأنها أصابع عاشق تحتضن حبيب العمر ..

ثم فتح زرارين من قميصه ، وأسقط المسدس فى عبه ، وتوقفت عضلات وجهه .. وسرحت عيناه فى الظلام .. وبدأ يستعيد خطته .. ويستعيد فى مخيلته رسم المعسكر . ويقدر جميع الاحتمالات التى يمكن أن يصادفها .. وهو يحس الآن بأنه فى حالته الطبيعية .. الحالة التى يكون فيها عادة وهو مقبل على تنفيذ خطة من خططه .. وقلبه ملىء بشعور التحدى .. والجراة .. والاستهتار .. وشعور أشبه بشعور «الشقاوة» .. شقاوة الشبان .. وذهنه واع ، تجمع فيه ذكاؤه كله .. ولكن هناك شيئا آخر يحس به .. شيئا لم يتعوده .. انه متشائم .. وهذا التشاؤم يضايقه .. ويثير فى قلبه نوعا آخر من الخوف .. غير الخوف الطبيعى الذىكان يراوده دائما وهو يطلق الرصاص .. وأخذ يمنى نفسه بالتغلب على هذا التشاؤم ، وعلى هذا الخوف الغريب .. سيتغلب عليه حتما ، عندما يبدأ فى العمل .. عندما يندمج فى المعركة ..

وسارت السيارة فى شارع العباسية .. حتى وصلت الى ناصية « شارع مدرسة البوليس » .. وسأل ابراهيم ، وقد بدأت لهجته تحمل رنة حازمة خطيرة : الساعه كام ؟..

وقال عبد الله وفى صوته رعشة : اتنين وعشرة ! !..

وقال ابراهيم :

ـ استنى هنا يا فتحى .. انزل انت يا عبدالله ، وامشى فى الشارع ده واذا لقيت عسكرى واقف كلمه .. قول له أى حاجة .. اسأله عن بيت .. عن شارع .. عن أى حاجة .. ماتخلهش ياخد باله من العربية وهى داخله ..

ونظر عبدالله اليه فى مسكنة كأنه يرجوه أن يعفيه من هذه المهمة .. ثم فتح الباب ، وقبل أن ينزل من السيارة .. استطرد ابراهيم قائلا : بعد ما تشوف العربيه مشيت .. خد بعضك وامشى لغاية ميدان فاروق .. فتحى حيستناك هناك ..

وقال عبد الله فى ضعف : حاضر ..

ونزل من السيارة .. وقال ابراهيم لفتحى :

ـ لف لفة صغيرة .. وارجع ادخل من الشارع ده !

واتجه فتحى فى شارع العباسية حتى آخر محطة الترام ، ثم

عاد ودخل فى شارع مدرسة البوليس .. وقاد السيارة فى سرعة عادية حتى لا يلفت الانظار .. ومرا فى طريقهما على عبدالله وهو واقف يحادث عسكرى الداورية ..

ووقفت السيارة فى آخر الشارع ، بجوار جدار « سينما الانجليز » ونزل ابراهيم وقد علق الحقيبة القماش فى عنقه .. ونزل فتحى بعد أن ترك موتور السيارة دائرا ..

واقترب الاثنان من جدار السينما .. وشبك فتحى أصابع يديه فى بعضهما ، وجعل من كفيه سلما ، وضع ابراهيم احدى قدميه فوقها ، وتعلق باحدى يديه ، فى أعلى الجدار .. ويده الاخرى تضم الحقيبة الى صدره حتى لا ترتطم بالجدار ..

ثم وضع ابراهيم قدمه الاخرى فوق كتف فتحى .. وفى قفزة واحدة كان فوق السور ..

تم كل ذلك دون أن يتبادلا كلمة واحدة ..

وتدلى ابراهيم فوق الناحية الاخرى من الجدار .. وقفز قفزة خفيفة .. وأصبح داخل دار السينما .. دخل معسكر الانجليز .. وسمع صوت سيارة فتحى تبتعد ..

وأحس أنه أصبح وحيدا .. وحدة هائلة مخيفة ..

واشتد وجيب قلبه .. حتى خشى أن يكون لقلبه صوت يسمع خارج جسده .. وتلفت حوله بعينين جاحظتين منتبهتين ..

انه يعلم ان دار السينما تترك بلا حراسة ، وأن مدخلها من ناحية المعسكر ليس له باب .. وسار فى خطوات متسعة خفيفة ، بين مقاعد السينما .. ثم خرج الى المعسكر ..

ان كل شىء هادىء .. أقرب الى الظلام .. ليس هناك الا هذه الاضواء الباهتة الصفراء التى تنير الشارع الرئيسى داخل المعسكر .. وصوت أقدام الحراس الذين يقفون على باب المعسكر المطل على شارع السرايات .. وهو يلمح هناك ضوء سيجارة مشتعله .. وسار يزحف فى الظلام ، انه محتاج دائما الى الظلام ظلام .. يارب ، مزيدا من الظلام ..

سار فى محاذاة الشارع الرئيسى .. متسترا فى جدران البيوت والثكنات الصغيرة التى يتكون منها المعسكر .. ان فى نهاية هذا الشارع، موقفا كبيرا لدبابات وسيارة اللورى، يريد ان يصل اليه

وسمع وقع أقدام ثقيلة فى أسفلت الشارع .. فتوقف .. وضم الحقيبة المعلقة فى رقبته الى صدره.. ان الاقدام تقترب..

وسقط على الارض ونام على وجهه . ومرت به برهة خيل اليه انها جيل .. ومرت الاقدام من أمامه دون أن تنتبه اليه ..

وقام من رقدته .. واستمر يسير .. سار طويلا .. وقلبه واجف ، وذكاؤه كله ينبض فى رأسه ، وعيناه جاحظتان منتبهتان

ورأى حرسا يقفون أمام بيت من بيوت المعسكر ..

لا بد أنه بيت القائد ..

هل يلقى ذخيرته فوق هذا البيت وينتهى ؟ .. انه يريد أن ينتهى بسرعة .. يريد أن يخرج من هذا الظلام .. الظلام .. يارب ، مزيدا من الظلام ..

لا .. يجب أن يتم خطته كما وضعها ..

ودار حول البيت الذى يقف حوله الحرس .. وهو يسير فى خطوات متسعة ، خفيفة ، وقد أحنى ظهره ، وضم الحقيبة التى تحمل الموت الى صدره.. ثم عاد يحاذى الشارع الرئيسى.. وعاد يسير محترسا .. يقظا .. لم يكن يفكر فى شىء خارج خطته .. كل شىء اختفى من خياله .. نوال .. أمه .. أبوه .. أصدقاؤه .. نفسه .. لم يعد له خيال .. انه يعيش فى قلب الحقيقة ، بكل أعصابه .. وقلبه واجف .. يدق دقات مثيرة يقشعر لها بدنه .. ان الحقيقة التى يعيش فيها هائلة ..

وتوقف عن السير .. والتمعت عيناه ببريق خطير ..

انه يرى أمامه مخزن الدبابات والسيارات اللورى .. أرض مكشوفة تحيطها أسلاك شائكة ، وحرس يقف شاهرا السلاح فى أماكن متفرقة .. وأضواء قليلة هنا وهناك ..

ورقد على بطنه .. ووضع حقيبة الموت تحت ابطه .. وشد نفسا عميقا من صدره استجمع به كل ارادته .. ثم بدأ يزحف .. ويزحف .. الى أن وصل الى الأسلاك الشائكة .. ورفع الحقيبة من حول عنقه ووضعها عبر الأسلاك .. ثم ازداد التصاقا بالأرض .. وزحف تحت الأسلاك .. وتعلقت شوكة حديدية بقميصه ومزقته .. وأحس بصوت التمزيق كأنه صراخ حاد .. فتوقف .. ولكنه لم يسمع حركة .. كل شىء هادىء .. وعاود الزحف .. الى أن عبر الأسلاك ..

والتقط حقيبة الموت وعلقها فى كتفه .. وأخذ يتحرك على يديه وقدميه بسرعة متسترا فى ظلال الدبابات وعربات اللورى .. أنه يريد أن يبدأ من منتصف المعسكر.. ورفع عينيه.. وركزهما

فوق دبابة صغيرة ، وقال لنفسه : هذه !.. ثم أسرع اليها ..

وفتح حقيبـــة الموت ، وأخرج حزمة من حزم الجلجنانيت ، ووضعها تحت الدبابة .. ثم أخرج من جيبه ولاعة .. ومد يده تحت الدبابة وأشعل الفتيل .. ثم قام على قدميه .. وأخــذ يجرى بكل سرعته ، مستترا دائما بظلال الدبابات والسيارات الواقفة ..

ولم يكد يجرى خطوات ، حتى انطلق من ورائه صوت مفزع يمزق الهواء .. صوت رهيب .. ضخم .. مخيف ..

وأحس بنفسه كأنه يكاد يطير فى الهواء .. وبذل مجهودا ليثبت قدميه على الارض ، وفجأة أضيئت الانوار ، أنوار قوية كاشفة

وارتمى على الأرض .. وزحف تحت سيارة من سيـــارات اللورى .. وأخرج حزمة أخرى من حزم الجلجنايت .. وأشعل الفتيل .. ثم زحف سريعا بعيدا عن السيارة ..

وانطلق صوت آخر .. مزعج .. مدو .. مخيف .. يمزق الهواء .. وأحس ان جسده كله يتمزق ، وأحاطت به الاضواء ..

أضـــواء ســـاطعة تنبعث من مصابيح كاشفة ، تدار فى أنحاء المعسكر ، كأنها الـكلاب المسعورة ..

وأضواء نيران تنبعث من خلفه ..

اطفئوا هذه الأضواء .. اطفئوا النور ياكلاب ..

دعونى أتم خطتى .. يارب اطفىء هذه الانوار ..

وسمع صوت طلقات رصاص .. من كل ناحية !

وجرى .. لايدرى الى أين .. لم يعد يستطيع أن يحدد هدفه .. وأشعل حزمة أخرى من حزم الجلجنايت .. والقاها بعيدا .. بكل قوة ذراعه .. لا يدرى أين وقعت .. وانطلق الصوت المفزع مرة ثانية .. مدويا .. مخيفا .. وكشف عن أســنانه ، وهو يجز عليها .. كأنه يبتسم ..

وجرى .. والاضواء تتعقبه .. والرصاص ينطلق من كل اتجاه .. وأصوات اناس يصرخون .. وهرج كبير ..

وهو يجرى وينبطح أحيانا على وجهه .. ويزحف على بطنه.. ويقفز على يديه وقدميه ..

لا تزال معه حزمة أخرى من الجلجنايت ..

وأشعل الفتيل .. والقى الحزمة خلال نافذة بيت صــغير من

الصاج ، وجده أمامه .. قد يكون مخزنا .. أو ثكنة .. لا يدرى .. ألقاها والسلام ..

وجرى .. وانطلق الصوت المفزع الرهيب ..

والأضواء .. والرصاص .. والهرج ..

ونام على بطنه ، وأخرج من حقيبته ثلاث قنابل يدوية .. وضع قنبلة منها فى جيب بنطلونه .. وثانية فى الجيب الآخر .. والثالثة احتفظ بها فى يده .. وألقى بالحقيبة الفارغة بعيدا ، ثم اخذ يزحف على بطنه .. ثم قام يجرى ليختبىء خلف دبابة ..

وأنفاسه تلهث .. وسيل من العرق يغطى وجهه وقد استحال الى انسان من التراب ، من طول ما زحف على الارض ..

انه يريد أن يخرج من هنا .. لن يدعهم يقتلونه ..

سيقتلهم جميعا .. أين سور الاسلاك الشائكة ؟ !

وعاد يجرى ، نحو السور الشائك .. والرصاص يلاحقه .. والتصق بالارض وزحف على بطنه تحت الاسلاك .. واشتبكت الاشواك الحديدية بلحمه .. وأحس بآلام حادة .. سكاكين تشق ظهره .. ولكن لا يهم .. يجب أن يخرج من هنا ..

وشد لحم ظهره من بين أسنان الاشواك الحديدية.. وتأوه .. تأوه كأنه يلفظ روحه .. واستمر يزحف .. حتى اجتاز السلك الشائك .. وقام يجرى .. ولم يكد يجرى خطوات حتى أحس بجسم صلب يرتطم فى كتفه ، وينغرز فى لحمه .. وأحس بسائل حار يسيل منه .. لعلها رصاصة .. لا يهم .. وظل يجرى .. باحثا عن الظلام .. ولكن الظلام يتبدد .. والأضواء تغمر كل مكان كأنها سيل ينهمر من السماء .. ورفع يده التى تحمل القنبلة اليدوية .. ولكنه ما لبث أن خفضها ، وهو يتأوه .. انه لايستطيع أن يرفع ذراعه كأنه شل ..

ونقل القنبلة الى يده اليسرى ، وشد مفتاحها بأسنانه ، وقذف بها بكل ما فيه من قوة ، ولا يدرى أين وقعت .. ثم غير اتجاهه بسرعة .. وأخذ يجرى فى اتجاه آخر .. ليضلل متعقبيه الذين يجرون خلفه .. انهم سيتجهون الى حيث وقعت القنبلة ، وهو يجرى فى اتجاه آخر ..

وأخذ يجرى مستترا فى كل ما يجده فى طريقه .. وينبطح على الارض ريثما يلتقط أنفاسه ..

وهو يحس بقواه تنزف منه .. يحس بصدره يطبق فوق

رئتيه ، كأنهما سيكفان عن الحركة ..
والاضـــواء تتعقبه .. والنيران .. وطلقات الرصـــاص ..
سيارات تتحرك بسرعة .. وصوت صفارات تنطلق وتكاد تمزق أذنيه .. ونباح كلاب .. انه يكره الكلاب .. يارب .. لمـاذا خلقت الـكلاب .. ألا يكفى الانجليز .. وآلام .. آلام حادة فى كتفه .. وفى ظهره .. وفى ركبتيه ..
ورفع يده بالقنبـلة الاخرى ، وشـد مفتـاحها بأسنانه .. واستدار وألقاها .. بكل ما بقى فيه من قوة .. ثم غير اتجاهه مرة أخرى .. انه لم يعد يدرى أين هو من المعسكر ..
لقد كانت خطته تقضى بأن يخرج عن طريق الجبل ، ويصـل الى القاهرة من ناحية حى الدراسة ..
ولـكن أين الطريق المؤدى الى الجبل ؟ ..
انه لم يعد يدرى .. لم يعد يعرف أين الشمال ، وأين اليمين ، وأين الشرق .. وأين الغرب .. تاه داخل المعسكر ..
ولم تعد معه الا قنبلة واحدة ، والـكلاب تنبح من ورائه ..
انه يكره الـكلاب .. ويخافها .. نعم انه يخاف .. يخاف الموت .. لايريد أن يموت .. لن يموت ..
ورفع القنبلة وألقاها بيده اليسرى !.. لعل رائحة الدخان المنبعث من القنبلة ، تضلل أنوف الـكلاب .. وغير اتجاهه ..
وأخرج المسدس الكبير من عبه ، وأمسك به فى يده ..
ولـكنه لم يعد يستطيع أن يجرى .. يريد أن يقف ..
ولكنه لايستطيع .. انه يجرى بقوة الاندفاع .. ورأسه مدلى على صدره .. وجسده يترنح .. وقطرات من دمه تتعقبه !
ورفع عينيه المكدودتين ، ونظر بهما أمامه كأنه ينظر من خلال غيوم كثيفة .. هذا هو سور المعسكر .. انه يعرف هذه الناحية من السور .. انها الناحية التى تطل على ميـدان العباسية ..
والسور يلف الى أن يطل على حارة صغيرة متفرعة من شـارع العباسية .. انه يعرف كل هذا جيدا .. ولو استطاع أن يجتاز السور من ناحية الحارة .. لسلم .. نجا من الموت ..
ولف من وراء أكشاك « النـــافى » التى تقع فى أسفل سور المعسكر .. ورأى شبحا يسير أمامه .. فأطلق رصاصتين من مسدسه .. ولا يدرى ماذا جرى للشبح .. ووصل الى السور المطل على الحارة .. انه عال .. ومصنوع من الصاج .. ولن

يستطيع أن يجتازه .. وفكر .. ان كل شيء فيـــه هامـــد الا عقله ، وبحث حوله بعينيه الغائمتين .. ثم التقط من على الارض لوحا قصيرا من الخشب ، رفعه بصعوبة وأسنده على السور .. وأعاد وضع مسدسه فى عبه.. ثم وضع قدمه على لوح الخشب ، ورفع جسده ، وتعلق بيديه فى أعلى السور .. آه .. انه يتألم.. شيء آخر يتمزق فى جسده .. ان حافة السور ذات أسنان وقد انغرزت الأسنان الصلبة فى كلتا يديه .. ولـكن لا يهم .. هذا آخر ما يتحمله .. وبعد ذلك سيهدأ .. سيستريح ..

وشد جسده الى أعلى .. وهو يتأوه .. انه لا يتأوه فحسب انه يبكي .. ان يديه تتمزقان .. ووصل الى حافة السور ..

ثم ألقى بنفسه الى الناحية الاخرى .. أصبح خارج المعسكر

وقام متعثرا .. يجب أن يبتعد من هنا سريعا ..

وبدأ يجرى فى خطوات ثقيلة ، مترنحة كأنه مخمور ..

وسمع صوت صفارة حادة تنطلق من خلفه ..

ما هذا ؟ !.. انه البوليس المصرى ..

يا مغفلين .. ابتعدوا عنى .. لقد فعلت كل هذا من أجلـكم من أجل مصر .. لقد أثرت الرعب فى قلوب أعدائكم .. سيرحلون عنكم .. صدقونى، سيرحلون عنكم، ستثورون كلكم مثلى لتطردوهم

ولـكنهم لايبتعدون .. والاقدام الثقيلة تقترب منه ..

وأخرج مسدسه من عبه .. سيقتلهم .. لا .. انه لايستطيع .. لايستطيع ان يقتل مصريا لا ذنب له .. انهم يؤدون ما يخيل اليهم انه واجب.. وطول حياته لم يستطع ان يقتل واحدا منهم ، وقد قبضوا عليه مرة لأنه رفض أن يقتل الجندى الذى يتعقبه..

ولـكنه لم يعد يستطيع أن يجرى .. يريد ان يستريح .. يريد أن ينام ..

لعله لو قتل هذا الذى يتعقبه .. لاستطاع أن ينام ..

والتفت خلفه ، وهو لايزال يجرى متعثرا .. ومسدســـه فى يده .. ورأى من خلال عينيه الغائمتين ضابط بوليس ..

يا اخى .. دعنى .. اننى ثائر لأجـــلك .. ولو بحثت فى قلبك ، لوجدت ثورتى .. انها ثورتك ..

ولـكن هذا الضابط لن يفهم ..

وهو يريد أن يستريح .. يريد أن ينام ..

ووجه اليه مسدسه .. ليقتله .. ولـكن اصبعه تجمد فوق

الزناد .. لم يستطع أن يضغط عليه .. شيء فى نفسه يرفض أن يقتـــل مصريا لا ذنب له .. شيء أقوى منه .. وأقوى من سلامته ومن حياته ..

ولمح الضابط فوهة المسدس الموجهة اليه .. فأسرع وأطلق مسدسه .. وسقط ابراهيم على الارض ..

وانكفأ على وجهه ..

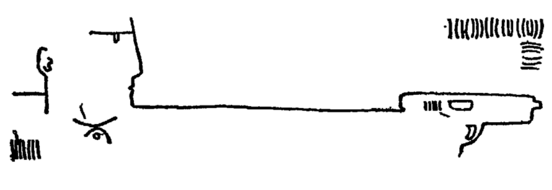
وتحسس الارض بيديه ..

وابتسم ..

انه الآن يستطيع أن يستريح

وأغمض عينيه ..

كأنه نام ..



٢٢

الساعة السادسة صباحا .. واليوم يوم وقفة العيد !

واستيقظت العائلة وكل فرد فيها مقبوض الصـــدر .. لقد مضت أيام طويلة وصدورهم مقبوضة ، وانقبضت معها الشفاه ، فلم تعـــد تبتسم .. وانقبضت العقول ، فخبـــا ذكاؤها .. وانقبضت النظرات بين جفونهم ، فلم يعد فيها نشاط ولا مرح ..

ونزلت نوال من فوق فراشـــها ، وخرجت من غرفتها تبحث عن جريدة الاهرام تحت عقب الباب .. لقد أصبحت الجريدة تأتى الى البيت كل صباح .. لم يعد أحد يستطيع أن ينتظر عودة الأب من عمله ليطلع على الأخبار ، ولم يعد الاب نفسه يستطيع أن يخرج من البيت قبل أن يقرأ الجريدة ويطمئن !

والتقت نوال فى طريقها بأمها ، وهى تسير متثاقلة نحو الحمام ، كأن خطواتها تأوهات من ألم ..

وقالت فى صوت حزين وهى تحاول أن تبتسم :

ــ صباح الخير يا ماما .. كل سنة وانتى طيبة !

ثم امسكت يد أمها ، وانحنت تقبلها ثم رفعت وجهها تحاول أن تقبل وجنتيها فأشاحت عنها أمها برأسها ، وهى تقول :

ــ هوه فيه طيب يا بنتى طول ما اخوكى فى السجن !

وقالت نوال بصوتها الحزين :

ــ بكره يرجع بالسلامة يا ماما .. وكل حاجة تروح لحالها..

وقالت الأم وهى تنقل قدميها نحو الحمام كأنها تسير فوق مسامير : والله يابنتى متهيأ لى انى حاموت قبل ما اشوفه تانى

وقالت نوال : ماتقوليش كده يا ماما .. ربنا معانا ..
ولم ترد الأم ، انما تنهدت كأنها تصعد بقلبها الى الله ..
وخرجت نوال الى « الصالة » ، وانحنت تلتقط الجريدة من تحت عقب الباب ، وفجأة ارتدت عنها قبل أن تلمسها ، وقد اتسعت عيناها وارتسم فيها الذعر .. واستندت الى الحائط ، وهى لا تزال تنظر الى الجريدة كأنها تنظر الى أفعى تسعى تحت قدميها .. ثم انطلقت منها صرخة ، صرخة حادة هالعة ، وحاولت أن تكتم صرختها ، ووضعت يدها فوق شفتيها ، وهى لا تزال تنظر الى الجريدة الملقاة على الارض بعينين ازدادتا اتساعا .. ثم لم تستطع ، انطلقت منها صرخة ثانية أحد من الاولى ، ثم صرخة ثالثة ، ثم توالى الصراخ ، وأخذت تشد ضفائرها بكلتا يديها .. وتدق الارض بقدميها ، كأنها جنت ..
وجاءت أختها سامية مهرولة وهى فى قميص النوم .. وجاء وراءها أبوها وهو يخب فى جلبابه ، وقد سقطت طاقيته فوق رأسه حتى لامست حاجبيه وسقطت نظارته فوق أرنبة أنفه حتى كادت تقع على شفتيه ، وقال فى لهفة وهو مبهور الانفاس :
ــ ايه ؟ فيه ايه ؟ حصل ايه ؟ !
واحتضنت سامية أختها نوال ، وهى تقول :
ــ مالك يا نوال .. بتصرخى ؟ !
وكفت نوال عن الصراخ .. وعيناها لا تزالان مذعورتين .. وجسدها كله يرتعش .. وأشــارت لهما بأصابعها الى الجريدة الملقاة على الارض .. الى الافعى التى تسعى تحت قدميها ..
والتفتا الى حيث أشارت .. وقرآ حروفا كبيرة حمراء كأنها ألسنة من نار : « مصرع ابراهيم حمدى فى معركة مع البوليس »
ورفعت ســـامية رأســـها .. ونظرت الى أختها وشفتاها ترتعشان كأن الـكلمات أثقل منهما .. ثم ارتمت فى أحضانها ..
وبكت الأختان ...
وانحنى الأب والتقط الجريدة بيد مرتعشة ، ثم ثبت نظـارته فوق عينيه وأخذ يقرأ :
« روع سكان حى العباسية ، فى ساعة متأخرة من مساء أمس بأصوات انفجارات شديدة صادرة من داخل المعسكر الانجليزى ، وتبين أن بعض الشبان قد استطاعوا التسلل الى داخل المعسكر، ولم تعرف دوافعهم بعـــد .. وقد اتصـــل مأمور قسم الوايلى

بحكمدارية العاصــــمة ، فأرسلت قوات من البوليس حاصرت المعسكر ، فى انتظار خروج المتسللين ، ودارت معركة بين هؤلاء المتسللين وبين البوليس ، وتبادل الطرفان اطلاق النار ، وسقط أحد الشبان قتيلا .. وقد تبين ان هـــذا الشاب هو ابراهيم حمدى المتهم بقتل المغفور له عبد الرحيم باشا شكرى ، والذى استطاع أن يهرب من سجنه منذ عدة أسـابيع .. هـذا وقد أصدرت وزارة الداخلية البيان الرسمى التالى .. »

وطوى الأب الجريدة كأنه يمزقها .. وتقلص وجهه كأنه يعانى ألما حادا .. ثم انتبه الى نفسه وقال لابنتيـــه ، فى صـــوت محشرج مخضل بدموع تنزف فى صدره ولا تطل من عينيه :

ـــ مش عايز حد يسمع صوتكم .. فاهمين .. مش عايز حد يسمع صوتكم ، بأقول لـكم أهو ! !

وجاءت الأم فى خطواتها المتأوهة ، وأنفاثها اللاهثة .. وقالت وهى تنظر الى الجميع نظرات متشائمة :

ـــ جرى ايه عالصبح ؟.. كفى الله الشر .. ما هى أصـل المصايب عرفت طريق البيت خلاص ..

ولم يرد عليها أحد ..

وعاد الأب الى حجرته والجريدة فى يده ، وهو يخب فى جلبابه كأنه يحاول أن يشقه بساقيه .. ويردد فى سخط :

ـــ لا حول الله يارب .. لا حول الله ..

وأحاطت سامية أختها نوال بذراعها ، وشدتها الى غرفتهما ، وكلتاهما تنشجان ودموعهما تفيض من عيونهما ..

وقالت الأم كأنها غضبت : مش تقولوا لى حصل ايه ؟.. ولا مش حاسبينى واحده فى البيت ؟ !..

وارتفع نشيج نوال .. وردت عليها ساميه من بين دموعها :

ـــ بابا حايقول لحضرتك ..

واستدارت الأم ، وقد نسيت بعض آلامها ، وبدت فى لهفتها على معرفة الخبر ، أكثر نشاطا ، ولحقت بزوجها قائلة :

ـــ ايه يا زاهر ؟.. حصل ايه ؟.. ياخويا طمنى ..

ونزع الأب نظارته من فوق عينيه ، ثم رفع طرف جلبـــابه وأخذ يمسح به زجاج النظـــارة وكأنه يمسح الدموع من فوق عينيه .. وقال فى تأثر : ابراهيم ..

وقالت الأم متطلعة : ماله ؟..

وقال الأب وتأثره يمزق كلماته : ما..ت ! !..
وخبطت الأم على صدرها وقالت فى ألم كأن شيئا تمزق فيها :
ـ كبدى يا ابنى .. مات ازاى ؟ !
وقال الأب وهو يهم بالجلوس على الأريكة « الاستامبوللى » :
ـ قتلوه .. البوليس قتله !
وارتفع حاجبا الأم فوق عينيها وقالت فى سذاجة :
ـ قتلوه .. وهم الناس بيتقتلوا كده بالساهل !
ولم يرد الأب .. وعادت الأم تقول .. وقد اشتد فزعها :
ـ ومحيى ..؟ عملوا ايه فى محيى ؟ ..
ورفع الأب وجهه اليها كأنه يستنكر هذا التفكير .. وقال :
ـ محيى مسألته حاجة تانية .. مالوش دعوة بابراهيم !
وقالت الأم وقد بدأت تنهار : هوه مش فى السجن ؟ !
وقال الأب متبرما : أيوه ..
قالت : ماهو اللى قتل ابراهيم يقدر يقتل محيى كمان ، بكره حا يقتلوه .. حا يقتلوا ابنى .. ابنى .. ياضناى يا ابنى ..
ثم وقعت فوق الأريكة بجانب زوجها ، وانخرطت فى البكاء وجسدها المكتنز يرتعش كأنه يمزق نفسه ..
وقال الأب وهو يزفر كأنه لم يعد يحتمل مزيدا من الهم :
ـ ياستى ابراهيم اتقتل فى معركة مع البوليس .. كان هاجم على معسكر انجليزى .. انما محيى لا بيعمل معارك ولا بيهاجم معسكرات ..
وخفت دموع الأم .. وكف جسدها عن الارتعاش .. ثم سكتت برهة وهى تفكر .. ثم قالت فى صوت متردد كأنها تخشى أن تفصح عن أفكارها :
ـ هم مش ماسكين محيى علشان خاطر يلاقوا ابراهيم ؟ !
وقال الأب وهو ينظر اليها كأنه يبحث وراء عينيها : أيوه ..
قالت كأنها تتخلص من أفكارها : آهم خلاص .. لقوا ابراهيم !
ونظر اليها الأب فى تعجب قائلا : قصدك ايه ؟ ..
وقالت الأم وهى تدير عينيها عنه :
ـ يوه .. أنا عارفه بأه .. انما ما دام لقوا ابراهيم ، حيفضلوا ماسكين محيى ليه ؟ !
وقال الأب وهو يفتح صفحات الجريدة ويخفى وجهه فيها كأنه يخجل من أفكار زوجته :

ــ والله ياستي لو كان خروج يحيى متوقف على موت ابراهيم ، كان بلاش يخرج أحسن .. كان أهون يفضل طول عمره فى السجن

وسـكت الأب ، وأحس بالعجب من نفسه .. أحس كأنه اكتشف انسانا جديدا فى داخله .. أحس انه يؤمن فعلا بهذا الكلام الذى يقوله .. انه يرضى فعلا بأن يبقى ابنه فى السجن ، لو كان بقاؤه ثمنا لحياة ابراهيم .. هذا عجيب ، هل يعقل أن يضحى بابنه الى هذا الحد ؟ ! ولـكنه يحس بأن تضحيته بابراهيم ليست أقل من تضحيته بابنه .. يحس ان ابراهيم ليس مجرد شاب وطنى آواه فى بيته يوما ، يحس كأن له شيئا فى ابراهيم ، كأنه اشترك فى صنعه ، فى صنع بطولته ، وفى صنع وطنيته ، وفى صنع مغامراته ، ويحس الآن انه فقد شيئا يملكه ، يملكه مع غيره ، على الشيوع ! !

وهو يريد أن يبكى ، يريد أن يصرخ ، أن يضرب ، أن يثور لدم الشهيد الذى اشترك فى صنع بطولته ..

يريد أن يقف بين الناس ويحدثهم عن ابراهيم .. يروى لهم قصته .. قصة وطنيته ، وقصة البوليس الذى كان يطارده .. ويقول لهم : أيها الناس ، لقد ضحى ابن لـكم بروحه فى سبيلكم .. فى سبيل تحريركم .. ليطرد الانجليز .. ويطرد الفساد .. ويعيد اليكم كرامتكم وعزتكم .. ولكنه لن يفعل ..

انه لن يصرخ ، ولن يضرب ، ولن يثور .. غاية ما يستطيعه هو أن يبكى فى صمت ، بعيدا عن الناس .. ورغم ذلك فان شيئا يمنعه من البكاء .. انه يحس كأنه أصبح أقوى من البكاء ..

لماذا لا يثور ؟ .. انه ثائر فعلا ..

ولـكن دوره فى الثورة يختلف عن دور الآخرين .. وعندما يدعى للقيام بدوره قد يتردد قليلا ، ولكنه لا يهرب .. ولا يخون الثورة ، وقد دعى للثورة يوم طرق ابراهيم بابه ، فلبى .. وفتح بابه على مصراعيه ..

وأحس بنفسه خـلال هـذا التفكير ، كأنه واقف بين ناس كثيرين .. وان حالته ليست حالة فردية ، انما هى حالة كل هؤلاء الناس .. حالة ملايين الناس يصنعون الثورات ، ويصنعون الابطال .. وبحث عن ابنه يحيى بين هذه الملايين فرآه بخياله .. رآه خلف القضبان .. وابتسم له .. انه هو الآخر يقوم بدوره فى صناعة الثورة وصناعة الابطال .. ولأول مرة يبتسم فى دخيلة

نفسه ، وهو يرى ابنه خلف القضبان ..

ماذا تفعل الآن هذه الملايين ؟ ماذا تفعل بعد موت ابراهيم ؟

انها لا تيأس .. ولا تبكى .. ولا تستكين .. انها تنشط لتصنع بطلا آخر .. ان العيــون تتقد .. والهمسات تعلو لتصــبح صراخا .. والاحداث تترى بسرعة ، وكل حدث يصنع بطلا .. أبطال كثيرون .. يتمون رسالة الشهيد ويتقدمون صفوف الثورة

هذا ما يجب أن يحدث .. وسيحدث ..

سننتقم ، سنثور ، سنتحرر من الظلم ويخرج محيى من السجن

وأحس بالدماء تتدفق فى عروقه بقوة وعنف ، كأنه استعــاد شبابه .. استعاد شبابا غاضبا ، ساخطا ، يطالب بالثورة .. وتقلصت تعابير وجهه ، كأن فى صدره مظاهرة يطاردها البوليس !

وأفاق من احساسه على صوت نشيج زوجته وقد بدأ يرتفع من جديد ، فأبعد الجريدة ــ التى لم يكن يقرأ فيها شيئا ــ عن وجهه ، وقال وهو ينظر اليها فى حنان :

ــ جرى ايه يا تحية .. ما كنا سكتنا !

وقالت زوجته وهى تنشج :

ــ مش قادرة يا زاهر .. كل ما اتصــــور ابراهيم مقتول ، يتهيأ لى ان محيى مقتول جنبه !

وقال الأب وقد غاص قلبه فى صدره :

ــ ياشيخة بلاش الكلام ده .. فال الله ولا فالك .. قومى بالله شوفى حناخد ايه بكره لمحيى .. دى أول مرة حازوره فيها .. ولازم كمان آخد له معايا شوية كحك .. و ..

وقاطعته الأم : أنا حالفه الكحك مايدخلش البيت طول ما ابنى مرمى الرميه دى ..

وقال الأب وهو يحاول أن يبتسم :

ــ ياستى ما حدش عايز ياكل كحك .. انما لازم آخــد له شوية يستبشر بيهم ويخفف بيهم عن نفســه ..

وسكتت الأم .. وتركت دموعها تنهمر فوق وجنتيها ..

وسكت الأب .. وحاول أن يعود الى احساسه الثورى .. ولكنه وجد قلبــــه لايزال غائصا بين رئتيه .. ووجد لهفته على ابنه تعصف به .. انه يريده سالما .. يريده أن يعود الى جانبه .. وأن يحقق حلمه فيه .. وأن يتم الثوب الذى كان ينسجه له .. ثوب المســـتقبل الذى نسج كل خيط فيه بعرقه ، وحرصه ،

وتقتيره ، وتزمته .. وهب وقفا كأنه يهرب من لهفته ..
وخرج متجها الى الحمام .. وتوقف قليلا عندما مر بباب غرفة ابنتيه .. وتسمع الى صوت نشيجهما.. وحاول أن يدخل اليهما لينهرهما .. أو .. ليخفف عنهما .. ولكنه عدل .. ودخل الحمام ، وصفق الباب وراءه فى عنف ، كأنه يصفقه فى وجه أعداء كثيرين يلاحقونه فى بيته ..
كانت نوال قد انكفأت على وجهها فوق فراشها .. تبكى .. كأنها تقطر روحها فى دموع .. وضفيرتاها ملتفتان حول عنقها كأنها تحاول ان تخنق نفسها بهما .. وكان البكاء يعصف بها احيانا فيضيق صدرها ، وتلقف انفاسها من الوراء ، وتضرب بيديها وقدميها فوق الفراش كأنها تفر من الموت .. وأختها بجانبها تشاركها دموعها ، وتحاول أن تخفف عنها ، ثم لا تجد ما تخفف به عنها الا أن تشاركها مزيدا من الدموع ..
وسكتت نوال عن البكاء فجأة ..
واستدارت على ظهرها وأخذت تتطلع الى السقف بعينين مفتوحتين لا تريان شيئا .. وقد امتقع وجهها حتى بدت بشرتها السمراء فى لون الليمون الاخضر .. وظلت ساهمة طويلا .. وأختها بجانبها عاجزة عن أن تجد شيئا تقوله ، انما ترقبها فى نظرات حانية مشفقة ..
وفجأة ايضا ـ وفى حركة آلية ـ اعتدلت نوال جالسة فوق الفراش وقالت كأنها تحادث نفسها : لازم أروح له ..
وقامت سامية فى دهشة : تروحى لمين ؟ ..
قالت نوال وهى لا تزال ساهمة تنظر بعينين لا تريان شيئا :
ـ لابراهيم ، النهارده الاتنين وحايستنانى الساعة حداشر
وقالت سامية فى لوعة على أختها :
ـ نوال ، فوقى لنفسك ياحبيبتى، ماتعمليش فى نفسك كده !
ونظرت اليها نوال وبين شفتيها ابتسامة بلهاء كأنها مجنونة :
ـ أظن صدقتى كلام الجرايد .. بأه حد يقدر يقتل ابراهيم .. ده يقتل ألف .. تعرفى هوه راح فين ؟ ..
ومدت سامية ذراعها وأحاطت خصر أختها ، وقالت وقد ازداد صوتها لوعة : فين ؟! ..
واتسعت عينا نوال ، وانبثق منهما بريق غريب ، وقالت :
ـ راح يطلع محيى من السجن .. هوه قال لى كده .. أصلي

كنت مخبية عليكى ياعبيطة .. وكنت با قابله من وراكى .. كل يوم اثنين ، وكل يوم أربع .. وآخر مرة قال لى انه حا يطلع يحيى من السجن ..

وكادت سامية تعود الى البكاء شفقة على أختها .. ولكنها تحاملت على نفسها وقررت أن تتخذ موقفا حازما فزمت شفتيها ، وامسكت أختهـــا من كتفيها بكلتا يديها ، وأخذت تهزها برفق وهى تقول : نوال .. بلاش كلام مجانين .. اللى حصل خلاص حصل .. انتبهى لنفسك وخليكى عاقله ..

وشدت نوال نفسها من بين يدى أختها وقالت فى حدة :

ـ سيبينى .. لازم أقوم ألبس .. أحسن أتأخر !

وقفزت من فوق الفراش ، واتجهت الى دولابها وفتحتـــه ، وقامت أختها ، ووقفت خلفها ، وقالت فى رفق :

ـ بلاش فضايح يا نوال ، مش كفاية الهم اللى احنا فيه ..؟ انتى عايزه بابا يجرا له حاجة ..

وقالت نوال ، وقد اشتدت حدتها :

ـ بابا مش حايقدر يمنعنى .. لو حد منعنى من الخروج ، حارمى نفسى من الشباك ..

وعادت سامية تقول : نوال .. ما تخلنيش أتجنن .. و ...

وقاطعتها نوال وقد ارتفعت الابتسامة البلهـــاء مرة ثانية الى شفتيها : انتى مش مصدقانى .. طب بصى ..

وفتحت المصحف الذهبى الصغير المعلق فى رقبتها ، واخرجت الورقة الصغيرة التى كتب عليها ابراهيم بخط يده شهادة لا اله الا الله.. وقالت ، والضوء الغريب ينبثق من العينين الواسعتين :

ـ شوفى .. دى ورقة كتبتها أنا وابراهيم قبل ما يسيب بيتنا زى الورقة اللى بيكتبها بابا مع ماما لما ييجى يسافر.. مش كده ؟ !

ونظرت سامية اليها فى حيرة ولوعة ..

وعادت نوال تطوى الورقة وتضـــعها داخل المصحف الذهبى الصغير . وعادت دموعها تنهمر هادئة فوق وجنتيها ، ثم جلست على الأرض مستندة الى الدولاب .. وأسقطت رأسها بين يديها وأخذت تبكى بكاء هادئا ..

وكانت نوال تعلم انها مدفوعة الى هـــذا الكلام بقوى أقوى منها .. وكان جزء من عقلها يعى ان كلامها ما هو الا نوبة عصبية تجتازها .. كانت تحس كأن فى داخلها فتاتين .. فتاة تعلم ان

ابراهيم قد قتل .. مات .. وماتت معه أحلامها .. وفتاة أخرى ترفض أن تصدق انه مات .. وتؤكد انه لا يزال حيا .. وانه ينتظرها فى موعده .. فى ميـدان « فنى » بجوار مسـتشفى عانوس . وكلا الفتاتين لا تستطيع أن تقنع الاخرى .. واحداهما حزينة أنهكها الحزن فلم تعد تستطيع أن تقاوم والثانية مجنونة !

ورطبت الدموع من الاعصاب الثائرة .. واستطاعت الفتاة الحزينة المنهكة ، أن تتماسك ، وقالت لأختها فى توسل :

ـ سامية .. أنا لازم أخرج .. أنا عارفه انه مات .. انما ما أعرفش تربته فين علشان أزوره فيها .. ونفسى أروح أزوره فى الحتة اللى كان مواعدنى فيها ..

واطمأنت سامية الى هدوء أختها ، وجلست بجانبهـا على الارض ، والتصقت بها كأنها تحميها من نفسها ، وقالت وهى تحاول أن ترفع صوتها حتى تبدد سحب الحزن التى تتجمع فوق رأسيهما : انما مش ممكن أسيبك تخرجى لوحدك ، وانتى فى الحالة دى ..

وقالت نوال وهى تتنهد ، دون أن تلتفت اليها : تعالى معايا ..

وسكتت سامية قليلا ، ثم عادت تقول :

ـ بس حانخرج ازاى .. حانقول ايه ؟!

وقالت نوال وهى ساهمة :

ـ ما اعرفش .. أنا تعبانة يا سامية .. فكرى انتى !

وبدا على سامية كأنها تلقت مهمة خطيرة ، وقالت وقد قطبت ما بين حاجبيها : بس لو كان بابا يخرج !

ولم ترد نوال .. ظلت صامتة طويلا .. وسامية لا تزال تفكر فى حجة بها هى وأختها ..

ثم قالت نوال كأنها تحادث نفسها :

ـ أنا متهيأ لى انى مش حاقدر أعيش من غيره .. انا ماكنتش عايشة الا علشانه .. كنت باعد الايام لغاية ما يرجع بالسلامة .. كان قلبى بيقولى انه مش ممكن يجراله حاجة .. اتارى قلبى كان بيكدب على ..

وقالت سامية وقد عاد قلبها يخفق لوعة على أختها :

ـ احنا حانرجع للكلام ده تانى .. يعنى حانعمل ايه فى قسمة ربنا .. قسمتك وقسمتى ..

وقالت نوال كأنها تحلم :

ـ حاقدر أعيش بعد كده ، وحاعيش لمين ؟
وقالت سامية كأنها تحاول أن تلهى أختها : هس .. اسكتى .. متهيأ لى انى سامعة صوت دولاب بابا وهو بيفتح
وقامت سامية وخرجت من الغرفة متجهة الى غرفة أبيها ..
وكان الأب يلبس ثيابه فعلا ، وكان خارجا ليشترى بعض الكعك ، وبعض الهدايا والثياب التى سيحملها لابنه غدا ..
وانتظرته سامية الى أن خرج ، واطمأنت الى انه أغلق الباب وراءه ثم عادت مسرعة ، وقالت لأختها وقد ضاع حزنها فى لهفة المغامرة : خلاص بابا نزل .. دلوقت نقول لماما ايه ؟!
وسكتت قليلا ، وهى تضع أصبعها فوق راسها فى حركة مثيرة للضحك ثم قالت :
ـ فكرة .. نقول لها اننا رايحين لوفاء علشان نسمع أخبار ابن خالتها .. الضابط اللى وعدنا يطمنا على محيى وعبد الحميد
واقتنعت الأم بسهولة .. كان يكفى أن تعلم أن ابنتيها خارجتان بحثا عن أخبار محيى وعبد الحميد ، لتسمح لهما بالخروج .. وركبتا الاتوبيس ..
وسامية تتلفت حولها فى وجل كأن الناس يعلمون سرها .. وكأن العيون التى ترتفع اليها توجه اليها اتهاما ..
ونوال ساهمة لا ترى شيئا .. لا ترى الناس ولا الشوارع . رأسها كله مزدحم بخيال ابراهيم .. وعيناها لا تريان الا ابراهيم عندما فتحت له الباب وهو مرتد القميص والبنطلون وفى عينيه قوة مهذبة يشق بها طريقه الى قلبها .. وتراه وهو فى جلباب والدها ، الذى كان ينام به .. وتراه وهو مرتد بدلة ضابط يوم خرج من البيت .. وتراه وهو يعتلى السلم الخشبى ليختبىء فى السندرة .. تراه مبتسما .. لقد كانت ابتسامته دائما ضيقة خجولة . لم تسمعه أبدا يقهقه .. وترى عينيه وهو يحاول أن يخفيهما عنها ، الى أن واجهها بهما وفيهما اعلان لحبه وحبها .. وترى أنفه الكبير رأس السهم الموجه الى أعدائه .. وابتسمت فى مرارة وهى تتذكر انفه .. كم ليلة قضتها وهى تقيس بخيالها هذا الأنف وتبتسم له .. كيف استطاع ابراهيم أن يكون جميلا وهو بهذا الأنف الكبير .. وتمادت فى خيالها حتى تجسد أمامها .. حتى أحست بابراهيم بجانبها .. أحست بأنفاسه .. وسمعت صوت دقات قلبه .. وكادت تلمسه بيدها .. وبدأت الفتاة

الاخرى تستيقظ فى صدرها .. الفتاة المجنونة التى لا تريد أن تصدق ان ابراهيم قد مات !! ونزلت الأختان من الاتوبيس ..
وسامية تسير وهى تتلفت حولها ، كأنها تقول برأسها « لا » « لا » لتنفى الشبهات من عقول الناس .. تتأخر عن أختها خطوات ، ثم تسرع وتلحق بها .. ورأسها لا يزال يتلفت ويقول « لا » .. « لا » ..

ونوال تسير وهى لا تزال ساهمة ، غارقة فى خيالها .. وكلما اقتربت من مكان اللقاء ، أحست انها مقبلة على بيت تعرفه جيدا بيت من نور .. بيتها هى وابراهيم .. البيت الذى عاشت فيه بخيالها طويلا .. ورأت نفسها فيه وهى تودع ابراهيم كل صباح وتستقبله عندما يعود من عمله .. لقد حددت موعد عودته بالضبط .. الساعة الثانية والنصف .. ان والدها يعود فى الساعة الثانية ، ولكن ابراهيم يعمل أكثر منه ، ويتأخر عنه نصف ساعة .. وهى تقف معه ريثما يخلع ثيابه ويرتدى جلبابه .. انه لا يرتدى « بيجاما » أبدا .. انها تحبه مرتديا جلبابا .. وتصحبه الى مائدة الطعام .. لقد أعدت كل شىء بيديها .. وهى تعرف كل ما يحبه .. المصقعة .. والمكرونة المقصوصة .. ولكنه يأكل وهو سرحان .. انه ينسى أن يهنئها على مهارتها .. انه مشغول دائما بشىء فى رأسه حتى عندما يجلسان سويا فى الشرفة ساعة العصر ، ينسى أن ينهرها على قزقزة اللب .. انها تعلم انه لا يحب منها أن تقزقز اللب .. ولكنها تفعل ذلك لتثيره لتلفت نظره .. ولكنه ينسى .. انه سرحان دائما .. ودائما مشغول .. لقد احبت رجلا مشغولا .. يحمل عبء البلد كله فى رأسه ..
وسارت كأنها تسبح فى خيالها وأفاقت على صوت أختها تسألها :
ــ احنا لسه حانمشى كتير ؟!
ورفعت اليها عينين غائمتين كأنها لا تفهم معنى لسؤالها .. ولم ترد عليها ! .. وعادت سامية تسأل بعد عدة خطوات :
ــ احنا حانقابل حد هناك ؟!
وعادت ترفع الى أختها العينين الغائمتين ، وأجابت كأنها تائهة : ابراهيم ..
وسكتت سامية ، وقد خافت أن تثير فى أختها نوبة عصبية جديدة .. واقتربا من ميدان « فنى » ..
وأبطأت خطوات نوال ، كأنها تصعد سلما .. سلم البيت الذى

عاشت فيه بخيالها .. ثم وقفت بجوار جدار المستشفى !
انها تحس فعلا انها تزور ابراهيم .. تزوره فى قبره ..
وانهمرت الدموع فوق وجنتيها ، ولم تحاول أن تجففها ..
وحاولت أن تقرأ « الفاتحة » ترحما على حبها .. ولكن الآيات اختلطت فى ذهنها .. ووجدت نفسها تخلط بين « الفاتحة » و « التحيات » .. وكلما حاولت أن تبدأ من جديد ، تبخرت الآيات من ذهنها ..
انها ليست واعية .. وليست غائبة .. وهى لا تكاد تحس بموت ابراهيم حتى تحس بحياته .. ولا تكاد تتصوره فى قبره ، حتى تراه فى بيتها .. ولكنها تتألم .. كل شىء فيها يتألم .. كأن كل ما فيها يتمزق ويحترق . انها تحس بآلام فى ذراعيها .. وفى رأسها .. وفى صدرها .. وفى ساقيها .. أعصابها .. أعصابها تؤلمها .. تتمزق .. وبدأت تقاوم الالم ..
وأخرجت سامية منديلا من حقيبتها ناولته لأختها فى صمت ، لتجفف به دموعها ..
وتناولت نوال المنديل ، وهمت أن تضعه فوق عينيها ، ولكنها عادت وأبعدته ونظرت الى جندى بوليس يمر أمامها ، نظرات ارتسم فيها الرعب كأنها ترى شيئا مخيفا لم تره من قبل ..
ثم ركزت عينيها فوق البندقية التى يحملها جندى البوليس..
انها لم تر هذه البندقية من قبل ..
كانت ترى شيئا يحمله كل رجال البوليس ..وكانت تعلم ان هذا الشىء يسمى بندقية . وكانت تتصور البندقية شيئا كلعب الاطفال .. مجرد شىء يحمله رجال البوليس لتكملة مظهرهم الرسمى .. كهذه الازرار الصفراء التى تحلى صدورهم ..
ولكنها لم تر البندقية كما تراها الآن ..
لم تر هذه الفوهة السوداء ، كفم الافعى ..
ولم تر هذا الزناد ، كذيل العقرب .. ان « البندقية » ليست لعبة من لعب الاطفال ، وليست شيئا لاستكمال المظهر الرسمى..
انها أداة قتل .. هذه البندقية هى التى قتلت ابراهيم !!
لماذا يحمل رجال البوليس بنادق ؟!
ليقتلوا بها الابطال.. ليقتلوا بها الثورة .. ليقتلوا بها الحب..
وليحموا بها الانجليز والخونة والباشوات والملك وأعداء ابراهيم !
والتصقت بأختها وهى تشعر بالخوف .. خوف شديد ..

من البندقية .. ثم امسكت بذراع أختها بيد باردة .. قطعة من الثلج .. وسحبتها ، وسارت كأنها تتسلل بعيدا عن أعين رجل البوليس ، وسارت معها سامية دون مقاومة ودون اعتراض أو سؤال .. وقد اشتدت بها اللوعة واللهفة على أختها ..

واتجهتا الى محطة الاوتوبيس ، عائدتين الى البيت ..

والخوف لا يزال يستبد بنوال .. وهي تبحث فى كل خطوة تخطوها عن عسكرى بوليس يحمل بندقية وتعدهم : واحد .. اتنين .. ثلاثة .. عشرة .. انهم كثيرون .. والبنادق فى أيديهم كثيرة .. وكلها مصوبة الى صدر ابراهيم .. والى صدرها .. الى صدور كل الابطال ..

وكان خوفها يخفى تحته ثورة .. انها تتمنى من خلال خوفها ان تهجم على كل رجل بوليس ، وتخطف منه بندقيته ، حتى لا يقتل بها أحدا .. حتى لا يقتل ابراهيم مرة ثانية .. وهي تتصور نفسها فعلا تخطف البنادق .. وتتصور انها عملية سهلة .. لا تكلفها شيئا .. فقط تخطف البندقية وتجرى بها ..

وركبت الاوتوبيس ، وأطلت من النافذة . واستمرت تعد رجال البوليس وتعد البنادق التى يحملونها وتتصور نفسها تخطفها !

وعندما وصلت الى البيت ، ألقت نفسها فوق الفراش .. وعادت تبكى .. وأختها تبكى لبكائها .. وتبكى ابراهيم .. وتبكى اخاها .. وتتذكر عبد الحميد فيشتد بكاؤها ..

وعاشت العائلة ليلة ثقيلة جامدة .. كالهواء الراكد !

وافرادها يخفون حزنهم فى صدورهم ويبالغون فى تكتمه .. فليس من حقهم أن يبدو حزنهم للناس .. ليس من حقهم أن يعرضوا دموعهم على أحد ، أو يرتدوا السواد حدادا على ابراهيم ، أو يترحموا عليه علانية .. انهم لا يعرفونه أبدا ، ولم يروا وجهه . هكذا يبدون أمام الناس !

وفى الساعة الخامسة من صباح اليوم التالى خرج الأب يصلى صلاة العيد ثم عاد وأخذ يعد الاشياء التى سيحملها لابنه فى السجن ، والتى أعدها قبل ذلك عدة مرات ، واحتفظ بها تحت فراشه طول الليل ..

وتحركت الأم فى فراشها .. وقالت دون أن تقرىء زوجها تحية الصباح :

— اسمع يا زاهر .. الدور الجاى تاخدنى معاك ، يا أروح

أزوره لوحدى .. أنا خلاص ، مابقاش فيه .. ماعدتش أستحمل .. مش قادرة استنى أكتر من كده .. لازم أشوفه .. اعمل حسابك على كده .. الا اذا كنت عايز تموتنى ..

وقال الأب من خلال ابتسامة باهتة :

ــ الدور الجاى يكون فى البيت باذن الله ..

وصرخت الأم : ماتقولش كده .. انا مابقتش اصدق الكلام ده .. ما تضحكش على ..

وقال الأب فى هدوء : ياستى استبشرى .. النهارده عيد ..

ــ مش عيد ياخويا .. ابدا مش عيد .. ده عيد على ولاد الكلب اللى حابسين ابنى .. ان شاء الله يارب ينطسوا فى عنيهم ، وتاخدهم وكسة ، يارب بحق صيامى اللى صمته تحرمهم من ولادهم زى ما حرمونى من ابنى ، وتشحطط قلوبهم زى ما شحططوا قلبى .. يارب تاخدهم وتريح البلد منهم .. آه يا نارى .. بس لو كان فيه حيل .. لو كنت راجل ، ماكنتش عارفة اعمل ايه فى المجرمين دول ..

وسكت الأب .. وعادت الأم تقول بعد فترة :

ــ ماتنساش توصيه ما يقلعش فانلته .. أصله ياحبة عينى ما يطقش الفانلة فى الصيف ..

وقال الأب وهو لا يزال مشغولا باعداد الاشياء التى سيحملها دون أن يكون فيها شيء يعده : حاضر ..

وعادت الأم تقول :

ــ وتجيب منه الهدوم الوسخة ، علشان تتغسل هنا

وقال الأب : حاضر !! ..

وقالت الأم : أوعى تكون نسيت حاجه .. خدت جوز الفراخ ؟

وقال الأب فى استسلام : أيوه ! ..

وقالت الأم : ماتلفهمش لغاية ما ساميه تحمر البطاطس ..

وقال الأب : حاضر ..

وظلت الأم تلقى تعليماتها ، وصاياها وتمنياتها .. حتى خرج الأب فى الساعة التاسعة ، وقالت له نوال فى صوت باك ، وهى تودعه : قول لهم انهم حيخرجوا قريب .. أنا عارفه كده !

وقالت سامية :

ــ ماتنساش تقول لمحيى انى باعمل له بيجاما جديدة ..

ثم استطردت فى صوت خافت : ولعبد الحميد كمان !!

ولم يسمع الأب كل هذا الكلام ، انما كان يهز رأسه ويقول « حاضر » دون أن يركز انتباهه الى ما يسمعه .. وخرج مسرعا نحو السجن وهو يحمل بين يديه الاشياء التى أعدها لابنه وعبد الحميد

ولم يكن يشعر بالرهبة .. لم يعد يرهب السجن .. وفى خلال الأيام التى مرت به كان قد اكتشف كل الطرق الضيقة التى تؤدى الى الاتصال بالمسجونين .. عرف طريق رشوة الجنود . وعرف طريق وسايط ضباط البوليس .. وعرف طريق تهريب النقود والرسائل الصغيرة والاطعمة .. بل انه استطاع أن يرى ابنه لعدة دقائق عندما كان فى المستشفى .. ثم بعد أن نقل محيى من المستشفى وأعادوه الى السجن ، ظل على اتصال به بواسطة الرسائل الصغيرة التى يحملها منه واليه جنود السجن ..

ولكن كانت هذه هى المرة الاولى التى يحصل فيها على اذن رسمى بزيارة ابنه ..

وكان متفائلا بهذا الاذن .. كان يعتبره تحولا فى موقف البوليس من ابنه .. ولكن هذا التفاؤل ، لم يكن يطغى على احساسه بالحدث الهام الذى وقع باستشهاد ابراهيم .. ان هذا الحدث جعله يحس بتفاهة مضيبة ابنه .. وجعله يحس بأنه ـ هو وابنه ـ يعيشان ضمن مجموع كبير .. ضمن الأغلبية التى تصنع الثورة ، وتصنع الابطال .. وهو احساس يملأه بقوة جديدة .. كأنه الآن مع هذا المجموع الكبير ، يستطيع أن يتحدى البوليس ويتحدى الحكومة .. ويقتحم السجن ..

ووقف أمام الباب الكبير ..

وضغط الجرس المثبت فى الحائط .. ضغطه بقوة !!

وفتحت كوة الباب واطل منها الوجه الغليظ ذو الشارب المشعث كأنه مجموعة من الحشرات حطت فوق شفتين ملوثتين

وابرز التصريح بالزيارة الذى يحمله .. فمد الحارس يده من خلال الكوة وتناوله منه ، ونظر فيه مليا كأنه يقرأه .. ثم أغلق الكوة ، وغاب قليلا ، وعاد وفتح الباب الصغير ضمن الباب الكبير ودخل زاهر أفندى ..





فوجىء المسجونون فى سجن الأجانب صباح أول يوم العيد ، بأبواب الزنازين تفتح كلها مرة واحدة .. وتغيرت الأوامر ، فسمح لهم بالاختلاط بعضهم ببعض .. وقال لهم ضابط السجن ان الادارة رأت أن تخفف عنهم بمناسبة العيد .. ثم هددهم بأن أى محاولة لاثارة الشغب داخل السجن ، ستؤدى الى تطبيق الاوامر القديمة ، واعادة عزلهم ، وحبسهم حبسا انفراديا

ثم ابتسم لهم الضابط وقال كأنه ينهى خطابا بليغا :

— وكل عام وأنتم بخير !!

ورد المسجونون بهمهمات غريبة ..

ثم ابتسم كل منهم بينه وبين نفسه ..

ليس بينهم واحد يؤمن بانسانية « الادارة » وليس بينهم واحد يؤمن بأن البوليس السياسى يمكن أن يصدر أمرا بتخفيف قيود السجن ، لمجرد الاحتفال بالعيد .. ان هذه الأوامر تعنى اتجاها جديدا .. وقد تعودوا من طول ما تحملوه من عذاب السجن أن يفسروا كل أمر ، تفسيرا يتعلق بمصيرهم .. حتى ابتسامة الضابط ، أو تكشيرة المأمور ، أو تودد العسكرى .. كل كلمة ، وكل حركة .. كل ذلك له تفسير فى أذهانهم يتعلق بمصيرهم .. ما معنى أن يفتحوا أبواب الزنازين .. ويسمحوا لهم بالاختلاط بعضهم ببعض ؟! ..

معناه أن التحقيق فى قضية هرب ابراهيم حمدى قد انتهى وحفظ!

لماذا حفظ التحقيق؟! لأنهم وجدوا ابراهيم .. وجدوه شهيدا !!

وخرج كل سجين من زنزانته وهو يزحف بقدميه فى خطوات مترددة ، كأنه نسى كيف يمشى من طول ما قبع فى زنزانته الضيقة .. ثم يتلفت حوله كأنه لا يصدق انه منح عشرين مترا من الحرية ..

وأخذوا يتجمعون فى الفناء الصغير الذى يتوسط السجن ، وهم يتبادلون التحية والتهنئة بالعيد فى أصوات رزينة هادئة .. وقد ارتدوا جميعا الثياب التى ينامون بها .. بعضهم يرتدى « البيجاما » ، وبعضهم يرتدى « جلبابا » ، وبعضهم اكتفى ببنطلون البيجاما والفانلة الداخلية .. وبعضهم ينتعل «شبشبا» وبعضهم حافى القدمين .. وكانوا جميعا يكتمون فى صدورهم ثورات عنيفة .. كانت أعصابهم تالفة من شدة ما تحملوه من عذاب .. ووجوههم صفراء ممتقعة من طول ما عاشوا فى ظلام الزنازين .. وكانت ترتفع فى عينى كل منهم ، بين الحين والحين ، نظرات شزراء قاسية مليئة بالسخط يوجهها الى جندى من جنود السجن ، أو الى الضابط عندما يمر به .. كأن كلا منهم يطلق من عينيه قبضتين قاسيتين تسعيان الى عنق هذا الجندى أو هذا الضابط ليخنقاه ، انتقاما للعذاب الذى يعانيه كل سجين ، وللكرامة المجروحة التى أهينت خلف الابواب المغلقة ..

ولكنهم جميعا ـ وبلا اتفاق سابق ـ أخفوا السخط خلف ضلوعهم ، وأخفوا النظرات الشزراء خلف جفونهم .. وحاول كل منهم ان يفرح بنصيبه الضئيل من الحرية .. وأن يمتع عينيه بالشمس التى أخفوها عنه طوال هذه الاسابيع .. وان يملأ رئتيه بهواء أرحب من هواء زنزانته .. وان يحس بين زملائه بصورة مصغرة للمجتمع الذى حرم منه ..

ووقف محيى أمام باب زنزانته يرقب زملاءه ، ويضغط على قنطرة نظارته بطرف اصبعه بين الحين والحين ..

ان شيئا فيه قد تغير .. ان ملامح وجهه قد قويت ، ونظرات عينيه قد اشتدت ، لم يعد جفناه يضطربان كجناحى عصفور حبيس خلف زجاج نظارته ، وهو يبدو هادئا .. أهدأ من زملائه ، كأنه أكبر منهم .. وأعقل .. وليس فى صدره ثورة . وانما صدره مفعم بالاستسلام .. ومن خلال استسلامه يتعمق بتفكيره فيما جرى له ، وفيما يحيط به .. كأنه يطل بذهنه على عالم غريب .. عالم اكتشفه لأول مرة ..

وكان ينقل عينيه فى وجوه زملائه وفوق شفتيه ظل ابتسامة .. انه لا يعرف أحدا منهم .. ولم ير وجوههم من قبل ، الا فى لمحات خاطفة ، عندما كان يلتقى ببعضهم فى طريقه الى دورة المياه .. ورغم ذلك فهو يشعر كانه يعرفهم من زمان بعيد .. كأنه عاش معهم العمر كله ، فى بيت واحد .. عائلة واحدة يبدو كل فرد منها أمام الآخر مرتديا الجلباب أو البيجاما دون حرج !

وصاح به واحد من الزملاء :

ــ صباح الخير يا استاذ محيى .. كل سنة وانت طيب ؟!

وأجاب فى صوت سليم لا يرتعش ولا يتردد : وانت بالصحة ..

انه يعرف هذا الصوت .. انه الصوت الذى كان ينطلق من خلف الزنزانة رقم « ١١ » .. وعاد الصوت يدعوه : اتفضل .. وخطا محيى خطوتين نحو الفناء ، وهو يتلفت حوله بحثا عن عبد الحميد .. ولمحه آتيا نحوه ، فاندفع اليه .. ووقف الاثنان ينظران أحدهما الى الآخر مليا ، كأن كلا منهم يتعرف على الآخر من جديد .. ثم شد كل منهما على يد الآخر ، وهما يبتسمان فى تكلف ثم لم يتمالكا نفسيهما فاندفع كل منهما فى أحضان الآخر يضمه الى قلبه ، وقال عبد الحميد وهو يربت على ظهر ابن عمه :

ــ كل سنة وانت طيب يا ابن عمى !

وقال محيى فى حرارة : وانت بالصحة يا عبد الحميد ..

وقال عبد الحميد وهو يبعد محيى من بين ذراعيه : باين فرجت ؟!

وقال محيى : على الله ..

ولمعت نظرات الذكاء الحاد فى عينى عبد الحميد ، ومال على اذن محيى هامسا : أوعى تقول حاجه المسأله لسه ما انتهتش !

وابتسم محيى ابتسامة صغيرة كأنه يستخف بذكاء ابن عمه وقال : ماتخافش ..

ثم سارا جنبا الى جنب نحو زملائهما .. ومحيى لا يزال يشعر بشعوره القديم الذى كان يشعر به كلما سار بجانب عبد الحميد .. شعوره بأن له سندا قويا .. بأنه ليس وحده .. شعوره بأنه يستطيع أن يكون هو وابن عمه على الغريب .. ورغم ذلك فقد قضى محيى ليالى كثيرة يتعذب بعبد الحميد .. فى المستشفى وفى السجن .. ليالى قضاها يسائل نفسه : هل صحيح ان عبد الحميد هو الذى ابلغ البوليس ؟ هل صحيح ما قاله اليوزباشى الدباغ ؟ وكان هذا التساؤل يقرع رأسه كالمطارق

الثقيلة .. يحاول أن يتخلص منه فلا يستطيع ، ويحاول أن يقنع نفسه ببراءة عبد الحميد فيتذكر المفكرة الصغيرة التى عرضها عليه اليوزباشى الدباغ .. مفكرة عبد الحميد التى سجل فيها بخط يده نمرة تليفون همام بك ، والنائب العام .. وبعد أيام وليال كثيرة استطاع أن يخرس هذا التساؤل .. أن يخفيه فى عقله الباطن .. ان عبد الحميد سجن مثله ، وتعذب مثله ، ولم يعترف .. الا يكفيه هذا .. حتى لو كان عبد الحميد قد حاول أن يبلغ البوليس ، فيكفيه أنه عدل عن محاولته ..

ولكن عقله الباطن لا يزال يلفظ نفس التساؤل الى عقله الواعى بين الحين والحين .. فيقلقه ، وتعود المطارق الى رأسه ..

ورفع عينيه الى وجه عبد الحميد كأنه يحاول أن يكتشف الحقيقة .. ولكنه لم يكتشف شيئا ، كل ما اكتشفه ان عبد الحميد يبدو مهموما .. ترى لماذا يبدو مهموما ؟

وانضما الى زملائهما .. ورحب بهما زملاؤهما كبطلين .. تحملا العذاب .. ولم يعترفا ، ثم انخرطوا جميعا فى حديث واحد

وكانوا يتحدثون عن ابراهيم ..

وكانت الاخبار كلها قد وصلتهم .. والخطابات الصغيرة المهربة حملت اليهم كل التفاصيل التى لم تنشرها الصحف .. انهم يعلمون أن ابراهيم هاجم معسكر العباسية .. ويعلمون مدى الخسائر التى أوقعها بالانجليز .. ثلاثة قتلوا .. وخمسة عشر جرحوا .. وانفجرت دبابتان ، وأربع سيارات لورى .. وقد طارد الانجليز ابراهيم داخل المعسكر .. طاردوه بالرصاص .. والكلاب المدربة .. واصابوه برصاصة فى كتفه . ورغم ذلك استطاع أن يخرج حيا .. ثم سقط شهيدا ، صريعا برصاصة ضابط بوليس مصرى .. وهم يعلمون ان الانجليز ثائرون ، وانهم قد يطلبون اسقاط الحكومة .. ويعلمون ان البوليس قد سلم الجسد الطاهر .. جسد ابراهيم .. الى أهله وأجبرهم على أن يدفنوه ليلا .. وبلا جنازة ، وبلا احتفال .. ثم انطلق رجال البوليس كالكلاب المسعورة تفتش بيوت الطلبة والعمال ، ويقبضون عليهم .. ويضعونهم فى معتقل أقيم فى ضاحية الزيتون، رهن التحقيق .. ولا تزال حملة الاعتقالات مستمرة ..

وكان أكثر من واحد يشترك فى رواية قصة ابراهيم .. ولم تكن فى نبرات أصواتهم رنة حزن يائس ، بل كان كل منهم يتكلم

كأنه يعيش فى القصة .. كأنه هو البطل .. وفى نبراته رنين أحلام ثائرة تدفعه لأن يبالغ قليلا فى سرد التفاصيل ، ويضيف عليها من خياله صورا جديدة من صور البطولة ..

والذين لم يتكلموا كانوا يستمعون بعيون متسعة ، وأنفاس مبهورة ، كأنهم يشاهدون فيلما سينمائيا مثيرا .. ثم يتعدون بخيالهم ما يسمعون فيتصور كل منهم نفسه داخل معسكر الانجليز يلقى بالقنابل وأصابع الجلجنايت ..

وكان محيى يستمع كأنهم يتحدثون عنه .. ان القصة تبدأ به .. انه اشترك فيها فعلا .. لولاه لما استطاع ابراهيم أن يدخل معسكر الانجليز ويثير فيه الرعب .. وكان وهو يستمع يحس ببطولة ابراهيم أكثر مما يحس باستشهاده .. كان يحس به فى خياله بطلا حيا أكثر مما يحس به شهيدا مقتولا .. وكان يحس بالثورة ، أكثر مما يحس بالحزن .. كأن ابراهيم لم يمت .. ولن يموت .. انه يعيش دائما فى صدره ..

وقال واحد من الزملاء كأنه يحلم :

ـ الواحد نفسه يشتغل شغلانة زى دى ..

وقال ثان وهو يضع يده فى فتحة جلبابه :

ـ الحكاية لازم تكبر يا جماعة .. البلد لازم تعمل حاجة !!

وقال آخر وهو ينبش الارض بأصابع قدمه :

ـ أنا بلغنى ان الجامعة حتضرب بعد أجازة العيد .. وحايخرجوا فى جنازة صامتة ..

وقال ثالث ، وقد التمعت فى عينيه نظرات ثائرة :

ـ واحنا كمان لازم نعمل حاجة.. متهيأ لى نقوم نكسر السجن وننزل ضرب فى العساكر ..

وقال رابع : حقنا نضرب عن الطعام النهارده !

واطل آخر برأسه .. شاب أسمر .. عيناه واسعتان ، وأنفه ضخم كأنه رأس سهم موجه الى أعدائه .. وشفتاه رقيقتان فوق ذقن عريض قوى .. وقال فى صوت هادىء بطىء كأنه لم يتعود الكلام الكثير :

ـ المهم نخرج من هنا .. علشان نعرف نشتغل بره !

ووقعت هذه الكلمة فى أذن كل منهم كأنها ايحاء بتغيير اتجاهه . واقتنعوا فعلا بأن مشكلتهم الاولى هى أن يخرجوا من هنا .. أن يخرجوا من السجن، ليهبوا حريتهم مرة ثانية للثورة التى يؤمنون بها

ولكي يعجلوا بخروجهم من السجن يجب ان ينتهزوا فرصة التخفيف عنهم ويمالئوا البوليس .. ويحتفظوا بهدوئهم ويتنكروا فى ثوب المظلومين الضعفاء ..

ونظر محيى الى زميله ذى الأنف الكبير ، وأحس أنه يرى أمامه ابراهيم .. انه يتكلم على طريقته .. ويصرح بآرائه فى نفس أسلوبه .. الأسلوب الذى لا يحمل لهجة الأمر ، ولا سلطة الزعامة .. أحس أنه امام بطل جديد يتم رسالة بطل شهيد !!

وعاد الزملاء يتحدثون من جديد بعد أن نبذوا فكرة الثورة داخل السجن .. وكان كل منهم يروى ذكرياته الوطنية .. وذكريات المظاهرات التى اشترك فيها .. السجون التى دخلها .. وذكريات المرات التى حقق معه فيها .. وكانوا يروون هذه الذكريات وهم يضحكون .. كأنها نكات سمعوا بها .. وليست عذابا عاشوا فيه ..

ومحيى واقف صامت .. انه أيضا يريد أن يروى ذكرياته . يريد أن يقول لهم ان ابراهيم اختبأ فى بيته .. ثم يضحك عندما يقص عليهم كيف اختبأ ابراهيم مرة فى السندرة بين بلاليص العسل وصفائح السمن .. ثم كيف ذهبت أخته لتتفق على خطة هربه مع فتحى المليجى .. يريد أن يثبت لهم انه هو الآخر مثلهم .. لا يقل عنهم بطولة .. ولكنه لايتكلم .. ان حرصه يلجم لسانه .. انه لن يتكلم أبدا .. لقد قرر أن يحبس ذكرياته فى صدره .. والى الأبد ..

ورفع عينيه الى عبد الحميد .. ربما كان هو الآخر يريد أن يتكلم .. يريد أن يلقى بنصيبه فى سوق الذكريات .. ولكن عبد الحميد كان صامتا ، منكس العينين .. يبدو مهموما !..

وتعب أحد الزملاء من وقفته ، فدخل الى زنزانته ، وشد البطانية من فوق سريره ، وعاد بها وفرشها على الارض وجلس فوقها مسندا ظهره الى الحائط .. ولحق به زميل آخر، جلس بجانبه ثم انطلق يغنى بصوت حالم ولحن حزين.. أغنية حب.. حب محروم :

أول ميعاد لى خلفتيه .. تانى ميعاد برضه خلفتيه ..
تالت ميعاد شوفى رأيك فيه .. راح تخلفيه ، ولا حتوفيه ..
يا حمام .. روح قوام لحبيبى ..
يا حمام .. ده البعاد زود نحيبى ..

ورفع عبد الحميد عينيه ، وتلقى النغم الحزين بأذنيـــه ..
وأحس بقلبه يخفق، ويطير.. يطير الى سامية حتى يصل اليها ..

ودهش يحيى وهو يلتقط كلمات الاغنية .. انها أغنيـــة لم يسمعها من قبل .. كأنه دخل الى عالم كل شيء فيه جديد عليه حتى أغانيه ..

وتسلل بقية الزملاء نحو الصوت الحزين .. ثم جاء احدهم ببطانيته وفرشها بجانب البطانية الاولى .. وبطانية ثالثة .. ورابعة .. وجلس كل المسجونين على الارض ، وبدأوا يغنون معا .. ثم ما لبث أن انقلب اللحن الحزين الى لحن راقص ، اختلطت فيه أصوات غليظة ، وأصوات مبحوحة وأصوات رفيعة .. والايدى كلها تصفق صفقات منتظمة .. وقهقهات عالية .. ونكات تقاطع الاغنية .. وواحد يرقص بكتفيه .. ثم قام زميل ووقف فى وسط الحلقة ، وأشار الى زملائه بالسكوت ، ثم قال فى لهجة مذيعى محطة الاذاعة :

ــ هنا سجن الاجانب .. افحص .. سيداتى (ونظر الى جنود السجن المتفرجين بجانب الزنازين ، وضج الزملاء بالضحك ثم استطرد وهو يلتفت الى زملائه) وسادتى .. نبدأ برنامج العيد المبارك بأغنية ياللى زرعتو البدنجان .. ويلقيها الزميـــل على محمود .. واحب أن أقول لكم ان الزميل ولو انه من أعيان سجن الاجانب الا أنه ليس أجنبيا .. كما انه تواضعا منه يقبل أى سيجارة تقدم له على سبيل ابداء الاعجاب ..

وبدأ الزميل يغنى أغنية فكهة .. والضحكات تتعالى ..

وصرخ جندى من بعيد: بس ياافندى انت وهوه ممنوع الزيطه

ونظروا اليه بعيون ثائرة ، وردوا على صراخه بصراخ أعلى :

ــ ايه .. عايز ايه ؟

وأدار الجندى رأسه ، كأنه يهرب من عيونهم .. وسكت ..

وصاح زميل منهم :

ــ ما تزعلش يا شاويش .. ان شالله تترقى وتبقى مسجون !

وضج الزملاء بالضحك ..

ثم قام المذيع وأعلن عن مسابقة فى النكت ، وبدأ كل واحد منهم يروى نكتة .. وعقب كل نكتة ترتفع ضحكات صاخبة ، كأنها صراخ المظلومين .. وضحك يحيى .. ضحك كما لم يضحك أبدا طول عمره .. انه عالم غريب .. عالم يضحك فيه النـــاس

من العذاب . وضحك عبد الحميد .. وكانت ضحكاته ابتسامات خافتة تتسلل من بين همومه .. ثم اشـــتدت حتى أصبحت ضحكات أقوى من همومه .. وأحس انه بين أصدقاء يحبهم .. وكأنه جالس معهم فى المقهى الذى تعودوا أن يجتمعوا فيه .. وبدأت شخصيته تتجمع لتبدو على طبيعتهـــا .. وبدأ يستعد ليروى هو الآخر نكتة يساهم بها فى المسابقة .. انه يحفظ نكتا كثيرة .. أكثر مما يعرفه كل أصدقائه مجتمعين .. سيثبت لهم خفة دمه ، وذكاءه .. ولكنه تردد فى اختيار النكتة التى يبـدأ بروايتها .. وقرر ألا تكون نكتة خارجة .. ســـيروى لهم نكتة بيضاء ، ثم يتدرج حتى يصل الى النكت الخارجة ..

وتنحنح .. والتفت اليه الزملاء وبين شفاههم ضحكات معلقة تهم بالانطلاق .. ونظر اليه محيى فى اعجاب ، ثم أدار عينيه فى وجوه زملائه كأنه يقول لهم : هذا ابن عمى ..

وقال عبد الحميد :

ــ مر واحد مجنون شاف مجنون تانى بيغسل قطة .. و ..

وارتفع صوت من بين الزملاء : نو .. نو .. نو ..

وظهرت علامات الامتعاض على وجه عبد الحميد ، كأنه أيقن أن هؤلاء الجماعة ليسوا من محترفى الاستماع للنكت ورواتها ، ولكنهم من الهواة .. من طلبة المدارس لا من زبائن المقاهى .. ثم أكمل النكتة وقد فقد بعض حماسته :

ــ المجنون قال لزميله : « ما تغسلش القطة أحسن تموت » رد عليه زميله وقال له : « مالكش دعوه » .. سابه المجنون ورجع بعد شوية لقى زميله بيعيط والقطة ميتة بين ايديه ..

وارتفع صوت من بين المجموع :

ــ لا حول الله .. أما دى حكاية ..

وارتفع صوت آخر : أنا دمى « فار » ! ..

وقال صوت ثالث : أمك ..

فرد الجميع : اشمعنى ..

وقال الصوت : بتخربش !! ..

وتحامل عبدالحميد على نفسه وقال كأنه يحاول أن ينقذ مركزه

ــ لما الدبانة تخبط على باب بيتكم تطل الست والدتك وتقول

ورد الجميع : اشمعنى ..

وقال عبد الحميد مقلدا مواء القطط باللهجة الانجليزية :

ـ نو .. نو .. نو ..
وضج الجميع بالضحك .. ورفع محيى رأسه ونظر الى زملائه متباهيا بابن عمه .. وارتفع صوت يقول لعبد الحميد :
ـ أيوه كده انفرد .. قول لنا بأه حكاية المرحومة ! !
وعاد عبد الحميد يقول مبتسما :
ـ لما المجنون شاف القطة ميته قال لزميله : « أنا مش قلت لك ما تغسلهاش احسن تموت » ، رد عليه : « ما هى ما متتش من الفسيل » ، سأله : « أمال ماتت من ايه ؟ » ، قال له : « وانا باعصرها » ! !
وضج الجميع بالضحك ..
وزها عبد الحميد بنكتته ، ولكنهم ما لبثوا أن صاحوا فيه :
ـ قديمة ، قديمة ، انت لسه فى سنة أولى روضة يا أستاذ !
وفجأة برز الباشسجان منتصبا بقامته الطويلة العريضة ، وصاح فى صوت جهورى ، وهو واقف بعيدا عند مدخل الفناء الصغير : محيى الدين مصطفى زاهر ..
وسكت الجميع مرة واحدة كأن سكينا أشهرت فوق اعناقهم
والتفت محيى نحو الباشسجان وفى عينيه نظرات تتساءل فى اضطراب .. وعاد الباشسجان يصيح وهو لا يتحرك من وقفته :
ـ عندك زيارة ..
واستراح المسجونون ، وعلت شفاههم ابتسامات .. ولكنها كانت ابتسامات حزينة .. تحمل حسرة وتشاؤما .. ان « الزيارة » لها عندهم معنى ، غير المعنى الذى توحى به .. فما دام البوليس قد بدأ يسمح للأهالى بزيارة المعتقلين ، فمعنى هذا ان مدة الاعتقال ستطول .. ستطول الى شهور طويلة ، الى حد أن يضطر البوليس الى أن يتعب نفسه وينظم زيارات داخل السجن
ولم يكن محيى يعلم هذا المعنى الذى يدور فى أذهان زملائه .. ولكنه قام من مجلسه وهو متضايق ، يشعر بالخجل من زملائه .. لقد كان يعلم ان والده يحاول أن يحصل على اذن بزيارته منذ مدة .. وكان فى انتظار هذه الزيارة بين يوم وآخر ، ولكنه اليوم لايريدها ، انها تميزه عن زملائه .. وهو لايريد أن يميز عنهم بشىء .. لايريد أن يبدو بينهم كطفل صغير يدلله والده ، ويحاول أن يخفف عنه بزيارته ..
وسار بخطوات بطيئة نحو القسم الخارجى من السجن ..

وزملاؤه يتعقبونه بنظرات اختلط فيها الرثاء بالحسد .. وسار عبد الحميد معه حتى الحاجز المقام من أسياخ الحديد ، الذى يفصل القسم الخارجى والقسم الداخلى للسجن وهو يهمس فى أذنه : سلم على عمى .. وخليه يطمن ماما وبابا على .. وخليهم يبعتو لى فلوس .. وحد يروح يقابل مدير الشركة .. ويفهمه الحكاية قبل مايرفدونى .. وخليه يسلم على عمتى ، وعلى نوال .. وعلى سامية ..

وتركه عند الحاجز الحديدى ..

وخطا محيى خلف الحاجز ، وسار وبجانبه الباشسجان ، حتى دخلا مكتب معـاون السجن .. ووجد والده جالسا هناك على أريكة .. كأنه يراه جالســا فى غرفة « القعـاد » على الاريكة « الاستامبوللى » ، مرتديا جلبابه ..

وقام الوالد واقفا عندما رأى ابنه ..

انها المرة الاولى التى يقف فيها له .. وكأنه ـ بلا تعمد ـ قد اعتبر أن ابنه قد أصبح رجلا .. بطلا .. يستحق الاحترام ..

وانحنى محيى يقبل يد والده .. ثم وقف كل منهما يشد على يد الآخر ، ويبحث عن نفسه فى عينى الآخر ..

ولم يرتم محيى فى أحضان والده ، ولم يقبله فى وجنتيه .. بل تعمد أن يحتفظ بمسافة تبعده عن والده ، حتى لا يحاول والده أن يأخذه فى أحضانه .. ولو حدث هذا لأحس محيى بمزيد من الخجـل والحرج أمام الكونستـابل الجالس خلف المكتب فى الحجرة ، وأمام الجنود الذين يدخلون ويخرجون .. كان أكثر ما يخشاه أن يبدو أمام هؤلاء ولدا صغيرا يدلله أبوه ، وليس رجلا يستحق السجن !

وربما قدر أبوه فيه هذا الشعور ، فلم يحاول أن يحتضنه أو يقبله .. وجلسـا بجانب بعضهما على الأريكة ، والـكونستابل ينصت الى كل كلمة يقولانها .. ولم يقولا شيئا ..

لقد اكتشفا بعد برهة قصيرة أن ليس لدى أى منهما شىء هام يقوله للآخر .. انما تبادلا عشرات الأسئلة والأجوبة ، كلها تدور حول موضوع واحد .. بدأها محيى وهو يسأل فى لهفة يحاول أن يخفيها : ازاى ماما وازاى صحتها .. وازاى سامية ونوال..

والأب يجيب ، ويعود يســأل بدوره عن صحة ابنــه .. وعبد الحميد .. وكيف يعيشان ؟.. وماذا يأكلان ؟ ..

ثم توقف بينهما السؤال والجواب برهة .. كأن كلا منهما قد شبع من الآخر .. وكأن كلا منهما يريد أن يعود من حيث جاء ..
وقال الأب وهو يتعمد أن يرفع صوته، حتى يسمعه العسكرى :
ـ يا ابنى اذا كان عندك حاجة قولها .. اليوزباشى الدباغ بك راجل عايز يخدمنا .. لازم تسمع كلامه ! ..
ونظر الى ابنـــه نظرة ذات معنى ، كأنه يكشف له عن خطة خطيرة ترمى الى تضليل البوليس ..
وقال محيى : وانا لو كان عندى حاجه ما كنت قلتهـا من زمان .. انما انت عارف يابابا .. أنا عمرى ما كانله دعوه بحاجه !
وابتسم الأب .. وابتسم الابن ..
ان الاثنين يشعران بتقارب بينهما لم يشعرا به من قبل .. انهما يشعران كأنهما صديقان .. رجلان .. لم يعد الأب ينظر الى الابن كطفل فى حاجة الى حمايته ، انما ينظر اليه كصديق .. كرجل بجانبه يحمل معه مسئولية العائلة ويتحمل عنها العذاب
وهمس محيى بسرعة : يظهر انهم حفظوا التحقيق .. فتحوا الزنازين وسمحوا لنا نقعد مع بعض ..
واتسعت ابتســـامة الأب .. ولكن ابتسامته اختفت سريعا عندما تذكر ان الفضل فى حفـــظ التحقيق يرجع الى استشهاد ابراهيم .. ولكنه لم ينطق باسم ابراهيم ، ولم يتبـــادل ذكره مع ابنه .. وانتهت الزيارة ..
وعاد محيى الى داخل السجن يحمل الهدايا والثياب التى جاء بها والده .. ورأى زملاءه وقد انفضت حفلتهم الصـــغيرة .. وبعضهم لايزال جالسا على الارض فوق البطاطين المفروشة .. وبعضهم قام يتجول فى الفناء الصغير .. وبعضهم يغتسل ، أو يتناول طعام افطاره ..
وأسرع محيى ووضع كل ما حمله له والده من مأكولات فى وسط زملائه الجالسين على الارض .. كأنه يريد أن يتخلص من شىء يثير حوله اتهاما ، وصاح زملاؤه مهللين ونادوا على المتفرقين :
ـ قربوا يا جماعة .. الكحك وصل ! !
وفى دقائق كان كل شىء قد اختفى من على الارض ، وانتقل الى الايدى والافواه ..
والجنود ينظرون بعيون جشعة .. وشفاه يسيل فوقها اللعاب وكان محيى قد ترك زملاءه ودخل الى زنزانته واخذ يبدل ثيابه

الداخلية ، وبيجامته ، وعبد الحميد خلفه يسأله الأخبار ، وهو يجيبه فى عجلة .. ثم جمع ثيابه التى بدلها ، وبقية ثيابه التى لا يحتاج اليها .. وعاد بها الى الحاجز الحديدى ، وناولها من وراء القضبان لأحد الجنود ليسلمها لوالده حتى يحملها الى البيت لتغسل هناك .. تحقيقا لوصية والدته ..

وعندما عاد الى زملائه لم يجد شيئا قد بقى ليأكله ..

ووقف مبتسما .. لم يغضب .. ولم يأسف .. بل أحس انه تخلص من عبء كبير .. وانه استرد مكانته بين زملائه ..

وقال له واحد منهم ضاحكا ، وهو يناوله نصف كحكة :

ــ خد ما تزعلش ! !

واخذ نصف الكحكة قائلا : كل سنة وانت طيب ..

واحس انها احلى قطعة كحك أكلها فى حياته ..

وفجأة ارتفع صوت صراخ من جانب السجن : ابعد عنى يا عسكرى ، مالكش دعوه بيه ، أنا با اقول لك أهوه !

ورد العسكرى فى صوت أجش :

ــ يا افندى ممنوع .. اسمع الكلام بالراحة !

وعاد الصوت يصرخ : ابعد يا عسكرى .. غور من وشى !!..

وصاح العسكرى : ما تزعقش .. خليك فى ادبك !! ..

وصرخ الصوت : أدبى يا قليل الادب .. ابعد ايدك عنى ..

وتجمع المسجونون حول زميلهم .. وتجمع حولهم جنود السجن .. وبدأت الاصوات تغضب .. ثم أصبحت الاصوات صراخا .. وارتفع صوت الباشسجان من عند الباب :

ــ بس يا مسجون انت وهوه .. كل واحد يدخل زنزانته .. كله يدخل الزنازين .. شده ياعسكرى دخله الزنزانة ..

وتنبه المسجونون ..

انهم سيعودون الى الزنازين .. ستقفل فى وجوههم الابواب..

سيعودون الى العذاب الذى عاشوا فيه أسابيع ..

وتوترت الأعصاب .. لن ندخل الزنازين .. سندافع عن حريتنا .. سنتحدى هؤلاء المجرمين ..

ومد عسكرى يده يحاول أن يجذب سجينا الى زنزانته ، فعالجه السجين بلكمة فى بطنه ، ولكمة أخرى فى وجهه .. وصرخ العسكرى .. واشتبك كل المساجين مع كل العساكر .. ومحيى واقف عند باب زنزانته يرتجف .. وعبد الحميد فى وسط

المعركة ، وقد تمزقت ثيابه .. وهو أعنفهم ، واشدهم ثورة .. وسجين سقط على الارض ومن فوقه جندى يضرب رأسه بكعب حذائه ، وسجين لصق جنديا فى الحائط ، وضربه برأسه فوق انفه فأسال منه الدم .. وسجين يجرى هناك .. وجندى يجرى فى الناحية الاخرى ..

ودخل الضابط الى فناء السجن ، وخلفه جنود .. جنود كثيرون .. بعضهم يحمل البنادق .. وصاح الضابط : اقلع القايش يا عسكرى انت وهوه ، اضرب .. اضرب على طول !

وخلع كل جندى الحزام الجلدى الذى يتمنطق به حول وسطه وهجموا على المساجين .. وضربوا .. لا يهمهم أين تقع الضربة.. وارتفع الصراخ .. ان الأحزمة الجلدية تشق الوجوه .. وتذبح الظهور .. والدم .. دم كثير .. واستطاع سجين أن يخطف الحزام الجلدى من يد جندى .. وبدأ يضرب به .. وعاجله جندى آخر بضربة بمؤخرة بندقيتـــه فوق عظمـــة كتفه .. فسقط على الارض يتلوى من الألم ..

ان المســـاجين يفرون الى الزنازين ، ويغلقون أبوابها خلفهم بأيديهم .. وهم يصرخون .. ويتأوهون .. وبعضهم سقط على الارض قبل أن يصل الى الزنزانة ، فشده الجنود من شعر راسه والقوا به فى الزنزانة وأغلقوا الباب وراءه .. ويحيى فى زنزانته يرتجف .. وعبد الحميد لايزال يقاوم .. انه أعنفهم .. انه يجرى فى الفناء الصغير والجنود يجرون خلفه .. ثم يحاصرونه ويضربونه .. انهم كثيرون .. كثيرون جدا .. لم يعد يراهم .. ان دماءه تغطى عينيه .. لم يعد يستطيع أن يقف على قدميه .. سقط .. وشده الجنود ، يجرجرونه على الارض ، والقوا به فى الزنزانة .. وأغلقوا الباب .. الأبواب كلها عادت مغلقة ..

وخلف الأبواب المغلقة ، تأوهات من ألم ..

وصوت خافت يصيح : يا مجرمين .. ياولاد الكلب ..

ونظر الضابط حوله .. لقد أغلقت كل الأبواب ..

وعاد الى مكتبه ..

ومرت الأيام والأسابيع داخل السجن ..

وكل يوم يحمل كثيرا من الضحك ، وكثيرا من العذاب ..

والزنازين لا تكاد تفتح مكافأة للمساجين على هدوئهم ، حتى تعود وتغلق عقابا لهم ..

وكل سجين يفتح عينيـــه كل صباح على أمل الافراج عنه ، ويغلقهما كل مساء على يأس مرير ..

وعبد الحميد يعانى أزمة نفسية عنيفة ، يحاول أن يتخلص منها بالضحك مع زملائه حينا ، وباثارة الشغب داخل السجن حينا ، ولكن الأزمة النفسية ترتد دائما الى صدره ..

وكان خلال هذه الأزمة يبحث عن أسباب فشله ..

لقد قضى فى زنزانته ليالى كثيرة مظلمة يحاول عبثا أن ينكر انه انسان فاشل .. ولكنه أخيرا اعترف ..

اعترف لنفسه بأنه انسان فاشل ..

وبقى أن يبحث عن اسباب فشله .. لماذا فشل ؟! ..

وخلال الأيام والليالى الطويلة التى قضاها وليس معه الا نفسه يحادثها ويحاورها بدأت تتضح له خيوط النور .. النور الذى حرم نفسه منه طول حياته ..

انه فشل ، لأنه لم يكن له ايمان ..

لم يؤمن بشىء أبدا طول حياته ..

لم يؤمن بالدين ، ولم يؤمن بالتقاليد .. ولم يؤمن بمبادىء الأخلاق ، ولم يؤمن بمذهب من المذاهب ولا بزعيم من الزعماء ولم يؤمن بالشهادات الدراسية ، ولم يؤمن بالمجتمع ، ولا بعائلته ، ولا بأبيه وعمه .. لم يؤمن أبدا الا بنفسه .. وبذكائه .. ذكاء يدور فى فراغ ، لا تحده حدود من المبادىء ، ولا يرمى الى هدف معين .. ذكاء يدور كالآلة المنطلقة التى لا تنتج شيئا ، وليس بجانبها عامل يحكمها .. فتنتهى الآلة بأن تحطم نفســـها .. تنفجر .. وتحطم أيضا ما حولها ..

لو كان يؤمن بشىء ، لكان سعيدا ، مهما صادف من عذاب فى سبيل ايمانه .. ولما شقى بهذا الاحساس بالفشل .. هــذا الاحساس الذى يجعله يحتقر نفسه ..

ان عمه سعيد ، رغم انه ليس غنيا .. وسر سعادته انه يؤمن بمجموعة مبادىء حددها له الدين والمجتمع ، ورسم على ضوئها أسلوبا معينا فى الحياة يستريح له ، ويجد شخصيته به ..

وابوه .. سعيد أيضا ..

وهؤلاء الشبان الذين يزاملونه فى السجن ، انهم سعداء .. انهم لا يحسون مثله بالفشل .. وهم يتحملون السجن والعذاب بروح مخالفة لروحه .. روح اقوى وأشد اصرارا .. لأن كلا

منهم يعلم انه يتعذب فى سبيل مبدأ ومن أجل هدف .. وهـذا الايمان فى حد ذاته يخفف من وقع العذاب عليهم ..
وابراهيم .. انه ليس فاشلا ، رغم انه مات .. انه بطل .. لماذا اعتبر بطلا .. لأنه مات فى سبيل مبدأ ، فى سبيل هدف .. ولابد انه سعيد بميتته حتىانه ابتسمعندما وقع علىالارض صريعا
ودون أن يشعر عبد الحميد ، بدأ يتجه بنفسه نحو الايمان .. انه يصلى داخل السجن بحرارة .. وهو يتبع أسلوبا خلقيـا جديدا فى معاملة زملائه .. وهو يشعر بحقد كبير على رجـال البوليس .. لماذا ؟ لأنهم يعذبونه .. ويعذبون آلاف الشبـان أمثاله .. لماذا يعذبونه ؟.. لأنهم فى خدمة الانجليز.. والحكومات كلها فى خدمة الانجليز .. وبدأ يكره الانجليز .. يكرههم كالعمى انه يريدهم أن يخرجوا من مصر ..
وبدافع تلقائى ، بدأ عبد الحميد يفكر فى نيل الشهادة التوجيهية ان الوقت لم يفت بعد .. سينال شهادة ، ما دام المجتمع يتخذ الشهادات مقياسا للاحترام .. وبدأ يسأل عن العلوم التى تدرس لطلبة التوجيهيـة .. وبدأ يهرب الكتب الى داخل السجن ، ويذاكر فى الخفاء .. كأنه يخجل من أن يكتشف زملاؤه انه آمن أخيرا بالشهادات .. ولكنه سينالها .. سينال الشـهادة .. وسينال معها سامية .. ربما كان هـذا هو الطريق الوحيـد للوصول الى سامية ..
ومحيى فى زنزانته يفكر تفكيرا آخر ..
انه ليس نادما على عدم تقدمه الى الامتحان .. وعلى ضياع عام دراسى من عمره .. لقد تعلم فى هذه الشهور أكثر مما تعلمه طول حيـاته ، وأكثر مما استطاعت كل كتب ومحاضرات كلية الحقوق أن تضعه فى رأسه .. وهو يريد أن يتعمق فيما تعلمه من هذه الشهور .. يريد أن يتعلم أكثر .. تعليما حرا لا تحده البرامج التى تضعها له الجامعة .. يريد أن يتعلم الحياة نفسها
وكان يتتبع الأخبار التى تتسرب الى داخل السجن بشغف كبير .. لقد أضرب طلبة الجامعة ، وساروا فى مظاهرات ضخمة تنادى بسقوط الوزارة .. وسقوط المعاهدة .. والانتقام لابراهيم حمدى .. واستشهد طالب .. اثنان .. ثلاثة .. والقيت قنابل على المعهد البريطانى فى الاسكندرية .. وقتل جنديان انجليزيان .. وقتل خائن مصرى آخر .. وتكون اتحاد العمال والطلبة ..

ان كل الاخبار تصل الى داخل السجن بالتفصيل .. بل وصل اليهم نشيد وضعه طالب صغير فى مدرسة ثانوية اسمه صلاح جاهين يقول فيه :

ايام حا تيجى بعد ليام دى ..

والشمس من دم ابراهيم حمدى ..

ايام حاتيجى ويبقى عمر جديد ..

والشمس حمرا بدم كل شهيد ..

وردد محيى هذا النشيد ، فى سره ، وهو يسائل نفسه : لماذا ؟

انه يكرر دائما : لماذا ؟

لماذا يقبل الطلبة على الاستشهاد ؟ لماذا يلقون انفسهم فى السجون ؟ لماذا يتحملون كل هذا العذاب .. لماذا يضعون هذه الأناشيد .. لا يمكن أن يكونوا كلهم مجانين .. ولا يمكن أن يكونوا كلهم « بايظين » لا بد أن هناك سببا يدفعهم ، أقوى من حياتهم ، سببا لم يعلمه فى بيته ووالده يحاصر أفكاره وتحركاته

وما هى الوطنية ؟.. وما هو الاستعمار ؟.. وما هو الجلاء ؟ وما هى الخيانة ؟ .. وما هو الشعب ؟! أسئلة تحيره ، ويحس وهو يتعمق فيها كأنه يغوص فى بحر لا قرار له ..

ووقع فى يده كتاب عبد الرحمن الرافعى عن التاريخ المصرى وجده مع أحد زملائه .. وقرأه بشغف كبير ووجد فيه بعض الضوء ، فقرأ كل الكتب التى أصدرها عبد الرحمن الرافعى ثم قرأ عشرات الكتب .. كلها تتعلق بموضوع واحد .. كتب تاريخية ، وكتب سياسية ، وكتب مذاهب .. وقرأ القرآن ، كما لم يقرأه من قبل .. وقرأ بعده كتاب « رأس المال » لكارل ماركس .. وبدأ يفهم ..

بدأ يضع معانى لهذه الكلمات الضخمة ، والشعارات المثيرة التى سمعها كثيرا .. بدأ يفهم لماذا استشهد ابراهيم ، ولماذا يثور زملاؤه .. وأحس بنفسه عنيفا ، متطرفا فى عنفه ..

لم يكن عنفا جسديا فهو يكره العنف الجسدى .. وطول مدة حياته فى السجن لم يشترك فى معركة واحدة أثارها زملاؤه ، ولم يعرض نفسه للاحتكاك بالجنود .. وعرف فى السجن بهدوئه

وانزوائه .. واتزانه .. ولكن العنف كان فى راسه .. لقد أصبح يحمل فيها آراء جديدة صائبة تصل الى الهدف مباشرة ، وتثير أمة بأكملها .. وفى ذات صباح ..

صباح كان فيه أكثر يأسا من أى صباح آخر ، سمع صوت الباشسجان يصيح من طرف الفناء الصفير الذى يتوسط الزنازين

ــ محيى الدين مصطفى زاهر ..

والتفت اليه صامتا .. فعاد السجان يصيح :

ــ هات هدومك ، وتعال .. افراج !

وبهت محيى .. لم يصدق أذنيه ..

ثم أحس بقلبه يخفق بشدة كعصفور فوجىء بباب قفصه مفتوحا .. سيخرج الى الحرية .. الى الحياة .. الى بيته ..

وحاول أن يكتم فرحته وأن يخفيها عن زملائه ، حتى لايجرحهم بها .. ووجد نفسه محرجا ، لا يستطيع ان يبدى أسفه لمفارقة زملائه ، لأنه يريد الحرية .. ولا يستطيع أن يفرح بالحرية .. لأنه نالها وحده دون زملائه ..

ومرت فترة صمت بينه وبين زملائه ، ثم انطلق الزملاء مهللين « مبروك ياعم » ، « اوعى تنسانا » ، « نشوفك قريب باذن الله »

وكان فى تهليلهم رنة افتعال لا تخلو من حسد ..

وتقبل تهانى زملائه .. وقبلاتهم .. وجمع هدومه .. وصافح زملاءه واحدا واحدا ، وشد على يد عبد الحميد قائلا :

ــ الدور عليك يا ابو عبده ! ..

وخرج منطلقا ، ووقف أمام الكونستابل ، يملى البيانات التى يطلبها منه ..

وطلب منه الكونستابل ان يوقع على تعهده بعدم اشتغاله بالسياسة ..

وابتسم محيى ابتسامة خافتة .. انه لم يعد يستطيع أن يتعهد بعدم الاشتغال بالسياسة .. ان السياسة أصبحت فى رأسه وفى قلبه .. أصبحت فى دمه ، ولكنها لا تسمى « سياسة » ، انما تسمى وطنية

ووقع بامضائه على التعهـــد الذى قدم اليه ، وهو يعلم انه يتعهد كاذبا ..

وهم أن يتحرك ليخرج من السجن .. ففوجىء بباب السجن يفتح ، ويدخل منه اليوزباشى الدباغ وخلفه اثنان من الجنود يسوقون أمامهم طالبا شابا ..

وانحرف الدباغ الى غرفة المأمور دون أن يلمح يحيى ..

وساق الجنود الطالب المقبوض عليه الى غرفة الكونستابل ، ورفع الكونستابل راسه ، ثم عاد وخفضه وبدأ يسجل بيانات جديدة ، ثم صاح فى الجنود :

ــ حطوه فى نمرة « ٨ » اللى فضيت دلوقت ! !

وهز يحيى راسه ، دون أن يشعر بأسف على مصير السجين الجديد ..

انه يعلم الآن الاساليب .. !

ويعلم ان المعركة لن تهدأ ..

وخرج من السجن ..

الفصل بعد الأخير

ومرت السنين ..

ان البيت واحد من ملايين البيوت .. يبدو من بعيد بيتا هادئا ، طيبا ، ساذجا ، يقف الزمن على بابه ، فلا يتقدم ولا يتأخر .. بيت من ملايين البيوت التى تبدو من بعيد كأنها لا يمكن أن تكون مصانع للثورة ، أو مصانع للأبطال ..

والأب قد عادت حياته منتظمة رتيبة .. يحكمها « المنبه » الموضوع بجانب فراشه .. ولا يزال ينسج حياته ومستقبل أولاده بحرص ودأب وكثير من الحذر .. كل ما تغير فيه انه احتفظ بعادة قراءة الجريدة قبل أن يذهب الى عمله .. وانه أصبح يتذوق الحديث فى السياسة والتعليق على الانباء ويطيل فى هذا الحديث حتى تكونت له عادة البحث عن أصدقاء يستمعون له ويستمع لهم .. وكان يدعو هؤلاء الأصدقاء الى بيته ، ثم أصبح يذهب الى بيوتهم ، ثم تشجع وأصبح يتسلل فى بعض الأمسيات الى المقاهى بحثا عن هؤلاء الاصدقاء .. ثم تكونت له عادة الجلوس فى مقهى خاص ، تعود أن يستريح الى حديث رواده ، ويستريح الى أن يتحدث اليهم ..

وكان فى حديثه ينحاز دائما الى أحد الجانبين .. لقد اختار موقفه .. انه مع الناس وضد الحكومة .. ومع كل الناس ، وضد كل حكومة .. لم يعد يكفيه أن يقف بقلبه موقف المتفرج .. ولم يعد يكفيه أن يستعيض بذكريات ثورة ١٩ ، عن واقع الثورة التى يعيش فيها .. ان قلبه لا يتفرج الآن ، انما ينفعل .. وانفعاله لايتعدى مجرد الحديث ، ولا يصل الى أبعد من لسانه .. ولكنه ينفعل .. ويأمل .. يأمل أن تسقط هذه الحكومة ، وتسقط الحكومة التى تليها .. ثم التى تليها .. كل الحكومات يجب أن تسقط .. وأمله لا يتعدى سقوط الحكومات .. ثم

لا يريد شيئا بعد أن تسقط الحكومة الا أن تسقط الحكومة التى تليها .. أو هو لايدرى ماذا يريد .. لايدرى كيف يحل مشكلته ، ومشكلة الملايين .. ولا يدرى أين تنتهى هذه الثورة التى تعتمل فى صدره ..

وقد تغيرت النظرات فى عينيه .. أصبحت نظرات تحمل معنى السخط والامتعاض .. وأصبح كلما التقى بشاب أو طالب فى الجامعة نظر اليه كأمل كبير .. أمل فى تحقيق الثورة .. كأنه يبحث وراء كل شاب عن بطل جديد أو عن مظاهرة ..

وهذه النظرة الجديدة هى التى أصبح ينظر بها الى ابنه .. انه اكتشف أن ابنه لم يعد طفلا .. ولم يعد يمثل جيلا أقل احتمالا من الجيل الذى سبقه .. انه أصبح يمثل أملا .. أصبح يمثل مسئولية كاملة تشمل مصير البلد كله .. وقد أثبت ابنه أنه رجل يستطيع أن يتحمل المسئولية .. تحمل المسئولية عن العائلة كلها عندما دخل السجن .. وهو وزملاؤه يستطيعون أن يتحملوا مسئولية مصر كلها ..

وكان أمله فى ابنه يشوبه كثير من الخوف .. الخوف عليه .. ولكن هذا الخوف لم يعد يدفعه الى محاصرة ابنه والتضييق عليه ، انما كان يدفعه الى الرجاء .. رجاء ألا يتهور ابنه ، ولا يندفع ، وأن يسلم له

موضوع واحد كان يمنع نفسه عن الحديث فيه .. موضوع ابراهيم .. ان حذره الطبيعى يذكره بأن الأمر العسكرى الخاص بعقاب كل من يساعد ابراهيم على الهرب ، لا يزال قائما .. وهذا الحذر يجسم له خطورة الموقف الوطنى الذى اتخذه من ابراهيم، وما يمكن أن يترتب عليه من اضطهاد الحكومة له .. قد يفصل من عمله ، وقد يقبض عليه ، أو قد يقبض على محيى من جديد . انه حذر .. متشدد فى حذره .. وكلما جاء ذكر ابراهيم فى حديث أصدقائه ، سكت .. لا يقول شيئا .. لا يحيى حتى بطولة ابراهيم بكلمة .. كان الحديث عن بطولة ابراهيم هو حديث عن بطولة بيته .. وبطولة ابنه ، وبطولة ابنتيه ..

ولم يكن حديث ابراهيم يأتى ذكره حتى فى البيت ، الا فى كلمات خاطفة ، ثم يتعاون الجميع على بتر هذا الحديث كأنهم

يخشون أن تكون للجدران آذان .. أو كأنهم يخشون أن يثيروا ذكرى عزيزة يحرصون عليها فى صدورهم ويضنون بها على ألسنتهم .. وربما اتصل هذا الحديث عندما يخلو الأب الى زوجته فى غرفتهما .. ولكنه لا يتصل طويلا فيسكت عنه الاثنان .. ويستلقى الأب على ظهره يتنهد فى ارتياح ، كأنه يهنىء نفسه على قيامه بواجب كان يجب أن يقوم به .. وتتنهد الأم كأنها تترحم على روح الشهيد ..

والأم الطيبة .. عادت الى حياتها بين حجرات البيت ، وفى المطبخ .. لم تترك الحوادث فيها من اثر الا أنها أصبحت أكثر لهفة على ابنها .. لقد اكتشفت حقيقة كانت تجهلها ، وهى أن فى مصر سجونا ، وفى السجون تعذيب .. وان ابنها يمكن أن يدخل السجن . ويمكن ان يقتل كما قتل ابراهيم ..

ان مصر ليست هى سكان العمارة .. وليست هى هؤلاء الجيران الطيبين .. وليست هىأولياء الله الصالحين الذين تعودت أن تزور أضرحتهم بين الحين والحين .. وليست هى عم عوض البقال والمعلم فتيحة الجزار .. وليست هى هذا الجندى البرىء الذى يقف عند ناصية الشارع .. ان فى مصر قوما آخرين .. قوما لم تكن تعرفهم .. قوما يقتحمون بيوت الناس ، ويقبضون على الناس ، ويسجنون الناس ، ويعذبون الناس ، ويقتلون الناس ..

وهى تخاف على ابنها من هؤلاء القوم .. تودعه كل صباح وهى تقرأ حوله آيات من القرآن ، وتستقبله بفرحة كأنه رد اليها من العالم الآخر .. فاذا تأخر بعض الوقت عن موعده استبدت بها اللوعة ، وسرحت عينيها من خلال نظرة فزعة ، ترى بها الدنيا كلها ظلاما ، وصراخا ، ودماء .. وتكتم فزعها فى صدرها ، وتترك ما فى يدها من مهام البيت ، وتبحث عن ابنتيها لتجلس بينهما صامتة ، كأنها تحتمى بهما من وساوسها .. الى أن يعود محيى ، فترتد اليها الروح وتعود تطوف بين الحجرات وتستقر فى المطبخ ..

وقد عاشت فى هذه اللهفة طول هذه السنين .. لم تستطع أن تقاومها أو تخفف من حدتها .. حتى بدأت اللهفة تأكل من جسدها المكتنز ومن وجهها المبتسم دائما فأصيبت بضغط الدم ،

ثم أصيبت بمرض السكر .. فذوى جسمها ، وتهدل جلدها ، وتعبت ابتساماتها.. لم تعد ابتسامة اقبال ، بلأصبحت ابتسامة استسلام .. ولكنها ظلت صــابرة .. تطوف بحجرات البيت وتستقر فى المطبخ ، وهى تكتم آلامها ووساوسها حتى لا تزعج بها أحدا من أحبائها ..

وسامية ..

لقد تزوجت ..

تزوجت عبد الحميد ..

وقد نال عبد الحميد شهادة التوجيهية فى نفس العام الذى خرج فيه من السجن .. ثم انتسب طالبا فى كلية التجارة .. وظل فى نفس الوقت موظفا فى الشركة .. ولم ينقطع عن التردد على بيت عمه .. لقد أصبح يربطه بهذا البيت شىء أكبر من القرابة ، ويكاد يساوى حبه لسامية .. أصبح يربطه به سر مشترك وعذاب مشترك ، وذكرى مشتركة .. وأصبح محيى بالنسبة له أكثر من ابن عمه .. انه صديق .. انه رجل بجانبه.. انه فكرة وطنية يتبادلها معه .. لم يعد بينهما شك .. ولم تعد بينهما هذه الريبة التى كانت تثور فىصدر محيى تجاه ابن عمه .. ولا هذا الاستخفاف الذى يملأ صدر عبد الحميد تجاه محيى .. كلاهما آمن بالآخر .. ومناقشاتهما السياسية لا تهدأ أبدا .. والأب فرح بهما هما الاثنين .. لقد أصبح عبد الحميد قريبا الى قلبه .. لم يعد ولدا « بايظ » ولم يعد زواجه من سامية أمرا بعيد الاحتمال ..

ولكن عبد الحميد لا يفاتح عمه فى زواجه من سامية ، ولا يحاول أن يذكره بوعده .. لقد قرر بينه وبين نفسه ألا يتقدم مرة ثانية طالبا الزواج الا بعد أن ينال بكالوريوس التجارة . لقد آمن بالشهادات .. لم تعد ثقته فى ذكائه تكفيه ليطمئن الى انه يصلح زوجا لسامية .. وكل ما كان يرجوه هو الا يتقدم لها أحد قبله .. ولم يكن يدرى ما يفعله لو تقدم اليها شخص آخر .. ربما ثار ، ربما اختطفها ، ربما حطم حياته .. ولكنه لم يكن يفكر كثيرا فى هذا الاحتمال .. كان يحس فى أعماقه ان سامية له ، وانه أصبح يستحق سامية ..

واذا كان قد سكت فترة عن موضوع الزواج ، فان حبه لم يسكت .. كان حبا ثرثارا يتكلم فى هذه النظرات التى تطوف بينه وبين سامية ، وفى هذه الابتسامات التى يتبادلانها ، وفى هذه المشاحنات الصغيرة التى لا تنتهى .. وكان الحب يصرخ فى هذه الأوامر الصارمة التى يصدرها لابنة عمه .. لا ترتدى هـذا الثوب .. لا تكشفى عن ذراعيك .. لا تلبسى هذا الكعب العالي.. لا تضحكى هذه الضحكة العالية.. لا تمشي هذه المشية الخليعة.. أوامر لا تنتهى .. يفتعلها أحيانا افتعالا .. ويصـدرها باسم حقوقه كابن عم .. ولكنه لا يصدر مثلها لنوال !

وسامية تتلقى هذه الاوامر فرحة بها .. وقد يمر يوم أو يومان لا يصدر اليها امرا ، ولا يثير مشاحنة ، فتحس كأنه بعد عنها .. كأنه أقل حبا .. كأنه نسيها ..

كانت قد عادت له بكل ما كان لها فى طفولتها وصباها من سذاجة ، وثقة .. تنظر اليه كأنه انسان كبير جدا ذكى جدا .. يفهم من الحياة ما لا تفهمه وما لا تعرفه حتى أنها لتخاف الحياة أن تتخلى عنها ، وعادت بنفس الشعور الذى كان لها عندما كان زواجهما أمرا متعارفا عليه بين أفراد العائلة ، تطيعه ، وتنتظره ، وتخافه .. وتعيش على أمل الزفاف

ولم يسكت حديث الزواج طويلا .. أصبح همسا بين الأختين ، ثم أصبح همسا بين الأم والأب .. ولم يعد أحد يشك فى أن سامية راغبة فى الزواج من عبد الحميد ، ولم يعد أحد يعترض على زواج عبد الحميد من سامية ..

الى أن قالت الأم يوما لعبد الحميد :

ـ يابنى انتو حتفضلو مخطوبين كده فى السر .. ما خلاص بأه .. أنا عايزه أفرح ، وورى فرحتى للناس ..

وقال عبد الحميد والفرحة تملأ صدره :

ـ أنا كنت مستنى يا عمتى لما آخد الشهادة ..

وقالت تقاطعه :

ـ وماله يا اخويا .. على بال الخطبة وكتب الكتاب تكون خدت الشهادة باذن الله ..

وأعلنت الخطبة للناس ..

ومر عام ، وتم عقد القران ..

وعبد الحميد يقبل على دروسه ليحقق الزفاف ..

وهو فى خلال ذلك لم يهمل المبادىء الوطنية التى خرج بها من السجن .. وكانت العقدة النفسية التى ترقد فى عقله الباطن تدفعه الى التطرف فى وطنيته .. والى الاشتراك فى أعمال العنف .. كان يشترك فى المظاهرات.. ويطوف على دور الاحزاب يشترك فى نشاطها حينا الى أن يكفر بهذا الحزب فيبحث عن حزب آخر .. وكان اذا سمع بقنبلة ألقيت فى مكان ما أحس بالكمد لأنه لم يشترك فى القائها واذا رأى منشورات توزع دار يبحث عن موزعها ليشترك معه فى توزيعها .. كان يلقى بنفسه فى كل عمل وطنى يصادقه .. لم يلهه حبه ، ولا استعداده للزواج ، عن المغامرة بكيانه وحياته فى سبيل المبادىء التى آمن بها .. وفى سبيل التكفير عن خطيئته الوطنية .. ولكن وظيفته فى الشركة كانت تبعده عن محيط الطلبة .. وعن محيط الفئات التى تنوى الاعمال الفدائية ، وكان الملف الذى يحتفظ له به البوليس السياسى يسجل عليه ضعفه السابق ، فأعفاه البوليس السياسى من مراقبته ، وأبعده عن يده ..

وسامية بجانبه تخاف عليه من حماسته .. وتخاف عليه من السجن مرة أخرى ، وتتصوره بطلا وطنيا فتخاف عليه من مصير ابراهيم .. ولكن خوفها لم يمنعه من اندفاعه .. بل كان يتلذذ بخوفها ويزهو به ، فيزداد اندفاعا ..

الى أن نال الشهادة الجامعية ..

وتزوجا ..

وعاشا مع العائلة فى بيت واحد .. وبدأ عبد الحميد جهادا جديدا فى سبيل الحياة .. جهادا فى سبيل تكوين نفسه كرجل ناجح ، صالح ، رب عائلة ، يسير على مبادىء مرسومة يحدها احساس وطنى صادق ، ويدفعها ندم دفين على خطيئة سابقة ..

ونوال ..

لقد قضت عامين .. وكل ما بقى لها من الحياة ذكرى قصيرة لحب لا يموت .. ومصحف ذهبى تعلقه فى رقبتها يضم

ورقة عليها شهادة « لا اله الا الله » مكتوبة بخط ابراهيم .. هى كل ما تركه لها حبيبها قبل أن يرحل ..

وفى خلال هذين العامين كانت التجربة العنيفة قد صهرتها .. لم تعد هذه الفتاة المرحة الجريئة .. ولم تعد عيناها تومضان بهذا النشاط الضاحك .. ولم تعد تهتم كل هذا الاهتمام بثيابها .. ولم تعد تترك ضفيرتها مسدلة فوق كتفيها ، ولم تعد تطيل التحديق فى الصور التى تنشرها المجلات لتقتبس منها ثوبا ، أو عقصة شعر ..

أصبحت فتاة كبيرة .. كبرت مع التجربة .. وأصبح طابعها طابعا حزينا .. حزينة فى نظرات عينيها ، وحزينة فى ابتسامتها ، وحزينة فى تصرفاتها .. ولكن حزنها كان يبدو كأنه تعقل .. كأنه تزمت .. وأشاع حولها جوا من الاحترام ، أبوها يحترمها ولم يعد ينهرها ، ولا يعيب عليها تصرفاتها .. فلم يعد فى تصرفاتها ما يعاب.. وأمها ومحيى، وعبد الحميد ، وصديقاتها والجيران.. الكل يحترمها .. وسامية وحدها هى التى تعلم سر هذا التبدل الذى ألم بها ، وتسكت عنه ، وتحترمها كالآخرين، ولكنها ــ دون الآخرين ــ تحترم حزنها ، وفجيعتها ، وحبها ، وذكرياتها القصيرة

هذا الاحترام جعل العائلة كلها ، تقدر لنوال رأيها فيما يعرض من مشاكل .. لم تعد فى نظر العائلة أصغر افرادها ، بل أصبحت أعقلهم .. وأحست نوال بهذا الاحترام ، وهذا التقدير لرأيها ، فاتخذت منه عوضا عن فجيعتها .. وأصبحت تفكر كثيرا قبل أن تقول رأيها فى هذه المشاكل الصغيرة التى تعرض للعائلة .. ثم تعلن رأيها فى هدوء وروية ، كأنها زعيمة .. كأن البطل يعيش فى صدرها وينطق بلسانها .. كأن ابراهيم دائما معها !

الى أن جاء يوم ؛ كان عليها فيه أن تتخذ قرارا خطيرا ..

لقد تقدم لها طبيب شاب ، شقيق احدى صديقاتها ، يطلبها للزواج ..

كان عليها وحدها أن تقرر ..

ان أباها لم يجبرها على الزواج

وهى لا تحب هذا الشاب ..

انها لا تزال تعيش فى ذكرى حبها لابراهيم ..

ولكنها يجب أن تتزوج ..

ان الزواج مصير كل فتاة .. انه الوظيفة التى تعد لها كل فتاة والتى أعدها لها أبوها منذ ولدت ..

ليس من حقها أن تعيش عاطلة بلا وظيفة !!

وكيف تعيش .. أين ؟!

ان المجتمع يدفعها الى الزواج .. لا الى الحب .. والعائلة تنتظر لها أن تتزوج ، لا أن تحب !

وقررت أن تقبل هذا الزوج الطبيب !

قررت أن تقوم بوظيفتها .. أن تقوم بها على خير وجه .. وأن تكون زوجة صالحة ؟!

وتزوجت .. قبل أختها سامية !

وقبل الزفاف ، أخرجت قميص ابراهيم الذى كانت تحتفظ به فى دولابها .. وحملته بين يديها ، ونظرت اليه طويلا ، كأنها ترى بداخله صدر البطل .. ثم سارت به الى أخيها وفى عينيها دموع لا تنهمر ، وقالت فى صوت خفيض :

ــ ده قميص المرحوم ابرا ...

ولم تتم ذكر الاسم .. كأن قلبها سينطلق من فوق لسانها لو نطقت اسمه ..

ثم خرجت مسرعة ..

انها لن تدخل بيت زوجها ، وبين ثيابها قميص رجل آخر ..

ولكن المصحف الذهبى لا يزال معلقا فوق صدرها ، يضم الورقة التى تحمل خط ابراهيم .. كأنها لا تزال تنتظر لقاءه ، لتضع ورقته بجانب ورقتها ، وتتم شهادة « لا اله الا الله ، محمد رسول الله » !!

لعلها ان لم تلتق به فى الأرض .. تلتقى به فى السماء !

وعلى الارض ، عرف الناس عنها انها خير الزوجات .. وان زوجها أسعد الأزواج ..

وفى السماء .. أمل لا يعلمه الا الله
ومحيى ..
ان التفيير الكبير الذى ألم بتفكيره ، ألم أيضا بغرفته ..

أصبحت غرفته مزدحمة بالكتب .. كتب فوق المكتب ، وكتب ملقاة على الأرض ، وكتب فى دولابه ، وكتب فوق فراشه .. كتب قديمة ، وكتب حديثة .. وفى هذا البحر من الكتب ، تضيع كراسات المحاضرات وملازم المواد الدراسية المقررة فى كلية الحقوق

وكان محيى يقرأ .. يقرأ دائما .. وهو جالس الى مكتبه ، ثم وهو راقد ، ثم وهو يأكل .. انفتحت فى نفسه طاقة هائلة للقراءة .. طاقة لا تفرغ ولا تشبع .. وكان يظن انه يقرأ فى موضوع واحد .. ولكنه اكتشف أن كل المواضيع ، متعلقة بهذا الموضوع الواحد .. اكتشف انه لا يمكن أن يعرف بلده ويعرف شعبه ، الا اذا قرأ فى التاريخ وفى المذاهب ، وفى الدين ، وفى الأدب ، وفى الاقتصاد .. ولم يكن يقرأ للتسلية .. كان يقرأ ليفهم .. كان يقرأ وفى يده قلم رصاص ، يسجل به ملاحظاته على هوامش الكتب ، ثم لم تعد تكفيه الهوامش ، فكان يكتب ملاحظاته فى أوراق صغيرة يحتفظ بها بين صفحات كل كتاب ..

وعجزت ميزانيته الصغيرة عن ملاحقة نهمه للقراءة .. فبدأ يتردد على دار الكتب ، يمضى هناك ساعات طويلة يقرأ كل شىء ، حتى مجموعات الصحف القديمة .. ثم لم يعد يكفيه أن يقرأ بالعربية ، فبدأ يقرأ بالانجليزية .. أصبح يعيش كالفأر يقرض بعينيه كل كتاب وكل ورقة تقع بين يديه .. وكان يتلذذ وهو يقرض السطور بعينيه .. كان يحس انه يكبر عاما مع كل سطر .. ان آفاقا جديدة تتفتح أمامه .. ونتائج جديدة يصل اليها .. كأنه يجد فى كل كتاب حلا بسيطا لمشكلة حسابية عويصة ..

وقد كبر محيى فعلا .. كبرت شخصيته فى بيته ، وبين زملائه .. ولكن قراءاته الكثيرة جعلت منه انسانا نظريا يجرى بعقله وراء المثاليات ، ووراء النظريات ، ووراء المنطق المتحرر .. وظل بعيدا عن النشاط الوطنى العنيف .. لم يعرف عنه انه اشترك فى مظاهرة ، أو اشترك فى جمعية ، أو انضم لحزب .. انما عرف بين زملائه بوعيه ، وبحوثه .. ورغم ذلك فقد كان

لا يتقدم برأيه الا اذا سأله أحد فيه ؛ ولا يعرض بحثا الا اذا اضطر الى عرضه .. كان لا يزال حريصا .. حذرا .. كل هدفه فى الحياة أن يعيش اكثر ليقرأ أكثر ..

وهذه القراءات الكثيرة شغلته عن اصراره على أن يكون أول الخريجين فى دفعته .. لقد نجح بتفوق فى الامتحان ولكنه لم يكن الاول .. ولم يسع ليعين معيدا فى الجامعة ، بل قبل وظيفة فى احدى الادارات القضائية .. ثم استقال واشتغل فى مكتب أحد المحامين ، يدرس له القضايا ، ويعدها ، ويكره أن يذهب الى دور المحاكم ليترافع أمام القضاة .. وبين الحين والحين كان يكتب بحثا وطنيا مستفيضا .. يكتبه بأسلوب هادىء لا يحمل حماسة فى كلماته ، ولكن منطقه ينبض بالعنف .. عنف الفكرة ، وعنف الاتجاه الوطنى .. ثم يرسل هذا البحث الى احدى المجلات الوطنية .. لينشر بلا امضاء !

وصحا محيى ذات يوم .. فاذا الثورة تحققت .. حدثت ..

وأحس بقلبه يخفق فى صدره كأنه يزغرد .. وتابع الاحداث السريعة وابتسامة كبيرة تعلو شفتيه

أحس كأنه يتباهى بنفسه ..

أحس احساسا عميقا صادقا بأنه اشترك فى هذه الثورة .. اشترك فى صنعها .. هو وأبوه وأمه وسامية ونوال وعبدالحميد .. كل العائلة اشتركت فى صنع هذه الثورة .. اشتركوا فيها بالسخط الذى كان ينطلق من أعينهم .. وبالأحاديث التى كانوا يثيرونها حولهم .. وباتجاه تفكيرهم وآمالهم .. وبالخلق الوطنى .. وبالارادة التى تحملت العذاب والحرمان ..

هذه الثورة صنعتها عائلته ..

وربما كان هذا هو سر فرحه بها .. سر قلبه الذى يزغرد ، وسر ابتسامته التى تعلو شفتيه ..

وعندما رأى البطل الجديد ، أحس أنه يعرفه من زمان طويل .. أحس كأن له شيئا فيه .. كأنه اشترك فى صنعه .. انه ليس غريبا عليه .. انه قريب من قلبه .. قريب جدا من قلبه ..

نعم .. لقد اشترك فى صنع البطل .. أو ربما كان الأصح انه

اشترك فى صنع البطولة .. والبطولة ليست فردا واحدا يمكن أن يموت ، ولكنها قوة تتجدد فى أفراد متتابعين .. قوة لا يصنعها فرد ، ولكن تصنعها أمة وتجسدها فى فرد ، فاذا استشهد هذا الفرد أو انحرف ، جسدتها فى فرد آخر .. البطولة لا تموت أبدا ، ولا تنحرف أبدا .. ولم تمت بطولة ابراهيم ولا انحرفت.. ولم تمت بطولة سعد زغلول ، ولا مصطفى كامل ، ولا عرابى .. لم تمت يوما واحدا .. كانت بطولة حية دائما .. حية بحياة الشعب .. تتجسد فى الزعيم تلو الزعيم ..

واتسعت ابتسامة محيى ، وهو يصل بتفكيره الى هذا الحد ، كأنه اكتشف حلا بسيطا لمشكلة حسابية عويصة ..

وأدار رأسه عن الموكب الذى يسير فى وسط الشارع ، التفت الى الملايين التى تقف مهللة على الجانبين ..

كل هؤلاء اشتركوا معه فى صناعة الثورة .. صنعها الفلاحون من حرمانهم ، وصنعها العمال من كدحهم ، وصنعها الطلبة من وعيهم ، وصنعها الموظفون من سخطهم ، وصنعها التجار من أحلامهم .. صناعة احتاجت الى صبر طويل ، والى عناد ، والى اباء ، وصهرت فىالسجون والمعتقلات ، وتحت ضربات السياط.. وبوركت بالدم والروح على مدى أجيال

وسار محيى بين الملايين يقبل كل فرد فيها بعينيه .. يهنئه بثورته .. ثورة الملايين الذين يسكنون بيوتا هادئة ، ساذجة طيبة .. بيوتا لم يكن الانجليز ، ولا البوليس السياسى ، ولا الحكام ، يعتقدون أنها تصلح لتكون مصانع للثورات .. ومصانع للأبطال ..

وذاب محيى بين الملايين ..

طبع بمطابع
مؤسسة دار الهلال


Bibliotheca Alexandrina
0700777